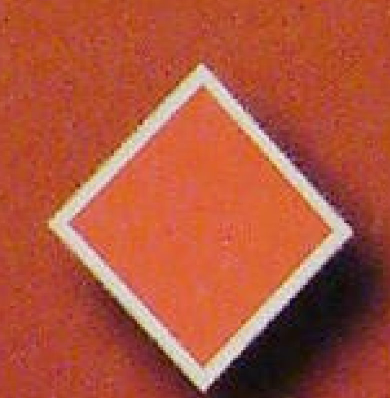
مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث ـ دبي



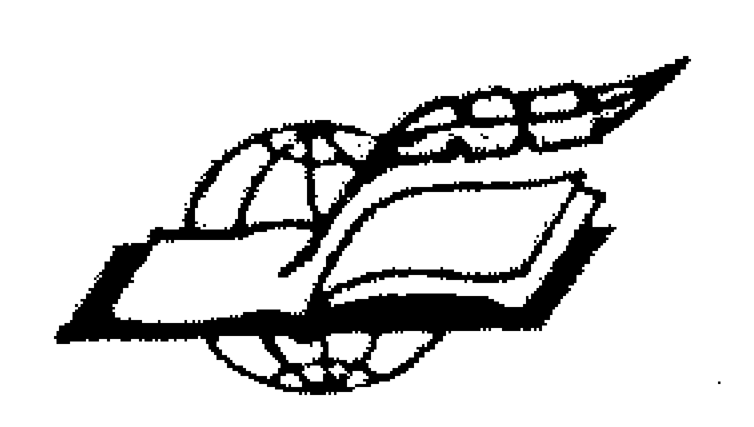
كتابات الرحالة والمبعوثين عن منطقة الخليج العربي عبر العصور

عرض ـ نقد ـ تحليل

إعداد وتقديم

الدكتور عبيد علي بن بطي





مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث – دبي

بالتعاون مع

جامعة الإمارات العربية المتحدة

العين

المجمع الثقافي

أبوظبي

ندوة

كتابات الرحالة والمبعوثين عن منطقة الخليج العربي عبر العصور

عرض – نقد – تحليل

٢٠ – ٢٢ ذو القعدة ١٤١٦ هـ

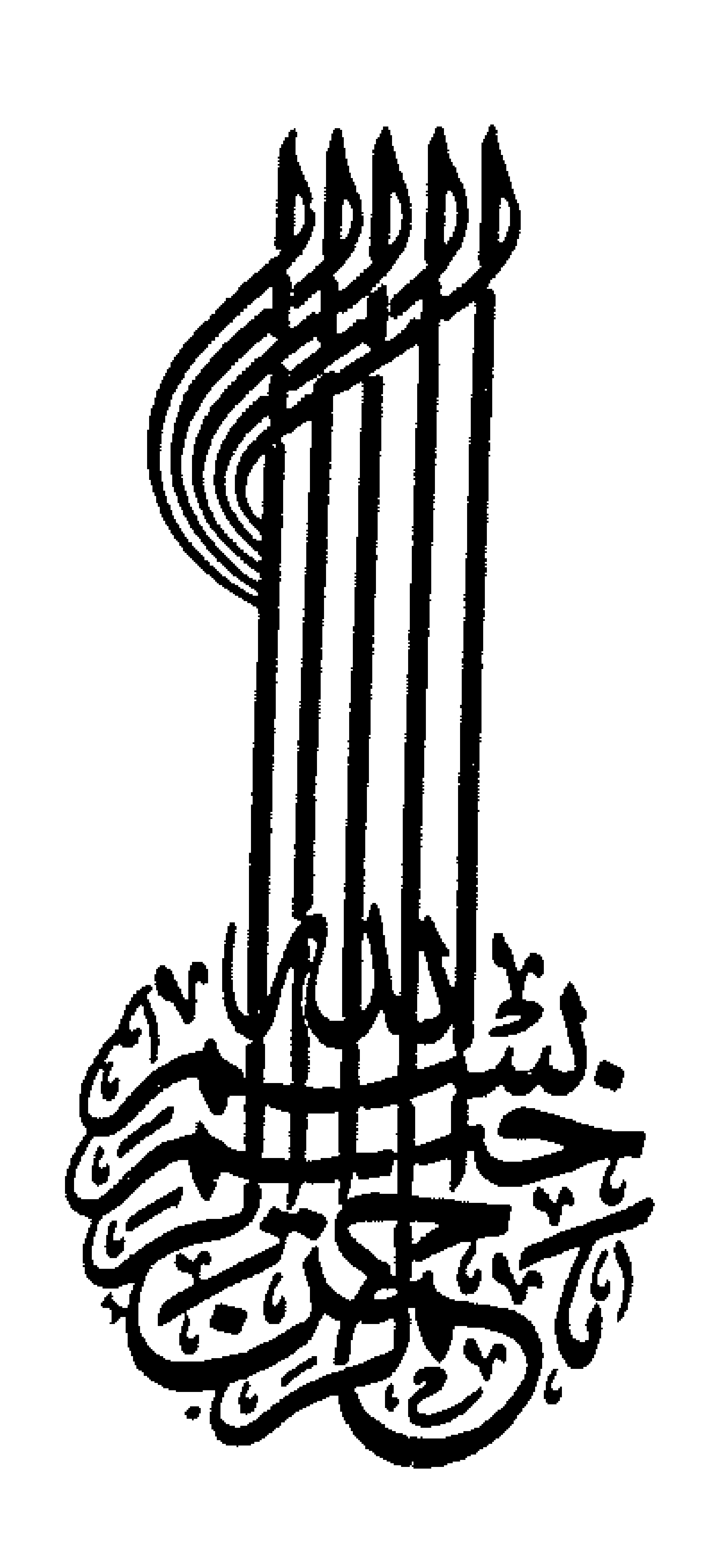
٨ – ١٠ أبريل ١٩٩٦ م

(الوقائع والبحوث التي ألقيت فيها)

إعداد وتقديم

الدكتور عبيد علي بن بطي

محاضرات الندوة جميعها تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تمثل بالضرورة رأي الجهات المنظمة


بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

كانت ندوة كتابات الرحالة والمبعوثين عن منطقة الخليج العربي تظاهرة ثقافية بارزة، لفتت أنظار المعنيين يوم أقامها مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بالتعاون مع جامعة الإمارات العربية المتحدة والمجمع الثقافي خلال ثلاثة أيام، بدأت في العشرين من ذي القعدة عام ١٤١٦هـ الموافق للثامن من أبريل / نيسان عام ١٩٩٦م، وأقيمت ضمن أبهاء غرفة التجارة والصناعة بدبي، وصاحبها معرض ضم نفائس كتب الرحالة الذين زاروا الجزيرة العربية والخليج إضافة إلى خرائطهم وبعض متعلقاتهم. وكان أبرز المعروضات قسمًا من مقتنيات مكتبة التراث العربي والإسلامي في الدوحة لسمو الشيخ حسن بن محمد بن علي آل ثاني التي أسهمت في هذه التظاهرة تطوعاً، إلى جانب المساهمين الآخرين، وهم مجلس ترويج التجارة والسياحة وشركة طيران الإمارات وغرفة التجارة والصناعة.

ولقد تميزت هذه الندوة بأمور عدة، كان من أهمها أنها جمعت باحثين متخصصين من أنحاء العالم عرباً وغير عرب، وقدمت معلومات وحقائق، واستنبطت نتائج علمية تاريخية تفيد الخليج، كما أبرزت مدى التعاون المثمر الذي تظاهر عليه عدد من المؤسسات الثقافية والعلمية والتجارية في الإمارات مما يعكس وعي القائمين عليها وحبهم للمعرفة إضافة إلى ظهور عاطفتهم الوطنية الصادقة.

كل ذلك أدى إلى نجاح هذه الندوة المفيدة، وبروزها على الوجه الأمثل على نحو خدم منطقة الخليج، وقدم كتاباً جديداً ومهماً في تاريخها.

ولما كان من بنود لجنة التوصيات نشر البحوث المقدمة فقد جاء هذا الكتاب تنفيذاً لتوجيهاتها وتتويجاً لأعمال الندوة.

نسأل الله التوفيق وتسديد الخطى لما فيه خدمة بلادنا الغالية.

مقدمة

عندما تبنى المركز فكرة إقامة ندوة تاريخية خاصة بمنطقة الخليج، وبشكل أكثر تحديدًا كتابة تاريخ الخليج في ضوء ما جاء في كتابات الرحالة وتقارير المبعوثين الأجانب بوصفه مصدراً من مصادر تاريخ المنطقة السياسي والاقتصادي والاجتماعي، كان السؤال الأول أو الإشكالية الأولى التي تمحور حولها موضوع الندوة هو إلى أي مدى يمكن اعتماد هذه الكتابات والتقارير السياسية على أنها وثائق تاريخية يؤخذ بها ضمن المصادر التوثيقية، ومراجع يعتمد عليها في كتابة تاريخ منطقة الخليج العربي.

إن إشكالية الاستدلال على المصادر التي يمكن اعتمادها وثائق تاريخية هي دائمًا محل جدل واسع، ويزداد هذا الجدل حدة عندما تكون هذه المصادر انطباعات فردية وتحليلات شخصية آتية من أشخاص لهم توجهات معينة، ومدارس فكرية ومعتقدات روحية مختلفة عن البقعة التي يكتبون عنها أو الأحداث التي يحللونها أو العادات والتقاليد التي يدرسونها.

كتابات الرحالة بالذات تصطبغ دائمًا «بالانطباعية» الخالية أحيانًا من التحليل الموضوعي، وأحيانًا أخرى تكون سطحية في تفحصها للأمور. فالمجتمعات البشرية تختلف في العادات والتقاليد والمعتقد والثقافة والفعل وردات الفعل، وتكون هذه العادات والتقاليد والمعتقدات والثقافات عرضة للتشويه من قِبل الزائر القادم من ثقافة أخرى «مختلفة»، والغربية منها خاصة، فمنذ القرن الخامس عشر ومع بدايات التدخل الأوربي في منطقة الخليج العربي بكل قوته وعنفوانه في مقابل ضعف سلطة الدولة الإسلامية في منطقة الخليج بالذات، بدأت أوربا الاستعمارية تنظر إلى الشرق بغطرسة وتعال ويطمع في خيراته، ونتيجة لهذا جاءت أساطيل الغرب الأوربي لتستكشف «أسرار» الشرق، إضافة إلى الجحافل والجيوش المدججة بالسلاح، كما جاء أفراد ومجموعات صغيرة أيضاً لتستكشف هي الأخرى ذلك الشرق الغامض وتلك الصورة التي

ارتسمت في مخيلة الرجل الغربي، فالشرق يمثل الآخر البعيد والمجهول، كما كان أيضًا العدو الذي أوقف جحافل الصليبيين وردهم خاسرين.

منذ ذلك الحين والشرق – والإسلامي بالذات – يظهر في أغلب الكتابات مشوهًا، والرجل الشرقي لديهم إما بدوي لا يعرف معنى للحضارة، وإما جاهل متخلف يتصرف بوحشية. وهذه الصورة هي التي تتكرر في جميع الكتابات الغربية، اللهم إلا النذر اليسير الذي كتب بشيء من التجرد.

وما أن أصبح الشرق منفتحًا على الغرب، حتى بدأ الكثير من محبي المغامرة والمبشرين والجواسيس يرتحلون في بلدان الشرق العربي والإسلامي، طمعًا في ثروة أو سعيًا إلى نشر الديانة المسيحية تمهيدًا لغزو أوربي واستكشاف طرق التجارة والملاحة البحرية.

وجاءت هذه الندوة لتلقي الضوء على هؤلاء الرحالين والمبعوثين الذين زاروا المنطقة منذ العصور الإسلامية الأولى حتى عام ١٩٦٠م، من خلال دراسة متعمقة لكتابات هؤلاء وتقاريرهم ومشاهداتهم ووثائقهم، وذلك في ظل المعطيات التي تجسدت آنذاك في واقع المنطقة الاقتصادي والاجتماعي والديني والسياسي.

كما أنها تقف على القيمة العلمية لهذه الكتابات والتقارير والوثائق بوصفها مصدرًا تاريخيًا للمنطقة. محاولين بذلك تقديم رؤية نقدية شاملة لهذه الكتابات، وبيان أثرها لدى القارئ العربي والأوربي، ونتائجها السلبية والإيجابية.

قسمت محاور الندوة إلى عدد من المراحل، الأولى مرحلة العصور الإسلامية، تلتها المرحلة البرتغالية، ثم مرحلة التنافس الأوربي، فالمرحلة البريطانية، ثم مرحلة البحث عن النفط، وأخيرًا تقويم لكتابات الرحالة والمبعوثين، واستخلاص لنتائجها.

وقد تناولت بحوث الندوة مجموعة من القضايا الأساسية والمهمة المتعلقة بتاريخ منطقة الخليج، كما بحثت في أهمية المصادر التاريخية

والأرشيفات المختلفة في عدد من البلدان الأوربية، على اعتبار أن الوثائق التاريخية في هذه الأرشيفات تُعَد مصدرًا أولياً ومهماً لكتابة تاريخ المنطقة مع تعدد الآراء حول هذا الموضوع.

يشير الدكتور «إيكيوس» في بحثه عن الجغرافيين العرب إلى أهمية بحوثهم وكتاباتهم وما تضمنته من معرفة عميقة في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية؛ ناهيك عن تقديمهم للمعلومات الجغرافية لمنطقة الخليج العربي في العصور الوسطى.

أما الدكتور «بن صراي» فقد تناول موضوع الرحالة «بنيامين التطيلي» ومشاهداته ووصفه للأوضاع الاقتصادية والطقوس الدينية وخاصة لدى الجاليات اليهودية التي زارها التطيلي في أثناء ترحاله في المنطقة العربية.

وينتقل بنا الدكتور «محمد رزوق» إلى الحقبة البرتغالية، حيث يتطرق إلى طبيعة الآثار الاجتماعية والاقتصادية للوجود البرتغالي في المنطقة،ويركز الباحث بشكل أساسي على العنصر الديني ودوره في التوضع البرتغالي في الدولة الإسلامية، وذلك بهدف تحطيم دور الوسيط التجاري بين أوربا وآسيا من جهة، وأوربا وإفريقيا من جهة أخرى.

ورغم أن الاحتلال البرتغالي أو السيطرة البرتغالية استمرت ما يزيد عن قرن ونصف من الزمان، إلا أن المقاومة الوطنية لم تهدأ طيلة تلك المدة واستطاعت في النهاية أن تقلص من السيطرة البرتغالية لتجد نفسها تواجه قوى أوربية أخرى تتنافس كذلك للسيطرة على هذه المنطقة الاستراتيجية من العالم.

وما أن انتهت الهيمنة البرتغالية على المحيط الهندي والخليج العربي في منتصف القرن السابع عشر، حتى بدأ الهولنديون ثم تبعهم الفرنسيون وأخيرًا وليس بآخر البريطانيون، وأخذوا يبحثون لأنفسهم عن موضع قدم ،وعن محطات تجارية ينطلقون منها إلى الهند وما وراء الهند ويشير الدكتور «كالڤن آلن» من خلال بحثه لمجموعة من كتابات الرحالة والمبعوثين إلى

شروح للحالة الاقتصادية والاجتماعية التي كانت سائدة في المنطقة تلك الفترة ويخلص إلى أن المنطقة بدأت تشهد حركة استقطاب لمختلف الجاليات العربية وغير العربية والمسلمة وغير المسلمة لما أصبحت تشكله من مركز تجاري ومَحط أنظار القوى الكبرى حيث بدأت تتشكل حولها استراتيجيات الدول الأوربية المتنافسة للحصول على مستعمرات أو مرافق تجارية في منطقة الشرق الأوسط والأقصى.

هذا الموقع الاستراتيجي لمنطقة الخليج وزيادة التنافس الدولي في المنطقة دفع بالكثير من الرحالة والمبعوثين والمغامرين والجواسيس إلى ارتياد الصعاب لإرضاء رغبة ما في نفوسهم، فقد كثرت الكتابات، وزادت مجموعة الوثائق والمشاهدات خلال فترة القرن الثامن عشر والتاسع عشر إضافة إلى وثائق الأرشيف البريطاني والفرنسي، مشيرًا إلى أن هذه الوثائق بالإضافة إلى أهمية المعلومات التجارية والاقتصادية فيها، فإنها أيضًا مصدر مهم للأوضاع السياسية، وخاصة فيما يتصل بالتكوينات القبلية المحلية والتحالفات السياسية بين القبائل المختلفة، التي شهد القرن الثامن عشر بدايات تكوين هذه التحالفات القبلية وعلى الأخص في منطقة الإمارات.

ولكن ما كان للمنافسة الأوربية أن تستمر طويلاً؛ فقد شهدت الإمبراطورية الهولندية ضموراً في قوتها السياسية والعسكرية. أما القوة الفرنسية فقد تهاوت هي الأخرى من الداخل نتيجة لقيام الثورة الفرنسية وما لحقها من حروب أبعدت فرنسا عن الساحة الدولية وحصرتها في حروب داخلية في أوربا فقط. هذا الانحسار الفرنسي الهولندي ترك بريطانيا بلا منافس – ولو إلى حين – مما يمكن تسمية القرن التاسع عشر بفترة الانفراد البريطاني وخاصة في منطقة الخليج العربي، فقد شهد هذا القرن تدفق الرحالة والمبعوثين البريطانيين إلى المنطقة بشكل كبير ومستمر، كما زاد معها تدفق المبشرين المسيحيين إذ كان للمنطقة قيمة دينية عند هؤلاء المبشرين، كما يرى الدكتور شعبان بوصفها مهد المعتقدات اليهودية والمسيحية.

كما تشكل في الوقت نفسه «الآخر» أو المنافس للديانة اليهودية والمسيحية ألا وهو الإسلام، لذا فإن الرحالة المبشرين جاءوا إلى المنطقة وهم يحملون في مخيلتهم صورة مشوهة ويعدون العدة لتغيير مصير المنطقة ومستقبلها. ويكشف الدكتور شعبان في بحثه عن هذه المخططات التبشيرية والنوايا السيئة التي كان يحملها هؤلاء المبشرون للعرب والمسلمين.

وإذا كان للمبشرين دور في المخططات الاستعمارية فان للجواسيس دوراً أكبر في تلك المخططات؛ فقد بعثت الدول بجواسيسها لاستكشاف الأوضاع في المنطقة ودراسة وضع الخصم أو المنافس. ولا أدل على ذلك من الرحالة الألماني «الكونت ماكس فون أوبنهايهم»، الذي تتبعت الدكتورة «هيرد بي» سيرته ورحلاته، فقد أثار هذا الرحالة شكوك البريطانيين بأن رحلته تدل على محاولة ألمانيا تقويض السيادة البريطانية في منطقة الخليج.

أما « وليم فاسموس » الدبلوماسي الألماني في إيران فقد حاول على مدار ثلاث سنوات أن يتصدى للمد العسكري والدبلوماسي البريطاني في جنوب إيران في الفترة ما بين عامي ١٩١٤ و ١٩١٨. وقد تطرقت الباحثة بشكل موسع لدراسة هاتين الظاهرتين باعتمادها على أسلوب المقارنة بين الوثائق البريطانية والوثائق الألمانية.

وما أن أوشك القرن التاسع عشر على الأفول، حتى بدأت المنطقة تستعر مرة أخرى بالمنافسة الدولية، فقد بدأ الألمان في الدخول إلى المنطقة بحثاً عن موضع قدم، خاصة وأن ألمانيا جاءت متأخرة لتنافس على بناء المستعمرات. فما كان لألمانيا وهي قوة كبرى على الساحة الأوروبية أن تبقى بدون مستعمرات تعزز من قوتها الاقتصادية، كما هو الحال بالنسبة لمستعمرات الدول الأوروبية الأخرى.

إلى جانب الألمان كانت روسيا تسعى للبحث عن المياه الدافئة، فكان منطقياً أن تتجه إلى الخليج عن طريق فارس. في الوقت نفسه حاول الفرنسيون العودة إلى الخليج لاستعادة بعض نفوذهم السابق. أما العثمانيون

فكانوا هم أيضاً يدفعون قواتهم باتجاه الخليج، تبعهم بعد ذلك وفي أوائل القرن العشرين السعوديون، وتلاهم الأمريكيون.

هذا التنافس الكبير للسيطرة على مياه الخليج ومنطقته زادت حدته مع اكتشاف النفط في إيران أولاً ثم البحرين ومنطقة الإحساء في السعودية والكويت، وإضافة إلى أهمية المنطقة الاقتصادية، جاءت خطوط الطيران لتضيف أهمية استراتيجية للمنطقة بصفتها محطة وصل بين الشرق والغرب.

تصاعد أهمية المنطقة الاقتصادية والاستراتيجية دفع بفئات مختلفة من المبشرين والرحالة ومبعوثي شركات النفط الذين جاءوا لتوقيع امتيازات التنقيب عن النفط وخاصة البريطانيون الذين عدّوا المنطقة مركزاً لنفوذهم وموقعاً لحماية مصالحهم، فهم الأجدر بالبقاء والاستمرار، لكن ذلك لم يكن بالأمر الهين، فقد بدأت الولايات المتحدة تتدخل في شؤون المنطقة بمبعوثيها ومبشريها وممثلي شركات نفطها.

وتشير ورقة الدكتورة «فاطمة الصائغ» حول كتابات المُنَصرين، إلى توافد أعداد كبيرة من المبشرين الأمريكيين إلى المنطقة بهدف جعل منطقة الإمارات بالذات نقطة ارتكاز لأعمال التنصير لمنطقة وسط شبه الجزيرة العربية. وكان لهؤلاء المُنصرين كتابات وتقارير تصف الحياة الاجتماعية والاقتصادية السائدة في منطقة الخليج آنذاك. وهذه المعلومات مصدراً لشركات النفط الأمريكية، سلطت الضوء على أهمية تلك البلدان بوصفها منطقة حيوية للاقتصاد الأمريكي.

أما الدكتور «حسام مهدي» فيتطرق بشكل مباشر إلى الأثر المهم لمن يسميهم «برجال النفط»، إذ ارتبطت تقاريرهم وكتاباتهم بمرحلة مهمة من تاريخ المنطقة التي شهدت تحولات عديدة نتيجة لتأثرها المباشر بالأحداث الدولية التي وقعت في بدايات القرن العشرين. مثل انهيار الإمبراطورية العثمانية وقيام الحرب العالمية الأولى والثانية، وقد تقلص – في مناطق عدة

من العالم – النفوذ الاستعماري. في الوقت الذي ازدادت فيه أهمية المنطقة في دائرة الاقتصاد والاستراتيجيات العالمية.

واعتمد الدكتور « مهدي » في بحثه على سجلات شركة النفط البريطانية في جامعة واروِيك. وسلط الضوء على خصائص هذه الكتابات مقارنة بكتابات الرحالة التقليديين عن منطقة الخليج العربية.

لقد أغنت أوراق الندوة مادة البحث بشكل كبير واستشفّت هذه الدراسات أهمية كتابات الرحالة وتقارير المبعوثين بوصفها مادة تاريخية يستفاد منها لدراسة المنطقة من نواحٍ مختلفة اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية، في إطار تاريخ هذه المنطقة وفي التفاعلات التي أنتجت الوضع الحالي. وتأتي ورقة الأستاذ «ووكر» لتعطي صورةً شاملة لأحداث القرن العشرين، وتطورات الأوضاع في منطقة الإمارات تحديداً. و«ووكر» كان مبعوثاً بريطانيا للمنطقة عاصر الكثير من أحداثها بل شارك في صنع بعضها وكان له دور فعال خاصة في فترة الخمسينات والستينات من هذا القرن.

وقد اعتمد في ورقته على بعض الوثائق البريطانية، أما أغلب ما جاء فيها فهو تجربة شخصية أضفت لمسات واقعية على تحليلاته الشخصية. وبغضّ النظر عن النظرة الشخصية التي اتسمت بها الورقة إلا أنها تعطي خلفية تاريخية ممتازة لوضع المنطقة الحالي.

وكان لا بد في الخاتمة من تقويم كتابات الرحالة والمبعوثين واستخلاص نتائجها.

فجاءت ورقتا الدكتور «إ يكلمان » للإشارة إلى أن كتابات الرحالة هي شكل من أشكال الكشوفات، وإعادة صياغة العالم بما يتلاءم والمكتشف. لذا يفترض بالذين يكتبون من خلال انطباعاتهم الشخصية أنها عادة ما تفتقد ملاحظاتهم الدقة، كما وأن الكثير من التقارير هي سطحية بالنسبة للبعد الثقافي والتاريخي للمنطقة موضوع الدراسة وتختلط فيها النظرة والمفاهيم الغربية بالواقع الذي هو – في أحيانٍ كثيرة – مختلف كلية عن الواقع الآخر الذي انطلق منه الرحالة أو المبعوث أو المبشر.

أما الدكتور «حسين فهيم» فيوجه نظر القارىء إلى أهمية هذه الكتابات – أي أدب الرحلات – إذ يقول بأن هذه الكتابات أثبتت أنها مصدر مفيد للمعرفة، وخاصة لدى علماء الأثنوجرافيا، ونظرة جديدة لصورة كل مجتمع مقارنة بالمجتمعات الأخرى ضرورة في عالم تطورت فيه قنوات الاتصال بشكل كبير وأصبح التواصل بين المجتمعات سهلاً للغاية، وبالتالي إدراك الناس للاختلافات الموجودة بينها جديرة بالاهتمام وهنا تأتي أهمية أدب الرحلات، كما يقول الدكتور «حسين محمد فهيم».

وأخيراً تبقى هذه الندوة والدراسات التي قدمت فيها بداية لندوات قادمة في هذا المضمار. ندوات تهدف بشكل أساسي إلى تسليط الضوء على تاريخ منطقة الخليج وتراثها، وإلى إعادة استكشاف الماضي في ظل المعطيات الحديثة رغبة من مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث في دفع عجلة البحث العلمي قدماً على سبيل مستقبل أفضل في عالمنا العربي والإسلامي وثقافة أوسع لخدمة البشرية .

﴿وقلِ اعْمَلُوا فَسَيرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ورسُولُه والمُؤمنُون﴾

صدق الله العظيم.

د. عبيد علي بن بطي

مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث – دبي

١٠ شعبان ١٤١٧ هـ

٢١ ديسمبر ١٩٩٦ م

كلمة الأستاذ

عارف عمر الخاجة

عريف الحفل

ها نحن أولاء نجتمع مجدداً في مناسبة جديدة وموضوع جديد على أرض دولة الإمارات العربية المتحدة التي تتحفنا كلّ يوم بجديدها في كل شيء، نجتمع لنفتح للماضي صدورنا ونستمع إلى وقع الكلام على القلب ووقع القلب على الكلام، نجتمع لنفتح أدراج نيسان ونفتِّش فيها عن أوراق الحلم والحكم والعلم، ونطلقها في سماء الروح كعصافير فجر عيد الميلاد، نجتمع لنهيئ للسنابل حقولها وللخيول مضاميرها وللأنغام أوتارها وللأودية جداولها وللأشعار حبيباتها وللرياح اتجاهاتها وللمراكب بحارها وللتاريخ فضاءه.

نجتمع في أم المسرات والمهرجانات والأسمار والإرادة والحياة والفرح، في دانة الدنيا (دبيّ) بأوراق قديمة جديدة، ومحبة قديمة جديدة، وفكر قديم جديد، لنطل على أنفسنا والعالم بأغنية قديمة جديدة، شارك في صياغة كلماتها الرحالة والمبعوثون لهذه الأرض التي شاءت الأقدار أن تكون محط أنظار العالم، وشارك في ألحانها الصدى المرتد من قلوب البرتغاليين والهولنديين والفرنسيين والإنجليز وصاغ صوتها الأبدي السؤال الباحث عن الحقيقة.

نحييكم في مدينة دبي ونرحب بكم أجمل ترحيب في ندوة (كتابات الرحالة والمبعوثين عن منطقة الخليج العربي عبر العصور) التي ينظمها مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بالتعاون مع جامعة الإمارات العربية المتحدة والمُجَمَّعِ الثقافي بأبوظبي، وأهدافها :

أولاً – إلقاء الضوء على الرحالة والمبعوثين الذين زاروا المنطقة منذ العصور الإسلامية الأولى حتى عام ١٩٦٠ من خلال كتبهم وتقاريرهم ومشاهداتهم ووثائقهم.

ثانيًا – معاينة واقع المنطقة الاجتماعي والاقتصادي والديني والسياسي.

ثالثًا – الوقوف على القيمة العلمية لهذه الكتابات والتقارير والوثائق بوصفها مصدرًا تاريخيًا للمنطقة.

رابعًا – تقديم رؤية نقدية شاملة لهذه الكتابات وبيان أثرها لدى القارئ العربي والأوربي ونتائجها السلبية والإيجابية.

فأهلاً وسهلاً بكم، متمنين أن تحقق ندوتنا الغرض الذي أقيمت من أجله، وأن نخرج بحصيلة وافرة من الحقائق والأهداف والاتجاهات المتعلقة بالرحلات.

كلمة سمو الشيخ حشر بن مكتوم آل مكتوم
ممثل راعي الحفل
صاحب السمو الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم

أصحاب المعالي والسعادة

الحضور الكرام

يسعدني في البداية أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى سمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس الدولة وإلى أخيه سمو الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي راعي هذا الحفل وكذلك إخوانهما حكّام الإمارات على ما يقدمونه من عناية واهتمام لرفع المستوى الحضاري والثقافي والفكري في هذا البلد الطيب.

ويسرني أن أرحب بكم جميعاً في بلدكم محاضرين ومعقبين ومشاركين وعلماء، يا من تركتم أوطانكم وأعمالكم وأهلكم وأتيتم للمشاركة في أعمال ندوة «كتابات الرحالة والمبعوثين عن منطقة الخليج عبر العصور». أتيتم بدافع العلم والمعرفة يحدوكم الأمل للوصول إلى الحقيقة التاريخية لشعوب هذه المنطقة بعد أن أزلتم عنها غبار زمن سحيق من خلال أبحاثكم ووثائقكم وتحليلاتكم.

أيها الحفل الكريم . إن شعب الخليج العربي كغيره من الشعوب له تاريخه الذي اكتسبه على مر السنين وعايشته الأجيال التي خلت بعاداتها وتقاليدها وموروثها الفكري واحتكت مع الشعوب المجاورة فأثرت وتأثرت. وقد شهدت هذه المنطقة بحكم طبيعتها وجغرافيتها أحداثاً تاريخية مهمة خلال القرون الثلاثة الماضية. وكان للرحالة والمكتشفين والمبعوثين أثر مهم في المصير السياسي لها، مع وجود اختلاف في البواعث والاتجاهات وتفاوت في وجهات النظر.

والآن جاء دور العلماء والباحثين ليقدموا الصورة الصحيحة لأجيال الحاضر والمستقبل من خلال منهجية علمية وبحث متجرد.

إنني آمل كل الأمل أن يتوصل مؤتمركم إلى ما يصبو إليه وتكلل أعماله بالنجاح، وأشكر القائمين على هذا العمل والمنظمين له مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي وجامعة الإمارات العربية المتحدة في العين والمجمع الثقافي في أبوظبي.

وإنها لبادرة طيبة أن تتضافر الجهود وتتعاون المؤسسات الوطنية لإقامة عمل علمي متميز.

وأشكر كذلك المؤسسات والأفراد الذين ساهموا في إنجاح هذا العمل الرائع.

أهلاً بكم جميعاً أيها الضيوف الكرام في مدينتكم دبي مدينة العلم والعمل.

كلمة السيد

جمعة الماجد

عن المنظمين

سمو الشيخ حشر بن مكتوم آل مكتوم ممثل راعي الحفل صاحب السمو الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم ..

أصحاب المعالي والسعادة

السادة الحضور الكرام

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

جميل أن يتوقف الإنسان لحظة للبحث عن الذات وهو في خضم الأحداث والمستجدات اليومية والتطلعات المستقبلية، ومن المفيد أن ينظر السائق إلى المرآة الخلفية نظرات واعية ليتحقق من سلامة وصوله إلى غايته.

لقد كتب الله على شعوب الخليج أن تعيش ردحاً من الزمن ضمن ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية قاسية. كانت طبيعة المنطقة أحد العوامل المؤثرة في تلك الظروف، وتعاقبت عليها أطماع الدول الكبرى لأهمية موقعها الحيوي في الفترة الأولى، ولضخامة ثرواتها الطبيعية في الفترة الأخيرة، وفي كلتا الفترتين شبعت المنطقة درساً وتمحيصاً من قبل العلماء والمكتشفين والرحالة والمبعوثين الدبلوماسيين والعسكريين، ورسمت السياسات النهائية لها منذ مطلع هذا القرن الحالي إلى منتصفه، وما كان ذلك ليتم من خلال المؤسسات العسكرية فحسب بل سبقتها جهود حثيثة قام بها الجغرافيون والمؤرخون وعلماء الإنسان والطبيعة بشتى مجالاتها. وأخيراً جاء دور المؤسسات ليبنوا قراراتهم على تلك المعلومات والكتابات بما تحمله من غث وثمين وحقائق وأباطيل، واجتمعت تلك الجهود كلها لتشكل واقعنا الحالي الذي نعيشه ومستقبلنا الذي ننتظره.

أقول لكم هذا الكلام في عصر انتقلت فيه أدوات الحروب من الثكنات العسكرية إلى المؤسسات البحثية والجامعات.

فأنتم يا معشر العلماء والباحثين يقع عليكم جزء كبير من المسؤولية التاريخية لهذه الشعوب. ومن خلال هذا المؤتمر – الذي بدأ الإعداد له منذ أكثر من سنتين – تستطيعون أن تنظروا في أعمال من سبقكم من علماء ومؤرخين ورحالة ومبعوثين وواضعي قرارات وصانعي تاريخ فتناقشوها بموضوعية وتجرد، وتضعوا أيديكم على الأخطاء التي كان لها الأثر السلبي على هذه المنطقة محلياً ودولياً وتبرزوا الجوانب المشرقة التي ينعكس أثرها الإيجابي على مستقبل هذه البلاد التي يريد أهلها أن ينعموا بالأمن والاستقرار والسلام، كما ينعمون بالرفاهية والرخاء، بعد أن عانوا كثيراً من ويلات الماضي.

ولا أريد أن أدخل في تفاصيل عملكم فأنتم أخبر به.

أشكر لكم جهودكم المخلصة وتحملكم عناء السفر والحضور وإعطاءكم جزءاً من وقتكم الثمين لإثراء الندوة التي أتمنى لها النجاح.

وأنتم يا أبناء هذا البلد الطيب وإخواني في الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية من العلماء والمؤرخين والمتخصصين عليكم تُعقد آمال الأمة بالبحث والدراسات الوثائقية والميدانية وعليكم تقع مسؤولية تقديم أعمالكم وأبحاثكم الجادة لصانعي القرار لتكون ركيزة مساندة.

أتوجه بالشكر إلى صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس الدولة..

وإلى أخيه صاحب السمو الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي.

وإلى إخوانهما حكّام الإمارات على عنايتهم الدائمة بنا ورعايتهم لنا وتشجيعهم إيانا.

كما أشكر من ساعدنا في تنظيم هذه الندوة؛ جامعة الإمارات

العربية المتحدة وعلى رأسها سمو الشيخ نهيان بن مبارك آل نهيان وزير التعليم العالي ورئيس الجامعة، والمجمع الثقافي وعلى رأسه سعادة الأخ أحمد محمد السويدي.

ويسعدني أيضاً أن أتوجه بالشكر لسمو الشيخ حسن بن محمد آل ثاني الذي تقدّم بمجموعته النفيسة النادرة من الكتب والخرائط للمشاركة بها في المعرض المصاحب للندوة.

والشكر الطيب كذلك إلى المؤسسات التي ساهمت معنا لإقامة هذه الندوة.

- غرفة تجارة وصناعة دبي وقد أتاحت لنا هذا المكان مع جميع الخدمات والتسهيلات اللازمة.

- المجلس الأعلى لترويج السياحة والتجارة في دبي.

- شركة طيران الإمارات.

الشكر لكم جميعاً أيها الحضور الكرام.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كلمة معالي الدكتور

علي بن محمد التويجري

المدير العام لمكتب التربية العربي لدول الخليج

سمو الشيخ حشر بن مكتوم آل مكتوم ممثل راعي الحفل صاحب السمو الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم

سعادة أخي الكريم الأستاذ جمعة الماجد - رئيس المركز

أصحاب السعادة البُحّاث المساهمين

السيدات والسادة الحضور

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد

الحمد لله ، الذي غرس في نفوسنا محبة الحق، والتطلع إلى العلم، وجعل لنا من ديننا دافعاً على طلبه، والسعي إليه، ودعا إليه قرآننا، ورفعه رسولنا إلى مرتبة الفريضة، والحمد لله، الذي وفر لنا في بلادنا من يرعى العلم، ويفتح له أبواباً ويعلي له بيوتاً، وأعطانا من حكامنا وقياداتنا وفضلائنا من يبذل الجهد والمال لدعم البحث والدرس وتشجيع العلم ورواده.

عندما نرحل من الرياض إلى دبي، وعلى الرغم من أنها رحلة عرفناها وألفناها مراراً، فإننا نحس دائماً عندما نقوم بها أننا في رحلة من رحلات الطلب التي كانت أسلوباً محبباً معروفاً لدى علمائنا العرب القدامى لطلب العلم ولقاء الشيوخ والأخذ عنهم.

وعندما يكون هدفنا ومحط رحالنا هو مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، فإن هذا يكرّس رحلتنا للعلم وطلبه، ويجعلنا نثق أننا سنلتقي بعدد من خيرة الأساتذة والبحاث الذين سنأخذ عنهم الكثير، والذين سيقدمون لنا

من علمهم وخبرتهم ما نعود به محملين بذخيرة غالية من العلم والمعرفة، ودراسة التاريخ وتعرّف دروسه. والمركز الذي نشأ منذ ما لا يزيد عن خمس سنوات، بتمويل منشئه وجهوده وبتخصيص أوقاف دائمة له، يبعث في نفوسنا تجارب تراثنا العربي الإسلامي في خدمة العلم والعلماء، وتقدم سراتنا من أولي الفضل لتقديم أموالهم وجهودهم وجعلها مظلة للعلم ومصدراً للدرس، إيماناً منهم بما يمليه عليهم دينهم وشريعتهم وسنة رسولهم من تشجيع للعلم ورعاية لأصحابه.

ولقد علمتنا تجربتنا في مكتب التربية العربي لدول الخليج أن نجد دائماً لدى دولة الإمارات العربية المتحدة هذا الدعم الدائم المستمر لتجارب التعليم والبحث ولإقامة مراكزه وبناء مؤسساته. وها نحن نعرف في كل حين مدى ما يقدمه قادة الدولة وعلى رأسهم صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان وإخوانه الشيوخ حكام الإمارات، من رعاية للعلم ومراكزه، ودعم للتجارب الريادية التي تفتح آفاق البحث والعلم لشعب الإمارات العربية المتحدة، وللمحافظة على أسبقيتها في تجارب الوحدة وخدمة أهداف الأمة العربية الإسلامية.

ولقد عرفنا مع ندوتنا هذه أن مركز جمعة الماجد، قد تلقى هدية كريمة من صاحب السمو الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة، رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، الذي أهدى المركز أرضاً لتكون مقراً دائماً له. وهكذا سيصبح للمركز عن قريب بإذن الله بناء دائم يُعدّ مَعْلَماً حضارياً بارزاً يتميز بالكثير من الميزات التشكيلية ويتسع لأكثر من مليون مرجع للبحث والدراسة إلى جانب العديد من الأوعية الثقافية الأخرى.

وهكذا تتلاحق مَكرُمات الدولة وحكامها والفضلاء من مواطنيها ويتسع نطاقها ويتنوع ليشمل العديد من مجالات البحث والدراسة مستهدفة دائماً النهوض بثقافة منطقتنا الخليجية وتعميم قيمة العلم وفائدته.

وندوتكم هذه، على تخصصها، ودقة موضوعاتها ومحاورها، هي في

الأساس زيادة في التعريف بتاريخنا وكشف مصادره العربية والأجنبية، وتقديم دروس التاريخ إلى أجيالنا في صورة علمية دقيقة تكشف الحقائق، وتفضح الدعاوى الزائفة التي عممها أصحاب المصالح والمطامع في تاريخنا البعيد والقريب.

إن الندوة تمثل في حد ذاتها عملاً علمياً ضخماً، يدرس أعمال الرحالة والمبعوثين الذين زاروا المنطقة منذ العصور الإسلامية الأولى حتى عام ١٩٦٠ م. وقد استتبع ذلك متابعة غير مسبوقة جابت معظم مراكز التوثيق العالمية في عواصم العالم من بومباي إلى لندن ومن باريس إلى الآستانة، وتفحصت آلافاً من الوثائق والتقارير والمخطوطات التي اختلط فيها الحق بالزيف، والواقع بالخرافة، والادعاء بالحقيقة والصواب.

إنني أذكر هنا كلمة صادقة وإن كانت جارحة يختتم بها الباحث المؤرخ الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي أحد كتبه التي تعالج جانباً من جوانب الندوة إذ يقول: «فالقصة إذن واحدة من قصص الغدر السياسي، والاتفاقيات المشكوك فيها، والاتهامات الزائفة والقهر والتهديد والمقاومة»، وعلى الرغم من أن المؤلف يتحدث هنا بالتحديد عن الاحتلال البريطاني لعدن إلا أن الدرس ينسحب على معظم أعمال الرحالة والمكتشفين والمبشرين الذين كانوا يخدمون أغراضهم الاقتصادية والاستعمارية والدينية. وكان علينا دائماً أن ننتظر حتى نجتمع في مركز جمعة الماجد لنكشف الحقيقة.

ولقد اجتمع لدينا في ندوتنا هذه عدد من الباحثين البارزين الذين سيهتدون بالحقيقة، ويهدوننا إليها، والذين سيصححون الأحكام والآراء ويضعون أمامنا الوقائع التي تعتمد على الوثائق والمصادر الأولى بعد دراستها وتمحيصها.

لقد قلت في مطلع حديثي إن رحلاتنا لدبي هي دائماً بمثابة رحلات طلب، وهي كذلك، مما يجعلنا نشكر بكل تقدير مركز جمعة الماجد ومنشئه، الدرس العلمي الواسع لجانب من جوانب تاريخنا، نتعلم منه الكثير لمواجهة الحاضر وبناء المستقبل.

وفقكم الله ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ، ،

كلمة معالي الشيخ

عبد الله بن خالد آل خليفة

الأمين العام لمراكز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية

ألقاها الدكتور علي أبا حسين نائب الأمين العام ومدير مركز الوثائق التاريخية

في البحرين

إن تاريخ الأمم رهين بتراثها ومن لا تراث له لا تاريخ له، ومنطقتنا ذات تراث مجيد ملأ خزائن الكتب بالمخطوطات والوثائق المنتشرة في العالم، وقد بادرت دول المنطقة إلى جمع الوثائق والمخطوطات أو تصويرها وجمع الخرائط والصور القديمة، ثم خطت خطوة مباركة حين أسست مراكز كان من أهدافها البحث عن الوثائق والمخطوطات ذات الصلة بتاريخ منطقة الخليج العربي والجزيرة العربية وتصويرها وترجمتها وإصدار الفهارس والقوائم الببليوغرافية لمحتوياتها وما لبثت تلك المراكز حتى اجتمعت تحت مظلة واحدة هي (الأمانة العامة لمراكز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية) منذ عشرين عاماً وهي تعمل لجمع الوثائق وصورها من البلاد ذات الصلة بتاريخ المنطقة وترجمتها وإصدار دليل ببليوغرافي موحد لمحتويات المراكز بغية تبادل الوثائق والفهارس فيما بينها.

ولما كان العصر الحديث يشهد تطوراً تكنولوجياً في مجال الأرشيفات فقد التحقت المراكز بالفرع الإقليمي العربي للإرشيف الدولي للاستفادة من خبراته في المجال الأرشيفي.

وكان لسياسة الانفتاح التي تنهجها بعض الدول التي تحوي الوثائق والتي تحكي تاريخ منطقتنا الخليجية أثر كبير في السعي لتصويرها وإيداعها

في مراكزها وقد اشتركت المراكز الأعضاء في مشروع رائد وموفق وهو البحث عن (الوثائق العثمانية) التي تلقي الضوء على تاريخ المنطقة الخليجية وتترجمها ترجمة موجزة.

ومن دولة الإمارات العربية المتحدة وفي عام ١٩٨٦ م بدأ مركز الوثائق والدراسات في أبوظبي بعرض ما توصل إليه حول تحقيق المشروع فتبنته الأمانة العامة وسعت إلى تحقيقه على أعلى المستويات سواء في ذلك الدول المتمتعة بالعضوية التي شجعت مشكورة فكرة المشروع مادياً ومعنوياً وتمّ تعيين الباحثين واليوم تسلمت الأمانة العامة صوراً لأكثر من أحد عشر ألف وثيقة عثمانية وترجمتها ترجمة موجزة وتباشر أولاً بأول تصوير نسخ منها توزعها للمراكز الأعضاء. وإن نجاح هذا المشروع دفع بالأمانة العامة لتبني مشروع آخر لتصوير (الوثائق في الهند).

واليوم حين تفتحت مصادر (الأرشيفات الروسية) والتي تقدر عددها في موسكو وحدها بنحو مليونين ونصف المليون وثيقة للفترة من القرن الثامن عشر إلى بداية القرن العشرين. من هذا المنطلق وحرصاً من أعضاء الأمانة العامة على تنشيط الجانب العلمي المتعلق بتاريخ المنطقة فقد سارعت الأمانة العامة لوضع مشروع يهدف إلى معرفة ما حوته تلك الأرشيفات في موسكو وسانت بطرسبرج والأرشيف القيصري وغيرها من وثائق تتعلق بتاريخ الخليج والجزيرة العربية فقررت في مارس من العام الماضي عقد ندوة تاريخية تحت عنوان (العلاقات التاريخية بين روسيا ودول مجلس التعاون منذ بداية القرن الثامن عشر حتى منتصف القرن العشرين) ولتحقيق ذلك فقد كلفت الأمانة العامة لجنة من قبل مديري وممثلي المراكز للاجتماع في البحرين حول عقد الندوة فاجتمعت اللجنة في مايو ووضعت محاور للندوة تتلخص في: الوثائق الروسية وما كتبه الرحالة والحجاج والتجار والملاحين الروس عن المنطقة، ثم العلاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية والدبلوماسية بدول المنطقة، وباشرت الأمانة بالاتصال (بالمستشرقين

الروس فقط) ليكتبوا بحوثاً موثقة مصادرها الأرشيفات الروسية وسوف يشهد قسم الوثائق والأبحاث ومركز الوثائق والدراسات الإنسانية بجامعة قطر اجتماع الأمانة العامة الدوري ويصاحبه قيام الندوة التاريخية عن العلاقات بين روسيا ودول مجلس التعاون في نوفمبر القادم إن شاء الله.

إن ما قامت به الأمانة العامة من إنجازات محدودة، لكنها عملية - وأوكد أنها قرارات وتوصيات عملية - قدم إلى الباحثين وطلاب العلم مساعدات جليلة. وشهدت منطقتنا حركة نشيطة لإعادة كتابة تاريخها على أساس علمي موضوعي يستند على الوثائق فتخلصت مما داخلها أو شابها أو دخل عليها من معلومات خاطئة لتضيف جديداً لسجل التاريخ بعد أن تصحح مفاهيم أو نتائج كانت في حاجة إلى تصحيح ولتحقيق ذلك فقد خطت خطوة أخرى حين أصدرت (الدوريات الخليجية) التي قدمت الكثير من البحوث الأكاديمية الموثقة حول تاريخ منطقة الخليج العربي والجزيرة العربية وأخذت مكانها في مكتبات المعاهد والجامعات العربية والأجنبية فصححت كثيراً من الأخطاء.

ثم اشتركت الأمانة العامة في إصدار كتاب سنوي تشترك فيه المراكز الأعضاء في الأمانة حيث يقدم كل مركز بحثاً باسمه ليطبع في كتاب موحد يعبّر عن روح التعاون وعمق الصلات العلمية بين الأعضاء، وقد عقدت الأمانة العامة اجتماعها السنوي في دول أخرى سواء عربية أو أجنبية للتعريف بمراكزنا والاطلاع على أنشطتها وآخر إنتاجاتها العلمية، ويصاحب كل اجتماع معرض للكتب يهدى للجهة التي تستضيف الاجتماع.

وختاماً فإن ابن النديم يقول: «إن النفوس تشرئب إلى الإيجاز في العبارات وترتاح إلى العرض المقصود دون التطويل في المقدمات» ولكن هدفنا إعطاء فكرة عامة عن نشاط أمانتنا داعين الله أن يوفق أخوتنا مدراء المراكز الأعضاء لإنجاز المزيد من العطاء. وأحيي صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس الدولة على دعمه المتواصل

وصاحب السمو الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم حاكم دبي على متابعته لمسيرتنا والأخ السيد جمعة الماجد رئيس المركز على اهتمامه بحفظ التراث وتيسير الانتفاع منه خدمة للباحثين فهو الإنسان الذي نذر نفسه وماله لخدمتهم وما هذه الندوة التي تقام إلا دليل ساطع وأكيد على وفاء هذا الرجل لأمته ولبلده وللأجيال التي سوف تأتي وهي شهادة سامقة علوّ هذا الصرح الثقافي الكبير الذي أقامه في دبي خدمة للثقافة والتراث بارك الله بكم وبأمثالكم، وإلى مزيد من العطاء والتقدم.

كلمة السيد

عبد العزيز عبيد

ممثل منظمة اليونسكو

صاحب السمو راعي الحفل

سعادة جمعة الماجد

حضرات الأساتذة الباحثين

أيها السادة والسيدات

يطيب لي بادىء ذي بدء أن أتقدّم إليكم بأطيب التحية وفائق التقدير أصالة عن نفسي ونيابة عن منظمة اليونسكو ومديرها العام الأستاذ فدريكو مايور الذي حالت التزامات سبق أن ارتبط بها دون أن يحضر بنفسه هذا الحفل البهيج ويؤكد لكم عن تقديره لما يبذله مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث من عمل رائد لخدمة الباحثين والمثقفين ودعم الحياة الثقافية وإحياء التراث. وإننا لنعتز بأواصر التعاون القائم بيننا ونعمل جهدنا على تقويتها وترسيخها. ومن أوجه هذا التعاون مشاركتنا وإن كانت مساهمة متواضعة في إعداد الدراسات الأولية والمسابقة المعمارية الدولية الخاصة بالبناء الدائم للمركز الذي سيكون إن شاء الله معلماً حضارياً متميزاً يأوي مكتبة عامة للبحث ستكون قطباً ثقافياً نادر المثيل.

واسمحوا لي أن أعبر لكم شخصياً عن عميق امتناني لدعوتكم لي لأحضر هذه الندوة عن «كتابات الرحالة والمبعوثين عن منطقة الخليج عبر العصور» المنعقدة بالتعاون مع المجمع الثقافي بأبوظبي وجامعة الإمارات العربية المتحدة بعد أن حصل لي شرف المشاركة في الندوة التي أقامها المركز بالتعاون مع المجمع الثقافي بأبوظبي منذ ستة أشهر حول «تاريخ الطباعة العربية» والتي كانت ندوة علمية ناجحة ومثالاً لحسن التنظيم ولطف الرعاية.

وقد ألقت الضوء على جوانب عديدة اكتنفت ظروف ولادة الحرف العربي المطبوع ثم انتشاره شرقاً وغرباً ووقفت على مواطن أوائل المطبوعات العربية وما تستدعيه اليوم من حصر ودرس ونشر. وقد تتبعنا باليونسكو أعمال هذه الندوة بكامل الاهتمام لما لها من وثيق الصلة ببرنامج «ذاكرة العالم» الذي سأشير إليه بعد حين.

إن موضوع ندوتكم هذه حول «كتابات الرحالة والمبعوثين عن منطقة الخليج العربي عبر العصور» لهو في نفس الوقت موضوع شيق مثير متعدد الجوانب والاهتمامات. فهو يجمع بين قضايا التراث والتاريخ والجغرافية والأدب. يربط بين الماضي والحاضر والمستقبل ويُعزز نظرة جديدة إلى الثقافة ما فتئت اليونسكو تدعو إليها وهي نظرة تربط الثقافة مع مجمل الأنشطة البشرية وتجعل منها عاملاً أساسياً لنجاح الخطط الإنمائية.

إن الذاكرة منطلق أساسي للإبداع، ويصدق هذا القول على الأفراد وعلى الشعوب معاً إذ إن الجميع يستقون من تراثهم – الطبيعي والثقافي، المادي وغير المادي – معالم ذاتيتهم ومصادر إلهامهم، ولهذا السبب وضع الميثاق التأسيسي لليونسكو على عاتق هذه المنظمة مسؤولية متميزة في مجال «صون وحماية التراث العالمي من الكتب والأعمال الفنية وغيرها من الآثار التي لها أهميتها التاريخية أو العلمية».

أليس أدبُ الرحلة وكتابات الرحالة وشهاداتهم بمختلف أنواعها ومشاربها جُزءاً من هذا التراث ؟ بل أليست هذه الآثار وهي تحدثنا عن «صورة الأرض» وعن «المسالك والممالك» وعن الحجّ والأماكن المقدسة وعن الزيارات والجوامع والمدارس والزّوايا وعن «غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» وعن «آثار البلاد وأخبار العباد» وعن طباع الناس وعاداتهم تارةً بأسلوب وصفي دقيق، ومرّةً بأسلوب قصصيّ مشوّق، وأحياناً بضمير المتكلّم وأسلوب السيرة الذاتية، أليست هذه الآثار كنوزاً وذخائر ينبغي صونها والوقوف على قيمتها ونشرها والاعتناء بها وإحياؤها حتى تكون من حوافز الإلهام للإبداع المعاصر.

ولعل أهم مشاريع اليونسكو وبرامجها ذات الصلة المباشرة بندوتكم هذه هي برامج إحياء التراث والنهضة بالثقافات الحيّة بما في ذلك صون التراث الثقافي والطبيعي وإحياؤه وحماية الممتلكات الثقافية ودعم صناعة الكتاب والنشر والصناعات الثقافية الأخرى.

ومن المشاريع الجديدة في هذا الصدد مشروع «بيت الحكمة» الذي يرمي إلى التعريف على نطاق واسع بمساهمة العرب والمسلمين في تطوير العلوم والفنون والآداب وانتشارها في العالم وتصحيح بعض الآراء المسبقة التي ما زالت عالقة ببعض الأذهان وذلك باعتماد حملة إعلامية واسعة مركزة على الشباب المُثقف في مختلف بلدان العالم.

كما أنّ من أنشطة منظمة اليونسكو المتصلة بموضوع الندوة تجدر الإشارة إلى الدراسة الشاملة لطرق تجارة الحرير التي ساهمت فيها عدة دول عربية أخصّ بالذكر منها سلطنة عُمان وقد سخّر السلطان قابوس سفينته «فلك السلامة» لهذه المبادرة وبالخصوص لدراسة الطرق التجارية لتجارة الحرير.

وبودّي أن أختم هذه الكلمة بالإشارة إلى برنامج «ذاكرة العالم» وهو برنامج يرمي إلى صون التراث الوثائقي العالمي بما فيه من مخطوطات وكتب نادرة وأفلام وتساجيل سمعية وغيرها وإلى حفظ هذا التراث وإتاحة الانتفاع به وتعميق الوعي بأهميته. ومن المشاريع التي تمّ إنجازها في إطار «ذاكرة العالم» نكتفي بالإشارة إلى مشروع صيانة مخطوطات صنعاء وقد صدر مؤخراً قرص CD-ROM يعرض مجموعة من المخطوطات النادرة ويستعرض تاريخ الخط العربي منذ بداياته الأولى حتى الآن بالاستعانة بنماذج من القطع القرآنية التي تمّ اكتشافها بالجامع الكبير بصنعاء.

ويحتوي هذا القرص على عروض وشروح باللغة العربية والفرنسية والإنجليزية وقد تمّ تنفيذ هذا المشروع بالتعاون بين منظمة اليونسكو والهيئة العامة للآثار والمتاحف والمخطوطات باليمن والمركز الإقليمي لتكنولوجية المعلومات بالقاهرة ونأمل مواصلة هذا العمل لتصوير العديد من المخطوطات

العربية الأخرى والتعريف بها وجعلها في متناول الباحثين. ولا يسعني في هذا الصدد إلا أن أنوّه بالمجهود الضخم الذي يقوم به مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث لاقتناء المخطوطات وصونها وحفظها والتعريف بها وإتاحة الاستفادة بها لجمهور الباحثين. وأؤكد من جديد على حرصنا على ترسيخ علاقات التعاون بيننا في هذا المجال.

أرجو في الختام لكل المشاركين في هذه الندوة إقامة طيّبة بهذا البلد الأمين والتوفيق في إبراز خصائص كتابات الرحالة والمبعوثين الذين زاروا المنطقة عبر التاريخ والوقوف على قيمتها والتعريف بها لدى القارىء العربي والأجنبي إحياء لتراثنا وتنشيطاً لحوار الثقافات وتقاربها.

والله ولي التوفيق.

كلمة سعادة

سعود عبد العزيز البابطين

عن الهيئات المشاركة

أيها الأخوة الأفاضل

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

باسم الزملاء ممثلي الجهات الثقافية المشاركة في هذا الملتقى الثقافي المتميز أتوجه بالتهنئة القلبية الخالصة لمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث على بدء أعمال هذه الندوة الهامة داعين المولى القدير أن يشمل برعايته عملنا هذا وأن يجعله خالصاً لوجهه تعالى ويحتسبه في ميزان أعمال العم الفاضل السيد جمعة الماجد.

إن اختيارنا لهذه المهمة تشريف لنا من قبل الأخوة في اللجنة التحضيرية للندوة فشكراً لهم أن أتاحوا لنا هذه الفرصة الثمينة للتحدث أمامكم ممثلين عن الجهات الثقافية المشاركة ..

إن الموضوع الذي تبحثه هذه الندوة موضوع دقيق وخطير ومثير وهو بحاجة لجلاء .. وإننا نتوقع من هذه الندوة الحسنة التنظيم والإعداد أن تضيف جديداً في هذا الباب.

لقد كثرت الكتابات حول هذه المنطقة منذ القرن الخامس عشر من قبل الرحالة والمكتشفين من مختلف الأجناس والشعوب وتمّ التركيز على الرحالة الغربيين ونتساءل : ألا يوجد رحالة عرب وشرقيون قد اتجهوا لهذه المنطقة ودونوا بعض المذكرات عنها ؟ ثم ألا توجد أعمال روائية وقصصية وشعرية تناولت هذه المنطقة أو رجالاتها وأوضاعها الاجتماعية .. إننا نتطلع للأبحاث والدراسات التي ستقدم لهذه الندوة والتي من المؤكد سيكون فيها ما يشفي الغليل ويروي الظمأ في هذا الموضوع الشيق ..

إن الصرح الثقافي الذي يحتضن هذه التظاهرة المهمة والذي أنشأه العم الفاضل جمعة الماجد، يؤكد حقيقة ثابتة هي أن الخير موجود والنبل موجود وأن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولادة .. تعطي في كل آن نخبة من أولي العزم ممن يرخصون المال في سبيل الأهداف العظيمة لأوطانهم وأمتهم وفي سبيل المثل العليا التي يؤمنون بها .. فحيا الله العم جمعة الماجد ومركز جمعة الماجد للثقافة والتراث فهو من الأسس المتينة التي تسعى بشكل حثيث من أجل رفعة أمتنا وأوطاننا ومنطقتنا لكي تأخذ مكانها اللائق بها بين الأمم ... ونذكر بالتقدير جهود إخوانه من أبناء أمتنا العربية الإسلامية الذين أنشأوا مؤسسات ومراكز مماثلة..

أيها السادة الأفاضل .. بالنيابة عن الجهات التي نمثلها وبالأصالة عن نفسي أتوجه بالشكر الجزيل للعم الفاضل جمعة الماجد على كرم الضيافة وحسن الاستقبال .. والشكر لكم جميعاً على حسن الإصغاء.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

كلمة سمو الشيخ

حسن بن محمد بن علي آل ثاني

عن المساهمين

سعادة الوالد السيد جمعة الماجد الموقر

أصحاب السعادة الوزراء والسفراء الكرام

حضرات الضيوف العلماء الأفاضل

الإخوة والأخوات الحضور

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ،

إنه لمن دواعي السعادة والسرور، أن أكون بينكم هنا، في رحاب ندوتكم الموقرة، بين كوكبةٍ من صفوة العلماء والباحثين من أهل الفكر والعلم، ولأنني هنا أيضاً في رحاب إمارة شقيقة وعزيزة، استطاعت أن تتبوأ مكانةً مرموقةً بين شقيقاتها في دولة الإمارات العربية المتحدة التي نعتز بها أيّما اعتزاز.

فمنذ قديم الزمان تربطنا بأشقائنا في دبي علاقاتُ أخوةٍ وتعاونٍ وثيق، وصلت إلى ما يقارب الوحدة بين الشقيقتين قبل أن تُطرح فكرة الوحدة في المنطقة، وهي سابقةٌ في تاريخ العلاقات الخليجية. ويكفي أن أذكر هنا أن العملة النقدية التي كنا نتداولها في البلدين كانت موحدة ومكتوبٌ عليها «عملة قطر ودبي»، وهو ما يعكس بشكلٍ عام الثوابت الاقتصادية والتاريخية والاجتماعية التي كانت ولا زالت تربط بين شعبينا.

من هذا المنطلق تأتي المشاركةُ في هذه الندوة الموقرة.

كما أنني أكنُ لسعادة السيد جمعة الماجد كل اعتزازٍ وتقدير، وأقدرُ جهودهُ القيّمة في خدمة الثقافة والتراث. وهو التوجه الذي يجمعنا معاً في توأمة ثقافية، أشبه بتلك التوأمة الطبيعية التي تربط بين بلدينا في كافة

الأوجه، التي من أجلها لم أتردد في المشاركة بقسم من مكتبتي، ما كان له أن يخرج من حدود قطر إلا للعزيزة دبي.

أما أنتم أيها الأخوة الأفاضل من العلماء والباحثين فإنني أرجو لكم ولندوتكم كل التوفيق، خاصةً وأن موضوعها يتصلُ بشكل مباشر بتاريخنا وواقعنا المشترك الذي يجبُ أن نوليه كل اهتمام، وذلك بتوثيقه توثيقاً علمياً. وإنني على ثقةٍ من أن ما ستقدمَونه من بحوثٍ ودراساتٍ قيِّمة، سيكون له فائدة عظيمة في هذا المجال.

وأنتهز هذه المناسبة لأدعوكم للاطلاع على جانب من كتابات الرحالة والمبعوثين الذين زاروا المنطقة خلال القرون الأربعة الماضية، وذلك من خلال مجموعة مختارة من قسم كبير في المكتبة التي نؤسس لها منذ عشر سنوات في قطر.

ولا أخفي عليكم أننا اكتشفنا – خلال تجميع كتب هذا القسم – مئات المصادر التي لم تكن شائعة بين المؤرخين على الرغم من أهميتها، وهو ما يعكس إجمالاً المكانة التاريخية التي شغلتها المنطقة في التراث الفكري الإنساني من ناحية وأهمية تعميق هذه المكانة من خلال ندوتكم هذه من ناحية أخرى.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أشكر الأخوة الذين ساهموا في لجان الإعداد والتنظيم. واسمحوا لي أن أخصَ بالشكر الأخ الدكتور عبيد بن بطي رئيس اللجنة التحضيرية للندوة الذي بذلَ جهداً محموداً في ترتيب مشاركتنا في المعرض المقام ضمن فعاليات هذه الندوة التي نتمنى لها كل توفيق وسداد..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المحور الأول

مرحلة العصور الاسلامية حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي

- عرض لأعمال الرحالة والجغرافيين والعرب والمسلمين المتاحة للباحثين وتصويرها للوضع الاقتصادي والاجتماعي للمنطقة

دينيزيوس ألبرتوس إيكيوس

- منطقة الخليج العربي في رحلة بنيامين التطيلي

حمد محمد جمعة بن صراي

- منطقة الخليج بين ابن بطوطة وماركوبولو

عبد الهادي التازي

عرض لأعمال الرحالة والجغرافيين والعرب والمسلمين المتاحة للباحثين وتصويرها للوضع الاقتصادي والاجتماعي للمنطقة

دينيزيوس ألبرتوس إيكيوس

دكتوراه فلسفة في اللغة العربية وآدابها (جامعة تورنتو)

رئيس تحرير مجلة المساق (دولية للدراسات الإسلامية والعربية في حوض البحر المتوسط)

كندي من مواليد ١٩٤٥

الوظائف :

عضو في عدد من المؤسسات الثقافية العالية :

الجمعية الأسيوية الكلية

جمعية هالكويت

جمعية تشجيع الدراسات البيزنطية

جمعية الدراسات الصليبية والغرب اللاتيني

جمعية هنري سويت للدراسات الشرق أوسطية

جمعية دراسات الشرق الأوسط في أمريكا الشمالية

من نتاجه :

«أعمال أدبية عربية كمصدر وثائقي للمصطلحات التقنية للمواد الثقافية» (برلين ١٩٨٤).

«دراسة اللغة العربية في مالطا ما بين ١٦٣٢ – ١٩١٥» (١٩٩٠)

«اللغة العربية في صقلية» (لندن ١٩٩٥)

وله أعمال أخرى شارك في تأليفها إضافة إلى توفره حالياً على عدد من الدراسات.

مقدمة

أخذت في الاعتبار لدى تقويمي لأعمال الجغرافيين والرحالة المنتمين إلى القرون الوسطى، مسألتين أساسيتين، هما : إلى أي حد ينبغي أن نعُدّ المعلومات الواردة في هذه الأعمال مما يمكن الاعتماد عليه.. وما مدى الدقة والوضوح في استخدام المؤلفين للغة.. فقد تأثر كتابنا هؤلاء المنتمين إلى القرون الوسطى على نحو حتمي بالقيم والمواقف السائدة في الثقافة والبيئة التي عاشوا فيها، وبعض الكتاب سرد الوقائع والحقائق بأسلوب ركيك، وملتبس في بعض الأحيان، بينما استخدم آخرون لغة تتطابق مع الأسلوب الأدبي، ومال آخرون إلى المبالغة في الصور، أو تكرار المعلومات، أو ربما استعار أحدهم من الآخر دون أن يسند ما استعاره إلى مصدره الأصلي.

ومن هنا فلا بد من التأكيد على حقيقتين، هما :

أ - تقيد المؤلفين بالأعراف النابعة من الاعتبارات اللغوية والموضوعية والثقافية والاجتماعية.

ب - ارتباط ما يشكل حدثاً أو حقيقة أو تفسيراً لظاهرة تاريخية بالزمان والمكان والظروف الثقافية.

وستبحث هذه الورقة في مسألة الهوية الثقافية، على نحو ما صورها كتاب القرون الوسطى، وتقوّم مدى توافر المصادر الجغرافية والمتاحة من الرحلات وإمكانية الاعتماد عليها، وتمحص معلوماتها، رغم أنها في صورة شذرات، حول الصلات البحرية والتجارية مع الشرق، حتى وصول البرتغاليين إلى الخليج.

٢ - ٥

لقد أصبح البحث عن المعرفة من قبل موجة جديدة من الباحثين والرحالة بالفعل تقريباً رغبة سائدة في صفوف المسلمين الأوائل لاكتشاف البلدان والشعوب والسعي وراء الفرص في الأراضي النائية، وقد دعمت هذه الزيارات الشعور بالمجتمع الواحد من قبل الأمة الأشمل، المجتمع الإسلامي. وتنشأ في صفوف كتاب القرون الوسطى مشكلة حول استخدام كلمة "عربي" أو "فارسي" أو "مسلم"، فمن الصعب في بعض الأحيان تفسير الكيفية التي استخدمت بها هذه الكلمات تاريخياً وثقافياً، ومن الحقائق القائمة أن الكثير من كتاب القرون الوسطى الذين كتبوا باللغة العربية لم يكونوا عرباً، وعندما استخدموا في كتاباتهم اصطلاح "عرب" بصفة جماعية كانوا يعنون "المسلمين" غالباً.

وتبرز مسألة الهوية الثقافية في العديد من المصادر المكتوبة باللغة العربية في القرون الوسطى والمصادر الأدبية الأقدم عهداً. والسؤال المطروح هنا هو: كيف نعرف العربي والفارسي..؟ هل اصطلاح "عربي" يشير إلى أي شخص يتحدث العربية واصطلاح "فارسي" إلى أي شخص يتحدث الفارسية..؟ وماذا عن اصطلاح "ابن شبه الجزير ة العربية" ففي عهد ما قبل الإسلام ربما كان ابن شبه الجزيرة العربية يتحدث العربية أو الكلدانية أو الآرامية أو لغة عرب الجنوب ... إلخ. وعلى سبيل المثال في الألف الأول قبل الميلاد كانت حدود الكلدان تمتد لتشمل شمال شرقي شبه الجزيرة الخليجي (أي الكويت والبحرين وقطر). وفي صفوف غير العرب في العراق كان هناك عدد كبير ممن يدعون بالأنباط، وهم مزارعو السواد، الذين ظلوا يتحدثون باللهجات الآرامية حتى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي. وكانت أكبر فئة من غير العرب تتمثل في الفرس، وقد احتلت اللغة الفارسية الوسيطة مكانة بارزة في البصرة والكوفة خلال القرن الأول الهجري / السابع الميلادي.

وساد الاستيعاب التدريجي للأغلبية غير العربية في إطار الإسلام، في أقل من مائة وخمسين عاماً، السيناريو الاجتماعي الاقتصادي السياسي للقرنين الأول والثاني الهجريين / السابع والثامن الميلاديين. ويمكن النظر

إلى مرحلة الفتوحات على أنها قوة للوحدة والحيوية السياسيتين، وعلى الرغم من أن اللغة العربية أصبحت لغة مهمة للإدارة في غضون ثمانين عاماً، إلا أنها لم تحل بالكامل محل لغة المتحدثين الأصليين، مثل أبناء بلاد فارس أو السند. وبالأحرى كان الاستيعاب في إطار الثقافة العربية الإسلامية هو الذي شكل جماعة واحدة موحدة، أو أمة.

و"عربي" و "مسلم" هما اصطلاحان يتداخل أحدهما بالآخر، وقد وصف العديد من كتاب القرون الوسطى بأنهم عرب، ولكنهم في الحقيقة كانوا من غير العرب، مثل ابن خرداذبه (– ٢٧٢هـ / ٨٨٥م) ابن رسته (– ٢٩٠هـ / ٩٠٢ – ٩٠٣م) وابن الفقيه الهمذاني (ازدهر نشاطه في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي). واتخذ آخرون أسماء عربية، منهم : ياقوت بن عبد الله الحموي (– ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) وقد كان عبداً محرراً من أصل يوناني، وأبو الريحان محمد البيروني (– ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ – ١٠٤٩م) وكان من أصل فارسي. والأمر المشترك بينهم هو اللغة التي تحدثوها وكتبوا بها – العربية. وتخلى بعض غير العرب عن لغتهم تماماً، واتخذوا هوية عربية من خلال التثاقف، بينما فضل آخرون تعلم العربية لغة ثانية مع الحفاظ على هويتهم العرقية الأصلية. وفعل ذلك الكثير من الفرس، ومن هنا فإن من المناسب التمييز بين اصطلاح "التعرب Arabization" الذي يشير إلى الانخراط في الثقافة العربية الإسلامية، واصطلاح "الاستعراب Arabicization" الذي يعني تبني اللغة العربية كلغة ثانية، وعلى أي حال فإن اللغة العربية أصبحت اللغة المشتركة للأمة في أراضي دار الإسلام.

كانت موانئ الخليج، قبل ظهور الإسلام وبعده، تحفل بالفرس والعرب. ولم يسيطر الوجود الفارسي خلال العهد الساساني (٢٢٤ أو ٢٢٧ – ٦٥١م) على الخليج وحده، وإنما شمل الجنوب، وبصفة خاصة جنوب غربي آسيا وشرقي إفريقيا، وتزايد بشكل كبير ذكر العرب في وثائق القرون الوسطى بسبب عمليات الدخول في الإسلام وتبني اللغة العربية. ويرد تمييز بين اصطلاحين في المصادر الصينية المتعلقة بالنشاط البحري في القرون الأولى للإسلام : بو–

سي وهو يعني "فارسي"، وتا-تشي ويعني "مسلم من أصل فارسي يتحدث العربية"(١). ويشير هذا إلى أنه ربما كانت هناك جماعتان من الفرس: الزرداشتيون والمسلمون. ويسجل المسعودي (- ٣٤٥ هـ / ٦٩٥ - ٩٥٧م) في القرن الرابع الهجري والعاشر الميلادي أن السفن المسلمة كانت تبحر في جنوبي آسيا وجنوبها الغربي. ما الذي تعنيه كلمة "مسلم" هنا..؟ هل على متن السفن فرس يتحدثون العربية أو عرب يتحدثون الفارسية..؟

لقد كان الكثير من الفرس مرتبطين بالقبائل العربية، ويعرفون باسم "الموالي" ومن حيث المبدأ كانوا مسلمين لا عرباً، وبالتالي فإن الاختيار الحذر للاصطلاح من جانب المسعودي جدير بالملاحظة، ونجد في الدوائر الأدبية إشارة إلى الفرس على أنهم "عجم" وإلى العرب على أنهم "عرب" على الرغم من أن الاصطلاح الأخير قصد به البدو من العرب. وقد أصبحت الكلمتان معاً من كلمات التجريح والإساءة في الحركة الشعوبية(٢). واندرج القلائل من جغرافيينا ومؤرخينا المنتمين إلى العصر الوسيط في تيارات الصراعات الشعوبية، وقد تألقت الحركة بين عناصر أخرى من مدرستين من الفقهاء الذين يكتبون باللغة العربية، تتميز إحداهما عن الأخرى تماماً، وتخدم أهدافاً مختلفة، وتوشك أن تكون معادية تماماً للأخرى، ودعا بعض الفقهاء إلى المساواة، فيما دعا بعضهم الآخر إلى تفوق العرق الفارسي على العرب.

وفي الحالتين كلتيهما لم يستخدم أحد اصطلاح "مسلم" كاصطلاح منفصل يشمل الجميع معاً، وقد كان ابن رسته، فيما يبدو، مؤيداً لفضائل العرق غير العربي، ولكنه في الوقت نفسه كان يعلي من شأن الإسلام وفق المذهب الشيعي(٣). ودافع البيروني عن قضية العرق الفارسي في مواجهة مبالغة أنصار العرب. وهذان مثالان يوضحان كيف انخرط العلماء في المشاعر القومية التي تحجب الوضوح عن الهوية الدينية المشتركة لـ "المسلم" بغض النظر عن اللغة والعرق.

ولم تكن الشعوبية حركة ذات وجهات نظر منظمة، وإنما كانت جهداً يبذل كيفما اتفق استجابة لمشاعر المرء، أو دفاعاً عن خلفية المرء

الثقافية،وبالقيام بذلك فإن الصراع السياسي للحركة أدى إلى تشويه القيمة الحقيقية للغة والثقافة، سواء أكانت عربية أم فارسية.

وخارج الدوائر الأدبية، سافر العامة، وعلى سبيل المثال التجار والبحارة بهوية مزدوجة، فهم عرب أو فرس، وهم مسلمون، وعندما كانوا يصلون إلى الموانئ والمدن كان أهلها يتعرفونهم من ثيابهم، ويبدو أن الذوق الفارسي في الملابس كان رائجاً، والفرس والعرب على السواء يرتدون أزياء من النمط نفسه، بحيث إنه عندما كانت سفنهم ترسو في موانئ الهند كان الهنود والصينيون يسمونهم «الفرس»، باعتبار أن سفن الفرس كانت تفوق سفن العرب في أعدادها، وفي القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي وحده فقد وصف المسعودي سفن العرب والفرس بأنها سفن "مسلمة".

وكانت عملية التعرب والاستعراب بطيئة نسبياً، وفي الخليج بشكل خاص يرد ذكر العرب والفرس في موانئ الأبله والبحرين وعمان لدى المؤرخين(٤) خلال عهد الإمبراطورية الساسانية، ويشير في حوالي نهاية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي إلى الحقيقة القائلة بأن الفرس كانوا بناة السفن وراكبي البحر في موانئ الخليج، وقد جمع بزرج بن شهريار (-٣٩٩هـ / ١٠٠٩م) الفارسي قصصاً من قباطنة السفن وبحارتها من أبناء ميناء سيراف(٥).

ويتعين على المرء ألا ينسى أن أبناء شبه الجزيرة العربية، وأنا هنا أشير إلى أبناء جنوبي شبه الجزيرة العربية من الألف الأول قبل الميلاد، على نحو ماتوضح سجلاتنا الإغريقية والرومانية المبكرة، كانوا يركبون البحر، وخلال الحكم الساساني، ارتبط التجار والمغامرون في البحر بعضهم ببعض، وفي القرون الأولى للإسلام، وكنتيجة لاعتناق العرب والفرس لدين واحد أصبح من المستحيل التمييز بينهم. ومن الصحيح كذلك أن أبناء شبه الجزيرة العربية والفرس لم يكونوا وحدهم هم الذين تقاسموا التجارة ونشاط أعمال موانئ الخليج وجنوب آسيا وجنوب شرقيها، فقد كان جانب كبير من التجارة في أيدي رعايا متعربين آخرين من بلاد إسلامية.

وقد أصبح مفهوم "المسلم" في إطار "الأمة" هوية حقيقية كان معناها المساواة، بغض النظر عن اللغة والعرق والدين، وبهذه الروح انطلق بعض جغرافيينا ورحالتنا المنتمين إلى العصر الوسيط برغبة حقيقية في الترحال وجمع المعلومات والملاحظة وتسجيل تجاربهم، ومن بينهم كان أولئك الذين بدأوا في تعرّف الجغرافيا النظرية والتجريبية.

٣ - ٠

انتقلت التقاليد الهندية المبكرة المتعلقة بالمعرفة الجغرافية والفلكية، عبر الأعمال السنسكريتية المترجمة إلى العربية، ومنها على سبيل المثال : سريا- سرانتا، آريبهتيا المؤلف عام ٤٩٩م. وخندخاديكا المؤلف عام ٦٦٥م. وكان التأثير اليوناني عامة أعمق بكثير من حيث الأفكار والمنهاج. وبينما ظهرت المؤثرات الفارسية في الجغرافيا الوصفية والخرائطية، كانت المؤثرات اليونانية في الجغرافيا الرياضية والفيزيائية والبشرية والاقتصادية.

من الأعمال المهمة التي ترجمت مرات عديدة خلال الحكم العباسي كتاب بطليموس (حوالي ٢٥٠ق.م – ١٦٠ق.م) "الجغرافيا" وقد دام التأثير اليوناني كأساس للجغرافيا الإسلامية حتى القرن التاسع عشر، بينما تراجعت بقايا التأثير البطليموسي في أوروبا قبل ذلك بكثير، وكانت ترجمات عمل بطليموس وغيره من الأعمال اليونانية أساسية، وذات أهمية في تطور علم الجغرافيا عند المسلمين، حيث قدمت المادة الأساسية في الصياغات النظرية والملاحظات الفلكية لعدد متزايد من الجغرافيين المسلمين، ويمكن أن نعدّها منطلقاً للبحث التجريبي.

وقسم النظامان اليوناني والفارسي الأرض سبع مناطق، تعرف "كليما" (في النظام اليوناني) و "خشوار" (في النظام الفارسي) طريقهما على نحو لا ينفصل ولا سبيل إلى فرزه، في أساس تفكير المسلمين، مكتسبين الدعم من إشارات قرآنية عديدة إلى أن الأرض تتألف من سبع "طبقات" وسبع مناطق تتوافق معها. (القرآن الكريم سورة البقرة ٢ : ٢٩، سورة المؤمنون ٢٣ : ١٧،

سورة الطلاق ٦٥ : ١٢، سورة الملك ٦٧ : ٣، سورة نوح ٧١ : ١٥) ومع استقرار النظامين كليهما جاءت المعرفة بحركة الشمس والقمر والمد ومستويات سقوط المطر، وواصل المفكرون المسلمون إضافة المعلومات من خلال الملاحظات الرياضية والفلكية، حول قياس المسافات، بتحديد مواقع البلدان والمدن وأبعاد الأراضي والبحاروأطوال الأيام ومواقع الكواكب ...إلخ. بينما يمكن الذهاب إلى القول بأن التفكير اليوناني قد ساد الجغرافيا الإسلامية غير أن استخدام النظريات الفارسية لا يمكن التقليل من أهميتها بحال من الأحوال. وكانت النتيجة أن تم تثوير الفكر الإسلامي تماماً، وقام المسلمون على نحو جدي بدراسة المفاهيم المتعلقة باستدارة الكرة الأرضية والغلاف الجوي المحيط بها، وانتقلت إلى أوروبا من خلال الترجمات اللاتينية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين.

٣ - ١

بحلول القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ظهرت نوعية مختلفة من المواد الجغرافية، وكان علم الطرق هو المؤثر السائد على الأطروحات الجغرافية الأولى، وكان هدفها تأليف كتب الطرق، الدراسة الطبوغرافية للطرق الرئيسية للامبراطورية الإسلامية. وهذه المعلومات مفيدة لأعضاء البلاط، وعملاء المخابرات، والعسكريين وجباة الضرائب وعمال البريد. والأمر المفيد للباحثين هو وفرة المعلومات التي تضمها كتب الطرق هذه حول عادات الشعوب وممارساتها والتجارة والأحداث الاجتماعية والسياسية، بل والكوارث الطبيعية. ومن الواضح أن ذلك كان ميلاد الجغرافيا الطبيعية والبشرية. وألّف مثل هذه الأعمال جغرافيون تم تصنيفهم على أنهم يشكلون المدرسة قبل الكلاسيكية، وكانت هذه الكتب هي : كتاب "المسالك والممالك" لابن خرداذبه، وكتاب "البلدان" لليعقوبي (- ٢٧٨هـ / ٢٩١ - ٢٩٢م) وكتاب "الأعلاق النفيسة" لابن رسته، وكتاب "البلدان" لابن الفقيه، الذي وصلنا موجز منه بقلم الشيزري وكتاب "الخراج" لقدامة بن جعفر (- بعد ٣١٠هـ / ٩٢٢ - ٩٢٣م).

وقد جعل ابن خرداذبه سواد العراق مركزاً للعالم، بعد بلاد فارس. والسواد، أو الأرض السوداء الشهيرة بثروتها الطائلة من الأشجار، تمثل المنطقة الخامسة، بالإضافة إلى المناطق الأربع الأخرى في التقاليد الفارسية. ويجعل اليعقوبي من العراق كذلك مركز الأرض، ولكن على العكس من سلفه فإنه لم يصف الأراضي الواقعة فيما وراء دار الإسلام. وإذا ما وضع ابن رسته موضع المقارنة مع هذين الجغرافيين فإنه لا يُعدُّ رحالة عظيماً، وعمله الذي لم يعد موجوداً منه إلا الجزء السابع يبدو شبيهاً بعمل اليعقوبي، وإن لم يكن له تنظيم واضح. وبشكل ما فإنه يجب إسناد الفضل له لوصفه الطبيعي المفصل للأماكن التي زارها، وبصفة خاصة وصفه للمواقع العديدة، التي لم يعد لها وجود.

ومن ناحية أخرى فإن ابن الفقيه انطلق في اتجاه مختلف عن باقي هذه المدرسة الجغرافية، فلم يكن سعيه وراء المعرفة للمعرفة ذاتها، وإنما للتوافق مع مجموعة من القواعد في الأدب، وبالتالي فإن مادته الجغرافية لم تتبع أي أسلوب منهجي، ومعلوماته عن البحرين واليمن لا ينبغي أن تؤخذ مأخذ الجد. ويعد قدامة بن جعفر أقل أهمية فيما يتعلق بدراستنا، فهو من المعنيين بحسابات الخراج، وعمله ليس كتاب الطرق بالمعنى الدقيق، ولكنه يتضمن مخزوناً من المعلومات القيمة حول المسافات والمدن والقرى، وهو عمل متطابق بشكل ما مع مادة كتاب ابن خرداذبه.

وتم إحراز الكثير من التقدم في المرحلة الثانية من البحث الجغرافي، التي تدعى بالمدرسة الكلاسيكية، فتضمنت أعمال هذه المدرسة تفاصيل جغرافية تفوق بكثير ما تضمنه كتب الطرق : ويعد كتاب "صور الأقاليم" للبلخي (– ٣٢٢هـ/٩٦١م) كتاباً رائداً يضم مجموعة من عشرين خريطة، وقد فقد، وشكل أساساً لكتاب "المسالك والممالك" للإصطرخي (– حوالي ٣٥٠هـ / ٩٦١م) دون أن يسند الفضل للبلخي، وقد قام ابن حوقل (– حوالي ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) بتنقيح الكتاب تحت العنوان نفسه. والنتيجة المهمة لهذا التتابع المتاهي لانتحال عمل البلخي الأصلي هو أن مجموعة خرائطه تشكل "أطلس الإسلام" الذي يغطي أقاليم

دار الإسلام وحدها(٦). فالإصطخري لم يسافر كثيراً، ويكمن اهتمامنا بهذا الجغرافي في وصفه التفصيلي لبلاد فارس، بينما سافر ابن حوقل كثيراً، ولدى تنقيحه لعمل الإصطخري أضاف الكثير من المواد الأحدث عهداً، وقد كان من شهود العيان الثقات، عني بالموضوعات الاقتصادية.

وفي مسارات مستقلة، وإن يكن في إطار التقاليد نفسها جاء كتاب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" للمقدسي، الذي يبدو فيه العمل أكثر أصالة، فيما يتعلق بملاحظاته الشخصية على العادات والتقاليد والمنتجات والخصائص المتعلقة بالأماكن التي زارها، وينسب إليه الفضل كذلك للتقديم المنهجي لمعلوماته، وفي العديد من الجوانب للصور التي رسمها بوصفه شاهد عيان، وتجعل قائمة الاصطلاحات المادية والثقافية المعروفة في زمانه هذا العمل أكثر قابلية للاعتماد عليه(٧).

ويعد الإدريسي الفاسي المغربي (– ٥٦١هـ / ١١٦٥ – ١١٦٦م) أشهر الجغرافيين المسلمين، وعرف بكتابه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" الذي يسمى غالباً بـ "كتاب روجر" لأنه أهدي إلى روجر الثاني (١١١١ – ١١٥٤) الملك النورماندي الذي حكم صقلية، ويشكل الإدريسي جزءاً من مدرسة ما بعد الكلاسيكية، جنباً إلى جنب مع سلفه البكري (– ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) الذي رجع الإدريسي إلى أعماله، واستخدمها كقاعدة لمعرفته، ولكن دون أن ينسب الفضل في ذلك لصاحبه قط، وتكمن أهمية عمل الإدريسي في شموله، وهو في العديد من الجوانب مصدر مهم لكل من العلاقات الإثنوغرافية والتجارية في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، وقد ترجمت أجزاء من كتابه بصورة متكررة إلى اللغات الأوروبية، في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، غير أن بعض السمات، مثل اعتماد خرائطه على التقاليد البطليمية – الخوارزمية (٢٣٥هـ / ٨٤٩ – ٨٥٠م) التي لم تتطابق أسماء مواقعها مع أسماء المواقع في عصره، وتشويه المعلومات عن حقائق أخرى – يجعل عمله مصدراً أقل قابلية من حيث إمكانية الاعتماد عليه.

هنـاك مؤلفون آخرون، خـارج هذه المدارس الثـلاث، لا يمكن أن يلقبوا بـالجـغرافيين، فقد كانوا كتابـاً موسوعيين، شموليين، جمعوا بين ميادين شتى، تشكل الجـغرافيـا أحدهـا. ويـحـتل المسعـودي مرتبـة تضـاهـي مرتبـة البيروني، وكتـاب المسعـودي الموسوم "مروج الذهب ومعـادن الجوهر" وكتـابه " التنبيه والإشراف" هما عملان في التاريخ، تتصدرهما معلومات جغرافية.

كان المسعودي رحالة عظيماً (استمرت رحلاته ثلاثين عاماً دونما توقف تقريباً) وعدّ السفر طلباً للعلم أو كما عبر عنه "الرحلة في طلب العلم" إنجازاً دينياً جديراً بالإشادة. وشأن المقدسي آمن المسعودي بأهمية التجارب الشخصية، فضرب في أقاليم بلاد فارس، أبحر على متن سفن يملكها بحارة من سيراف وعمان، ووصف بحار شرقي إفريقيا الحافلة بالمخاطر، غير أن وصفه لرحلاته إلى سيلان والصين لا يحمل أي براهين حاسمة.

وقد كان البيروني من ناحية أخرى عالماً، ويعد مؤلفه "تاريخ الهند" من الأعمال البالغة الأهمية، حيث سجل فيه رحلاته، على امتداد عدة سنوات، ودراسته للهند بلداً وشعباً، ولكن مما له أهميته كذلك التفاصيل التي أدرجها حول الأنشطة البحرية والتجارية للهند، في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

وتأتي المعرفة بالجغرافيا والإثنوغرافيا والتاريخ من مجموعة أخرى من الكتاب، الذين كانوا موسوعيين، مثل ياقوت (– ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) في معجمه الجغرافي "معجم البلدان" وهو معجم جغرافي عالمي، ولكنه لا يغامر بالخروج إلى ما وراء العالم الإسلامي، ومع أنه مصدر يعتمد عليه، دونما شك، ومعلوماته حول الموضوعات الاجتماعية والاقتصادية ذات أهمية خاصة في مجال دراستنا. وعلى الرغم من أن كتاب "آثار البلاد" للقزويني (– ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م) لا يتسم بالأصالة إلا أنه أعاد وفق الترتيب الهجائي تنظيم مجموعة من مواد ياقوت متبعاً تقاليد الأقاليم السبعة البطليمية – الخوارزمية.

وبحلول القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي بلغت المعرفة الجغرافية – التي تقوم في جانب منها على المصادر الأجنبية وفي جانب آخر على البحوث التي أجراها المسلمون أنفسهم – بلغت مستوى رفيعاً من التطور، مع احتلال البيروني لمرتبة الصدارة في هذا العلم، وفي ضوء تضلعه في الأعمال السنسكريتية والفارسية واليونانية التي تدور حول الجغرافيا قام بإجراء دراسة مقارنة حول هذا الموضوع، وتعد مساهماته في الجغرافيا العامة والطبيعية والبشرية مساهمات يعتد بها، وقد طور النظرية القائلة بأن المحيط الهندي مرتبط خلال قنوات بحرية بالمحيط الأطلسي، وبالتالي فإن من الممكن للسفن أن تبحر مطوفة حول ساحل جنوبي إفريقيا، وهي نظرية لم توضع موضع التطبيق قط إلى أن وصل البرتغاليون إلى المحيط الهندي عن طريق جنوبي إفريقيا في نهاية القرن الثامن الهجري / الخامس عشر الميلادي.

وبدت مؤشرات التدهور في علم الجغرافيا بحلول القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، حيث افتقرت الأعمال الجغرافية إلى المنهاج العلمي والنقدي، الذي حظيت به القرون السابقة، مع استثناء واحد، هو كتاب "تقويم البلدان" لأبي الفداء (– ٧٣٢هـ / ١٣٣١ – ١٣٣٢م) الذي يدرج بشكل مجدول قوائم بالدرجات الجغرافية لخطوط الطول والعرض لكل الأماكن المعروفة، وأدى تأليف الأعمال الصغرى إلى الوصول بدراسة الجغرافيا إلى النهاية، حيث إنها مالت إلى تكرار معلومات المعرفة النظرية والتقليدية.

٣ - ٣

ظهر نوع جديد من الكتابات ، هو صور الرحالة، ويمكن تصنيف هذه الكتابات على أنها جغرافية وصفية. ويعد كتاب "الرحلة" لابن جبير (– ٦١٤هـ / ١٢١٧ – ١٢١٨م) درة كتابات الرحالة، نظراً لمحتوياته التي تثقف قارئها، وتنير بصيرته، وإن كان عملاً غير مهم نسبياً، في دراستنا. ويعد كتاب ابن بطوطة (– ٧٧٩هـ / ١٣٧٧ – ١٣٧٨م) بعنوان "تحفة النظار" مصدرًا ثرياً حافلاً بالعطاء في الجغرافيا والإثنوغرافيا والتاريخ الثقافي، وخاصة فيما

يتعلق بالهند وجنوب شرقي آسيا. هذا الكتاب الأخير مصدر مهم لبحثنا على الرغم من أنه يقال الكثير حول مصداقية بعض الحقائق والأحداث التاريخية، التي تم الإطناب فيها على نحو خيالي، مما يترك الباحث ضائعاً بين الأسطورة والواقع، ويرجع هذا في جانب منه إلى حقيقة ذهاب ابن بطوطة إلى القول بأنه فقد معظم ملاحظاته في حادث غرق سفينة، وأنه قد اضطر إلى إملائها من الذاكرة على ابن جزي (– ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م) الذي كتب نصه، ويقال: إن الأخير هو المسؤول عن الأسلوب الأدبي المتأنق وعن مجافاة الحقائق.

وهناك كتابات في الصور البحرية تمثل نوعاً آخر، وتقدم معلومات مثيرة للاهتمام حول الملاحة الهندية، وهي مؤثر مهم في الملاحة الإسلامية. ومن صور الرحلات المبكرة للغاية كتاب "أخبار الصين والهند" الذي يعود إلى عام ٢٣٥هـ / ٨٥٠م. وهو ينسب إلى من يدعى بـ "سليمان" وربما كان بحاراً قديماً، قام بالعديد من الرحلات إلى الهند والصين. وهناك مؤشرات إلى أن مؤلف هذا العمل ربما أتيحت له الكتب الملاحية المتداولة في المحيط الهندي التي تحذو حذو بيريبلوس ملاح البحر الإراتري. وسار على نهج هذا العمل بزرج بن شهريار (– ٣٩٩هـ / ١٠٠٩م) قبطان السفينة رامهرمز، الذي ألف "عجائب الهند" في حوالي عام ٣٤٢هـ / ٩٥٣م. ويسرد هذا الكتاب العديد من الحكايات عن البحارة المسلمين في المحيط الهندي. وعلى الرغم من أنها مسلية وعجيبة، إلا أنها لا يمكن – كما يعبر مقبول أحمد – "أن تنحى جانباً بشكل كلي باعتبارها غير حقيقية، وأن يتم تجاهلها في أي دراسة جادة للجغرافيا والاستكشاف العربيين"(٨). وقد ظهر كتاب "أخبار الصين" كجزء من عمل يحمل عنوان "سلسلة التواريخ". وقد قام مؤلفه السيرافي (الذي ازدهرت أعماله في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) بجمع الروايات وتدقيقها بنفسه ونشره عام ٣٠٢هـ / ٩١٦م. وقد كتبت روايات شهود العيان هذه بطريقة بعيدة عن العرف المتبع في الأسلوب الأدبي، الأمر الذي يمكن القول انطلاقاً منه بأن القائم على جمع الروايات كان أكثر اهتماماً بنقل المضمون منه بأن تكون العربية التي يكتب بها

فصحى من حيث القواعد والإنشاء من عدمه، ويفسر هذا على أنه علامة دالة على أصالة النص. والجزء الآخر من "أخبار الصين" مجموعة من شهادات التجار المسلمين، بعضهم من الهنود الذين دخلوا الإسلام في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، وقد رووا قصصاً عن رحلات بحرية جرت في الهند والصين، وتبدو هذه القصص شبيهة بـ "رحلات السندباد البحري" في "ألف ليلة وليلة" التي تعكس إلى حد ما روايات الربابنة عن تجاربهم في البحر المفتوح. وقد يستعيد المرء كذلك حكايات هوميروس البحرية الأقدم عهداً (ازدهر في القرن الثاني عشر ق.م.) الواردة في "الأوديسة" التي تصف رحلة أوديسيوس الحافلة بالمغامرات على شواطئ الساحل الشمالي لإفريقيا والذي مضى يضرب في البحر انطلاقاً منه لعقد من الزمان.

وتشير هذه الروايات جميعها إلى أن الانطلاق في البحر كان شيئاً مألوفاً للمسلمين، وربما كان لهم كذلك نظرية في الملاحة البحرية، وإن لم يكن من الممكن تأكيد ذلك ما لم يقدر لرسائل مثل تلك التي قدمها ابن ماجد (الذي ازدهر في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي) تحت عنوان "كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد" أن ترى النور. ويبدو أن نظرية الملاحة البحرية وممارستها قد وصلت إلى المسلمين عن طريق الأعمال السنسكريتية والفارسية واليونانية. ويمكن أن تكون أعماله خلاصة رسائل أقدم عهداً عن الملاحة البحرية، ألفها أفراد في عائلته.

كان ابن ماجد وهو ممن ارتبطوا بـ«كوجراتي» ملاح من مدينة كوجرات أول ملاح يقوم ربما اقتناعاً منه بنظرية البيروني، على نحو إيجابي بوصف النقطة الواقعة فيما وراء "سفالة" هبوطاً إلى ساحل إفريقيا الجنوبي حيث يقع "المدخل" أي المدخل من المحيط الهندي إلى المحيط الأطلسي، وتمثل أعمال ابن ماجد من حيث التجربة والمعرفة باستخدام الخرائط البحرية والأدوات الدقيقة ذروة علم الملاحة البحرية الإسلامي(٩).

٣ - ٤

شكل بروز كتابات الرحالة والكتابات البحرية خطراً على المعرفة النظرية للجغرافية. وحدث انقسام بين «الذرائعيين» مثل قباطنة البحار والبحارة والتجار و "النظريين" الذين يستندون إلى الفكر الهندي والفارسي واليوناني. كانت المعلومات اليونانية قد بلغت بالفعل القرن الخامس من عمرها، ونشأت المشكلات لأن العلماء وشبه العلماء العرب حاولوا إدراج المعلومات المعاصرة في الإطار البطليمي، وهكذا فقد أساؤوا تقديم الحقائق من خلال ربطها بالمعلومات اليونانية، وكان الإدريسي يقيناً واحداً منهم.

وتظهر إحدى الحقائق المهمة الناجمة عن هذه الروايات البحرية وروايات الرحالة أن المعرفة بالبحار وبصفة خاصة المحيط الهندي، كانت متقدمة إلى درجة يعتد بها. وكالجغرافيين، ترك الرحالة والبحارة تفاصيل مهمة عن سواحل البلاد التي زاروها، والأمر الأكثر أهمية أن هناك ما يكفي من البراهين لإظهار مدى النشاط الكبير لحركة الملاحة والتجارة بين موانئ بحر العرب والمحيط الهندي وبحار الصين.

٤ - ٥

والأمر الذي يلفه الغموض هو السر في أن الجغرافيين والمؤرخين المسلمين لا يقدمون إلا معلومات محدودة عن النشاط التجاري البحري في الخليج قبل ظهور الإسلام، فلا يبدو أن هناك وجوداً لأي مراكز تجارة مزدهرة في المنطقة، الأمر الذي يشير إلى أن العرب في إطار اتباعهم لمعرفتهم التقليدية بالملاحة واصلوا الإبحار قبالة السواحل، وليس في رحلات عبر المحيط، وغالباً ما كان البحر الأحمر يشكل طريقاً بديلاً جيداً في العهود الكلاسيكية، وعلى الرغم من أن طريقه البحري يتسم بالصعوبة فإنه كان يحظى بموانئ طبيعية، بينما لم يكن في الخليج موانئ دائمة، باستثناء تلك الموانئ الموجودة عند رأسه، التي كانت تمتلئ بالغرين بصورة مستمرة، وقد

جلب الزنج من شرقي إفريقيا إلى جنوبي العراق، لاستخلاص الملح المتراكم، وجعل القنوات قابلة للإبحار، وكذلك إحياء الأرض وإعدادها للزراعة، وجعلت الفيضانات والضفاف المنهارة العمل أكثر مشقة، الأمر الذي جعل الملاحة في المنطقة مستحيلة تقريباً، وإن الأثر الذي نجم عن ذلك هو أن السفن المنطلقة من البصرة والأبله والخليج وإليه تعين عليها أن تجد موانئ بديلة لتحميل البضائع وتفريغها، ولكن لا بد أنه كانت هناك عهود أفضل، وإذ كان المسعودي على صواب فإن السفن الشراعية الصينية لم تلق مراسيها عند مصب النهر في الأبله في العصور القديمة(١٠).

سجلت مصادر عربية محدودة، النشاط التجاري في القرون المبكرة السابقة على الإسلام، حيث أقيمت الموانئ البحرية والنهرية في العهد الساساني. وليس هناك ذكر للنشاط العربي البحري في القرنين الثالث والرابع الميلاديين، باستثناء غارة واحدة، قام بها أبناء البحرين عبر الخليج عام ٣١٠م. ووصف الطبري سيطرة العرب على المناطق المحمية المطلة على الساحل العربي واستغلالهم للتجارة براً وبحراً(١١). وكانت البحرين وعمان مستقلتين بشكل أو بآخر عن الامبراطورية الساسانية، ويتحدث كل من البلاذري والطبري عن العامل الفارسي في هذه المنطقة(١٢).

٤ - ١

خلال القرنين الأوليين للإسلام تعرض الطريق البحري بين بغداد وكانتون (كوانج – تشو) لنكسة، ويرجع هذا التحلل أولاً إلى أن الصراع السياسي الذي نشأ بين البيزنطيين والفرس، والحرب التي اندلعت بين القبائل العربية قد شكلا خطراً على السلام والاستقرار في منطقة الخليج، وثانياً أن

أنهار بلاد الرافدين غالباً ما كانت تغير مجراها بسبب غزو المياه للأراضي، مما جعل الملاحة في دجلة والفرات خطرة(١٣)، وأدى هذا إلى أهمية ميناء سيراف وميناء مسقط، اللذين أصبحا قاعدة النشاط البحري من الخليج إلى الهند والصين. وتبدو المعلومات التي أوردها الطبري حول إبحار "سفن من الصين"(١٤) إلى الأبله من زمن الفتح الإسلامي مثيرة للدهشة بشكل ما، إذا وضع المرء موضع الاعتبار الخطر الهائل الذي كان يمكن أن تتعرض له هذه السفن الصينية في الخليج بسبب سلاسل الصخور المرجانية ومستوى المياه المنخفض في موانئ معينة. ويبدو لسبب أو آخر أن سيراف كانت استثناء من هذه القاعدة، على الرغم من أن السفن الصينية الأصغر حجماً هي التي كان يمكن أن تلقي مراسيها هناك، ويبدو أن من المحتمل بصورة أكبر أن السفن الصينية الضخمة كانت تفرغ بضائعها في موانئ المحيط الهندي، ثم تنقل إلى سفن أصغر حجما تبحر عقب ذلك إلى سيراف والبحرين والأبله. وكانت حركة المرور البحرية في هذه المنطقة مزدهرة للغاية، على نحو ما ذكر ابن رسته والطبري(١٥)، وكانت السفن الهندية وكذلك العربية والفارسية أصغر حجماً، وبالتالي يمكن أن تتعامل مع قنوات بلاد الرافدين وأنهارها. ومن الحقائق المثيرة للاهتمام، وفقاً لما يقرره جن – يان أن التجار الأجانب (والمقصود هنا التجار الهنود والفرس والعرب) المبحرين إلى بحار الصين كان عليهم أن يستقلوا سفناً صينية، ويمكن لهذا أن يفسر هيمنة السفن الصينية الكبيرة في موانئ المحيط الهندي خلال عهدي سونج (٩٦٠ – ١٢٧٩) ويوان (١٢٧٩ – ١٣٨٦) (١٦). كما قد يشير كذلك إلى تفوق صناعة السفن الصينية على نظيراتها الهندية والإسلامية، في التقنية المستخدمة فيها. وقد أبحر كل من ابن بطوطة والمسعودي على متن سفن صينية كبيرة، وأُعجبا بمتانتها مقارنة بسفن الخليج وبحر العرب التي تشد أخشابها بعضها إلى بعض بالحبال(١٧).

شكل نقل مقر الخلافة من دمشق إلى بغداد مرحلة جديدة في النشاط التجاري البحري من الخليج وإليه، حيث أصبحت بغداد "الواجهة المائية المطلة على العالم"(١٨) المرتبطة بدجلة والفرات اللذين يمكن الإبحار فيهما، على نحو ما يذكر الطبري "ليس بيننا وبين الصين شيء، يأتينا فيها [دجلة] كل ما في البحر"(١٩) وليست هناك مبالغة في هذا القول، فقد كان الطريق البحري إلى الصين أكثر أماناً من الطريق البري على الأقل من القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي إلى القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي. وقد كان عهداً استعاد فيه العباسيون الوحدة والسلام والأمن في أراضي سوريا والرافدين، التي تناوشتها في وقت من الأوقات الحروب بين البيزنطيين والساسانيين بصفة خاصة.

مع انتشار الإسلام، سعى العرب إلى إقامة مناطق استقرار جديدة على امتداد الطريق البحري من الخليج إلى الصين. وتأتي السجلات التاريخية لعهد تانج في القرنين السابع والثامن على ذكر رحلات قام بها التجار الصينيون من كانتون إلى سيراف مروراً بملقة والهند. ويرد ذكر سفن تبحر إلى الصين عند ابن خرداذبه والمسعودي في حوالي عام ٢٣٦هـ / ٨٥٠م(٢٠). وقد قام كل منهما – بغض النظر عن معلوماتهما حول النشاط التجاري البحري، القائمة على أساس المصادر الباقية، التي لم يعد لها وجود، والمنتمية إلى عهود سابقة – بالإبحار إلى الهند وشرقي إفريقيا. وربما كان التاجر سليمان عام ٢٣٧ هـ / ٨٥١م. هو أول مسلم على الإطلاق يسجل قيام السفن الصينية بالاتجار مع سيراف(٢١). وقد كان ميناء سيراف في موقع جيد للسفن الصينية، التي كانت تنتظر السفن الأصغر حجماً المحملة بالبضائع من البصرة وعمان.

وقد تعرض ميناء سيراف لزلزال عام ٣٦٦ – ٣٦٧هـ / ٩٧٧م. ولكن على الرغم من ذلك فإن دوراً جميلة وفخمة كانت لا تزال تطل على الميناء، الأمر الذي يشير إلى أن التجار الأثرياء قد اختاروا السكنى في هذه المدينة المدهشة المزدهرة. ووفقاً لما يقوله المقدسي فإن سيراف كانت منافساً

للبصرة على الصعيد التجاري، فيما بلغته من ثراء طائل(٢٢)، وقد سيطرت بشكل أساسي على كل الواردات المنقولة بحراً، ومن بينها سلع نادرة وثمينة من الهند، يطلق عليها اسم "بريهار" وهي تتمثل في : خشب السدن، الكهرمان، الكافور، الجواهر الثمينة، الخيزران، العاج، الأبنوس، الورق، خشب الصندل، العطور، العقاقير، حبوب البهار. أما إنتاج المدينة نفسها فقد كان الخُمُر الكتانية واللآلئ (٢٣). وهاجر عدد من الفرس من شيراز وسيراف إلى شرقي إفريقيا في القرنين الثالث الهجري / التاسع الميلادي، والرابع الهجري / العاشر الميلادي. وقد مضوا إلى هناك أساساً لشراء الرقيق والعاج والعنبر. وقد انتشرت تجارة الرقيق خلال وقت طويل ، وكانت أعدادهم من الضخامة في جنوبي العراق بحيث وحدوا كلمتهم، وانقضوا على جيش الخلافة في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي.

٤ - ٣

وصف بعض الجغرافيين المسلمين، مثل ابن خرداذبه في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، والمقدسي في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، على نحو مفصل الطرق الرئيسية في بلاد فارس، التي تفضي إلى الساحل وموانئ سيراف وجزيرة قيس وجزيرة هرمز(٢٤). وكانت جزيرة قيس مزدحمة بالسفن المبحرة من الهند وشبه الجزيرة العربية، وإلى الشمال في الطريق إلى البصرة كانت هناك جزيرة خرج، الواقعة على مبعدة من مصب نهر شابور، وقد اشتهرت خرج بأفضل «مغاصات اللؤلؤ» في الخليج، وبدا أنها تحظى بأهمية جزيرة قيس(٢٥). وهناك ميناء آخر مهم، هو ميناء مهربان، القريب من حدود فارس الغربية، وكانت السفن المبحرة إلى الهند تتوقف في هذا الميناء عقب انطلاقها من البصرة، وكانت الملاحة مصدراً رئيسياً لواردات المدينة، التي اشتهرت بكتانها وتمرها. وإلى الجنوب من مهربان هناك شيراز، وهي موقع محصن على نحو قوي، حيث كان يزرع الكتان، ويصدر زيت المصابيح المستخلص منه إلى الخارج(٢٦).

كانت البصرة بوابة الخليج والشرق، واشتهرت بقنواتها، التي يمكن للسفن الإبحار فيها، وإلى الجنوب الشرقي من البصرة، كانت هناك قناة الأبله ذات البساتين على امتداد الجانب الجنوبي من الجزيرة الكبرى(٢٧). وقد أعاد خسرو أردشير تشييد الأبله، التي عرفها اليونانيون باسم أبولوجوس(٢٢٤ أو ٢٢٧ - ٢٤١م) بينما أنشئت البصرة خلال العهد الإسلامي. وألقت السفن مراسيها في الأبله وليس في البصرة على الرغم من أن هذه الأخيرة كانت مركزاً تجارياً كبيراً، وفي القرن الرابع الهجري/ الخامس الميلادي نمت الأبله واتسعت إلى مساحة يعتد بها، وضمت ترسانات للسفن، وشيدت أبراج لمراقبة القراصنة الآتين من اتجاه البحرين وقطر والساحل الفارسي(٢٨).

وكانت السواحل المليبارية مصدر خشب الساج المستخدم في بناء الدور والسفن، بصفة أساسية، كما أمدت شجرة جوز الهند من جزر المالديف المسلمين في الخليج بمواد بناء السفن، التي شكلت مصدراً يعتد به في دخل البحارة وتجار المنطقة.

وقد عنت هذه الزيادة في حركة الانتقال البحرية اقتصاداً مزدهراً تمثل جانبًا مهمًا في استيراد البضائع الصينية والهندية، مثل الحديد، والأسلحة، والمسك، وخشب السدر، والصيني، والفلفل، والكافور، والقصدير. ثم حدث تقلص في تجارة الخليج أدى إلى التحول التدريجي للطريق، أفضى إلى إمكان وصول السلع الشرقية في نهاية المطاف إلى أسواق البحر الأحمر عن طريق التوقف في هرمز، لا في سيراف. وكان حجم السلع الصينية التي تصل إلى موانئ الخليج في انحدار بالفعل، مع حلول القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، وقد عزيت أسباب هذا الانحدار إلى :

أ - خطر الصخور المرجانية والأعاصير التي كانت السفن الصينية الكبيرة تتعرض له في جنوبي الصين.

ب - القرصنة.

ج - اندلاع الحرائق في خانفو بالصين(٢٩).

د - اضطرار القائمين على السفن الصينية بين الحين والآخر إلى الرسو في الموانئ الصينية والهندية للقيام بعمليات الإصلاح التي تستغرق فترات طويلة، الأمر الذي كان يعني اضطرارهم إلى بيع سلعهم هناك، بدلاً من المخاطرة بعدم بيعها في مقصدهم النهائي(٣٠). ومن العناصر الأخرى التي أسهمت في هذا الانحدار تمرد الزنج (٢٥٥ - ٢٧٠هـ/ ٨٦٩ - ٨٨٣م) الذي أدى إلى تدمير الأبله والبصرة وعزل بغداد عن الخليج، مما كانت له عواقب خطيرة على اقتصاد بلاد الرافدين. ولم تكن انتفاضة الزنج ذات نتائج أقرب إلى الكارثة على الصعيد الاقتصادي(٣١)، ولكن قيام الحركة القرمطية (٢٨٦ - ٢٩٤هـ / ٨٩٩ - ٩٠٧م) كذلك أدى إلى هز الامبراطورية الإسلامية وإصابتها بالشلل حتى جذورها. وأفضى سعي القرامطة الديني – السياسي إلى العدالة والمساواة لإنشاء دولة لهم في البحرين، اجتذبت إدارتها إعجاب الجغرافيين ابن حوقل والمقدسي، على سبيل المثال، حيث كان الدخل الذي يستمد من بيع الحاصلات الزراعية والمكوس التي تحصل من السفن المارة عبر الخليج يوزع بين أبناء الجماعة القرمطية على أرض الجزيرة(٣٢).

ولم تعد بغداد تحظى بالمكانة التي كانت لها خلال صدر العهد العباسي، وبحلول القرنين الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، والسادس الهجري / الثاني عشر الميلادي وصلت السلع الشرقية إلى أسواق الشرق الأدنى مروراً بهرمز، وعدن، وعيذاب المطلة على البحر الأحمر، ونمت أماكن أخرى من بلدات صغيرة لتصبح مدناً تجارية مهمة، مثل تبريز، التي كانت وفيرة المياه وتستمدها من العديد من الغدران وتحيط بها بساتين جميلة (٣٣). ولم تكن متصلة بنهر دجلة والخليج فحسب، وإنما كانت مرتبطة بميناء هرمز، الذي استقطب معظم تجارة المحيط الهندي كذلك. وأصبح الميناء مزدهراً في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي عندما اكتشف تجار البحر المتوسط الذين كانوا يدفعون أسعاراً عالية مقابل البضائع التي يحصلون عليها من الأسواق المصرية والسورية، طريق هرمز

الجديد. واكتشفوا بالفعل ساحل جوجارات والملبار، حيث قاموا بمقايضة السلع مع التجار من كل أرجاء الشرق. وقد أتى المؤرخون الصينيون على ذكر هو-لو-مو-سو "هرمز" في سجلاتهم التاريخية بوصفها مدينة غنية أرسلت بمبعوثين إلى الصين(٣٤).

٤ - ٤

يؤكد الكتاب المسلمون الأوائل على الملاحة الهندية ومواضع الترسانات على الساحل الغربي للهند والجزر الواقعة في الجنوب. وكانت الأسواق الهندية مراكز تجارية منذ عهود لا تعيها الذاكرة، قبل اكتشاف اتجاه الرياح الموسمية وبعده. ومن الناحية الجغرافية تقع الهند في منتصف الطريق بين الصين والخليج، حيث كان العرب والفرس والصينيون يتقدمون بعضهم نحو بعض باستكشاف الطريق، الذي يربط الغرب بالشرق، وفضلاً عن ذلك فإن العرب والفرس كانوا دوماً حريصين على البحث عن فرص جديدة، وأصبح الاتجار في الرقيق والبهارات على الساحل الشرقي لإفريقيا أمراً ذا أهمية قصوى.

وفي نهاية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، بدأت الأمور تتغير في الخليج والمحيط الهندي، ويشكل مقدم ابن ماجد الذي ألف كتاب «الدليل البحري» نقطة التحول في تاريخ الملاحة والتجارة في الشرق. وقد تم الاستشهاد بأعماله على امتداد القرون، وعلى الرغم من أن الكثير من الأساطير تحيط بلقاء ابن ماجد وفاسكو داجاما (- ١٥٢٤م) إلا أن من الحقائق المهمة التي يشهد عليها الجغرافيون والرحالة المسلمون أن أبرز تجار المحيط الهندي حتى عام ١٤٩٢م كانوا من العرب والفرس.

الخاتمة

تقدم مصادرنا التي تعود للقرون الوسطى، فيما يتعلق بتفهم أهمية الطرق البحرية والنشاط التجاري في الخليج، بيانات قيمة تعد شيئاً أساسياً للتاريخ الاجتماعي – الثقافي للمنطقة. والمعلومات متناثرة، والمصادر نفسها تطرح العديد من المشكلات فيما يتعلق بالجوانب الآتية :

أ - إمكانية الاعتماد على المعلومات ومسألة الزمان والمكان.

ب - أعراف اللغة ونوعية الكتابة.

ج - الهوية الاجتماعية والثقافية. ويمكن اختصار اعتبارات أخرى على النحو التالي :

لقد حددنا بعض الجغرافيين والمؤرخين، مثل ابن حوقل، والمقدسي، والمسعودي، الذين كانوا رحالة بأدق معنى لـ "طالب العلم"، الذين استهدفوا وضع مكتشفاتهم العلمية على أساس مغامراتهم وتجاربهم الشخصية. وكان السعي وراء كسب العيش لهؤلاء الرحالة المنتمين للعصر الوسيط أمراً له أهميته بلا شك، فقلة محدودة للغاية ، مثل ابن خرداذبه وقدامة بن جعفر، قام الخلفاء بتكليفهم بجمع المعلومات، أما معظمهم فكان التجوال براً أو بحراً أمراً يكلفهم أموالاً طائلة، هذا إذا تركنا جانباً الرحلات الخطرة والبحار اللجية وغرق السفن وقطاع الطرق والمخاوف العديدة المتعلقة بالوصول إلى أرض مجهولة بوفاض خاو. وقد ساهم ابن حوقل والمقدسي والمسعودي وابن بطوطة في أنشطة تجارية وتقلدوا مناصب مختلفة مدفوعة الأجر، على امتداد رحلاتهم.

ومن المشكلات التي نصادفها استخدام اللغة والأسلوب، فلم يكن معظم جغرافيينا يكترثون باللغة، وكانوا أقل اهتماماً بالأسلوب، وكان الهدف الرئيسي للطبري هو نقل الحقائق. وتترك جمله المستفيضة للقارئ أن يتساءل أي ضمير يشير إلى أي اسم. ومضى آخرون إلى الحقائق والأسلوب، وربما كان

المقدسي هو الوحيد الذي يتعين أن يسند إليه فضل إدراج معلوماته في لغة ترضي قارئ الأدب والقارئ غير المعني به على السواء.

وتظل الحقائق في مواجهة الحكايات الخرافية قضية تتسم مناقشتها بالصعوبة. فاللغة "غير الفصيحة" التي استخدمها مؤلف كتاب "أخبار الصين" تظهر أن المؤلف كان يدون الكلمات نفسها التي استخدمها البحارة في حوارهم معه بغض النظر عن افتقار هذه اللغة العربية للأسلوب وللتماسك النحوي، ويؤدي هذا إلى استنتاج أن المعلومات قريبة من الحقيقة بشكل عام.

ويعد أسلوب الاستطلاع الذي جمع به المؤلفون المنتمون إلى القرون الوسطى بياناتهم مسألة تحتاج إلى معالجة بالغة الدقة، وفي ضوء معطيات الزمان والمكان، فإن المقدسي ربما يعد واحداً من أكثر المؤلفين دقة واعتمادية، وكان مما له أهمية فائقة النحو الذي قام به بتقييد ملاحظاته ونوعية تعرّف الاصطلاحات المادية والثقافية المستخدمة. وقام تمحيصه للحقائق على أساس تجميع البيانات من المكتبات والفقهاء البارزين وعامة الناس، وربما نجد في يسر أن بعض ملاحظاته، التي تعكس فخراً فيما يتعلق بمغامراته، قد بولغ فيها، ولكنه في الوقت نفسه أقر بأن عمله لم يخل من أي خطأ، وكان على يقين أنه على امتداد رحلاته قد سجل ما رآه وما عايشه وحرص على ملاحظة التقاليد والعادات والأعراف الجارية في المنطقة المحددة التي وصفها.

وفيما يبدو كان التوزيع العام للسكان على امتداد الخليج خلال العهد العباسي مؤلفاً بصورة أساسية من العرب والفرس مع أقليات من أبناء شرقي إفريقيا والهنود وآخرين. واحتفظ العنصر العربي بلغته، ولكن في الوقت نفسه كانت المصاهرات مع الفرس والهنود وأبناء شرقي إفريقيا والصينيين أمراً مألوفاً، بحيث إن المنحدرين من أصول عربية غالباً ما حافظوا على لغتهم، وغيروا نمط حياتهم، وربما بدل غير العرب لغتهم، وتناقضوا مع الإسلام، دون

أن يتوافق ذلك مع تغيير عضوي في حياتهم. وربما كان هذا هو السيناريو الذي شهدته المنطقة، وربما كان العامل المشترك هو الجماعة الإسلامية، الأمة الإسلامية، التي انتمى إليها جميع المسلمين، وبروح الانتماء الثقافي هذه انطلق العلماء، وغير العلماء، ساعين وراء المعرفة، وجلب طلب العلم أفكاراً جديدة وحوافز جديدة إلى صفوف المسلمين ومن اعتنقوا الإسلام حديثاً. وانطلاقاً من هذا النظام الاجتماعي نبدأ في النظر إلى التاريخ والظروف التي من خلالها وصف جغرافيونا ومؤرخونا ورحالتنا الأنشطة التجارية والطريق التجاري البحري من الخليج إلى بحار الصين.

الحواشي

1 - F. Hirth and W. W. Rockhill, *Chau Ju-Kua: His Work in the Chinese and Arab Trade in the XIIth and XIIIth Centuries, entitled Chu-fan-chi, translated from the Chinese and annotated* (St. Petersburgh, 1911), 7-8.

2 - Dionisius Agius, "The Shu'ubbiyya movement and its leterary manifestation," *The Islamic Quarterly*, (1980) 24, iii-iv: 76-88.

3 - J. F. P. Hopkins, "Geographical and navigational literature," in Religion Learning and Science in the 'Abbasid Period eds. M. J. L. Young, J. D. Latham and R. B. Serfeant *The Cambridge History of the Arabic Literature* (Cambridge: Cambridge University Press, 1990), 310-311.

4 - Ahmad b Yahya Al-Baladhuri, *Kitab Futuh al-Buldan*, ed. M. J. de Goeje (Leiden: E. J. Brill, 1866), 78, 431-432; Abu Ja'far Muhammad b. Jarir al-Tabari, Ta'rikh al-Rusul wa al-Muluk, ed. M. J. de Goeje et al. (first published in Leiden, 1879-1901, reprint, Beirut: Khayat, 1965), IV: 2023, VI: 2546-8.

5 - Muhammad ibn Ahmad al-Muqaddasi, *Kitab ahsan al-Taqasim fi Ma'rifat al-Aqalim*, ed. M. J. de Goeje [Bibliotheca Geographorum Arabicorum, III] (Leiden: E. J. Brill, 1877), 18, 79.

6 - Hopkins, 312.

7 - Dionisius Agius, *Arabic Literary Works as a Source of Documentation for Technical Terms of the Material Culture* (Berlin: Klaus Schawrz, 1984), 43-46.

8 - Maqbul S. Ahmad, "Djughrafiya," *Encyclopedia of Islam* (Leiden: E. J. Brill, 1965) II: 583.

9 - Gerald R. Tibbetts, Arab Navigation in the Indian Ocean before the Coming of the Portuguese : a translation of *Kitab al-Fawa'id fi Usul al-Bahr wa l-Qawa'id of Ahmad b. Majid al--Najdi* (London: The Royal Asiatic Society of Great Britain & Ireland, 1981), 7, 27.

10 - Abu al-Hasan ibn al-Husayn al-Mas`udi, *Muruj al-Dhahab wa Ma'adin al-Jawahar,* Les prairies d'or, edited and translated C. barbier de Meynard and Pavet de Courteille (Paris: Imprimerie Imperiale, 1861-1877), I: 224-226.

11 - al-Tabari, II: 820, 836, 838-9.

12 - 'Al-Baladhuri, 78, 4312; see also al-Tabari, IV: 223, V: 2546-2548.

13 - Al-Mas'udi, I: 224-226.

14 - Al-Tabari, V: 2384.

15 - Abu 'Ali Ahmad ibn 'Umar Ibn Rustah, Kitab al A'laq al-Nafisah, ed. M. J. de Geoje [Bibliotheca Geographorum Arabicorum,7] (Leiden: E. J. Brill, 1892), 94; see also al-Tabari, IV: 2023.

16 - Zhang Jun-Yan, "Relations between China and the Arabs in early times," *Journal of Oman Studies* (1980) 6, I: 92-3.

17 - Ross E. Dunn, *The Advenures of Ibn Batuta: A Muslim Traveler of the 14th Century* (Berkeley, Los Angeles: University of California Press, 1986), 222.

18 - Ahmad ibn Abi Ya'qub ibn Wadih al-Ya'qubi *Kitab al-Buldan* ed. M. J. de Goeje [Bibliotheca Geographorum Arabicorum, 7] (Leiden: E. J. Brill, 1892), 237m 250.

19 - Al-Tabari, X: 272.

20 - 'Ubayd Allah ibn Khurradadhabih, *Kitab al-Masalik wa l-Mama-lik*, ed. M. H. de Goeje [Bibliotheca Geographorum Arabicorum, 6] (Leiden: E. J. Brill, 1889), 60-69; see also al-Mas'udi, I; 229-230.

21 - J. T. Reinaud, *Relation des voyages faits par les Arabes et les Persans dan l'Inde et la Chine* (paris: 1845) I: 12; II: 14; and G. Ferrand, *Voyage du marchand arabe Sulayman en Inde et en Chine* (Paris: 1922), 18-19.

22 - al-Muqaddasi, 422-27.

23 - Abu ishaq Ibrahim ibn Muhammad al-Istakhri, Kitab al-Masalik wa Mamalik, ed. M. J. de Goeje [Bibliotheca Geographorum Arabicorum, VIII] (Leiden: E. J. Brill, 1870), 34, 127.

24 - Ibn Khurradadhabih, 52-3; see also Al-Maqaddasi, 154-55.

25 - Yaqut ibn 'Abd Allah al-Rumi, *Kitab Mu'jam al-Buldan*, ed. F. Wustenfeld (Leipzig: F. A. Brockhaus, 1866-1870), I: 502; III: 221.

26 - al-Istakhri, 32-33; see also al-Mas'udi, I: 229-230; and al-Muqaddasi, 17.

27 - Abul al-Qasim, *Kitab al-Masalik wa l-Mamalik*, ed. M. J. de Goeje [Bibliotheca Geographorum Arabicorum, 6] (Leiden: E. J. Brill, 1873), 150; see also al-Muqaddasi, 177, 130, 413.

28 - al-Istakhri, 32, 33; see also al-Mas'udi, II: 229-30; and al-Muqaddasi, 17.

29 - George Fadlo Hourani, *Arab Seafaring in the Indian Ocean in Ancient and Early medieval Times* (first published by Princeton, 1951, reprint, Beirut: Khayats, 1963), 72.

30 - Akhbar *al-Sin wa-al-Hind* (Relation de la Chine et de l'Inde) edited and translated by J. Sauvaget (Paris: 1948), sec. 11.

31 - Dionisius Agius, "A selfish pursuit in a slave uprising of third/ninth century Iraq," *Slavery and Abolition* (1983), 4 I: 3, 18.

32 - Wilfred Madelung, "Kurmati," *Encyclopedia of Islam* (Leiden: E. J. Brill, 1990), IV: 644.

33 - al-Muqaddasi, 375, 380; see also al-Mas'udi, I: 97; and Yaqut, I: 513.

34 - S. A. Huzayyin, *Arabia and the Far East* (Cairo: Institute Francais d' Archeologie Orientale, 1982), 182.

منطقة الخليج العربي في رحلة بنيامين التطيلي

حمد محمد جمعة بن صراي

دكتوراه في التاريخ (جامعة مانشستر ١٩٩٣).
المستشار الثقافي لسمو الشيخ خالد بن صقر القاسمي ولي عهد حاكم رأس الخيمة ونائبه.
إماراتي من مواليد رأس الخيمة ١٩٦٣.

الوظائف:

- معيد بقسم التاريخ والآثار بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية (جامعة الإمارات ١٩٨٦ - ١٩٩٣).
- مدرس في القسم المذكور (حالياً).
- عضو الهيئة الاستشارية لمجلة الفن والتراث الشعبي برأس الخيمة.

من نتاجه:

«ما كان (عمان) المصادر القديمة لتاريخها وتجارتها» (رسالة ماجستير).
«الخليج العرب من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن الأول والثاني» (رسالة دكتوراه).
«السكان القدماء لشبه جزيرة عمان» (مجلة شؤون اجتماعية ع ٤٣، ١٩٩٤).
«مسميات قديمة لعمان» (ندوة التراث العماني، ديسمبر ١٩٩٤).
«الدوريات التاريخية في مكتبة زايد المركزية» (ندوة دراسة التاريخ في الجامعات الخليجية الكويت مارس ١٩٩٥).
وله دراسات أخرى بالعربية والانكليزية أرسلت إلى عدد من المجلات.

يتناول هذا البحث مولد بنيامين، وحياته وبداية رحلته، كما يقدم وصفاً موجزاً جداً لرحلته بدءاً من سفره حتى عودته إلى إسبانيا، مع التركيز على أهمية رحلته. أما فيما يتعلق بالأماكن والمدن الخليجية المذكورة في الرحلة وهي : البصرة وخوزستان وسوسة والقطيف وجزيرة قيس، فيذكر البحث المعلومات الواردة عنها في الرحلة مع التعريف الجغرافي لهذه المواضع والمدن، ومقارنة تلك المعلومات بما ورد في المصادر العربية الإسلامية الكلاسيكية، والمصادر الحديثة والآثار المكتشفة وذلك في عرض موجز. كما يذكر خلفية تاريخية موجزة جداً عن هذه الأماكن.

من هو بنيامين التطيلي ..؟

يعدّ بنيامين التطيلي(١) أحد أشهر الرحالة اليهود في القرون الوسطى. وُلد بمدينة تطيلة في شمال الأندلس ولكن لا يعرف تاريخ ميلاده بالتحديد، بدأ رحلته عام ٥٥٥هـ = ١١٥٩م أو ربما عام٥٦٣هـ = ١١٦٧م، وعاد إلى الأندلس في عام ٥٦٨/٥٦٩هـ = ١١٧٢/١١٧٣م، بعد أن قضى في رحلته ١٣ سنة على الأكثر.

أطلق عليه غير اليهود لقب حاخام (رابّاي) على الرغم من عدم وجود ما يثبت هذا اللقب عليه من جانب العلم والمعرفة والتبحّر في الديانة اليهودية. وهدف رحلته غير معروف بالتحديد، ولكنه من المحتمل أن يكون تاجر سلع نفيسة كالجواهر والأحجار الكريمة والمرجان، إذ أبدى في كثير من الأحيان اهتماما كبيراً بها، مع تركيزه على الجوانب الاقتصادية في المناطق التي يمر بها، مما يوحي أنه كان تاجراً، وربما كان يهدف إلى زيارة الأماكن اليهودية المقدسة، وكثير من المعلومات الواردة في رحلة بنيامين تعتمد على مشاهداته وتجاربه الشخصية خلال رحلته الطويلة.

وقد شكك باحثون في نسبة هذه الرحلة إلى بنيامين، وقالوا : إنه لم يزر جميع الأماكن الواردة في رحلته، بل نقلها من كتب التاريخ والجغرافية الإسلامية.

بدأ بنيامين رحلته من تطيلة في الشمال الإسباني إلى سرقسطة فبرشلونة، ثم اتجه إلى مقاطعة جيرونة حيث مر بعدد من مدنها مثل : نربونه وبيزارس، وأعطانا تفاصيل دقيقة عن الوضع التعليمي والعلمي، وركّز على علماء تلك المنطقة، مع إعطاء اهتمام واضح بالحالة الاقتصادية في تلك المدن.

ومن مرسيليا الفرنسية سافر بحراً إلى مدينة جنوة، ومن هناك اتجه إلى روما عَبْر پيزا، ولقد بقي في روما مدة طويلة حيث وصف آثارها وعمائرها التاريخية، وكتب كذلك عن الجالية اليهودية في المدينة وعلاقتها بالبابا الإسكندر الثالث مما يوحي أنه كان في روما مباشرة بعد تنصيب هذا البابا(٢) في منصب البابوية في سبتمبر ١١٥٩م أو ربما في الفترة القصيرة لإعادة تنصيبه من نوفمبر ١١٦٥ إلى يوليو ١١٦٧.

بعد روما اتجه بنيامين إلى جنوب إيطاليا واصفاً وبإسهاب أحياناً الحياة والظروف في عدد من المدن التي مر بها مثل : ساليرنو وأمالفي وبرنديزي. وفي طريقه إلى أوترانتو وصف كل ما رآه، فأخبر مثلاً عن الجامعة الطبية العظيمة في ساليرنو، وحقول النفط بالقرب من سورينتو، وميناء تراني منطلق الحملات الصليبية. ومن أوترانتو استقل سفينة قاصداً أرتا، ومنها اتجه إلى بلاد اليونان حيث شاهد صانعي الحرير اليهود، وأشار إلى المزارعين اليهود في مستوطنة كريسا بجبال پرناسوس، ثم استقر به التجوال مدة في القسطنطينية حيث وصف هذه المدينة وكنائسها وقصورها وإداراتها وظروف سكانها من اليهود وغيرهم وصفاً دقيقاً ورائعاً ومهماً، ثم غادرها عبر أرخبيل بحر إيجه ماراً بجزر مايتيليني وخيوس وساموس ورودوس حتى وصل جزيرة قبرص.

ومن قبرص واصل سفره قاصداً أنطاكية ثم صيدا فصور فعكا، ومنها إلى أرض فلسطين التي كانت تحت الاحتلال الصليبي، حيث تجول في ربوعها،

ووصفها وصفاً دقيقاً وبخاصة بيت المقدس. زار كل مدينة مهمة في فلسطين، ولاحظ فيها الجاليات اليهودية، وسجل مهن اليهود وقادتهم وعلماءهم. ثم اتجه إلى دمشق فحلب ثم الموصل، وقضى مدة في بغداد، ووصف دار الخلافة فيها ومؤسساتها ومبانيها، كما أشار إلى الجالية اليهودية ودورها التعليمي، وتجول في عدد من مدن العراق كسورا والبصرة. ويعد بغداد بدأ في وصف فارس وميديا، وعند ذكره اليهود المستوطنين في فارس نجد مبالغة في أعدادهم وقوتهم.

ما تبقى من الرحلة يتطرق إليه الشك من حيث زيارة بنيامين إلى هذه المناطق، ويعتقد بعض الباحثين أنه نقل معلوماته من مصادر أخرى، فقد ورد في رحلته وصف لجزيرة قيس والقطيف، وجنوب شبه الجزيرة العربية. كما يرد وصف لساحل مليبار وعادات سكانه، ومناخه وسلعه من الزنجبيل والفلفل والبهارات، كما أشار إلى يهود مليبار. بعدها يرد وصف لجزيرة سيلان والطريق التجاري بين سيلان والصين والبحر الأحمر، وترد في الرحلة إشارات مختصرة إلى اليمن والحبشة، ولكن بنيامين استفاض في وصف مصر، عندما زار القاهرة والإسكندرية، وتطرّق إلى حياة اليهود في مصر، ووصف نهر النيل وفيضانه، وأشار إلى منتجات مصر الزراعية وتجارتها وإداراتها الحكومية، ثم غادرها إلى صقلية ووصف باليرمو بدقة، ومنها عاد إلى إسبانيا.

أهمية رحلة بنيامين

يعدّ بنيامين أول رحالة يهودي يهتم بالجوانب الاقتصادية والجغرافية للأماكن والجاليات اليهودية التي مرّ بها، فقد كان اليهود من قبله يقومون دائماً برحلات، بوصفهم مفاوضين وتجاراً، ولكن معلوماتهم الجغرافية الواردة عندهم قليلة جدا وغير متطورة، أما هو فقد أعطى دفعة قوية وتطويراً كبيراً للرحلات عند اليهود. كذلك عرّف يهود أوربا أو على الأقل يهود إسبانيا بأوضاع إخوانهم في المناطق التي زارها وبالذات بلاد المشرق.

أورد بنيامين في رحلته بعض المعلومات القيّمة كالمسافات بين المدن التي زارها، وأخبر عن رؤساء الطوائف والجاليات اليهودية، والعلماء اليهود المشهورين في تلك المدن، وركّز على حياتهم وعلاقاتهم بالقوى المحيطة، وقدّم الصورة المثلى والنوعية الممتازة لليهود، وذكر أسماء كل المشاهير من اليهود، كما ركّز على أعداد اليهود في تلك المدن، على الرغم من أن هذه الأعداد لا تخلو من مبالغات مثل أعداد يهود بغداد، ولكنه عند ذكره لأعداد اليهود لم يشر إلى كون أولئك اليهود أفراداً أو أسراً. تحدّث بنيامين أيضاً عن الأوضاع الاقتصادية فوصف نشاطات التجار في عدد من الأماكن مثل برشلونة والإسكندرية، كما ركّز على مهن اليهود مثل الصباغة في برنديزي، ونسيج الحرير في طيبة، والدباغة في القسطنطينية، وصناعة الزجاج في حلب وصور.

أعطى اهتماماً خاصاً ووصفاً دقيقاً للجانب التعليمي والعلمي والعلماء وتنظيم المعابد وأداء الطقوس الدينية عند اليهود في المناطق التي زارها مثل بغداد وفلسطين ومصر وقبرص.

أورد كذلك بعض المعلومات والأحداث مثل الصراع بين جنوه وبيزا، والموانئ الصليبية في جنوب إيطاليا، وقصور ومهرجانات القسطنطينية، كما أشار إلى غنى الإمبراطورية البيزنطية، وضعفها في الوقت ذاته، إضافة إلى إيراده معلومات جيدة عن فرقة الحشاشين في لبنان، وعن الأتراك الغزاة.

كما تحدث بنيامين عن الطوائف الدينية المختلفة عند النصارى والمسلمين واليهود، وأورد معلومات عن العادات والتقاليد وطرق الدفن عند الوثنيين، وأشار إلى الأطعمة عند عدد من الشعوب التي مرّ بها.

ويبدو أن بنيامين لم يقم بزيارة جميع الأماكن التي ذكرها في رحلته مثل أجزاء من فارس والهند وسيلان وفرنسا وألمانيا وبولندا وروسيا، ومن المحتمل أنه سمع بعض تلك المعلومات في بغداد على أنها مدينة العلم وملتقى العلماء.

كانت الرحلة هي الوحيدة التي خلّفها بنيامين وتدل كتابته بالعبرية على معرفته بالعربية، كما تدل على ثقافته الأندلسية، وربما كان بفكره ينتمي إلى جماعة من اليهود الأندلسيين الذين جمعوا بين الأدبين اليهودي والعربي. وتتضح من خلال الرحلة معرفته بالتوراة، حيث يورد بعض النصوص.

كتبت رحلة بنيامين أولاً بالعبرية ثم نشرت باللاتينية والفرنسية والدانماركية واليونانية والإنجليزية، وأول نسخة عبرية منها طبعت سنة ١٥٤٣ في إستانبول، وأحسن النسخ هي النسخة المنسوبة إلى آشر، وتقع في مجلدين، طبعت في لندن عام ١٨٤١ مع ترجمة إنجليزية وحواشٍ تحقيقية كثيرة.

والخلاصة فإن أهمية هذه الرحلة تكمن فيما يلي :

١ – تحتوي الرحلة على معلومات وافية عن أعداد اليهود وموقفهم ومكانتهم في القرن الثاني عشر.

٢ – تقدم الرحلة معلومات أولية عن تاريخ التجارة في أوربا وآسيا وأفريقيا أيام الحروب الصليبية.

٣ – تشتمل على معلومات أولية وأساسية عن بعض الطوائف الدينية مثل الحشاشين في سوريا وفارس.

٤ – تبيّن الرحلة الصلة التجارية بين الهند والصين.

وسوف نتحدث عن منطقة الخليج العربي من خلال ذكر بنيامين للمناطق والمدن التالية، والمرتبة ألفبائياً:

١ - مدينة البصرة

يقول بنيامين عن مدينة البصرة : إن «موقعها على شط دجلة، وفيها نحو ١٠،٠٠٠ يهودي، بينهم العلماء والعظماء..»(٣).

وجريا على عادته في تتبّع أعداد وأوضاع الجاليات اليهودية في المدن التي يزورها ينبع تحديده ووصفه للجالية اليهودية في مدينة البصرة، وستتم مناقشة هذه العبارة من خلال معرفة حقيقة وحجم وتاريخ الوجود اليهودي في المدينة. الحقيقة أن مدينة البصرة تعدّ مركزاً مهماً من مراكز اليهود في جنوب العراق، إلا أنه لا يُعلم بالتحديد متى استقر اليهود فيها، هل بمجرد بنائها على أيدي المسلمين عام ١٧هـ؟ أم تأخر ذلك إلى فترات تلت..؟ ولكن من المحتمل أن يهود البصرة قد قدموا إليها من مدينة أباميا الميسانية، ومن بابل وسورا بعد انهيارهما، وأيضاً لا يعرف كم كانت أعداد اليهود في بداية استقرارهم في البصرة، وفي أي أحيائها استقروا. ومن المرجح أن أعدادهم في القرون الهجرية الأولى لم تكن بالقليلة، أسوة بباقي المدن الكبيرة في العراق وفارس(٤).

ومع تتبّع تاريخ الجالية اليهودية في البصرة نجد أن هذه المدينة قد أظهرت عدداً من علماء اليهود المبرزين في الطب الذين عملوا بعد ذلك في فلسطين ومصر، ومن أشهر هؤلاء الأطباء ماسرجويه(٥). وكان يهود البصرة على علاقة طيبة ومراسلات مع علماء يهود بغداد، يسألونهم في أمور تطرأ عليهم في أثناء مزاولتهم مهنتهم(٦). ومن علماء الدين اليهود البصريين شمعون بن كايارا الذي ألّف كتاباً باسم «هلاكوت چيدولوت» في حوالي عام ٨٢٥م(٧).

كما شارك يهود البصرة في دعم إخوانهم اليهود في مناطق العراق الأخرى، فكانوا يساهمون مثلاً بمبلغ ٣٠٠ دينار سنوياً لحماية وصيانة المدرسة اليهودية في مدينة سورا. وعندما انهارت تلك المدرسة لجأ علماؤها إلى البصرة، وكان ومن أشهرهم الحاخام يوسف بن يعقوب آخر رؤساء المدرسة الذي استقر في البصرة وتوفي فيها. كذلك فإن يهود البصرة لجؤوا إلى الحاخام شريرا وابنه حي(٨) يستفتونهما فيما يطرأ عليهم من أمور الدين

والدنيا، مما يدل على حرصهم على اتباع الديانة وتجنّب ما يخالفها. إضافة إلى أن علماء يهود البصرة كانوا أنفسهم على قدر كبير من الفهم والدراية بالتلمود والديانة اليهودية، يجيدون اللغات العربية والعبرية والآرامية، وقد سموا العربية باسم «اللسان (اللغة) الإسماعيلي» (tiwzzcghw)(٩). وهناك نهر حول البصرة يدعى نهر اليهودي، ولا يزال محتفظاً باسمه إلى اليوم(١٠).

ولقد نالت مدينة البصرة حظاً كبيراً من الدراسة والذكر في كثير من المصادر القديمة والحديثة، فوُصفت المدينة وأحياؤها وعمارتها وبيئتها وقبائلها وشوارعها، وتعدّ الدراسة التي أعدها الأستاذ الدكتور صالح أحمد العلي من أوفى وأفضل الدراسات عن هذه المدينة العظيمة(١١).

٢ - خوزستان وسوسة

قال بنيامين التطيلي «خوزستان أو عيلام الواردة في التوراة. وهي كبيرة، لكن أكثرها خراب غير مأهول، وتتوسط هذه الخرائب قلعة شوشان (سوسة)، وفيها قصر الملك أحشويرش، وهو بناء قديم على جانب كبير من الفخامة والروعة، ويخترق المدينة نهر أولاي (قارون) أحد روافد دجلة، فيشطرها إلى شطرين يصل بينهما جسر، وفيها نحو ٧٠٠٠ يهودي، وعندهم ١٤ معبداً. في أحدها قبر النبي دانيال(١٢).

لفظة خوزستان تعني بلد الحوز أو الخوز(١٣). وخوزستان الآن مقاطعة في جنوب غرب إيران، على حدود العراق، مساحتها ١١٧،٧١٣كم٢، عاصمتها مدينة الأهواز(١٤). وقد عُرفت خوزستان تاريخياً باسم عيلام، وكانت عاصمتها التاريخية والحضارية مدينة سوسة. وإقليم عيلام كان مهداً لحضارة ومملكة من أقدم حضارات وممالك الشرق القديم، وكان لها صلات سياسية واقتصادية وعسكرية قوية بممالك بلاد الرافدين : الأكادية والبابلية والآشورية(١٥).

وأحشويرش المذكور في نص بنيامين هو بلا شك الملك أحشويرش الأول بن درايوس الأول (٤٨٥ – ٤٦٥ ق.م.) أحد الملوك العظماء في الدولة الأخمينية الفارسية(١٦).

أما بخصوص الوجود اليهودي في مدينة سوسة وإقليم خوزستان، فكما هو معروف فإنه كانت لليهود جاليات كبيرة في المدن الكبيرة في خوزستان، واحتلت مكانة اقتصادية مرموقة، فمثلاً تعدّ الغالبية العظمى من تجار تستر وإصفهان والأهواز من اليهود الذين كانت لهم صلات تجارية واقتصادية عالمية(١٧). وقد أثبت التلمود أنه كان للجالية اليهودية مكانة كبيرة في خوزستان وكانت لها صلات اقتصادية وعائلية واجتماعية ودينية قوية ومتميزة بيهود بابل(١٨). كما يؤكد المقدسي حقيقة وجود عدد من اليهود في الأهواز(١٩).

أما فيما يتعلق بذكره أن أجزاء من إقليم خوزستان غير مأهولة ومقفرة، فهذا صحيح، فهناك مناطق صحراوية في الإقليم، خاصة تلك الأراضي البعيدة عن الأنهار، وهناك أيضاً أجزاء من الإقليم تغمرها المياه والمستنقعات والأهوار غير المأهولة(٢٠).

٢ - القطيف

أشار إليها بنيامين بقوله : قطيفا(٢١) (القطيف)، وفيها نحو ٥٠٠٠ يهودي (إسرائيلي). وفيها أيضاً مغاصات الجوهر المعروف بالدر. وفي حوالي الرابع والعشرين من شهر نيسان (أبريل) تتساقط قطرات المطر الكبيرة على سطح الماء تبتلعها زواحف (حيوانات) (أو محار)، وينطبق عليها ويغوص في قعر البحر. وفي حوالي منتصف تشرين (أكتوبر) يحضر الغواصون فيربطون حول أحقائهم الحبال، ثم يغوصون في الماء طلباً لهذه الزواحف (الحيوانات) (أو المحار)، يخرجونه ويفتحونه، فيجدون الدر في جوفه(٢٢).

يغلب على هذا النص التشويش والغموض وجهل بنيامين بتشكيل اللآلئ في الأصداف، وهذه الفكرة المشوشة وردت أيضاً عند عدد من الكتّاب المسلمين الذين ذكروا أن حيواناً صغير الحجم يخرج من قاع البحر إلى السطح في أول الربيع، فإذا ما هطلت الأمطار، فإنه يلتقط قطرات المطر ويخزنها بداخله، ثم يعود إلى قاع البحر، وبعد مدة ينضج هذا الماء، وينعقد متحولاً إلى لؤلؤ(٢٣). ولكن مثل هذه الاعتقادات لا تتفق مع ما قرره العلم الحديث عن كيفية تكوّن اللؤلؤ. أما طريقة استخراج اللؤلؤ فهي كما وصف الرحّالة، إذ اتبع أهل المنطقة هذه الطريقة حتى عصور ما قبل النفط، إذ يقوم الغواص عن طريق التعلق بحبل بالغوص إلى أعماق البحر، وقد أشار عدد من الكتّاب إلى طريقة الغوص هذه(٢٤). كما سجلت الأشعار هذه الطريقة في الغوص(٢٥).

والقطيف مدينة من أهم مدن إقليم البحرين، كما يطلق هذا الاسم على واحة من أعظم واحات شبه الجزيرة العربية، وتقع على الساحل الشمالي الشرقي، شمالي العقير وشمالي شرق الهفوف(٢٦)، تحدها الصحراء من الشمال والشرق بينما يحدها من الشمال بر الظهران(٢٧). وطول الواحة من الشمال إلى الجنوب ٢٢كم(٢٨). وواحة القطيف مشهورة بحدائق وبساتين النخيل والفواكه والخضروات، وكذلك بوفرة المياه العذبة(٢٩). ولقد أشار عدد من الجغرافيين والمؤرخين المسلمين إلى القطيف على أنها مدينة عظيمة وميناء مهم دائم الحركة، وأن بها مغاص اللؤلؤ(٣٠). وكانت القطيف مركزاً تجارياً مهماً في منطقة الخليج العربي، وكانت لها علاقات تجارية قوية مع البصرة(٣١)، وقد أطلق اسم القطيف على ما يقابلها من مياه الخليج، فكان يسمى أحياناً ببحر (خليج) القطيف(٣٢).

وفي الحقيقة لا يعرف تاريخ تأسيس هذه المدينة بالتحديد ولكن من الراجح أنه كان في فترة ما قبل الإسلام، فقد ذكر بليني اسم قبيلتين تقطنان ساحل الخليج العربي هما «كاتيني» (Chatene) وكاولوبيس (Caulope)، وسمي الخليج الذي تسكنان بالقرب منه خليج كابيوس (Sinus Capeus) الذي يحتمل أن يكون خليج القطيف. أما اسم كاتيني فهو قريب من «الخط»،

الاسم العربي لسيف البحرين، وربما كانت لفظة كاپيوس تحريف للاسم الآخر الوارد أيضاً عند پليني وهو «كاتيوس» (Cateus) الذي يشير إلى اسم القطيف(٣٣). وتسمى القطيف أحياناً الخط(٣٤).

وعلى مر تاريخها الطويل فإن القطيف قد شهدت أحداثاً جساماً، وخضعت سياسياً وعسكرياً لعدد من الدول والملوك والثائرين، يطول المقام لشرحها، وليس في هذا البحث مجال للحديث عنها(٣٥). ولكن في فترة زيارة بنيامين للمدينة كانت القطيف تحت حكم العيونيين (٤٦٦ - ٦٣٦هـ)(٣٦)، إذ كانت عاصمة للإمارة العيونية(٣٧).

أما ما حدّده بنيامين من أعداد اليهود في القطيف فإنه الرقم الوحيد الذي ورد في أعدادهم علماً أن اليهود كانوا موجودين في المنطقة منذ القدم. ومن المحتمل أن بنيامين قد بالغ في أعداد اليهود من أنهم ٥٠٠٠ نسمة(٣٨) في مدينة واحدة وهي القطيف، فكم هي إذن أعدادهم في مدن المنطقة الأخرى..؟

أما منطقة البحرين عموماً، فقد وُجدت فيها جالية يهودية منذ زمن بعيد لا يعرف بالتحديد، ومن المحتمل أنهم قدموا إلى المنطقة من بابل وجنوب العراق منذ القرون الميلادية الأولى وربما أبكر بقليل(٣٩) . وربما هاجروا كذلك في أزمان لاحقة خاصة بعد الاضطهاد الذي وقعوا تحته في عصر الملك الفارسي فيروز بن يزدجرد الثاني (٤٥٧ - ٤٨٤م)، مما دفع مجموعات من يهود فارس وجنوب العراق إلى الهجرة إلى منطقة البحرين والاستقرار مجاورين فيها من سبقهم من اليهود(٤٠).

وقد وردت الإشارة إلى يهود البحرين عند وصول الإسلام إلى هذه المنطقة، حيث أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه إلى البحرين يدعو أهلها إلى الإسلام، وصالح من فيها من اليهود، وأدوا الجزية ديناراً عن كل حالم(٤١). كما ورد أن المنذر بن ساوى والي البحرين كتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يخبره أن في البحرين يهوداً ومجوساً، ويسأله كيف يتعامل معهم، فكتب إليه صلى الله عليه وسلم «من

أقام على يهودية، أو مجوسية فعليه الجزية»(٤٢)، فاحتفظ اليهود بديانتهم الحرية في ممارسة طقوسهم، وكانوا من أهل الذمة(٤٣).

وقد عمل يهود البحرين في التجارة ومن أبرز الشخصيات اليهودية التي عملت في التجارة ابن يامن(٤٤) الذي امتلك أسطولاً تجارياً كبيراً وضياعاً وبساتين، ولقد أصبح ابن يامن هذا مضرب الأمثال لدى الشعراء، إذ قال فيه طرفة بن العبد، يصف سفنه التجارية :

عَدوْلِيّة أو مِن سَفين ابـنِ يامـنٍ   يجورُ بها الملاح طَوْرا ويَهْتـدِي(٤٥)

وقال امرؤ القيس يصف بساتين نخيله وكثافتها :

أو الـمُكرِعاتِ من نَخيلِ ابن يامنٍ

دُوَينَ الصفا اللائي يلينَ الـمُشقّرا(٤٦)

وبن يامن أو بنيامين اسم يهودي معروف ورد في عدد من الكتابات والنقوش اليهودية وغير اليهودية(٤٧).

وهناك تاجر آخر من أهالي هجر والبحرين يدعى وثيل(٤٨)، يبدو من اسمه أنه يهودي الأصل، مما يؤكد أن يهود البحرين كانت لهم قدم راسخة في تجارة المنطقة وزراعتها(٤٩).

٤ - جزيرة قيس (كيش)

تقع هذه الجزيرة على بُعد ١١ ميلاً من الساحل الفارسي(٥٠). مقابل قرية كرزة، ويسميها الفرس كيش(٥١). وجزيرة قيس تقع بالقرب من مدخل الخليج العربي، سماها الملاح العربي المشهور، ابن ماجد باسم «جزيرة الملوك»(٥٢).

قال عنها الرحالة بنيامين التطيلي «.... أرض هذه الجزيرة شحيحة المياه، ولا توجد في كل الجزيرة إلا عين ماء واحدة، وأغلب شرب أهلها من ماء المطر، ويبلغ طول هذه الجزيرة ستة أميال، وسكانها لا يقومون بأي نوع من

الزراعة، لعدم وجود الأنهار، وهي مركز تجاري مهم، ومحطة تجمع يأتي إليها التجار الهنود والتجار المحليون، يجلبون إليها منتجاتهم وبضائعهم، بينما يقوم تجار العراق واليمن وفارس بجلب كل أنواع الحرير والثياب الأرجوانية والكتانية والقطنية، وخيوط القنب والجريش والقمح والشعير وبيض السمك والماش ونبات الجاوداد وكل أنواع الأطعمة والحبوب الأخرى، ويجلب التجار الهنود كميات كبيرة من البهارات وتصبح هذه السلع محل التبادل التجاري. وأغلب سكان الجزيرة دلالون ووسطاء بين هذا الحشد الغفير من التجار. ويقيم في الجزيرة حوالي ٥٠٠ يهودي»(٥٣).

يبدو من هذا النص أن بنيامين التطيلي قد زار الجزيرة في فترة ازدهارها القصوى(٥٤). وهو أول أوربي يزور جزيرة قيس(٥٥). ويلاحظ من وصف بنيامين للنشاط التجاري في جزيرة قيس أن الجزيرة قد بدأت تحل مكان سيراف وأن ثمة تبدل في المركز التجاري الرئيسي في شمال شرق الخليج إذ فقدت سيراف كثيراً من مكانتها التجارية، وانتقل مركز الثقل إلى جزيرة قيس فيما بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين(٥٦).

وبالمقارنة بين ما أورده بنيامين التطيلي وبين ما ورد في بعض المصادر الإسلامية نجد بعض الاختلافات مع وجود اتفاق في معلومات بنيامين والمعلومات الواردة في المصادر الإسلامية. فمثلاً : الأهمية التجارية وازدهار النشاط التجاري وتبادل السلع ووفرة الأقوات التي أشار إليها بنيامين نجد تأكيداً لها عند ياقوت الحموي الذي يقول : «وهي مرفأ مراكب الهند وبر فارس .... وفيها أسواق وخيرات(٥٧). وأن إشارة بنيامين إلى أن سكان الجزيرة يعتمدون على مياه الأمطار وقليل من الآبار في شربهم، تتفق مع ما أوردته المصادر الإسلامية(٥٨).

أما بخصوص عدم وجود الزراعة في الجزيرة، فإن بنيامين يخالف بذلك ما ذكرته المصادر الإسلامية، يقول ابن خرداذبه «فيها نخل وزرع وماشية ولها غوص اللؤلؤ الجيد»(٥٩)، وابن خرداذبه من أقدم الجغرافيين المسلمين الذين أشاروا إلى الجزيرة. وقال ياقوت الحموي : إنها ذات

بساتين(٦٠)، كما أكّد ابن المجاور(٦١) أن في الجزيرة بساتين النخيل. أما أبو الفداء(٦٢) فيقول: إن زراعة النخيل على الجزيرة كانت محدثة. وفي بدايات هذا القرن يؤكد لوريمر أن في الجزيرة زراعة النخيل والقمح والشعير والبطيخ وأنواع من الخضروات كالبصل مثلاً والتي تُسقى من مياه الآبار(٦٣).

ولا نعلم بالتحديد سبب هذا الاختلاف في وصف الوضع الزراعي في الجزيرة بين بنيامين وغيره من المصادر، وربما يعود ذلك إلى كونه لم يبق في الجزيرة إلا وقتاً قصيراً جداً، لم يسمح له بالتجول في أنحائها واستكشافها، واكتفى بروايات البحارة والمسافرين. وهذا ربما يثير الشك في حقيقة زيارته للجزيرة أصلاً، خاصة أنه لم يذكر أسماء علماء وقادة الجالية اليهودية في الجزيرة التي حدد حجمها بـ ٥٠٠ فرد. ولحل هذا الإشكال نرجح أن بنيامين لم يقض وقتاً طويلاً على الجزيرة يمكنه من استكشافها والالتقاء طويلاً بالجالية اليهودية فيها، واكتفى بما شاهده من نشاط تجاري على الميناء حيث رست السفينة.

ولقد ورد في وصف بنيامين للجزيرة أن طولها يبلغ حوالي ستة أميال، بينما يحدد لوريمر طولها بحوالي عشرة أميال(٦٤). وهذا الاختلاف في التحديد ليس كبيراً وربما يعود إلى اختلاف المقاييس والمسافات بين القرن الثاني عشر والقرن العشرين، أو ربما يعود ذلك إلى عدم امتلاك بنيامين لوسائل القياس الدقيقة.

الخلاصة

لقد سجّل بنيامين التطيلي في رحلته ما شاهده وما سمعه وما نقله خلال تطوافه الواسع في أجزاء من أوربا وآسيا وأفريقيا، فقدّم لنا بذلك معلومات قيّمة عن الشعوب والقبائل التي التقى بها أو التي سمع عنها. كما سجّل في رحلته معلومات وافية ودقيقة عن الجاليات اليهودية وزعمائها وقادتها وعلمائها وأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والدينية، فكان بذلك أول الرحّالة اليهود الذين ساهموا في إثراء علم الرحلات.

لقد سجّل في رحلته معلومات عن البصرة وخوزستان وسوسة والقطيف وقيس، قد يتّفق في بعضها مع المصادر الأخرى وقد يختلف معها. ولكن ذلك لا يقلّل من أهمية المعلومات عن أوضاع اليهود وأعدادهم وعن طريقة الغوص والحياة الاقتصادية والتجارية في منطقة الخليج العربي.

١ – ما يرد من معلومات عن هذا الرحالة فهي مستقاة من: بطرس البستاني،«دائرة المعارف»، بدون تاريخ، بيروت، ٥/٦٣٢؛ رحلة بنيامين التطيلي، ترجمها إلى العربية عزرا حداد، بغداد، ١٩٤٥، ص ٢٢ – ٤٢؛
Beayzley, C. R., *The dawn of modern geography*, (London), vol. 2, 218 - 22; Bacher, W., "Benjamin of Tudela", *The Jewish Encyclopeda*., vol. 3, 34 - 35; Waxman, *A history of Jewish literature*, (New York, 1930), 440 - 445; Kravitz, N., *3000 Years of Hebrew Literature*, (Chicago, 1972), 563; Roth, C., "Benjamin (Ben Jonah) of Todela", *EJ*, vol. 4, cols. 535 - 538; Borchardt, P., "The Sculpture in Front of the Lateran as Dercribed by Binjamin of Tudela and Magister Gregorius, *Journal of Roman Studies*, 26 (1936), 68.

٢ – اسمه الأصلي رولاند، باندينيللي، وُلد حوالي عام ١١٠٥م، من أسرة لها اهتمامات كبيرة بالعلوم. ترقى في السلم الكنسي حتى انتخب بابا عام ١١٥٩م إلى وفاته في أغسطس ١١٨١م. دخل في خلاف مع الإمبراطور فريدريك بربروسا الأول إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة. انظر:
(Czap, P., "Alexander III", *Ency. Americana*, vol. 1, p. 350; Powell, J. M., "Alexander III", *Britannica*, (Chicago, 1991), vol. 1, 240 - 241).

3 - *The Itinerary of Rabbi Benjamnin of Tudela*, ed. A. Asher,), vol. 1, 137; The *Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela*, ed. M. A. Signer, (Joseph Simon Publisher, n. d), 108.

4 - Fishel, W. J., *Jews in the Economic and Political Life of Medival Islam*, (London, 1968), 105, f. n. 3; Broyd, I., "Bassora". *The Jewish Ency., New York*, (1916), vol. 2., 586.

٥ – متطبب البصرة، اشتهر في أيام الدولة الأموية، واتصف بالأدب والمروءة. ترجم كتباً من السريانية إلى العربية. (انظر: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت، ١٩٨٧، ٢/١٠٤ – ١٠٥؛
Goitein, S. D., *Jews and Arabs : their Contacts through the Ages*, (New York, 1955), 100.

6 - Broydé, I., op. cit., p. 586' Sasson. D.S., "The History of the Jews in Basra", *Jewish Quarterly Review*, 17 (1917), 408 - 409; idem, *A history of the Jews in Baghdad, Letchworth*, (1982), 75, 124; Ashtor, E., "Basra", *EJ*, vol. 4, col. 31.

7 - Ashtor, E., op.cot., col. 311.

٨ – هما من أشهر علماء اليهود في العراق. ويعدّ الحاخام حي بن شريرا (٩٣٩ – ١٠٣٨م) أشهر حاخامات مدرسة پومبيديايتا – بغداد، تربى على يد والده، وأصبح نائباً له في الزعامة الدينية ليهود العراق عام ٩٨٦م ثم أصبح عالم المدرسة الأول عام ٩٩٨م حتى وفاته عام ١٠٣٨م، وفي عهده تطورت مدرسة پومبيديايتا – بغداد وأصبحت لها صلات كثيرة مع يهود العالم. وقد ترك حي بن شريرا عدداً كبيراً من المؤلفات والرسائل والفتاوى، باللغتين العربية والعبرية. ومن أقواله المشهورة: «لا تطلب الذهب والفضة، بل اطلب العلم والمعرفة» و«تعلم العلم حتى ولو لم يأت إليك بسهولة». (حول هذا العالم، انظر

Ben Sasson, H. H. & Levinger, J. S., "Hai Ben Sherira", *EJ*, vol. 7, cols. 1130 - 1132
Waxman, M., op.cit., 186, 253, 291; Karvitz, N., op.cit., 189 - 227.
9 - Sasson, D. S., op.cit., 408 - 409; Ashtor, E., op.cit., cols. 310 - 311

لمزيد من التفاصيل والمعلومات حول يهود البصرة في القرون المتأخرة، انظر مثلاً : ألكسندر آداموف، «ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها»، ترجمة : هاشم صالح التكريتي، البصرة، ١٩٨٢، ١/٢٣٢ – ٢٣٧؛ هشام فوزي عبد العزيز، «الطائفة اليهودية في العراق بين عامي ١٨٦٠ – ١٩١٨»، العصور، مجلد: ٣، ج ١/ ١١٠ وما بعدها (١٩٨٨)؛

Rejwan, N., The Jews of Iraq, Boulder, 1985, 48, 177; Sasson, D. S., op.cit., p. 418.

10 - Ashtor, E., op.cit., col. 310.

نهر اليهودي أحد أنهار البصرة الكبرى. يبعد عن نهر الأبلة حوالي أربعة فراسخ أي حوالي ٢٤كم. (انظر : الطبري، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٦٧، ٩/٥٢١، ٥٨٣؛ «سهراب، كتاب عجائب الأقاليم السبعة»، فيينا، ١٩٢٩، ص ١٣٦؛ صالح أحمد العلي، «خطط البصرة ومنطقتها»، بغداد، ١٩٨٦، ص ١٤٦ – ١٤٧، ١٧٥).

١١ – انظر كتابه : خطط البصرة ومنطقتها.

١٢ – الترجمة العربية، ص ١٥١؛

The Itinerary of Benjamin of Tudela, ed M. A. Signer.

13 - Obermeyer, J., *Die Landschaft Babylonier*, Frankfort, 1929, 204.

١٤ – المنجد في الأعلام، ط ١٩، ١٩٩٢، ص ٨٠، ٢٣٦؛

Barthold, W., *An historical geography of Iran,* trans. S. Soucek, (Princeton, 1984), 190 - 191.

١٥ – لمزيد من التفاصيل والدراسة حول حضارة عيلام وسوسة في فتراتها التاريخية المختلفة، انظر مثلاً : أحمد أمين سليم، «إيران منذ أقدم العصور حتى أواسط الألف الثالث قبل الميلاد»، بيروت، ١٩٨٨، ص ٢٧٨ – ٢٩٧؛ المؤلف نفسه، «دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم»، بيروت، ١٩٨٩، ص ٤٦٢ – ٤٦٨، ٤٧٥؛ سامي سعيد الأحمد ورضا جواد الهاشمي، «تاريخ الشرق الأدنى القديم : إيران والأناضول»، بغداد، ص ٥١ – ٧٤؛ محمد عبد القادر محمد، «إيران منذ فجر التاريخ حتى الفتح الإسلامي»، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٢٣ – ٢٦.

١٦ – حول هذا الملك وأهم أعماله، انظر : محمد عبد القادر محمد، المرجع السابق، ص ٧٢ – ٧٣؛ أحمد أمين سليم، «دراسات في تاريخ الشرق»، ص ٥١٠ – ٥١١؛ محمد أبو المحاسن عصفور، «معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم»، الإسكندرية، ط ٢، ص ٤١١؛

Dandamaev, M. A., *A Political History of the Achaemenid Empire,* (Leiden, 1989), 178 - 231.

١٧ – انظر : عطية القوصي، «اليهود في ظل الحضارة الإسلامية»، الكويت، ١٩٧٨، ص ٨٩ – ٩٠؛

Fischel, W. J., "The Region of the Persian Gulf and its Jewish Settlements in Islamic Times", in *Alexander Marx Jubilee Volume,* (New York, 1950), 207.

١٨ – حول الإشارة إلى هذه الصلات في التلمود، انظر مثلاً ١٩ – المصدر السابق، ص ٣١٨.
Babylonian Talmud, Taánit, 21b; Bava Qamma, 112b; Shabath, 51b Ketubot, 85a.
١٩ – المصدر السابق .
٢٠ – انظر : مصطفى عبد القادر النجار، «التاريخ السياسي لإمارة عربستان : ١٨٩٧ – ١٩٢٥»، القاهرة، ص ٣٣؛ «عروبة الأحواز وخرافات حكام إيران»، بغداد، ١٩٧٥، ص ١٠ – ١٤.
٢١ – وردت بهذه اللفظة كذلك عند الرحالة البرتغالي بيدرو تخسيرا انظر رحلته
The Travels of Pedro Teixeira, trans. W. F. Sinclair, (Hakluyt Society, London, 1902), 26, 188, 265

وكذلك عند جاسباردا جوز :

South China in the 16th Century, ed. C. R. Boxer, (Hakluyt Society,) London, 1953),sa. 2, no. 107 237

٢٢ – الترجمة العربية، ص ١٦٤؛ Op.cit., vol. 2, ١٣٧ – ١٣٨.

٢٣ – انظر : المسعودي، «مروج الذهب»، تحقيق : قاسم الشماعي الرفاعي، بيروت، ١٩٨٩، ١/١٤٣؛ شيخ الربوة، «نخبة الدهر»، بيروت، ١٩٨٨، ص ١٠٢؛ أحمد الطوخي، «شرقي شبه الجزيرة العربية في العصور الوسطى في كتابات الرحّالة المسلمين»، الدوحة، ١٩٩٠، ص ٦١؛ التوم الطالب محمد يوسف، «تاريخ الخليج الإسلامي : منذ الفتح الإسلامي حتى أواخر القرن الرابع الهجري»، دبي، ١٩٨٥، ص ٢٣٨ – ٢٣٩

The Travels of Ludovico di Varthema (1503 - 1508), trans. J. W. Jones, (Hakluyt Society, London,1858), no. 32, 95.

٢٤ – انظر : محمد سعيد المسلم، «ساحل الذهب الأسود»، بيروت، ط ٢، ص ٢١٤ – ٢١٥؛ أحمد الطوخي، المرجع السابق، ص ٥٩ – ٦٠؛ عبد الله يوسف الغنيم، «جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري»، الكويت، ١٩٧٧، ص١٢٣ – ١٢٤؛ النبهاني، «التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية»، بيروت، ١٩٨٦، ص ١٥ – ١٧؛ عبد العال عبد المنعم الشامي، «إقليم العروض في كتابات الجغرافيين العرب»، الكويت، ١٩٨٣، ص ١١٦ – ١٢١.

٢٥ – عبد الغني أحمد زيتوني، «البحر واللؤلؤ في الشعر الجاهلي»، بحث قُدم لندوة «الخليج العربي في فترة ما قبل الإسلام»، التي نظمتها كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة الإمارات، العين، ٢٦ – ٢٧، ديسمبر ١٩٩٥.

٢٦ – عبد الرحمن عثمان آل ملا، «تاريخ هجر»، الهفوف ، ١٩٩٠، ١/٢٤٩ :
Bibby, T. G., *Looking for Dilmun,* London, 1973, p. 331.

٢٧ – عمر رضا كحالة، «جغرافية جزيرة العرب»، القاهرة، ١٩٤٤، ص٢٧٦.
28 - Rentz, G., "Al-Katif", *EI* 2, vol. 4, 763.

٢٩ – محمد سعيد المسلم، «ساحل الذهب الأسود»، بيروت، ط٢، ص ٢٠، ٢٣ – ٢٧، ٤٨ – ٤٩؛ التوم الطالب محمد يوسف، المرجع السابق، ص ٢٣٢؛ ناصر خسرو، «سفرنامه»، ترجمة : أحمد خالد البدلي، الرياض، ١٩٨٣، ص١٧٥؛ ابن بطوطة، الرحلة (تحفة النظار

في غرائب الأمصار)، شرح : طلال حرب، بيروت، ١٩٨٧، ص ٢٩٠؛

Bibbly, T. G., op.cit., 330; Ebert, C. H., "Water Resources and Land Use in the Qatif Oasis of Saudi Arabia", *Geographical Rewiew*, (1965), 55 330; Grohmann, A., "Al-Katif", 820.

٣٠ – انظر مثلاً : ياقوت الحموي، «معجم البلدان»، تحقيق، فريد عبد العزيز الجندي، بيروت، ١٩٩٠، ٤٢٩/٤؛ أبو الفداء، «تقويم البلدان»، ليدن، ١٨٤٠، ص ٩٧ – ٩٨؛ الهمداني، «صفة جزيرة العرب»، تحقيق : محمد بن علي الأكوع، بيروت، ١٩٨٣، ص٢٤٩، ٢٨٢؛ القلقشندي، «صبح الأعشى»، تحقيق : نبيل خالد الخطيب، بيروت، ١٩٨٧، ٥٤/٥؛ عبد الله يوسف الغنيم، المرجع السابق، ص ١٣٦؛ أحمد الطوخي، المرجع السابق، ص ٥٩؛ محمد سعيد المسلم، المرجع السابق، ص ٢١٣ – ٢١٤؛ عبدالعال عبدالمنعم الشامي، «إقليم العروض في كتابات الجغرافيين العرب»، الكويت، ١٩٨٣، ص٧٧ – ٧٩؛ .Rentz, G., op.cit., 763

٣١ – إبراهيم عطا الله البلوشي، «بلاد البحرين في العصر العباسي الثاني»، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، ١٤٠٥/١٤٠٦هـ، ص ٤٢.

٣٢ – عبد العال عبد المنعم الشامي، المرجع السابق، ص ٧٩؛ التوم الطالب محمد يوسف، المرجع السابق، ص ٢٢؛ .Grohmann, A., "Al-Katif". EI 1, vol. 4, 821

٣٣ – جواد علي، «المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام»، بيروت، ١٩٩٣، ١٧٦/١؛ المؤلف نفسه، "الخليج عند اليونان واللاتين"، المؤرخ العربي، ع ١٢ (١٩٨٠)، ص ٣٤، ٣٧ – ٣٨؛ محمد سعيد المسلم، المرجع السابق، ص ١٦ – ١٧؛ ١١٣١

.Grohmann, A., "Al -Khatt", EI2, vol. 4,

٣٤ – إبراهيم عطا الله البلوشي، المرجع السابق، ص ٤٤؛ عبد العال عبد المنعم الشامي المرجع السابق، ص ٧٩؛ علي بن عبد العزيز الخضيري، «علي بن المقرب العيوني»، بيروت، ص ١٤، ١٩٨١م.

٣٥ – لعرض موجز لتاريخ القطيف، انظر : .٨٢١ – ٨٢٠

Rentz, G., op.cit., 764 - 765; Grohmann, "Al-Katif",

٣٦ – ينتسب العيونيون إلى آل إبراهيم أحد أفخاذ قبيلة عبد القيس، كانوا يسكنون الأحساء في واحة تعرف بالعيون، فنسبوا إليها. أسس هذه الإمارة عبد الله بن علي بن إبراهيم عام ٤٦٦هـ (حول ذكر القطيف في أحداث الإمارة العيونية، انظر : عبد الله بن خالد وعلي أبا حسين، «البحرين عبر التاريخ»، المنامة، ١٩٩١م، ٤١/٢ – ٤٣، ٤٨ – ٥٠، ٥٣ – ٦٠؛ إبراهيم عطا الله البلوشي، المرجع السابق، ص ١٥٧، ١٥٨، ١٦٤ – ١٦٥، ١٦٦، ١٦٩، ١٧٢ – ١٧٥).

٣٧ – إبراهيم عطا الله البلوشي، المرجع السابق، ص ٤٢.

38 - Rentz, G., op.cit., 765.

٣٩ – التوم الطالب محمد يوسف، المرجع السابق، ص ٦٣، ٢٢٢ – ٢٢٣؛

Fischel, W. J., "The Region of the Persian Gulf", 205; Barnon, S. W., *A social and religious history of Jews*, (New York, 1964), vol. 3, 56 - 64; Woolfson, M., *Prophets in Babylon*, (London), 1980, 40.

40 - Widengren, G., "The Status of the Jews in the Sassanian Empire", *Iranica Antiqua*, I (1961), 143 & f. n. 4; Neusner, J., *Israel and Iran in Talmudic Times : A Political History* (Lanham, 1986), 185 - 194.

٤١ – البلاذري، «فتوح البلدان»، تحقيق : عبد الله أنيس الطبّاع، بيروت، ١٩٨٧، ص ١٠٧ – ١٠٨.

٤٢ – المصدر السابق، ص ١١٠ – ١١١؛ ابن سعد، «الطبقات الكبرى»، بيروت، دون تاريخ، ١/٢٦٣.

٤٣ – انظر : جواد علي، «المفصّل»، ٦/٥٤٢؛ محمد إرشيد العقيلي، «اليهود في شبه الجزيرة العربية»، عمّان، ١٩٨٠، ص ١٩٣؛

Fischel, W. J., "Bahrain", Ej., vol. 4, col. 102.

٤٤ – التوم الطالب محمد يوسف، المرجع السابق، ١/٦٤. انظر كذلك : أنيسة أحمد خليل المنصور، «الدور الحضاري لمنطقة البحرين وانعكاساته على الشعر في العصر الجاهلي»، بحث قدم إلى ندوة «الخليج العربي في فترة ما قبل الإسلام» التي نظمتها كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة الإمارات، ٢٦ – ٢٧ ديسمبر ١٩٩٥م.

٤٥ – الأعلم الشنتمري، شرح ديوان طرفة بن العبد، تحقيق : درية الخطيب ولطفي الصقال، دمشق، ١٩٧٥، ص ٧؛ ابن الأنباري، «شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات»، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، القاهرة، ط ٢، ص ١٣٧؛ الزوزني، «شرح المعلقات السبع»، تحقيق : محمد عبد القادر أحمد، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ١٧٠ – ١٧١.

٤٦ – «ديوان امرئ القيس»، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٥٧؛ حسن السندوبي، شرح ديوان امرئ القيس، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٨٤؛ أنيسة أحمد خليل المنصور، المرجع السابق.

٤٧ – حول هذا الاسم، انظر :

Zadok, R., *The Jews in Baylonia in the Chadaean and Achaeminian Period in the Light of Babylonian Sources*, (Haifa, 1979), 25 - 26.

٤٨ – النحّاس، «شرح القصائد التسع المشهورات»، تحقيق : أحمد خطاب، بغداد، ٣٨/٢١٢، ١٩٧٣م.

٤٩ – التوم الطالب محمد يوسف، المرجع السابق، ص ٦٤، ٢٣٦.

50 - Lorimer, J. G., op.cit., vol. 2a, 576.

٥١ – حسين بن علي الوحيدي، «تاريخ لنجة»، دبي، ١٩٨٨م، ص١٣٤؛

Lassner, J., "Kays", El 2, vol. 4, 832.

٥٢ – حسن صالح شهاب، «طرق الملاحة التقليدية في الخليج العربي»، الكويت، بدون تاريخ، ص ١٠٢.

٥٣ – الترجمة العربية، ص ١٦٤:

٥٤– أرنولد ت. ويلسون، «الخليج العربي : مجمل تاريخي من أقدم الأزمنة حتى أوائل القرن العشرين»، ترجمة : عبد القادر يوسف، الكويت، بدون تاريخ، ص ١٨٣.

55 - Waxman, M., op.cit., 443.

٥٦ – نقولا زيادة، «الجغرافية والرحلات عند العرب»، بيروت، ١٩٦٢، ص ٢٣٤؛ أحمد الشامي، «العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى وأثر ذلك في بعض الجوانب الحضارية في العصور الوسطى»، المؤرخ العربي، ع ١٢ (١٩٨٠)، ص ٩١؛ أرنولد ت. ويلسون، المرجع السابق، ص ٢٣٦.

٥٧ – المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٧٩. انظر كذلك : شيخ الربوة، المصدر السابق، ص ٢٢٣.

٥٨ – انظر مثلاً : ياقوت الحموي، المصدر السابق. ٤/٤٧٩؛ أبو الفداء، المصدر السابق، ص٣٧٣.

٥٩ – المصدر السابق، ص ٦٢.

٦٠ – المصدر السابق، ٤/٤٧٩.

٦١ – «صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز» (تاريخ المستبصر)، تحقيق : أوسكر لوفقيرين، بيروت، ١٩٨٦، ص ٢٨٧، ٢٩٥ – ٢٩٨،

٦٢ – المصدر السابق، ص ٣٧٣.

63 - Lorimer, J. G., op.cit., vol. 2a, 576.

64 - Ibid .

منطقة الخليج بين ابن بطوطة وماركوبولو

عبد الهادي التازي

دكتوراه دولة في الآداب (جامعة الاسكندرية ١٩٧١).
من مواليد المغرب ١٩٢١.

الوظائف :

- مدير المعهد الجامعي للبحث العلمي ١٩٧٤.
- سفير المملكة المغربية في العراق ثم ليبيا ثم العراق ثانية ثم إيران.
- مكلف بمهمة الديوان الملكي.
- عضو في عدد من الهيئات العلمية والمنتديات الإقليمية والدولية منها المجمع العلمي العراقي (١٩٦٦) ومجمع القاهرة (١٩٧٦) والمعهد العربي الأرجنتيني (١٩٧٨) ومؤسسة آل البيت ومجمع الأردن (١٩٨٠) وأكاديمية المملكة المغربية (١٩٨٠) ومجمع دمشق (١٩٨٦) ومؤسسة التراث الإسلامي بلندن (١٩٩١).
- حصل على عدد من الأوسمة والميداليات منها : وسام العرش (المغرب)، الحمالة الكبرى للاستقلال (ليبيا)، وسام الرافدين (العراق) قلادة الكفاءة الفكرية من الدرجة الممتازة (المغرب) الميدالية الذهبية للأكاديمية.

من نتاجه :

ألف عشرات الكتب كانت بدايتها تفسير سورة النور عام ١٩٤٦.
ومن أهم كتبه :

- تاريخ المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة - تحقيق.
- تاريخ جامع القرويين (٣ مجلدات.
- التاريخ الدبلوماسي للمغرب (١٢ مجلداً).
- رحلة ابن بطوطة - تحقيق (٥ مجلدات).

بالاضافة إلى مجموعة كبيرة من المقالات.

- المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي.
- ترجم عن الفرنسية والإنكليزية عددًا من الدراسات والمقالات.

نعرف جميعًا أن ابن بطوطة – في معرض اعتزازه بطول نَفَسه في الرحلات وبطول خبرته في الأسفار – ذكر أنه يفوق السائح الشيخ عبدالله المصري، لأنّ هذا الأخير لم يزر الصين ولا جزيرة سرنديب ولا المغرب ولا الأندلس ولا بلاد السودان. وأعتقد أن لو التقى ابن بطوطة بماركو بولو لقال كذلك ما قاله بشأن الشيخ عبدالله، ولاعتز بأنه يتفوق على ماركو بولو في الفضاء الذي تجوّل فيه؛ لأن الأراضي التي زارها ابن بطوطة كانت تفوق بكثير الأراضي التي زارها ماركو بولو. وينبغي لنا جميعًا أن نستحضر هنا أن ابن بطوطة في تلك الرحلة ذكر نحوًا من ألف اسم جغرافي وأكثر من ألف من أعلام الأشخاص. وإنّ الذاكرة التي تستطيع أن تختزن هذه الأسماء كلها مدّة ربع قرن لتسجلها.. لهي ذاكرة ليست بالسهلة. ولم يكن باستطاعة ماركو بولو إطلاقًا أن يحذو حذوه، لأننا إذا ما أخذنا رحلة هذا الأخير وعددنا أعلام الجغرافية وأسماء الأشخاص التي أوردها لوجدناها لا تصل إلى عُشر ما ذكره ابن بطوطة. وهذا وحده يعبر عن سعة أفق هذا الرحالة العربي المغربي الذي تعد رحلته الآن كما ذكرت في مناسبة سابقة أعظم رحلة في تاريخ البشرية جمعاء. وهذا ما يعتقده أندريه ميكيل وهو من كتاب فرنسا الكبار. ويعبر عن مثل هذا أيضًا إيبيركرومبي Abercrombie في بحثه الذي نشرته المجلة الأمريكية الجغرافية الوطنية National Geographic واستغرق أربعين صفحة في عددها الصادر بتاريخ ديسمبر ١٩٩١.. وقد رأى أن يسمي ابن بطوطة أمير الرحلات.

يضاف إلى ذلك أن ظروف ابن بطوطة سمحت له بالامتزاج والاتصال بمجموعة لم يكن باستطاعة ماركو بولو أن يصل إليها؛ فابن بطوطة صاهر وتزوج وأصبح قاضيًا في عدد من البلاد.. ولا شك أن هذا الامتزاج جعله يعيش جنبًا إلى جنب مع تلك الشعوب.. وكثير من القضايا التي أثارها والتي أخذ الزمن – شهرًا بعد شهر وسنة بعد سنة – يكشف عن أن الرجل كان ذا مصداقية كاملة فيما يرويه من أخبار وأحداث.

لقد ذكر ابن بطوطة حقيقة كانت غريبة بالنسبة لي أنا شخصيًا؛ تلك أنه زار بلاد المالديف ورأى مكتوبًا على لوحة هناك أن هذه البلاد أسلمت على يد أبي البركات البربري. والحقيقة أن كلامًا مثل هذا يحتاج إلى سند، واستطعت أن أصل إلى المالديف فوجدت هذه اللوحة فيها كما ذكر ابن بطوطة بالضبط.. هذا يدل على صدق الرجل فيما كان يرويه.

لقد كان لكل من الرحالتين الاثنين محرر يتولى تسجيل أحداث رحلته، حرر روستيسيلو رحلة ماركو بولو، بينما سجل ابن جزي مخطوطة ابن بطوطة.. والفرق بين الناسخين أن الأول مخترع، يقول ما يريد، ويحاول استجداء الناس.. أما ابن جزي فلم يكن يضيف من عنده شيئاً أبدًا إلا منسوباً إلى صاحبه.. ولذا جاءت رحلة ابن بطوطة أكثر صدقًا وأقرب إلى الواقع مما يرويه ماركو بولو. ولا ننسى أن نذكر رحالة كان بين الرجلين هو أديريك Oderic الذي رفض أن يشركه محرره فيما كتب! وينبغي هنا أن نلقي نظرة على البحث القيم الذي أصدرته الباحثة البريطانية فرانس وود بعنوان : هل قام ماركوبولو بزيارة الصين؟.

تحدث ماركو بولو بإيجاز شديد عن قلهات التي أسماها كالاتو.. في حين لم يكتفِ ابن بطوطة بهذا الذكر العابر، ولم يمر عليها مرور الكرام.. بل وقف في قلهات ووصف ميناءها الذي كان يعد مرسى دوليًا بالنسبة لذلك الرحالة. ولقد عني البروفسور هاملتون كيب بهذا الموضوع وأثراه وعلق على ما قاله ابن بطوطة عن قلهات بما وجده عند الأستاذ أوبان Aubin في جورنال أسياتيك لعام ١٩٥٣ من أن الحكم كان مناوية بين قلهات وهرمز.

ولا بد أن نشيد بالمعلومات التي قدمها ابن بطوطة هنا، ولا سيما عندما ذكر دور المرأة في المنطقة عبر الحياة اليومية ممثلاً لذلك بقوله : إن الأميرة بيبي مريم استطاعت أن تبني مسجدًا على حسابها في قلهات، وهو المسجد الذي ما يزال يحمل اسمها إلى اليوم.

وقدم ابن بطوطة لائحة دقيقة ممتازة لهذه البلاد، فيها مفردات لغوية مازالت مستعملة حتى الآن، مثل كلمة الحصن بمعنى القصر وفيها ذكرٌ لحاكم الإقليم وكيف كان يتحرك في إقليمه، كما أنه يشير إلى وسائل التبريد عند اشتداد الحرارة.. وفيها غير ذلك من الأشياء التي لم يعرض لها ماركو بولو. ونجد كذلك عنده كلامًا عن حركة الأسطول البحري ونشاطه في السواحل، وكيف أن الناس كانوا يبنون بمراكبهم جسورًا، تربط ما بين مكان وآخر حتى لا يشعر أحد بفرق بين منطقة وأخرى. وهناك حديث عن الأسماك المتنوعة التي تزخر بها السواحل، وذكر للصحن الخليجي الصحي الشهي.. وأنه الغذاء الأساسي للصغير والكبير.. وفيها حديث عن العطور وصناعتها وعن الثروة الحيوانية، وبخاصة الطيور التي قارن بعضها ببعض أنواع الطيور في المغرب.

ولم يغب عن ابن بطوطة بحاسته التي كانت تقارن وتفارق بين المنطقتين : المشرق والمغرب أن يذكر نقاط الاتصال بين سكان المغرب وأهالي الخليج، وهي الحقيقة التي تخالف نظرية ابن خلدون.. لكنها توافق آراء علماء آخرين يثبتون أن أبناء حِمْير هم أبناء حمير، سواء أكانوا في جبال عمان أم في مرتفعات إفران.

ولكن الذي استثارنا في رحلة ابن بطوطة هو كلامه عن النباتات، بحيث إنه كان يتحدث عن الثروة النباتية وما يتصل بها مما لا يزال حتى اليوم أثرًا يذكر.

فلسنا نقصد هنا بتقديم ابن بطوطة على أنه رحالة عادي، ولكنني أقصد أن أقدم لكم رحالة فريداً استطاع في تلك الظروف وعلى مدى ثلاثين سنة تقريبًا أن يجوب هنا وهناك معتمداً على عزيمته وإرادته.. وقد رجع فعلاً بهذه الحصيلة الوافرة المتميزة.

أعتقد أن السلطان أبا عنان سلطان بني مُرين لذلك العهد في دولة المغرب على الرغم مما بناه من آثار، تعد إلى الآن تحفة المتاحف المغربية، وعلى الرغم مما كان له من صلات دولية مع أوربا، وعلى الرغم مما أنشأه من منابر ومجالس

علمية، فإن ذكره لم يخلد إلا بعدما أمر عام ٧٥٦هـ= ١٣٥٥م بكتابة رحلة ابن بطوطة وجعلها بمتناول الناس... إن ذلك الأمر من السلطان أبي عنان كان استثماراً ذكياً يعبر عن بعد نظره، كما يعبر عن حين تقديره للأعمال الإبداعية، وعن مدى تقديره لحرية الفكر متخطياً بذلك ما تناجى به بعض الناس من تشكيك في مصداقية الرحلة، مما تحدث عنه ابن خلدون في مقدمته.

وعندئذ قام ابن خلدون مع عظيم قدره يدس لدى رئيس الوزراء آنذاك أن هذه الرحلة أحدثت ارتباكًا في المغرب بسبب ما تضمنته من حكايات مثيرة، فقال له رئيس الوزراء: أرأيت مصر؟ أزرت مصر؟ فقال ابن خلدون: لا، ولم يكن زارها وقتذاك. فقال له: إن لم تزر بلدًا فاحبس عن الكلام حتى تزوره. وقد أورد هذا الخبر ابن خلدون نفسه في مقدمته، وذلك دليل عندي على شجاعته وعظمته ونزاهته..

المحور الثاني

مرحلة السيطرة البرتغالية

- شهادات على التقدم والازدهار

عصام سخنيني

- الآثار الاجتماعية والاقتصادية للوجود البرتغالي في منطقة الخليج (الربع الأول من القرن السادس عشر نموذجاً)

محمد رزوق

عصام سخنيني

دكتوراه في الدراسات العربية والإسلامية (جامعة اكستر).
دكتوراه في التاريخ (جامعة القديس يوسف).
رئيس البنك العربي للمعلومات (مؤسسة البيان للصحافة والطباعة والنشر – دبي)
أردني من مواليد ١٩٣٨.

الوظائف :

- نائب المدير العام لمركز الأبحاث الفلسطيني (١٩٧١ – ١٩٧٧).
- رئيس تحرير اليوميات الفلسطينية في المركز المذكور (١٩٧١ – ١٩٧٧).
- رئيس قسم الدراسات العربية في المركز المذكور (١٩٧١ – ١٩٧٧).
- مدير التحرير المركزي لوكالة أنباء الإمارات (١٩٧٩ – ١٩٨٠).
- أعمال مترافقة في مؤسسة البيان للصحافة ١٩٨٠ – اليوم.

من نتاجه :

دراسات في التاريخ نشرت كتبًا أو أبحاثًا في مجلات متخصصة أو مقالات في الصحف.

بالاضافة إلى أعمال في الإذاعة والتلفاز على مدى ثلاثين سنة، مع اتجاه حديث للتركيز على التاريخ العربي الإسلامي.

في الوقت الذي كان البرتغاليون ينفذون مشروعهم الإمبراطوري في الشرق، عند منعطف القرن الخامس عشر وخلال العقدين الأولين من السادس عشر، كانت منطقة الخليج العربي – شبه جزيرة العرب تعيش في واحدة من أكثر مراحلها التاريخية ازدهاراً. فتجارها كانوا سادة ثروات الشرق وكنوزه، كما كان ملاحوها وبحارتها سادة البحار والمحيطات في ذلك الجزء من العالم الذين لا يمكن مجاراتهم، أما المنطقة نفسها فكانت سرة التجارة العالمية.

شهود العيان الوحيدون تقريبا الذين تركوا لنا تقارير موثقة عن اقتصاديات المنطقة المزدهرة هم الأوروبيون الذين قدموا إلى المنطقة في تلك الفترة المحددة وكانوا إما مبعوثين رسميين ساهموا في تنفيذ المشروع المذكور أو رحالة بشكل عام. ولأن الوجودالبرتغالي في المنطقة كان غزواً بحرياً لم يتغلغل قط في الداخل العربي فإن هذه الشهادات الموثقة تصلح فقط لتكون أساساً لرسم صورة حية ومفصلة لسواحل شبه جزيرة العرب، حيث كان البرتغاليون يعرضون عضلاتهم العسكرية ويدمرون أكثر مراكز التجارة العالمية تقدماً واطمئناناً.

وهذه الورقة تسعى لعرض ما شاهده أولئك الرحالة والمبعوثون على سواحل شبه الجزيرة التي كان يرصعها عشرات من الموانىء والبلدات والمدن كانت مندمجة تماماً وبشكل كثيف في حركة التجارة البحرية في زمنها، مسجلة في الوقت نفسه مستويات عالية جداً، لم يكن يماثلها شبيه، في النمو الاقتصادي والازدهار ورفاهية الإنسان. وقد صممت هذه الورقة لتتبع خط الساحل بدءاً من جدة على البحر الأحمر، متجهة على طول الساحل الشرقي للبحر نفسه إلى باب المندب، ثم على طول سواحل خليج عدن فبحر العرب فخليج عمان، لتدور بعدها حول رأس مسندم عبوراً بمضيق هرمز إلى الجزيرة التي دعي المضيق باسمها، ثم على امتداد السواحل الجنوبية والغربية للخليج العربي انتهاء بالبصرة على رأس الخليج.

وتصف الورقة وصفاً تفصيلياً الموانىء والمدن والبلدات التي كانت تزين هذه الخط الساحلي استناداً إلى المعلومات والبيانات التي تقدمها أربعة مصادر أوروبية نعتبرها أساسية لدى الكتابة عن الموضوع من حيث هي أقدم المصادر التي تتناول تلك الفترة التاريخية وأكثرها التصاقا بها من حيث الزمن، كما أنها من جهة ثانية كانت قد كتبها أشخاص خبروا المنطقة عن كثب ورأوا أوضاعها رأي العين، وبذلك فإن لشهادتهم قيمة متميزة إذ تأتي انطلاقاً من معايشة وتجربة ومشاهدة مباشرة.

والمصادر الأربعة المعينة هنا هي :

١ - كتاب دوارتي باربوسا(١) وهو رحالة عمل في خدمة الحكومة البرتغالية في الهند كاتباً ومترجماً ما بين سنة ١٥٠٠، و١٥١٧ أو ١٥١٨، كما عمل مترجماً مع القائد البرتغالي الفونسو البوكيرك. وقد كتب باربوسا كتابه في الفترة من سنة ١٥١٧ إلى ١٥١٨، وضمنه مشاهداته في رحلته الطويلة إلى الشرق بما في ذلك موانىء شبه جزيرة العرب.

٢ - كتاب الفونسو البوكيرك الموسوم "تعليقات الفونسو البوكيرك العظيم"(٢)، وهو من كبار بناة الإمبراطورية البرتغالية في الشرق، وكتابه يأخذ شكل سيرة ذاتية سجلها ابنه المسمى الفونسو كأبيه وقد ولد سنة ١٥٠٠، ونشرت أولى طبعات الكتاب سنة ١٥٥٧.

٣ - المذكرات المشرقية التي كتبها تومي بيرس(٣) وهو رحالة ومبعوث برتغالي رسمي سافر إلى الهند سنة ١٥١١ واستمر فيها إلى سنة ١٥١٦ عندما عين سفيراً في الصين إلى وفاته سنة ١٥٤٠. كتب بيرس مذكراته في مالقه والهند بين سنة ١٥١٢ وسنة ١٥١٥، ومعلوماته ذات أهمية كبيرة عن الشرق الأقصى وإن كانت لا تخلو من فائدة عن منطقة الخليج التي مر بها في أثناء رحلته إلى الهند.

٤ - كتاب فارتما(٤) عن رحلاته وهو رحالة إيطالي قام برحلة إلى المشرق بين سنة ١٥٠٣ وسنة ١٥٠٨ شملت مصر وسوريا والحجاز واليمن

وبعض مناطق الخليج العربي وفارس والهند وأثيوبيا ونشرت الطبعة الأولى من كتابه سنة ١٥١٠.

وإلى ذلك رأى مؤلف هذه الورقة من المفيد أن يعود إلى بعض المصادر العربية الجغرافية القديمة ليرى ما كتبه العرب الأقدمون عن الموضوع مجال البحث. والقصد من ذلك أساساً هو عقد مقارنة ضمنية بين وضع المدن والموانىء المختارة هنا كما كان في العصور الإسلامية السابقة لوصول البرتغاليين إلى المنطقة ووضعها كما كان عند هذا المفصل التاريخي. والمعلومات إن توافرت في تلك المصادر العربية سوف تستخدم في هذه الورقة في شكل مقدمة تفسيرية للفقرات المخصصة للميناء أو المدينة المعنية.

وهناك عدد من الملاحظات يجدر تسجيلها في هذه المقدمة وبين أيدي البحث :

١ – إن المعلومات التي توفرها المصادر الأوروبية المستخدمة هنا تتصل على الأغلب بالاقتصاد والتجارة والمال وهو أمر مفهوم عند إدراك أن الغزو البرتغالي للمنطقة، شأنه شأن أي غزو استعماري آخر، كان مشروعاً اقتصادياً هدفه تجارة الشرق وموارده وإن كان تزيّا بتعصب ديني في صنع مرحلة تاريخية معينة واحتيج إليه لتمويه الأهداف والمنافع والمرابح الاقتصادية.

٢ – يلاحظ عند استرجاع المعلومات التي توفرها هذه المصادر وقوف أصحابها بانبهار أمام ثروة المنطقة ووفرة مواردها الاقتصادية. والانبهار لا يتمثل فقط في أسلوب الكتابة بل أيضاً في التوسع في الحديث عن حجم هذه الثروة الكبير وإبراز تفصيلاتها ودقائقها. وإذا كنا لا نشك في أن الوفرة الاقتصادية في المنطقة قد زغللت أعين البرتغاليين وأسالت لعابهم ما انعكس انبهاراً في كتابات رحالتهم ومبعوثيهم، فإننا نرى من جانب آخر أن تلك الكتابات تضمنت كذلك بعداً تحريضياً – قد لا يكون مباشراً – على مواصلة مشروع النهب الاستعماري بإظهار المكاسب المرتجاة منه والماثلة في هذه الثروة الطائلة في المشرق.

٣ - كما ذكرنا ذلك من قبل، تركز الوجود البرتغالي على منطقة السواحل ولم يتغلغل قط في الداخل العربي واستتباعاً لذلك فالمعلومات المتوافرة في المصادر المراجعة هنا هي أساساً وبشكل تفصيلي عن الموانىء والمدن الساحلية، وهو ما جعلنا نختارها موضوعاً للبحث. إلا أن ذلك لم يكن السبب الوحيد. فاختيارنا الكتابة عن المدن والموانىء على امتداد سواحل شبه جزيرة العرب كان أيضاً لسبب أكثر جدارة هو أن التكامل الاقتصادي والاعتماد المتبادل ما بين هذه المراكز الحضرية جميعاً كانا أمراً واقعاً لا يقبل النقض على الرغم من تنوع الانتماءات السياسية لهذه المراكز نتيجة الانقسامات السياسية التي كانت سائدة في المنطقة وعدم خضوعها لسيادة مركزية واحدة. وهكذا فإن أي بحث في أوضاع أي من هذه المراكز منفرداً سوف يظل ناقصاً لا يفي بأغراضه ما لم يستكمل البحث بالاطلاع على أوضاع المراكز الأخرى، ومن هنا كان خط سير هذه الورقة يبدأ من جدة وينتهي بالبصرة.

جـدة

ليست جدة هي أول موانىء جزيرة العرب شمالاً على البحر الأحمر، فإلى أعلاها تقع ينبع فُرضة المدينة المنورة. غير أن ينبع قليلة الذكر في مصادرنا الأوروبية مما يجعلنا نميل إلى أنها لم تكن ذات أهمية كبرى في التجارة الدولية في الفترة المخصصة لهذه الورقة، كما نميل إلى أن ميناء جدة كان قد طغى عليها واحتل مركز الصدارة آنذاك.

جدة ميناء عربي قديم معروف قبل الإسلام استخدمه عرب الجاهلية في مبادلاتهم التجارية مع الساحل الافريقي، واستمرت أهميته على امتداد العصور الإسلامية جميعاً. ياقوت الحموي(- ١٢٢٩م) وصف جدة بأنها فرضة مكة(٥)، ووصفها الإدريسي (- ١١٦٦م) بأن أهلها مياسير وذوو أموال واسعة وليس بعد مكة من مدن الحجاز أكثر من أهلها مالاً، وهي محط السفن من الهند وعدن واليمن

وعيذاب والقلزم وغيرها، وأهلها أغنى الناس وأكثرهم مالا، وبها دور كبيرة مبنية بالآجر والجص وخشب الساج الهندي والأبنوس الجيد(٦).

عند مطلع القرن السادس عشر الميلادي كانت جدة تتمتع بوضع اقتصادي وتجاري متميز. يقول عنها بيرس(٧): إن بها عدداً كبيراً من التجار، وهو يقدر عدد سكانها بخمسة آلاف نسمة، ويذكر أنه على الرغم من عدم إنتاجها أيا من المحاصيل الزراعية باستثناء التمور فإن اللحوم والقمح والرز والشعير يأتيها من زيلع وبربرة وسواكن.

ويتفق فارتما مع هذا الوصف(٨) فهو يقدر عدد سكان جدة بنحو من خمس مائة أسرة، لكن يبدو أن عدد سكان جدة كان أكثر من ذلك، ففارتما نفسه يصف جامع جدة الذي كان قد أوى إليه بعد وصوله إلى هذا الميناء ويقدر عدد من كان فيه من الناس عند ذلك بـ ٢٥٠٠٠ شخص. وإذا كان هذا الرقم يبدو مبالغاً فيه فهو على الأقل يشير إلى أن عدد سكان جدة كان أكثر من خمس مائة أسرة حسب تقديره. أما عن صفة المدينة ففارتما يقول: إن جدة لم تكن محاطة بأسوار عندما زارها، وإن دورها جميلة جداً، وهي تشهد باستمرار حركة دائبة بسبب النشاط التجاري فيها. وعلى الرغم من قلة الإنتاج فيها فإن جميع الاحتياجات الضرورية متوافرة فيها، وهي تأتيها من القاهرة واليمن ومناطق أخرى.

أما باربوسا فهو أكثر وضوحاً في وصفه لطبيعة الحركة التجارية في جدة، فهو يذكر(٩) أنها ميناء تتردد عليه سنويا السفن القادمة من الهند محملة بالتوابل والعقاقير، وتعود من جدة إلى كاليكوت محملة بكميات كبيرة من النحاس والزئبق والبرونز والزعفران وماء الورد والأقمشة القرمزية والحرير والأنسجة المخملية والتفته وبضائع أخرى جمعيها مرسلة إلى الهند، ومعها كميات كبيرة من الذهب والفضة. وهذه التجارة ضخمة جداً وتدر أرباحاً كبيرة، وإلى ذلك يقوم التجار في جدة بشحن التوابل والعقاقير بمراكب صغيرة إلى ميناء السويس.

جدة وفق هذا الوصف كانت ميناء مزدهراً، معيشة سكانها – كما يظهر ذلك واضحاً – قائمة على التجارة، خاصة التجارة العابرة(الترانزيت). فميناؤها يستقبل باستمرار التجارة الهندية التي تحتل فيها التوابل مكانة ملحوظة، ويعيد تصديرها إلى السويس، الميناء القائم على رأس الخليج المعروف الآن باسمه، ومن هناك تنتقل البضائع براً إلى مصر. وكما نعرف من حركة التجارة العالمية آنذاك، كانت البضائع هذه تحمل إلى الإسكندرية ومن هناك تشحن بحراً إلى الموانيء الأوروبية على البحر المتوسط . وفي مقابل ذلك يتلقى ميناء جدة مختلف السلع والبضائع المنتجة في البر العربي وأيضاً في أفريقيا، ويقوم بإعادة تصديرها إلى الهند.

جيزان

اتجاهاً من جدة إلى الجنوب هناك عدد من القرى الصغيرة قليلة الأهمية إلى أن نصل إلى جيزان، ويسميها الهمداني جازان وهي كذلك جازان عند ياقوت الذي يشير إليها بالقول إنها موضع على طريق حاج صنعاء(١١). وفي مطلع القرن السادس عشر كانت جيزان ميناء نشيطاً ومدينة ازدهرت فيها الزراعة. يصفها فارتما(١٢) بأنها ميناء جميل جداً وقد وجد فيها عندما قام بزيارتها خمسة وأربعون مركباً ترسو في مينائها وتنتمي إلى دول مختلفة. أما أرضها المحيطة بها فهي على درجة عالية من الخصوبة وإنتاجها وفير، وهو يشمل العنب فائق الجودة والإجاص والسفرجل والرمان والثوم والبصل والجوز الممتاز والبطيخ والورد والأزهار الأخرى والدراق والتين واليقطين والليمون والبرتقال حتى "أنها جنة" وفق تعبير فارتما. وإلى ذلك فهناك وفرة في اللحوم والحبوب والشعير والذرة البيضاء التي يصنع منها صنف من الخبز الجيد.

ويضيف باربوسا إلى هذا الوصف أن حول جيزان عدداً من القرى الصغيرة تربى فيها الخيول التي تصدر إلى الهند حيث تباع بأسعار عالية(١٣).

هبوطا من جازان نحو الجنوب يلتقي المبحر بجزيرة قمران التي سماها الهمداني كمران، وقال: إن فيها حصناً(١٤)، وهذا الاسم يرد أيضاً (كَمَران بفتحتين متتاليتين) عند ياقوت الذي قال عنها: إنها جزيرة بها حصن(١٥). تعرف عليها الرحالة الأوروبيون في مطلع القرن السادس عشر، وقدر فارتما(١٦) عدد سكانها بمئتي أسرة، وقال: إن فيها ماء عذباً وكمية كبيرة من اللحوم، وهي تنتج أجود أنواع الملح. كذلك أشار إلى أن ميناءها يواجه البر، أي باتجاه ساحل جزيرة العرب. ويضيف باربوسا(١٧) إلى وصف مينائها بأن المراكب تتوقف عنده للتزود بالتموين في أثناء رحلاتها من جدة وإليها.

وإلى الجنوب من قمران تقع الحديدة التي يذكرها باربوسا(١٨) ذكراً عابراً لكنه يشير إلى أن المراكب المبحرة في البحر الأحمر تستعين بالمرشدين البحريين المقيمين فيها لإرشادهم إلى الطريق البحري إلى جدة، وهو يقول: إن هؤلاء المرشدين يقيمون في الحديدة لهذا الغرض فقط.

وهؤلاء المرشدون ينالون اهتماماً أوفى من جانب البوكيرك(١٩) الذي يطلق عليهم اسم الربابنة العربي (مع تحريف قليل في الكتابة، ويصفهم بأنهم مرشدو المضيق، باب المندب)، ويشير إلى تجمعهم في جزيرة عند باب المندب تماماً هي جزيرة بريم.

عـدن

اشتهرت عدن في التاريخ العربي كواحدة من أعظم الموانىء البحرية على المحيط الهندي، وقال عنها الهمداني: إنها أقدم أسواق العرب(٢٠)، كتب عنها ياقوت(٢١) قائلاً إنها مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند، وهي مرفأ مراكب الهند والتجار يجتمعون إليه لأجل ذلك فهي بلدة تجارة. وقال عنها ابن حوقل(٢٢) (ـ ٩٧٧م): إن شهرتها آتية من أنها فُرضة على البحر، كما قال عنها الإدريسي(٢٣) إنها مرسى ومنها تسافر مراكب السند والهند والصين،

وإليها يجلب متاع الهند. وفي زمن ابن بطوطة (– ١٣٧٧م)، كما وصفها هذا الرحالة العربي(٢٤)، كانت عدن مرسى أهل الهند ومن مختلف أنحائها كانت تأتي إليها المراكب العظيمة، وتجار الهند ساكنون بها وتجار مصر أيضاً، وللتجار منهم أموال عريضة.

في مطلع القرن السادس عشر كانت عدن في أوج ازدهارها الاقتصادي، وكانت تحتل مكانة الصدارة في حركة التجارة العالمية، وصفها بيرس(٢٥) بأنها واحدة من أعظم أربعة مراكز تجارية في العالم، وقال عنها باريوسا(٢٦) : إن تجارتها أعظم وأكثر ثراء من أي تجارة أخرى في العالم كما أن تجارتها تقوم على السلع والبضائع الأكثر قيمة.

عدد سكان عدن في تلك الفترة حسب تقديرات فارتما(٢٧)، وهو الذي أقام فيها زمناً، يقع بين خمسة آلاف وستة آلاف أسرة. ويؤيد باريوسا(٢٨) كثرة سكانها فهو يشير إلى أنها مدينة مزدحمة بالسكان. ويقيم سكانها في دور على غاية من الجمال. وصفها البوكيرك(٢٩) بأنها سامقة ومبنية من الحجر. كذلك أشاد فارتما(٣٠) بجمال المدينة وأسهب باريوسا(٣١) في وصف دورها الشامخة ذات الأسقف المسطحة والنوافذ المستطيلة والمقامة على شوارع منظمة.

وثراء عدن هو أكثر ما لفت انتباه الرحالة والمبعوثين الأوروبيين، فهي مدينة على جانب كبير من الثراء كما كتب باربوسا(٣٢). وثراء المدينة وفرته لها تجارتها الواسعة الضخمة. فوفقاً لفارتما(٣٣) هي ملتقى المراكب القادمة من الهند وأثيوبيا وبلاد فارس، كما أن جميع السفن المتجهة إلى مكة (يقصد جدة ميناء مكة) تحط في مينائها.

ويوفر لنا باربوسا(٣٤) صورة تفصيلية مثيرة عن مكانة عدن في حركة التجارة العالمية في مطلع القرن السادس عشر وعن حركة التبادل التجاري فيها وعن السلع والبضائع التي كانت تتعامل بها. ووفقاً لهذا الوصف فإن السفن تأتي إلى مينائها من جميع الأنحاء، خاصة من ميناء جدة إذ تنقل السفن منه النحاس والزئبق والأصباغ القرمزية والمرجان والأقمشة الصوفية

والحريرية، وتأخذ هذه السفن في طريق العودة كميات كبيرة من التوابل والعقاقير والأقمشة القطنية والبضائع الأخرى التي تنتجها مملكة كمبايا في الهند. ومن زيلع وبربرة على البر الأفريقي تأتي السفن محملة بكميات وافرة من المواد الغذائية، وتأخذ معها في طريق عودتها السلع القادمة من كمبايا من أقمشة وخرز كبير وصغير. كذلك تأتي إليها جميع البضائع التي يتاجر بها في بلاد اليمن وبلاد القديس يوحنا (برستر جون إشارة إلى بلاد الحبشة)، كما تؤمها السفن قادمة من هرمز وكمبايا محملة بمختلف أنواع الأقمشة، وهي تأتي بأعداد كبيرة تثير الدهشة حاملة معها الأقمشة القطنية وكميات كبيرة من العقاقير والجواهر واللآلىء والعقيق وتعود إلى كمبايا محملة بالأصباغ والأفيون والزبيب وكميات كبيرة من ماء الورد الذي يصنع في عدن، كما تأخذ هذه السفن معها الأقمشة الصوفية والمخمل المكي الملون والذهب على شكل سبائك أو مسكوكات أو خيوط. ويؤم هذه المدينة قادمون من هرمز وشاول والديبل وكالكوتا التي يأتي منها معظم كميات التوابل، ومعهم كميات عظيمة من الرز والسكر وجوز الهند، كما تؤمها السفن قادمة من البنغال وسومطره ومالقه محملة بكميات كبيرة من التوابل والعقاقير والحرير والصمغ العطري والأخشاب بأنواعها والروند (عشب ذو منافع طبية) والمسك والأقمشة البنغالية وكميات من السكر.

عدن وفق هذا الوصف كانت بالفعل أحد أعظم مراكز التجارة الدولية في العالم.

الشحر

من عدن تتجه المراكب إلى ميناء رئيسي آخر في جنوب شبه جزيرة العرب هو الشحر، وهي مدينة عربية قديمة ذكرها ياقوت(٣٥) وقال إنه ينسب إليها العنبر الشحري لأنه يوجد في سواحلها. كما ذكر ابن حوقل أنها قصبة بلاد مهرة وأن منها اللبان الذي يستعمل في الآفاق(٣٦).

والشحر شأنها شأن موانىء شبه جزيرة العرب الأخرى كانت تعيش في مطلع القرن السادس عشر إحدى فترات ازدهارها العظيمة. وعوامل ازدهارها الرئيسية ثلاثة : وقوعها على خط الملاحة الدولي المتجه من الهند إلى عدن، وشهرتها في إنتاج البخور واللبان، والخيول العربية الأصيلة التي اشتهرت بتربيتها والتي كانت سلعة غالية الثمن. وهذه العوامل مجتمعة لفتت أنظار الرحالة الأوروبيين ومنهم باربوسا الذي يخبرنا(٣٧) بأن الشحر منطقة واسعة فيها كميات كبيرة من مختلف أنواع البضائع. فمسلمو كمبايا وشاول والديبل والمليار يأتون إليها بسفنهم المحملة بكميات كبيرة من الأقمشة القطنية الناعمة والخشنة والعقيق المثقوب والجواهر الأخرى الأقل شأنا والرز والسكر ومختلف أنواع التوابل وبضائع أخرى، يبيعونها من تجار البلد الذين يشترونها بأسعار جيدة، ثم ينقلونها إلى عدن وسائر مناطق الجزيرة العربية. ويستثمر التجار القادمون إليها أموالهم التي حصلوا عليها من بيع بضائعهم بشراء أعداد كبيرة من الخيول الممتازة الموجودة في المنطقة وهي أكبر حجماً وأفضل نوعاً من الخيول التي يشترونها من هرمز، ثم يقومون ببيعها في الهند مقابل خمس مائة أو ست مائة كروزادو للحصان الواحد، كما يشترون كميات كبيرة من البخور.

والإشارة في النص السابق عن سعر الخيول العربية في الهند قد تحتاج إلى بعض توضيح. فالكروزادو عملة ذهبية صكها أول مرة ملك البرتغال الفونسو الخامس المتوفى سنة ١٤٨١، وهو يعادل ٢٣٥ رايس (نوع من العملة شائع) أي أن سعر الحصان يتراوح بين ١١٧٥٠٠ رايس و١٤١٠٠٠ رايس. ولمعرفة قيمة هذا المبلغ بالذهب نلجأ إلى معادلة الرايس مقابل الأشرفي، وهو نقد ذهبي سكه السلطان المملوكي الأشرف قايتباي وكان منتشراً في العمليات التجارية والمالية في سواحل الجزيرة العربية وبعض أجزاء الهند، وهو يزن ٢,٥٦ غرام من الذهب، ويعادل حوالي ٣٦٠ رايس. وبعملية حسابية بسيطة نجد أن سعر الحصان يساوي ٣٢٦ أشرفيا أو ٨٣٥ غراماً من الذهب بحده الأدنى، أو ٣٩٢ أشرفيا يعادل ١٠٠٤ غرامات من

الذهب بحده الأعلى. غير أن بيرس(٣٨) وجد أن سعر الحصان العربي في الهند يفوق هذا الرقم إذ يصل إلى ٢٦٨٠٠٠ رايس. ووفق المعادلة السابقة عن سعر الرايس مقابل الأشرفي الذهبي فإن سعر الحصان يصل إلى ٧٩٤ أشرفيا تعادل ٢٠٣٣ غراماً من الذهب.

التجارة بالخيول كانت إذن تجارة مجزية انخرطت فيها الشحر في ذلك الزمن وشاركها هذا الدور جارتها القريبة ظفار.

ظفار

ظفار ميناء عربي اشتهر على امتداد التاريخ العربي الإسلامي، قال عنه ياقوت(٣٩) إن اللبان لا يوجد في الدنيا إلا في جبال ظفار. وزاره الرحالة العربي ابن بطوطة وخصص صفحات من كتابه عن ظفار(٤٠)، وقال : إن الخيل العتاق تحمل منها إلى الهند، وإن أهلها أهل تجارة، وهي كثيرة المساجد، ويصنع فيها ثياب من الحرير والقطن والكتان حسان جدا.

وعند وصول البرتغاليين إلى المنطقة في مطلع القرن السادس عشر كانت ظفار ميناء تجارياً نشطاً، ويصفها باربوسا(٤١) بأن مسلمي كمبايا يتاجرون معها بالأقمشة القطنية والرز وبضائع أخرى متنوعة جداً. وعلى الرغم من أنه لا يشير إلى تجارة الخيول المنطلقة منها ولا إلى إنتاج اللبان والبخور فمن المعروف تاريخياً أن ظفار كانت تشارك الشحر في هذه التجارة وأيضاً في إنتاج البخور الذي كان يحمل منها إلى مختلف أنحاء العالم. والبخور كان مادة أساسية في أوروبا لدخوله في الطقوس الدينية الكنسية. ويقول المؤرخ الاجتماعي النمساوي ستفن زفايج : إن معابد أوروبا كانت بحاجة ماسة إلى منتجات الشرق من هذه المادة إذ لم تكن ذرة واحدة من اللبان (البخور) الذي يحرق في آلاف الكنائس الأوروبية تنتج على الأرض الأوروبية، بل كان على الأوروبيين أن يحملوها إلى بلادهم من الجزيرة العربية عبر طرق برية وبحرية خطرة(٤٢).

قلهـات

قلهات وصفها ياقوت(٤٣) بأنها مدينة ترفأ إليها أكثر سفن الهند وهي عامرة آهلة. وزارها ابن بطوطة وقال عنها(٤٤) : إنها حسنة الأسواق ولها مسجد من أحسن المساجد، وإن أهلها أهل تجارة، وبمقربة منها قرية تسمى طيبي من أجمل القرى وأبدعها حسناً ذات أنهار جارية وأشجار ناضرة وبساتين كثيرة، ومنها تجلب الفواكه إلى قلهات.

وفي مطلع القرن السادس عشر كانت قلهات لا تزال تحافظ على تميزها، ويصفها باربوسا(٤٥) بأنها مدينة عربية كبيرة ذات دور جميلة حسنة البناء، ويسكنها كثير من التجار، خاصة تجار الجملة، وآخرون من نبلاء الناس. أما قرية طيبي التي بجوارها فيقول عنها : إنها ليست كبيرة الحجم، إلا أن المياه متوفرة فيها بكثرة حتى أن السفن التي تجوب تلك البحار تتزود بحاجتها من الماء منها.

القريات

القريات ليست بعيدة عن قلهات ويسكنها وفقا لباربوسا(٤٦) رجال ذوو مكانة عالية يقومون بتجارة مزدهرة بمختلف السلع. ويقول توجد في هذا المكان والأماكن المجاورة كميات كبيرة من الأطعمة وعدد كبير من الخيول يأتي مسلمو هرمز لشرائها من هنا، إما لأخذها معهم إلى بلادهم أو لإرسالها إلى الهند. ووفقاً لـ البوكيرك(٤٧) كان عدد الرجال في القريات ما بين خمسة آلاف رجل وستة آلاف، ويذكر أن تجارتها تقوم على مرفئها الذي يصدر منه التمور المتوافرة بكثرة فيها وفي المناطق المجاورة. ويشير كذلك إلى شهرتها بالخيول ويتفق بذلك مع باربوسا، إلا أنه يختلف معه على أن الخيول لا تصدر مباشرة من ميناء القريات نظراً لطبيعته الصخرية وشدة التيارات البحرية فيه. ويبدو بذلك أن خيول القريات كانت تصدر من ميناء قريب قد يكون قلهات. وقد لفت نظر البوكيرك في القريات جامعها الذي قال عنه : إنه أجمل جامع يمكن أن يرى، وهو الجامع الذي أحرقه البوكيرك عندما أحرق القريات بعد احتلالها.

مسقط

مسقط ذكرها ياقوت ذكراً عابراً واكتفى بالقول إنها مدينة من نواحي عمان(٤٨). ووصفها الحميري(٤٩) بأنها مدينة يمر عليها من أراد الهند والصين فترفأ فيها السفن وتستقي من آبار هناك عذبة المياه. أما ابن بطوطة الذي زارها فوصفها بأنها بلدة صغيرة بها السمك الكثير(٥٠).

غير أن مسقط كانت عند مطلع القرن السادس عشر مدينة مزدهرة وميناء نشطاً. وصفها باربوسا(٥١) بأنها مكان متسع يسكنه أشخاص عديدون من ذوي المكانة، وتجارتها عظيمة، كما أنها تشتهر بصيد السمك الذي يقوم أهلها بتمليحه وتجفيفه والاتجار به مع أقطار عدة.

غير أن لدى البوكيرك وصفاً أكثر تفصيلاً لمسقط(٥٢). فهي كما شاهدها مدينة كبيرة مزدحمة بالسكان، أنيقة جداً ودورها جميلة جداً. أما ميناؤها فهو على شكل حدوة الحصان محمي من جميع الجهات من مهب الريح وهو الميناء الرئيسي في المنطقة. وفي هذا الوصف يمتد خلف مسقط سهل فسيح تنتشر فيه آبار المياه العذبة التي تسحب منها بآلات خشبية لإرواء المزارع، إذ تكثر حولها الكروم والحدائق ومزارع النخيل، والتمور فيها متوافرة بكثرة. ومن مينائها تصدر التمور والخيول.

صحار

صحار كانت في العصور الإسلامية أحد أعظم الموانىء على ساحل شبه جزيرة العرب الجنوبي. قال عنها أبو الحسن المسعودي، وكان قد زارها، إنها قصبة بلاد عمان(٥٣). ووصفها ياقوت(٥٤) بأنها مدينة طيبة الهواء والخيرات والفواكه، مبينة بالآجر والساج، كبيرة ليس في تلك النواحي مثلها، وهي بلد عامر آهل حسن طيب نزه ذو يسار وتجار وفواكه وأسواق عجيبة. ووصفها بأنها "دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن". وقال عنها الإدريسي(٥٥) أن تجار البلاد يقصدونها في كل سنة بما لا يحصى عددهم. وإليها تجلب جميع

بضائع اليمن ويتجهز منها بأنواع التجارات، وأحوال أهلها واسعة وبها النخيل والموز والرمان والسفرجل وكثير من الثمار الطيبة. وكتب عنها ابن حوقل(٥٦) يذكر أن بها من التجار والتجارة ما لا يحصى كثرة، ولا يكاد يعرف على شط "بحر فارس" بجميع مدن الإسلام مدينة أكثر عمارة ومالاً من صحار.

وصحار عند وصول البرتغاليين إلى المنطقة كانت ميناء نشيطاً ومدينة مزدهرة اقتصادياً وعاصمة من عواصم التجارة البحرية. ولدى البوكيرك وصف لذلك تفصيلي شديد الحيوية(٥٧) : فهي مدينة جميلة جداً، دورها ممتازة، وعدد سكانها كبير يبلغون ستة آلاف نسمة وأكثر، منهم خمس مائة فارس، وهي سكن لعدد كبير من أشراف الناس يفوق عددُهم عددَهم في أي مكان آخر على امتداد الساحل. ويصف البوكيرك قلعتها بأنها ضخمة مربعة الشكل، يحيطها ستة أبراج، وهي تحتاج إلى ألف رجل للدفاع عنها، وبداخل القلعة مساكن للرجال الذين يتولون الدفاع عنها، وهي تقع قريبة من شاطئ البحر حتى أن المياه تصل إلى أسوارها عند علو المد. وتمتد صحار إلى الداخل في سهل خصب يزرع قمحاً وذرة وشعيراً، كما تعيش فيه قطعان الماشية وأعداد كبيرة من الخيول. وهذه الخيول العربية كبيرة الحجم حسنة الشكل رشيقة سريعة. ومن صحار تصدر كميات كبيرة من التمور والذرة.

خورفكان

وصف ياقوت خورفكان بأنها بليد به نخل وعيون عذبة(٥٨). وفي مطلع القرن السادس عشر كانت خورفكان وفق وصف باربوسا لها(٥٩) قرية تحيط بها الحدائق والمزارع بكثرة ويمتلكها عرب ذوو مكانة سامية يؤمُّونها للنزهة أو لجني ثمارها. غير أن وصفها لدى البوكيرك يجعلنا نستنتج أنها كانت آنذاك بلدة مزدهرة اقتصادياً ذات ميناء نشط، فهو يذكر(٦٠) أنها بلدة كبيرة ذات دور جيدة ويسكنها عدد كبير من التجار، ومنهم تجار أغنياء من كوجرات بالهند. وفي امتداد خورفكان إلى الداخل مزارع عديدة ذات دور جيدة وتنبت فيها

أشجار البرتقال والليمون والتين وأشجار النخيل وسائر أنواع الخضار، وبها آبار ماء عديدة لإرواء المزروعات، كما تنبت في حقولها الذرة. أما على شاطئها فهناك عدد كبير من مراكب الصيد، بينما توجد في داخل المدينة اسطبلات كبيرة للخيل التي تصدرها خورفكان من مينائها إلى الهند.

وخورفكان هي آخر مكان أوردته مصادرنا المعتمدة في هذه الورقة عن مدن وموانيء وبلدات شبه جزيرة العرب بسواحلها على البحر الأحمر فخليج عدن فبحر العرب فخليج عمان. بعدها تبدأ الرحلة بالدخول إلى قلب الخليج العربي من بوابة مضيق هرمز المسمى باسم جزيرة عند مدخله.

هـرمـز

هرمز كانت هي الأكثر ثراء وازدهاراً في الخليج العربي وعلى ساحل عمان عند وصول البرتغاليين إلى المنطقة في مطلع القرن السادس عشر. وتاريخها باختصار هو أن أصلها مدينة على الساحل الشرقي للخليج العربي (على ساحل مكران وعلى ضفاف نهر ميناب) نمت في القرن الحادي عشر الميلادي لتصبح أحد أبرز الموانيء التجارية على هذا الساحل. بعد سقوط بغداد في أيدي هولاكو المغولي سنة ١٢٥٨م وما تبعه من اضطرابات سياسية، تعرضت هرمز الساحلية إلى عدة غزوات وأعمال نهب ما جعل أهلها في العقود الأخيرة من القرن الثالث عشر يهجرون مدينتهم إلى جزيرة جرون الواقعة على مدخل الخليج العربي ليؤسسوا فيها مملكة أطلقوا عليها اسم هرمز أيضاً تيمناً باسم مدينتهم القديمة. هرمز المعنية هنا إذن هي هذه المملكة التي قامت على جزيرة جرون في الأساس وتطور الأمر بها مع الزمن لتصبح إمبراطورية اقتصادية ضخمة. وقد وصل اتساعها عند أواخر القرن الخامس عشر الميلادي وأوائل السادس عشر ليشمل جزيرة البحرين وأجزاء مهمة من حوض الخليج العربي الجنوبي، شاملة جلفار (رأس الخيمة الحالية) وأجزاء من الساحل الفارسي على الخليج، كذلك مروراً بالمضيق المسمى

باسمها لتشمل أجزاء من ساحل عمان (كما كان يسمى) إلى رأس الحد محتوياً خورفكان وكلبا وصحار وقلهات ومسقط. ويحكم هذه المملكة المتسعة الأجزاء سلالة حاكمة تسمى رؤساؤها بالسلاطين وتعود بنسبها إلى قبائل عربية من قلهات. أما سكان هرمز (الجزيرة) نفسها فكانوا خليطاً من العرب والفرس الذين استعربوا لغة.

عند مطلع القرن السادس عشر كانت مدينة هرمز على الجزيرة قد وصلت الذروة في تقدمها الاقتصادي، فهي تقع على خط الملاحة الرئيسي ما بين مصادر التجارة الشرقية في الهند وسواحل الجزيرة العربية الجنوبية وأفريقيا من جانب، ورأس الخليج العربي من جانب آخر حيث تتجه التجارة من البصرة إلى بلاد الشام ومن هناك إما إلى الأناضول أو أوروبا عبر البحر المتوسط.

بيرس قدم وصفاً مجملاً لتجارة هرمز ومكانتها الاقتصادية المرموقة(٦١)، ووصفها فارتما(٦٢) الذي زارها في أثناء رحلته المشرقية بأنها مدينة مهيبة وجميلة إلى أبعد الحدود وبأنها رأس في التجارة والملاحة. أما باريوسا فيفرد فصلاً من كتابه تحت عنوان "مدينة هرمز جميلة"(٦٣) يصف فيه تفصيلا وضع المدينة كما كانت في مطلع القرن السادس عشر ويذكر أنها حسنة التنظيم في شوارعها، وتضم العديد من الساحات المكشوفة، ودورها عالية مبنية من الحجر وذات سقوف مسطحة. وهو يصف سكانها بأنهم مترفون وعلى درجة عالية من التهذيب ويهتمون كثيراً بملابسهم وأطعمتهم والكثير منهم يتقنون العزف على الآلات الموسيقة. أما عن أوضاع هرمز الاقتصادية فيقول باريوسا إن بها العديد من التجار الأغنياء، ويرفأ إلى مينائها الكثير من السفن الكبيرة فميناؤها جيد إلى حد بعيد وهو يتعامل مع مختلف أنواع السلع من مختلف الأقطار. فمن الهند يستورد تجارها التوابل والفلفل والقرفة والزنجبيل والقرنفل وحب الهال وأنواعاً مختلفة من الأخشاب والتمر الهندي والزعفران والشمع والحديد والسكر والرز وجوز الهند، بالإضافة إلى كميات كبيرة من الأحجار الكريمة والبورسلان والصمغ العطري. وهم يكسبون من الاتجار بهذه السلع أموالاً طائلة. كذلك يجلبون من كمبايا وشاول والديبل والبنغال أنواعاً من

الأقمشة القطنية الناعمة مقابل أثمان عالية وهم يستخدمونها للعمائم والقمصان. أما من مدينة عدن فهم يجلبون كميات كبيرة من النحاس والزئبق والأصباغ القرمزية وماء الورد وأقمشة التفتا والمخمل. ومن فارس تأتي كميات كبيرة من الحرير والمسك والعقيق. ومن البحرين وجلفار يجلبون اللآلئ بمختلف أحجامها ويجلبون من مدن الجزيرة العربية عدداً كبيراً من الخيول يصدرونها إلى الهند، وهم في كل مرة يشحنون ألف حصان وأحياناً ألفين، وهم يحملون السفن التي تنقل هذه الخيول بكميات كبيرة من التمور والزبيب والكبريت وأيضاً باللآلىء من مختلف الأحجام.

وعن اللؤلؤ كتب فارتما(٦٤) أن عملية الصيد تتم في البحر على بعد ثلاثة أيام سفر من هرمز وتكون الحصيلة أكبر لآلىء موجودة في العالم. وهو يصف عملية الغوص بدقة تؤكد أنه شاهد عيان، ويقول: إنه يتجمع في هرمز في بعض الأوقات نحو من ثلاث مائة مركب تنتمي إلى بلدان مختلفة مخصصة لصيد اللؤلؤ.

ويلخص البوكيرك (المجلد ٤ ص ١٦٨) مكانة هرمز الاقتصادية والتجارية بقوله: إن العالم خاتم وهرمز جوهرته، وهي تنصب فيها جميع التجارات من بلاد التتار والتركمان وبلاد فارس وبغداد والقاهرة وجميع أنحاء الهند، ويستطيع المرء أن يحصل في هرمز على أي صنف من السلع التجارية يرغب فيه.

جلفار

جلفار من أهم مدن الساحل العربي في الخليج في زمنها. وصفها ياقوت بأنها بلد كثير الغنم والجبن والسمن يجلب منها إلى ما يجاورها من البلدان(٦٥). وهي إشارة إلى إمكاناتها الزراعية المتميزة. وقال عنها في موضع آخر: إنها مدينة مخصبة(٦٦) تأكيداً للإشارة السابقة.

غير أن شهرتها الأعظم تأتت من غناها باللؤلؤ من جهة وبحارتها الكبار من جهة ثانية. وصفها فارتما(٦٧) كما رآها عندما مر بها بأنها ممتازة جداً

ويأنها زاخرة بكل شيء وقال عن مينائها بأنه جيد. أما باربوسا(٦٨) فقال عنها: يسكن فيها أشخاص أثرياء وملاحون عظام وتجار جملة. كما تحدث عن مغاصات اللؤلؤ هناك ووصفها بأنها عظيمة تنتج لآلىء كبيرة الحجم. وإلى جلفار يأتي التجار من هرمز لشراء اللآلىء وحملها إلى الهند وإلى بلدان أخرى عديدة. كذلك وصف تجارتها بأنها ذات عوائد ضخمة.

ويذكر باربوسا(٦٩) إلى جانب جلفار اسم رأس الخيمة Recoyma ويميزها من جلفار ويقول إن بها قلعة. وقد جاء ذلك في النص البرتغالي (وهو النص المعتمد في النسخة الانجليزية المستخدمة في هذه الورقة)، بينما يذكر مترجم الكتاب ومحرره(٦٩) أن النص الإسباني رسم هذا الموقع Racolhiman ووصفه بأنه بلدة حسنة، كما ذكر إضافة إليه اسم Malquehoan وهي أم القيوين الحالية، وبذلك تعتبر هذه الإشارة من أقدم النصوص التاريخية عن هاتين المدينتين.

البحرين

ليس في مابين يدينا من مصادر رئيسية أربعة استندت إليها هذه الورقة ذكر لأي موضع بعد جلفار في الحوض الجنوبي للخليج العربي. الموضع المهم الآخر بعد جلفار في داخل الخليج الذي تعرف عليه الرحالة والمبعوثون هو جزيرة البحرين.

وفي المصادر العربية القديمة كان مصطلح البحرين الجغرافي لا يشمل الجزيرة وحدها بل أيضاً الساحل الجنوبي للخليج العربي حتى جلفار(٧٠). أما الجزيرة نفسها فكانت تعرف بأوال. وكانت أوال في العصور الإسلامية جزيرة منتجة زراعياً، قال عنها ياقوت إن فيها نخلاً وليموناً وبساتين(٧١) ولدى الحميري وفق مقتبساته(٧٢) فإن أوال كثيرة النخل والموز والجوز والأترج والأشجار والزرع، ولكنه يضيف بأن فيها معادن اللؤلؤ.

فالبحرين المقصودة بمصادرنا الأوروبية هنا هي جزيرة أوال. واللؤلؤ الذي تنتجه الجزيرة كان أكثر ما لفت انتباه أصحاب هذه المصادر. فبيرس(٧٣) رأى البحرين تمتاز بتوافر أفضل أنواع اللؤلؤ فيها فهو أنصع بياضاً وأكثر استدارة من غيره.

ويذكر باربوسا(٧٤) أن البحرين سكن لكثير من التجار والناس الأغنياء، ونظراً لموقع هذه الجزيرة المتوسط في الخليج يؤمها كثير من السفن المحملة بمختلف التجارات، كما يتوافر في مياهها كميات كبيرة من اللؤلؤ الذي يصطاده تجار الجزيرة ويجنون منه أرباحاً طائلة. كما يأتي إلى الجزيرة تجار هرمز لشراء اللؤلؤ منها، ويصدرونه إلى الهند حيث يحققون من هذه التجارة مكاسب عظيمة.

أما البوكيرك(٧٥) فيصف جزيرة البحرين بأنها تتميز بكونها مكاناً كبيراً لتربية الخيول، وأيضاً لإنتاج الشعير وأنواع الفواكه، كما تقع حولها مغاصات اللؤلؤ الذي هو من أجود الأصناف.

البصرة

البصرة مدينة نشأت في الإسلام إذ مُصّرت في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب. ومنذ ذاك أصبحت البصرة إحدى أهم العواصم العربية وأكبر مركز حضري على الخليج العربي. فقد نمت سكانياً نمواً كبيراً حتى أن بعض مصادرنا يذكر أن عدد العرب فيها بلغ في العهد الأموي مائتي ألف نسمة(٧٦)، وذلك بخلاف غير العرب من السكان. وفي زمن العباسيين أصبحت البصرة أحد أبرز المراكز التجارية في العالم الإسلامي. فهي من جانب مرفأ استيراد للتجارة الشرقية القادمة عبر الخليج، كما كانت من جانب آخر ميناء تصدير للسلع الزراعية المنتجة في سواد العراق والمطلوبة على امتداد سواحل الجزيرة العربية الفقيرة بمواردها الطبيعية. وعن هذه الحركة التجارية الناشطة في البصرة يحدثنا الجاحظ (– ٨٦٩م) بأن عدد السفن التي كانت

تدخل البصرة في زمنه كان نحواً من ألفي سفينة يومياً "لا يبيت فيها سفينة واحدة"(٧٧). وقد وصفها ابن بطوطة، كما كانت عندما زارها، بأنها إحدى أمهات العراق الشهيرة الذكر في الآفاق، الفسيحة الأرجاء، المونقة الأفناء، ذات البساتين الكثيرة والفواكه الأثيرة(٧٨).

وما بين البحرين والبصرة على امتداد الساحل كانت تقوم أعدد من المراكز والمدن والبلدات، إلا إن مصادرنا الأوروبية لم تتحدث عنها بتفصيل، وإن كان البوكيرك (٧٩) قد أشار إلى هذا الساحل بوصفه ساحلاً مزدحماً بالسكان الذين يقيمون في بلدات عديدة. وهكذا فمصادرنا تصل مباشرة إلى البصرة. والمعلومات المتوافرة في هذه المصادر وجيزة ومضطربة إذ لم يصل البرتغاليون إلى البصرة قط.

البوكيرك يشير إلى البصرة إشارات عابرة ويذكر أن تجارتها نشطة(٨٠) أما باربوسا(٨١) فيعطي معلومات أوفى نسبياً عنها فيذكر أن بها قلعة عظيمة، وهي تقع على نهر كبير جداً، أخطأ باربوسا بتسميته نهر الفرات (هو شط العرب). كذلك يذكر أن سفناً عديدة ترفأ إلى البصرة محملة بكميات كبيرة من السلع التجارية، والبهارات والأقمشة القطنية، وتأخذ هذه السفن في المقابل كميات كبيرة من القمح والزيد والزيوت والشعير والأقمشة المخملية وغيرها من السلع.

خاتمة

يخرج عن نطاق هذه الورقة، كما ليس هو هدفها، البحث في شأن الاستعمار البرتغالي : دوافعه وبنيته والنتائج التي ترتبت عليه. فقد خصصنا الورقة تحديداً لوصف أوضاع الموانىء والمدن الساحلية في شبه جزيرة العرب كما كانت عند الصدمة البرتغالية الأولى في مطلع القرن السادس عشر الميلادي. وشهادات الرحالة والمبعوثين الرسميين الأوروبيين تكشف الكثير عن مدى التقدم والازدهار اللذين كانت المنطقة تتمتع بهما عند ذاك.

ولم تكن تلك حالة طارئة، فمصادرنا العربية التي استشهدنا بها تكراراً تدل بوضوح على أن المنطقة شهدت طوال تاريخها، حتى المرحلة موضع البحث، وضعاً اقتصادياً متميزاً في العالم. فقد كانت تقع عند مفصل رئيسي من مفاصل التجارة العالمية العابرة للمحيطات، إن لم يكن عند أهم هذه المفاصل، ما وفر لها مكانة التسيد على طرق هذه التجارة، وأيضاً ما خلق أسباباً عملية لازمة لنشوء مجتمع سكاني بحري متميز أظهر على امتداد تاريخه قدرات فذة وكفاءات عالية في التعامل بشؤون الملاحة وعلومها وأسرارها، وأيضاً في التعاطي مع هذه التجارة المحمولة بحراً. وكانت النتيجة المنطقية لذلك أن يتركز قسط مهم من ثروة العالم في هذه المنطقة، فتح شهية البرتغاليين للفتح والتوسع.

وهكذا دون تسطيح للأمور أو تجاهل للاعتبارات الأخرى، أدينية كانت أم استراتيجية، يمكن تكثيف القول بأن ثروة المنطقة من جانب، وضرب تسيدها على خطوط التجارة العالمية من جانب آخر لمصلحة تلك القوة الأوروبية الناشئة، كانا صلب المشروع الإمبراطوري البرتغالي في المشرق ومحركه الأقوى.

وجانب آخر مهم أكدته المعطيات كما وردت في هذه الورقة هو وضوح الاعتماد المتبادل ما بين الموانىء والمدن الساحلية في شبه جزيرة العرب في شؤون التجارة والاقتصاد، حتى أن المدقق في حركة تدفق التجارة إلى

هذه الموانىء وانطلاقها منها وانسيابها في ما بينها يستخلص أن المنطقة بأجمعها كانت تعيش نوعاً من الوحدة الاقتصادية لم يؤثر فيها اختلاف الانتماءات السياسية لأي من أجزائها. وإذا كان الباحث في شؤون المنطقة السياسية وتاريخ تطوراتها سوف يجد الكثير ليقوله عن أنماط النزاع السياسي التي كانت تتعرض لها المنطقة، فهو يكاد لا يجد شيئاً يضيفه عن تأثير هذه النزاعات في التبادل التجاري ما بين أجزائها وفي ما كان يشبه الوحدة الاقتصادية القائمة على أسس حرية انسياب السلع والأموال بين أجزاء المنطقة وحرية حركة العاملين في الأنشطة التجارية وتنقلهم والاعتماد المتبادل بين موانئها ومراكزها الاقتصادية.

٥ – ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، بيروت : دار صادر، ١٩٧٧، المجلد الثاني، ص ١٤٤.

٦ – نقلاً عن : محمد بن عبد المنعم الحميري، كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت : مكتبة لبنان، ص ١٥٧.

الحواشي

1 - *The Book of Duarte Barbos : An Account of the Countries Bording on the Indian Ocean and their Inhabitats* Writtern by Duarte Barbosa about the year 1518, Two Volumes, Tran. by Mansel Longworth Dames, Nendeln (Leiechenstein : Kraus Reprint Ltd, 1967).

2 - *The Commentaries of the Great Afonso Dalboquerque*, Trans. and ed. by Walter De Qray Birch, (New York : Burt Franklin, 1970).

3 - Tome Pires, *The Suma Oriental of Tome Pires : An Account of the East from the Red Sea to Japan* written in Malaca in 1512 - 1515, Tran. from the Portuguese by Armado Corestao, (London : Hakluyt Society).

4 - *The Travels of Ludvico di Varthema in Egypt, Syria, Arabia Deserta and Felix AD 1503 - 1508*, Trans, by John Winter Jones, (New York : Burt Franklin).

٥ – ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، بيروت : دار صادر، ١٩٧٧، المجلد الثاني، ص ١٤٤.

٦ – نقلاً عن : محمد بن عبد المنعم الحميري، كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت : مكتبة لبنان، ص ١٥٧.

7 - Pires, 11.

8 - Varthema, 52 - 53.

9 - Barbosa, Vol. I, 46 - 47.

١٠ – لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٩٧٤، ص ٦٨، ٧٦، ١٢٦، ٢٥٩.

١١ – ياقوت، المجلد الثاني، ص ٩٤.

12 - Varthema, 55 - 56.

13 - Barbosa, Vol. I, 51.

١٤ – الهمداني، ص ٦٨، ٢٥٨.

١٥ – ياقوت، المجلد الثاني، ص ١٣٩.

16 - Varthema, 57.

17 - Barbosa, Vol. I, 52.

18 - Barbosa, Vol. I, 51.

19 - Dalboquerque, Vol. IV, 29.

٢٠ – الهمداني، ص ٢٠.

٢١ – ياقوت، المجلد الرابع، ص ٨٩.

٢٢ – أبو القاسم ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، بيروت : دار مكتبة الحياة، ١٩٧٩، ص٤٤.

٢٣ – مقتبس في الحميري، ص ٤٠٨.

٢٤ – رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد المنعم العريان، بيروت : دار إحياء العلوم، ١٩٨٧، ص ٢٦٠.

25 - Pires, Vol. I, 15.

26 - Barbosa, Vol. I, 57.

27 - Varthema, 59.

28 - Barbosa, Vol. I, 53.

29 - Dalboquerque, Vol. IV, 10.

30 - Vartherma, 60.

31 - Barbosa, Vol. I 54.

32 - Barbosa, Vol. I, 54.

33 - Varthema, 60.

34 - Barbosa, Vol. I, 55 - 57.

٣٥ – ياقوت، المجلد الثالث، ص ٣٢٧.

٣٦ – ابن حوقل، ص ٤٤.

37 - Barbosa, Vol. I, 64 - 66.

38 - Pires, 58.

٣٩ – ياقوت، المجلد الرابع، ص ٦٠.

٤٠ – ابن بطوطة، ص ٢٦٧ – ٢٧٠.

41 - Barbosa, Vol. I, 67.

42 - Cited by Joseph De Barros, "Aspects jof Historical Relations between the Arab Gulf and Inda before the Portuquese Arrival", Al Watheeqa, No 20, January 1992,185.

٤٣ – ياقوت، المجلد الرابع، ص ٣٩٣.

٤٤ – ابن بطوطة، ص ٢٧٨.

45 - Barbosa, Vol. I, 69.

46 - Barbosa, Vol. I, 70.

47 - Dalboquerque, Vol. I, 71.

٤٨ – ياقوت، المجلد الخامس، ص ١٢٧.
٤٩ – الحميري، ص ٥٥٩.
٥٠ – ابن بطوطة، ص ٦٦١.

51 - Barbosa, Vol. I, 83.

52 - Dalboquerque, Vol. I, 83.

٥٣ – علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت : دار الفكر، الطبعة الخامسة، ١٩٧٣، الجزء الأول، ص ١٠٨. وينتبه إلى التصحيف فيه، إذ رسم الاسم خطأ بلفظ سنجار.
٥٤ – ياقوت، المجلد الثالث، ص ٣٩٣ – ٣٩٤.
٥٥ – مقتبس في الحميري، ص ٣٥٤.
٥٦ – ابن حوقل، ص ٤٤.

57 - Dalboquerque, Vol. I, 91 - 92.

٥٨ – ياقوت، المجلد الثاني، ص ٤٠٠.

59 - Barbosa, Vol. I, 72 -73.

60 - Dalboquerque, Vol. I, 100.

61 - Pires, 19 - 20.

62 - Varthema, 94 -95.

63 - Barbosa, Vol. I, 90.

64 - Varthema, 95.

٦٥ – ياقوت، المجلد الثاني، ص ١٥٤.
٦٦ – نفسه، ص ١٢٨.

67 - Varthema, 93.

68 - Barbosa, Vol. I, 73.

٦٩ – انظر الحاشية رقم ٢ في المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
٧٠ – ياقوت، المجلد الأول، ص ٣٤٧، الحميري، ص ٨٢.
٧١ – ياقوت، المجلد الأول، ص ٢٧٤.
٧٢ – الحميري، ص ٦٣.

73 - Pires, 19.

74 - Barbosa, Vol. I, 87.

75 - Dalboquerque, Vol. I, 187.

٧٦ – ياقوت، المجلد الأول، ص ٤٣٤.

٧٧ – عمرو بن بحر الجاحظ، "كتاب الأوطان والبلدان" في : رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة : مكتبة الخانجي، ١٩٦٤ – ١٩٧٩، الجزء الرابع، ص ١٤٤.

٧٨ – ابن بطوطة، ص ١٩٧.

79 - Dalboquerque, Vol. I, 187.

80 - Dalboquerque, Vol. I; 186 - 187.

81 - Barbosa, Vol. I, 88 - 89.

أولا : كتب الرحالة والمبعوثين الأوروبيين:

- *The Book of Duarte Barbos : An Account of the Countries Bording on the Indian Ocean and their Inhabitats* Writtern by Duarte Barbosa about the year 1518, , Tran. by Mansel Longworth Dames, (Nendeln, Leiechenstein : Kraus Reprint Ltd, 1967), 2v..

- *The Commentaries of the Great Afonso Dalboquerque*, Trans. and ed. by Walter De Qray Birch, (New York : Burt Franklin, 1970).

- Tome Pires, *The Suma Oriental of Tome Pires : An Account of the East from the Red Sea to Japan* written in Malaca in 1512 - 1515, Tran. from the Portuguese by Armado Corestao, (London : Hakluyt Society).

- *The Travels of Ludvico di Varthema in Egypt, Syria, Arabia Deserta and Felix AD 1503 - 1508*, Trans by John Winter Jones, (New York : Burt Franklin).

ثانيا : المصادر العربية

– الجاحظ، عمرو بن بحر، "كتاب الأوطان والبلدان" في رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة : مكتبة الخانجي، ١٩٦٤ – ١٩٧٩.

– الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان. بيروت : دار صادر، ١٩٧٧.

– الحميري، محمد بن عبد المنعم، كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار. تحقيق احسان عباس، بيروت : مكتبة لبنان، ١٩٧٥.

– ابن حوقل، أبو القاسم، كتاب صورة الأرض. بيروت : دار مكتبة الحياة، ١٩٧٩.

– رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. تحقيق محمد عبد المنعم العريان، بيروت : دار إحياء العلوم، ١٩٨٧.

– المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت : دار الفكر، الطبعة الخامسة، ١٩٧٣.

– الهمداني، لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب، صفة جزيرة العرب. تحقيق محمد بن علي الأكوع، الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٩٧٤.

الآثار الاجتماعية والاقتصادية
للوجود البرتغالي في منطقة الخليج
(الربع الأول من القرن السادس عشر نموذجاً)

محمد رزوق

دكتوراه في التاريخ
مغربي من مواليد ١٩٥٠م

الوظائف :

- أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.
- رئيس شعبة التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء، ومسؤول البحث العلمي بها ومسؤول مجلة حولياتها
- رئيس مصلحة التخطيط والعلاقات الجامعية الخارجية بالكلية المذكورة.
- عضو في عدد من الجمعيات والمكاتب والهيئات الثقافية منها :

اتحاد المؤرخين، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، مكتب الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتب مجموعة إحياء التراث الإسلامي، جمعية الدراسات الصحراوية بالولايات المتحدة الأمريكية.

من نتاجه :

«الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين ١٦، ١٧».
«دراسات في تاريخ المغرب».
«المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور لأحمد بن القاضي» (دراسة وتحقيق).
«ناصر الدين على القوم الكافرين لأحمد بن قاسم الحجري» (تحقيق).

بالإضافة إلى أبحاث ومقالات في مجلات المناهل ودعوة الحق والمجلة التاريخية المغاربية والمؤرخ العربية والبحوث التاريخية والمجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي.

إن الوجود البرتغالي بالخليج العربي ما هو إلا امتداد للحملة الصليبية التي شنتها البرتغال على العرب المسلمين في البرتغال نفسه، ثم تتبعت المسلمين بالمغرب، إذ كان احتلال سبته مبكراً (سنة ١٤١٥م)، وليتواصل بعد ذلك احتلال باقي الثغور المغربية. فقد سيطرت الروح الصليبية على عدد من ضباط البحرية البرتغالية، وأبرز مثال على ذلك الفونسو دي البوكيرك Al Fonso de Albukerque إذ بدأ حياته في الجيوب البرتغالية بالسواحل المغربية ليلعب بعد ذلك الدور نفسه بالخليج العربي(١).

أما العامل الرئيسي الثاني فهو الوصول إلى الهند والشرق الأقصى مباشرة دون حاجة لوساطة المسلمين، إذ كان الخليج العربي يعد من أهم المعابر التجارية في آسيا وعن طريقه كانت تمر منتجات الهند والصين إلى أسواق فارس والشام والجزيرة العربية، كما كانت تعبر السلع الواردة من الجزيرة العربية فارس وأوروبا من الطريق نفسه إلى الهند والشرق الأقصى، وقد ساعد هذا الانتعاش التجاري على ظهور كثير من المدن الموانيء التجارية على ضفاف الخليج كالبصرة والبحرين وسيراف وهرمز وغيرها. وسوف يكون للغزو البرتغالي آثار كثيرة على دور الوساطة التي كان الخليج يقوم بها، أو على المدن الخليجية نفسها وما كانت تشتهر به من ثراء وازدهار اقتصادي وعمراني كبير.

الوثائق والمصادر

يضم الأرشيف البرتغالي ثروة وثائقية هائلة تتعلق بالخليج العربي، خاصة أن البرتغاليين كان لهم سبق الاتصال، واستمرت علاقاتهم مع الخليج قرابة القرنين، وهذه الوثائق بالأرشيف الوطني بلشبونة :

Azfuivo Nacional do Tone do Tombo وبه المنشورات الملكية المتعلقة بالمستعمرات البرتغالية ومملكة هرمز بصفة خاصة، بالإضافة إلى رسائل نائب الملك في الهند. ومن هذه الوثائق ما هو منشور، لكن ما زالت هناك

ضرورة ملحة لبذل جهد أكبر لاستخلاص الوثائق المتعلقة بالخليج من بين وثائق التاريخ البرتغالي.

نضيف إلى ذلك مذكرات بعض ضباط البحرية البرتغالية الذين شاركوا في الأحداث، مثل مذكرات الفونسو دي البوكيرك، وكذلك رحلات الرهبان الذين زاروا المنطقة وكتبوا عنها، وكتاباتهم مفيدة إذا أحسنا التعامل معها.

ملاحظات حول الكتابات البرتغالية

– عدّ البرتغاليون أعمال العنف التي قاموا بها انتصارات لهم، وبالتالي كان الحقد الصليبي يحرك جميع الأعمال التي كان يقوم بها البرتغال من حرق وإهانة وتعذيب للمسلمين، وكل هذه الأعمال كانت تعد بمثابة انتصار للمسيحية.

– تصف الكتابات البرتغالية من يقاومون الغزو بأنهم لصوص، وأن السكان كانوا حذرين جداً في التعامل معهم.

– تصف هذه الكتابات جوانب من الاقتصاد المحلي قبل الغزو، فمثلاً يصف البوكيرك الازدهار الاقتصادي الذي كانت تعيشة المدن العمانية، وقد تركت الزراعة انطباعاً قوياً لديه، فكتب عن قلهات أول ميناء تصل إليه سفنه في الخليج، فذكر أن جميع مؤن سكانها من القمح والشعير والذرة والتمور تأتي إليها من الداخل، كما ذكر أنها ميناء عظيم للشحن البحري، إذ كان يأتيه الكثير من السفن لنقل التمور والخيول إلى الهند، أما عن مسقط فقد ذكر أنها كانت مدينة كبيرة كثيفة السكان محاطة من الداخل بسلسلة من الجبال الشاهقة، وذكر أنها تعد جزءاً من مسقط، وإن كانت مقاطعاتها الداخلية تخضع لحكام الجبور. كما وصف صحار بأنها مدينة جميلة ذات منازل أنيقة، ولاحظ أن الأ راضي الواسعة الممتدة وراءها مزروعة بالقمح والذرة والشعير، كما أن تربية الماشية والخيول تكثر بتلك المزارع لوجود المراعي والأشجار(٢).

- تركز الوثائق البرتغالية (كالوثائق الانجليزية والهولندية) على موضوع واحد هو موضوع التجارة الخارجية، وهذا ما سبق أن لاحظه الباحث الهولندي ب. ج. سلوت B. J. Slot إذ يقول: «إن الوثائق الاقتصادية البرتغالية والهولندية والإنجليزية العديدة تعالج ميداناً واحداً فقط في اقتصاديات الخليج وهو موضوع التجارة الخارجية. وليس هذا سوى جزء واحد من النظام الاقتصادي. أما بقية النشاطات الأخرى فليس لدينا منها سوى القليل من الإشارات الغامضة. أما المعلومات حول الحالة الاقتصادية العامة في الخليج فتكاد تكون شيئاً لا يذكر»(٣).

- أما المصادر العربية، فقد سكتت عن المراحل الأولى للغزو البرتغالي، واتجهت بشكل خاص إلى طرح بعض المسائل الدينية، فهل هو هروب من واقع مر، وأن الكتابة كانت تعدّ خدشا في كرامة المسلمين(٤)، في حين اهتمت بالمراحل الأخيرة للمقاومة خاصة دولة اليعاربة وانتصاراتهم.

الأوضاع السياسية بالخليج العربي إبان الغزو البرتغالي

كان التفكك السياسي ظاهرة واضحة نتيجة للخلافات القبلية، وكانت تمثل سكان الخليج العربي مجموعة من القبائل تقيم على ضفاف الخليج وتخضع مباشرة لشيوخها، ولم يكن للقوى الدولية أي تأثير عليها، وكانت هذه القبائل تنتقل فيما بينها دون حدود، مما أدى إلى تداخلها.

وكانت العصبية القبلية تقف حائلاً دون قيام اتحاد بينها، وأخذت كل فئة تحاول السيطرة على الأخرى. لقد استمرت منطقة الخليج العربي خاضعة لسيطرة القبائل العربية التي تنتمي إلى ثلاث تجمعات كبيرة نزحت من داخل شبه الجزيرة العربية وهي القواسم وبني ياس والعتوب. ولم تستطع القوات الإسلامية الثلاث الموجودة آنذاك الفرس والأتراك والمماليك أن تفعل شيئاً لإنقاذ الخليج من الغزو البرتغالي، لأنها كانت في صراع مرير يدفعها، بل كان من هذه القوات من تعاون مع البرتغال لاقتسام بعض مناطق الخليج العربي.

بدء عمليات الغزو

كان هدف البوكيرك قائد الأسطول البرتغالي في بحار الهند أول الأمر السيطرة على هرمز بوصفها مفتاحاً للخليج العربي سيستطيع من خلالها السيطرة على مياه الخليج. وقد عمد القائد البرتغالي وهو في طريقه إلى هرمز إلى إحراق جميع السفن التي التقى بها وتدميرها، وأشعل النيران في الموانيء العربية التي مرّ بها كقريات ومسقط وخورفكان. وهكذا كان خليج عمان أول منطقة تشهد فظاعة الغزو البرتغالي وقسوته(٥)؛ فبعد أن استولى البوكيرك على قريات عنوة، وبعد قيامه بمجزرة رهيبة فيها أمر بنهبها وإشعال النار فيها وإحراق ٨٣ سفينة راسية في مينائها. ثم أبحر إلى مسقط، وعندما وصلها أرسل حاكمها وفداً للمفاوضة، ولكن البوكيرك قصف المدينة بالمدافع وأنذر السكان بإحراقها إن لم يدفعوا الجزية خلال وقت قصير، ومع هذا فلم ينتظر انتهاء المدة التي حددها لهم بل أحرق المدينة بما في ذلك المسجد والسفن الراسية في الميناء، وأخذ عدداً من الرجال والنساء أسرى. وبعد أن جدع أنوفهم وصلم آذانهم أطلق سراحهم. ثم تقدم إلى صحار وعقد معاهدة مع سكانها أصبحوا بموجبها تابعين للملك البرتغالي. وعلى الرغم من حماية صحار بقلاع كبيرة ومنيعة فقد استسلمت للبوكيرك دون مقاومة، خوفاً من أن تلقى مصير مسقط التي كانت مدينة تجارية مزدهرة قبل أن يقوم البرتغاليون بحرقها وتشريد سكانها. ثم تقدم البوكيرك نحو هرمز واستعد ملكها لحرب القائد البرتغالي الذي أحرق المدن التابعة له على الساحل العربي. ولكن الأسطول البرتغالي هزم أسطول هرمز واضطر ملك هرمز إلى الخضوع لملك البرتغال وتقديم الجزية له، وتعهد بإعفاء البضائع البرتغالية من الرسوم(٦).

هكذا أصبحت قلهات ومسقط وصحار وصور وقريات محطات برتغالية لحماية هرمز والدفاع عن تجارتها، وبقي نظام الحكم المحلي في هرمز تحت الحماية البرتغالية، ولكن الكثير من السكان غادروها إلى الموانيء الأخرى في الخليج العربي، مما أثر على ازدهار هرمز وعمرانها السابق للاحتلال

البرتغالي، فأصيبت بالضائقة الاقتصادية بسبب تحكم البرتغاليين بالطرق التجارية المؤدية إليها تنفيذاً لخطتهم التي استهدفت إغلاق الخليج العربي وعزله عن التجارة الشرقية(٧).

المقاومة

تمدنا المصادر البرتغالية بمعلومات كثيرة عن حركات المقاومة التي قامت ضد البرتغاليين في كل من مسقط والبحرين، ففي عام ١٥٢٦ أعلن سكان مسقط وقلهات عداءهم للبرتغاليين نتيجة تعدد عمليات الابتزاز في تحصيل الضرائب التي كان يقوم بها قائد الحامية البرتغالية في مسقط. وعلى أثر اتجاه البرتغاليين في عام ١٥٢١ إلى التخلص من الوزير شرف الدين الذي كان يسيِّر أمور هرمز بأسلوب معادٍ للمصالح البرتغالية أعلن سكان البحرين احتجاجهم ضد البرتغاليين وأمسكوا عن دفع الجزية المفروضة عليهم، ولم يستطع قائد الحامية البرتغالية بالبحرين قمع تلك الحركة نتيجة انتشار الأمراض ونقص البارود، مما أجبره على سرعة الانسحاب إلى القاعدة الرئيسية في هرمز. ولكن البرتغاليين لم يلبثوا أن عاودوا فرض سيطرتهم على البحرين بفضل الإمدادات التي جاءتهم من الداخل، فبادروا نتيجة لتلك الحركة التي قام بها البحرانيون إلى خلع حاكمها من أسرة الجبور وولوا بدلاً عنه حاكماً آخر(٨).

وهكذا فرغم تفوق البرتغاليين العسكري فإن هذا لم يكن حائلاً دون مواجهتهم بالكثير من حركات المقاومة التي تعرضوا لها من عرب الخليج(٩). إن الوجود البرتغالي رغم أنه ظل قائماً حتى السنوات الأولى من القرن الثامن عشر إلا أنه خلال تلك السنوات ظل البرتغاليون معزولين عن الأهالي، ولم يكن أمامهم سوى الاعتصام في قلاعهم وحصونهم موصدين أبوابهم على أنفسهم(١٠).

النظام الاستعماري البرتغالي

كان النظام الاستعماري البرتغالي ذا طابع خاص، مليء بالعديد من السلبيات، فالملك كان يحتكر تجارة السلع المربحة، فلم يترك مجالاً للبورجوازية التي كانت أكثر نشاطاً في النظام الهولندي والبريطاني(١١). وقد أثر هذا فعلاً على التجارة البرتغالية، يضاف إلى ذلك عدم وجود نظام دقيق في البحرية البرتغالية وتكرار حوادث التمرد والخلافات بين كبار الضباط(١٢).

وفيما يلي بعض مظاهر هذا النظام

- تميز النظام البرتغالي بالخليج بالظلم والاستبداد وسوء معاملة الأهالي ولذا لم يجد البرتغاليون بصفة عامة أصدقاء لهم مخلصين في الخليج يمكن الاعتماد عليهم ساعة الخطر، باستثناء بعض الحالات القليلة.

- اكتفى البرتغاليون بمحطات للمؤن والحراسة على الساحل وعدم اللجوء إلى الداخل، وذلك لإخفاق محاولاتهم السابقة.

- اهتم البرتغاليون في بداية أمرهم بالتجارة، وذلك بتأمين سلامة رسوم السفن البرتغالية وتحصيل الرسوم والضرائب وتأمين التصدير، ووجدوا أنه ليس في مصلحتهم التدخل في شؤون الحكم المحلي مادام السكان محافظين على الهدوء، هذا باستثناء استغلال قوتهم البشرية وجهدهم في العمل أو في تحصيل الضرائب والإيرادات المالية الأخرى، أما في حالة قيامهم بثورة أو اضطراب فإن قمعهم يكون بقسوة بالغة وعنف شديد.

- فرضت السلطات البرتغالية على السفن غير البرتغالية الحصول على تصاريح مرور للإبحار في المياه الشرقية، وكان من الصعب الحصول على تلك التصاريح في كثير من الاحيان، وبتطبيق هذه السياسة الاحتكارية سيطر البرتغاليون عملياً على الملاحة والتجارة في المحيط الهندي وتحكموا في الأسواق التجارية فيها أيضاً

- لم يتدخل البرتغاليون في الشؤون المحلية الأخرى مثل الإدارة الداخلية والعادات المحلية والمسائل الدينية فتركوا لشعوب المنطقة قواتها الخاصة، وتركوا السكان ليحكموا أنفسهم بأنفسهم مادام ذلك لا يؤثر على المصالح البرتغالية، ومادام الحكام المحليون لا يعارضون السيادة البرتغالية ولايتدخلون في شؤون التجارة الهندية(١٣).

- حاول البرتغاليون الاستفادة من الأنماط التجارية والصناعية التقليدية في الخليج العربي.

- أما فيما يتعلق بالتنصير، فقد أدرك البرتغاليون عجزهم عن تنفيذه بالخليج، فاكتفوا ببعض الكنائس في المناطق الواقعة تحت سلطتهم المباشرة.

ومهما يكن من أمر، فإن تأثير البرتغاليين في منطقة الخليج العربي كان ثانويًا. وعلى الرغم من تأسيس القلاع والحصون على الساحل فإنهم لم يقوموا بأي شيء ملموس لتغيير الأوضاع الداخلية فيه، فلم يكن لهم تأثير مهم في المجالات السياسية ولا الاقتصاد ولا النواحي الاجتماعية، نظراً لحالة النفور الدائم التي كانت قائمة باستمرار بين السكان والبرتغاليين الدخلاء، فقد كانت المقاومة هي الشعار الخليجي طوال أيام الوجود البرتغالي بالمنطقة، خاصة وأن البرتغال خنقت الخليج اقتصادياً وأذلته اجتماعياً، وهضمت حقه سياسياً، فلم يبق إذن أي مجال للتأثير ولا التأثر.

الهوامش

١ – انظر : محمد رزوق، «صفحة من صفحات التاريخ المشترك بين المغرب والخليج العربي خلال القرن السادس عشر؛ الغزو البرتغالي كنموذج»، مجلة حوليات كلية الآداب، الدار البيضاء، المغرب العدد ٢، ١٩٨٥، ص ١٢٣ – ١٣١.

٢ – قاسم، جمال زكريا، «الخليج العربي : دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول. ١٥٠٧م – ١٨٤٠م، (القاهرة : دار الفكر العربي ١٩٨٥م)، ٥٣٣ص.

٣ – سلوت، ب. ج. «عرب الخليج : في ضوء مصادر شركة الهند الشرقية الهولندية.١٦٠٢م – ١٧٨٤م »، ترجمة : عايدة خوري؛ مراجعة : محمد مرسي عبد الله. ط.١. – (أبوظبي المجمع الثقافي، ١٩٩٣م)، ٤٦٩ص.

٤ – هذا ما وقع أيضاً بالنسبة للأندلس، فكتاباتنا عن المراحل الأخيرة لسقوط الأندلس قليلة وقليلة جداً ولا تفي بالغرض، مما نضطر معه إلى الرجوع إلى الوثائق الإسبانية. انظر محمد رزوق، «الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين ١٦ و١٧».

٥ – انظر، جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، ١ : ٦٣.

٦ – عوض، عبد العزيز: «دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث»، ط. ١. – (بيروت : دار الجيل؛ الأردن : مكتبة الرائد العلمية، ١٩٩١م)، ٢٥٠ص.

٧ – عبد العزيز عوض، المصدر السابق، ص ٢١.

٨ – جمال زكريا، المصدر السابق، ١ : ٨٢.

٩ – المصدر السابق، ١ : ٨٣.

١٠ – المصدر والصفحة المذكوران.

١١ – العقاد، صلاح: «التيارات السياسية في الخليج العربي»، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٣م)، ح، ٤٥٦ص.

١٢ – المصدر والصفحة المذكوران.

١٣ – عبد العزيز عوض، المصدر السابق، ص٦٨.

المحور الثالث

مرحلة التنافس الأوربي (١٦٥٠ - ١٨٠٠)

- عرض لأعمال الرحالة والمبعوثين الأوروبيين ووصفهم للبيئة الاقتصادية والاجتماعية في المنطقة

كالفن هـ . آلن ج ر

- مرحلة التنافس الأوروبي بين عامي ١٦٠٠ و ١٨٠٠ ونظرة المبعوثين الأوروبيين إلى القوى العربية

ب . ج . سلوت

عرض لأعمال الرحالة والمبعوثين الأوروبيين ووصفهم للبيئة الاقتصادية والاجتماعية في المنطقة

كالفن هـ . آلن ج ر

دكتوراه في تاريخ الشرق الأوسط (جامعة واشنطن ١٩٧٨)

أستاذ مساعد في جامعة ميمفيز

من مواليد

من نتاجه :

– له كتاب «عمان : تحديث السلطنة» لندن ١٩٨٧. وعدد من المقالات حول التطور الاقتصادي والاجتماعي لمنطقة الخليج وفي دائرة المعارف الإسلامية ودائرة معارف الشرق الأوسط الحديث (ستصدر قريباً).

وفي مجلة الخليج ودراسات شبه الجزيرة العربية (الكويت) ومجلة كلية الدراسات الشرقية والافريقية (لندن) وفي المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط ومجلة ويلسون

لم يؤد طرد البرتغاليين من هرمز عام ١٦٢٢ إلى إبعاد الأيبيريين تماماً عن الخليج، ولا إلى وضع حد لرغبتهم في احتكار التجارة الخليجية، غير أنه جعل من المتعذر بصورة أكبر كثيراً على أن تؤكد مطالبتها، وأتاحت المجال، جنباً إلى جنب مع الدور التجاري الأكثر نشاطاً الذي اضطلعت به الدول الأوروبية الأخرى لدفق من التجار والرحالة الأوروبيين – الهولنديين أولاً ثم البريطانيين، وأخيراً الفرنسيين – للقدوم إلى الخليج، بحثاً عن فرص في مجال التجارة. وتوثق الصور التي قدمها هؤلاء الرحالة التطور التجاري للخليج، إذ تصف بروز بندر عباس (جومبرون) في أواخر القرن السابع عشر وريثة لهرمز، ثم انهيارها في غمار الاضطراب السياسي لأواخر عهود الصفويين وفوضى القرن الثامن عشر. وتتمكن البصرة التي كانت تمد أسواق العراق وسوريا بل والأناضول باحتياجاتها من الاستفادة من توقف نشاط إيران، ولكنها تسقط بدورها ضحية للاضطراب السياسي مع تفاقم الخطر لأوبئة هذا الميناء ومجاعاته من خلال المنافسة العثمانية والإيرانية والعربية. وبحلول نهاية القرن الثامن عشر بدأ يظهر ميناء جديد، هو البحرين، سيطر عليه العتوب حديثاً في تأكيد تطلعه إلى التفوق التجاري في الخليج. ويقدم الرحالة كذلك إطلالات على المجتمع الخليجي، ويصفون بيئة يمكن أن تكون مألوفة لجيل كبار السن والمعمرين حاليًا من المقيمين في الخليج، مع مواصلة السكان العرب المسلمين الأكثر فقراً القاطنين على شاطىء الخليج العيش على زراعة النخيل وصيد السمك، وبصفة خاصة الغوص على اللؤلؤ. وقد رحب الخليج – شأنه اليوم – بمقدم نطاق عريض من الناس، كالأوروبيين، وجماعات المسيحيين من أبناء الشرق الأوسط والهنود واليهود الذين أتيحت لهم جميعاً حرية التجارة وممارسة شعائرهم الدينية.

القسم الأول

التجارة : بندر عباس والبصرة والبحرين

إن قيام الإنجليز والفرس بطرد البرتغاليين من معقلهم في هرمز وضع نهاية لتاريخ طويل ومجيد لتلك الجزيرة الواقعة عند مدخل الخليج التي يصعب وصفها على نحو مخالف. وهي لم تحظ إلا بإشارة محدودة لها في الصورة التي رسمها رحالة القرن ونصف القرن الممتدين بين ١٦٥٠ – ١٨٠٠، حيث ذهب (Manesty and Jones) منستي وجونز إلى أنها لا أهمية لها تذكر، وأنها لا تصدِّر إلا بعض الكبريت والملح الحجري إلى مسقط(٣).

غير أنه فيما تراجعت هرمز إلى الهامش، أصبح ميناء جومبرون، الذي عُرِفَ فيما بعد بميناء بندر عباس، أو بندر عباسي، وهو اسم مشتق من اسم الشاه الصفوي العظيم، عباس الكبير، الذي تولى مسؤولية تطوير هذا الميناء أصبح مركز تجارة الخليج. وبدأ الرحالة والتجار الأوروبيون في الوصول إلى الميناء، في سبعينات القرن السابع عشر، وتركوا وراءهم أوصافاً مفصلة إلى حدٍ كبير لمظهره وبيئته التجارية.

وكان بندر عباس، وفقاً لإجماع الروايات التي قدمها الرحالة على وجه التقريب، ميناء صحياً للغاية. ويقدم جان ستروِيس (Jan Struys) الذي أمضى فيه الفترة من مارس إلى يوليو ١٦٧٢، وجون فراير (John Fryer) الذي أقام في المدينة في الفترة من مارس إلى مايو ١٦٧٦، ثم بعد ذلك في الفترة من أبريل إلى يونيو ١٦٧٧، أوصافاً متشابهة. وقد امتدت المدينة على مسافة ميل تقريباً على الشاطىء مع حماية قلعتين لطرفي المرفأ. ويصف فراير القلعتين بقليل من التفصيل، فقال: تهدمت إحداهما، واستخدمت الأخرى مخزناً للسلاح.

وعلى الواجهة المائية كانت المصانع الأوروبية الثلاثة، الفرنسي والبريطاني والهولندي، ودار الحاكم، التي وصفها فراير بأنها دارة فخمة، وتمتد بإزاء الساحل وتتراجع عن المدينة التي يحميها سور من الواجهة البرية، مع وجود شوارع ضيقة تحمي السكان من الشمس. وكانت الدار الوحيدة الأخرى المتميزة هي دار شهبندر التجار أو المشرف على المرفأ، الذي يعمل ملتزماً لدى الحكومة الفارسية في تحصيل المكوس. وعلى الرغم من أن المرفأ كان مفتوحاً على البحر، إلا أنه كان مرسى جيداً للسفن(٤).

ووصفت البيئة بأنها قاحلة وحارة ومتربة، وتتمثل مشكلة محددة في أن الرياح تندفع عبر التلال المحيطة بالمدينة وتلتقط الرمل الذي يشكل غيماً ضبابياً يضيق نطاق الرؤية بحيث تستحيل رؤية السفن في الميناء. وعاش السكان على السمك، والليمون والبرتقال والرمان والخوخ والمشمش والعنب واللوز والتفاح والكمثرى، التي تجلب من جزيرة قشم(٥). ويقدم هاملتون(Hamilton)، الذي زار الميناء سنة ١٧٢١ صورة له لا تقل عن ذلك واقعية، ذاهباً إلى القول إن الميناء «سيىء الموقع، ويفتقر تقريباً إلى كل شيء يساهم في معيشة البشر، باستثناء السمك والضأن». ويضيف أنه لا وجود للماء العذب في نطاق ثلاثة أميال من المدينة، وأن السكان كانوا يحصلون على معظم مياههم من أصين، التي تقع على مسافة ١٥ ميلاً، وكانت أشهر الصيف الممتدة من مايو إلى سبتمبر فترة لا تطاق، وينتقل خلالها معظم السكان بعيداً عن الساحل إلى أصين، حيث كانوا يمتلكون بساتين رائعة، ينتمي معظمها إلى ممتلكات شركة الهند الشرقية. ويأتي هاملتون كذلك على ذكر حمامات المياه المعدنية في ميموا، على بعد عشرة أميال أخرى من أصين(٦). وتمثلت عملية التصنيع الوحيدة في نسج القطن في قرية قريبة(٧).

وما أن ينقضي الصيف، ويجلب أكتوبر بعض الخلاص من الحر، حتى تعود الحياة إلى الميناء مع تدفق الفرس والأرمن والعرب والهنود إلى المرفأ. وخلال أواخر القرن السابع عشر كان معظم التجارة المتجهة إلى أعلى الخليج، وبصفة خاصة إلى البصرة، تمر عبر بندر عباس. وقد سيطر على العمليات التجارية للميناء الشهبندر، الذي يقول عنه فراير(٨): إنه كان يحصل مكوساً قيمتها ٢٠ ألف تومان

سنوياً وعلى الرغم من وجود تعرفة جمركية نظرية، إلا أن الأب كار(Abbe Carre) ، الذي كان في بندر عباس في مارس ١٦٧٤، وصف كيف مضى إلى الشاطيء عندما رسا القبطان بالسفينة في المرفأ، ليتفاوض مع الشهبندر حول المكوس التي سيدفعها، بدلاً مما هو مقرر. وكان المتوقع من التاجر أن يقدم هدية إلى ملتزم المكوس ولو لم ينزل بضائع إلى البر(٩).

وكان بندر عباس مقر المؤسسات التجارية الأوروبية الكبرى خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر، حيث شكّل الحرير الفارسي مادة التصدير الرئيسية. وسيطر الهولنديون على التجارة المبكرة، وذكر فراير أن التجار الهولنديين قد احتكروا تجارة التوابل، التي كانوا يتلقون عوضاً عنها الحرير الخام والمنسوج والخز فضلاً عن دفع قيمتها نقداً. ورسم الزائر البريطاني كذلك صورة للتلاعب الهولندي بالسوق، فقد وصلت أربع سفن هولندية إلى بندر عباس محملة بالبهارات والسلع الأخرى. ومن سوء الحظ أن السوق كان متشبعاً، ولم يستطع التجار الحصول على ما يعدونه ثمناً مناسباً، فقاموا بإحراق حمولة إحدى السفن، وعندما لم يسفر ذلك عن زيادة الطلب على نحو كاف تمّ إتلاف حمولة سفينتين أخريين، وعندئذ لم يجد التجار صعوبة في الحصول على الأثمان التي طلبوها، ورغم ذلك ومع خسارة ثلاثة أرباع بضائعهم إلا أنهم حققوا أرباحاً(١٠).

وفي نهاية القرن كان التجار الهولنديون يشتغلون والأمور تجري في غير صالحهم، ففي عام ١٦٥٢ كانوا قد وقعوا اتفاقاً تجارياً مع الحكومة الفارسية يسمح بموجبه لهم باستيراد ما قيمته مليون جنيه من السلع دون جمارك، على أن تدفع التعرفة الجمركية كاملة عن كل ما يزيد على ذلك. وبالمقابل وافق الهولنديون على شراء ستمائة بالة زنة كل منها مائتا رطل من الحرير سنوياً، بسعر ثابت قدره ٢٤ توماناً (١١٠٠ جنيه للبالة. وكانوا قد راهنوا على أن سعر الحرير سيرتفع، وخسروا الرهان. ففي سبعينات القرن السابع عشر تراجع سعر الحرير بصورة كبيرة ويذكر تشاردن (Chardin) أن بالات الحرير كان من الممكن شراؤها عام ١٦٧٤ مقابل ١٢ – ١٦ توماناً للبالة. وكنتيجة لذلك لم تجلب سلع هولندية إلى بندر عباس منذ عام ١٦٧٠(١١).

أما التجارة البريطانية فقد كانت تتم في ظل ظروف أفضل كثيراً. فوفقاً لاتفاقية عام ١٦٢٣، التي أبرمت مع الشاه عباس في أعقاب طرد البريطانيين للبرتغاليين من هرمز، منحت شركة الهند الشرقية الإنكليزية حق التجارة دون دفع مكوس لبندر عباس، ونصف المكوس المحصلة من بندر عباس وهرمز، ومصنعاً بلا مقابل في بندر عباس. وطلب من الإنجليز بالمقابل الإبقاء على عمارة بحرية مؤلفة من سفينتين حربيتين في الخليج. وبحلول ستينيات القرن السابع عشر انغمس الفرس والبريطانيون في نزاع تجاري، حول الإعفاء الجمركي مع ادعاء شركة الهند الشرقية أنها بتلقيها مدفوعات تقل عن ١٠٠٠تومان فإنها تتسلّم أقل من عشر القيمة المستحقة لها. ورد الفرس بالقول إن البريطانيين لا يلتزمون بما تعهدوا به في الاتفاقية، إذ لا تقوم أي من سفنهم الحربية بدوريات في الخليج. وفي عام ١٦٧٠ حظيت الشركة بتدخل ملكي، عندما كتب تشارلز الثاني إلى الشاه سليمان طالباً الإنصاف، فأمر سليمان بزيادة المدفوعات للشركة فوصلت ٤٥ ألف جنيه سنوياً (حوالي ١٠٠٠ تومان) لكن ذلك لم يرض الشركة، وتمّ إرسال رسالة ثانية عام ١٦٧٢. فرفضت الحكومة التراجع حيال هذه القضية عن موقفها، مشيرة إلى كل من غياب العمارة البحرية البريطانية عن الخليج، ورفض بريطانيا دفع نصف مستحقات صيانة القلاع في هرمز وبندر عباس، غير أنها ترفع حد الإعفاء الجمركي إلى ١٥ ألف كراون (حوالي ١٥٠٠ تومان)(١٢). ولم تنته المشكلات عند هذا الحد، حيث وقع عام ١٦٧٧ نزاع آخر، وتمّ تغريم توكيرسي (Tookersee)، وسيط الشركة الهندي مبلغ ٥٠٠٠ تومان، ووضع رهن الإقامة الجبرية في داره(١٣).

وعانت تجارة شركة الهند الشرقية من مشكلات أخرى في سبعينات القرن السابع عشر. وعندما زار الأب كار عام ١٦٧٤ الوكيلين البريطانيين توماس رولت وهنري يونج(Thomas Rolt and Henry Young) ، وجدهما يتنازعان، وكان ذلك حالهما على امتداد عام، وبينما لاحظ الأب كار أنهما واصلا العمل بأسلوب مهني، وأن تنافسهما لم يؤثر في العمليات التجارية البريطانية(١٤) إلا أنه عام ١٦٧٦ كانت التجارة راكدة، وبعثت الشركة جون فراير إلى بندر عباس لدراسة الموقف. وتمثلت ملاحظة فراير الرئيسية في أن

الواردات البريطانية، وبصفة أساسية المنسوجات الصوفية والبيوتر، لم تكن قادرة على المنافسة، إذ إن هذه المواد نفسها كانت تدخل السوق الفارسية براً بأسعار أرخص، قادمة من تركيا، وفضلاً عن ذلك فإن الصادرات البريطانية المتمثلة في عدد محدود من الأدوية والصوف والماعز والتمر والجياد لم تجلب إلا ربحاً محدوداً في الهند(١٥).

كان المصنع الأوروبي الثالث في بندر عباس هو مصنع شركة الهند الشرقية الفرنسية، الذي تأسس عام ١٦٦٥. وكانت أول بعثة فرنسية إلى بلاد فارس قد نجحت في الحصول على إعفاء جمركي، ولكن عندما لم تتم ممارسة أي تجارة في السنوات التالية، فقد الفرنسيون هذا الإعفاء(١٦). وسأل الأب كار، الذي زار البصرة عام ١٦٧٠ أحد الموظفين الفرس عن التجارة الفرنسية في بندر عباس، فقيل له إنها «على الملة ذاتها.. أي إنها تمارس بطريقة سيئة»(١٧). وفي عام ١٦٧٣ وصلت بعثة ثانية إلى أصفهان للتفاوض حول اتفاقية تجارية ثانية، ولكن السفير لم يقدم شيئاً مقابل تجديد الإعفاء الجمركي، وكتعويض عن المصاعب التي تجشمتها البعثة حصلت على حق تصدير خمسة جياد كل عام من بندر عباس ووعد بتقديم امتيازات أخرى لدى إرسال سفير إلى بلاد فارس(١٨). ويذكر كار أنه في عام ١٦٧٤ كانت الظروف التجارية «في الحالة ذاتها التي كانت عليها دائماً» ويضيف أن جانباً من المشكلة تمثل في أن الوكيل التجاري الفرنسي، مسيو بيرو، لم يكن على قدر من الذكاء يتناسب مع المركز الذي يشغله»(١٩). وعندما قام فراير بزيارته بعد عامين، كانت التجارة الفرنسية «غائبة»(٢٠). وحينما زار الكسندر هاملتون بندر عباس عام ١٧٢١ ذكر أن المصنع الفرنسي قد أغلق أبوابه(٢١).

وبدأ الهجوم الأفغاني على بلاد فارس عام ١٧٢٢ فأدى إلى نهاية بندر عباس، وحتى في العام السابق كانت الظروف في جنوب فارس تتردى، إذ يذكر هاملتون أن بندر عباس كانت في حالة من الفوضى بسبب الهجمات البلوشية(٢٢). وأغلق المصنع البريطاني أبوابه عام ١٧٦٣. ولدى زيارة نايبور (Niebuhr) لبندر عباس في ستينات القرن الثامن عشر كانت التجارة فيها: «..متواضعة المستوى للغاية، كما لم يكن هناك مكتب صرافة أوروبي واحد

في المدينة». وقد عزا هذا الوضع إلى المشكلات السياسية في بلاد فارس والحروب الإنجليزية الفرنسية(٢٣) وبحلول نهاية القرن لم يعد بندر عباس ميناء بارزاً، أما تجارته فقد «اقتصرت على كمية صغيرة من الفواكه الطازجة والمجففة والطباق تصدر إلى مسقط، التي تستورد منها الأرز والبن، وكذلك السلع الأولية والبنغالية والسودانية الكافية لاستهلاك المدينة ذاتها..». وقدّم مينستي وجونز، وكيلا الشركة في البصرة في ثمانينات القرن الثامن عشر عدداً من التفسيرات لما حلّ بالميناء بما فيها الاضطراب السياسي العام الذي أغلق الطريق إلى أصفهان، والافتقار إلى السلع المناسبة للتصدير حيث إن الحرير الفارسي قد كف منذ وقت طويل عن أن يكون موضعاً لاهتمام الشركة الموقرة» ولم يكن هناك من العملات المعدنية ما يكفي أو لم يكن لها وجود على الإطلاق لدفع قيمة الواردات البريطانية، إذ إن غنائم الحملة الهندية التي قام بها نادر شاه قد تمّ إنفاقها جميعها. وسعى كريم خان إلى حظر تصدير الذهب والفضة، والحقيقة أن التجار البريطانيين لم يكونوا يكترثون بطلب السوق المحلي بشكل خاص، إذ كانوا يشحنون المنسوجات الصوفية بأشكال وألوان غير مألوفة بشكل صارخ، ولا يفكر أحد في ارتدائها، حيث إنها لا تتماشى مع ذوقهم في الملابس الخارجية.. تماماً كما لا يتماشى اللون الأصفر الفاقع مع الزي الخارجي لرجل إنجليزي»(٢٤).

وواصلت موانىء أخرى على الجانب الفارسي من الخليج التجارة خلال فترة سيطرة بندر عباس، وأوشك أحدها، وهو ميناء بوشهر أن يحل محله مركزاً لتجارة الخليج. وكان الميناء الأكثر نشاطاً بما لا يقاس بين هذه الموانىء، خلال أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر هو ميناء كونج، الذي لا يبعد أكثر من مسيرة أربعة أيام براً عن بندر عباس(٢٥). ويصفه فراير بأن بناءه أفضل من بناء بندر عباس وبأن مناخه أحسن(٢٦). وأصبح كونج كذلك مركز التجارة والعمليات البحرية البرتغالية في الخليج. وكجزء من الاتفاقية التي تخلى البرتغاليون بمقتضاها عن كل مطالبهم في هرمز وغيره من الموانىء الفارسية عام ١٦٢٥، فقد تمّ منحهم مصنعاً من كونج والسيطرة على هيرات لؤلؤ البحرين وإلغاء نصف المكوس السنوية في كونج. وفضلاً عن ذلك فإنه بينما كانت المكوس تدفع عن الواردات البرتغالية في

بندر عباس(٢٧)، فقد أتيح للبرتغاليين ممارسة التجارة دون دفع ضرائب في كونج. ويذكر تشاردن أنه بعد طرد البرتغاليين من مسقط عام ١٦٤٩، قررت الحكومة الفارسية إلغاء المعاهدة، ولكنها رغم ذلك ظلت تقدم للبرتغاليين بعض الإعفاءات الجمركية بين الحين والآخر لتقلل من فرصة نشوب صراع، فدفعت حوالي ٥٠٠٠ كراون (٥٠٠ تومان) سنوياً وكان ينبغي دفع ٦٠٠٠٠كراون (٦٠٠٠ تومان). وفي سبعينات القرن السابع عشر أعاد سفير برتغالي التفاوض بشأن الاتفاقية، حيث وافقت الحكومة الفارسية على دفع ١٥٠٠٠ كراون (١٥٠٠ تومان) سنوياً بشرط إنهـــاء البرتغاليين

سيطرتهم على هيرات لؤلؤ البحرين. حاول البرتغاليون التصرف منفردين، ففرضوا استخراج تصريح مقابل بستول (Pistole) ذهبي واحد على هيرات اللؤلؤ، ولكن عدداً محدوداً من السفن فحسب هو الذي قام بالدفع من إجمالي ما يقدر بحوالي ١٠٠٠ سفينة. غير أن مشكلة أخرى برزت للإدارة البرتغالية للجزيرة في صورة الحرب المتواصلة ضد مسقط(٢٨). ومع ذلك فإنه بحلول عام ١٧٢١ ذكر هاملتون أن البرتغاليين قاموا مؤخراً بإغلاق مصنعهم تاركين عدداً محدوداً من التجار الهندوس والمسلمين الهنود الذين كانوا عرضة لغارات مسقط باستمرار تقريباً(٢٩).

وعلى مسافة أبعد باتجاه الشمال كانت هناك جزيرة خرج والميناءان المجاوران بندر رج وبوشهر، وقد خدم كل منهما شيراز، فالأول يبعد عنها بمسيرة ثمانية أيام بالقافلة والثاني يبعد عنها بمسيرة ما يتراوح بين ١٢-١٤ يوماً بالطريقة ذاتها(٣٠). غير أن العيب الكبير في الميناء الأول هو أن مدخله يسده حاجز رملي، بحيث إن السفن لا تستطيع الاقتراب من المرفأ بأقل من ثلاثة فراسخ(٣١). وارتبطت فترة ازدهاره القصيرة على نحو وثيق بازدهار جزيرة خرج المجاورة. ومن بين الجزيرتين اللتين تشكلان خرج فإن الجزيرة الجنوبية وحدها هي التي كانت مأهولة بالسكان، حيث سكنها حوالي ٢٠٠٠- ٣٠٠٠ نسمة عملوا بصيد السمك والزراعة، وجلب الماء والضأن والسمك والبطاطا والبصل للسفن المارة، وتقديم القباطنة المرشدين لقطع الرحلة إلى البصرة(٣٢). وبرزت عندما بنى الهولنديون مصنعاً على جزيرة خرج عام

١٧٥٣ واستخدموها في العام نفسه عندما واجهوا مصاعب في البصرة، وبتشجيع فعلي من كريم خان قام الوكيل الهولندي البارون كنيبهاوسن (Kniphausen) بنقل مصنعه إلى خرج حيث أقام مؤسسة كبيرة تضم قلعة ومساكن للعاملين ومخازن وثكنات وشرع في الإتجار باللؤلؤ والبغال والخمور والأدوية، وخدم بندر رج كقاعدة لتجارتهم في البر وصولاً إلى شيراز(٣٣). غير أن الميناءين تراجعا إلى الهامش التجاري، عندما قام حاكم بندر رج، وهو مير مهنا الزعابي بطرد الهولنديين من الجزيرة عام ١٧٦٥.

وكان نمو بوشهر التجاري أكثر ثباتاً واستقراراً في وقت واحد، ويصف الأب كار، الذي زار المنطقة في سبعينات القرن السابع عشر بوشهر بقوله إنها «بقعة جميلة، تقع في منطقة من البر ممتدة في البحر إلى الغرب، في نهاية سهل فسيح. والمدينة يحيط بها غرباً نهر، يمكن أن تبحر فيه الزوارق الكبيرة. وتجملها على الجانب الآخر الغابات وأجمات النخيل»(٣٤). وعلى الرغم من أن الصواب قد جافاه فيما يتعلق بوجود نهر هناك إلا أنه أومأ إلى ميزة بوشهر، فهي تحظى بمرفأ عميق يسمح للسفن بإفراغ حمولتها مباشرة. ولاحظ نايبور بدوره هذا، عندما وصف بوشهر بأنها تحظى بـ «مرفأ واف بالغرض يمكن للسفن فيه القدوم حتى تقترب من الدور»(٣٥). ويصف هاملتون المدينة بأنها تمارس تجارة جيدة وذلك عام ١٧٢١(٣٦). أما فرانكلين، الذي زار الخليج عام ١٧٨٦ فقد تجاوز بندر عباس تماماً، وكان أول ميناء قام بزيارته هو بوشهر. ولا يتحدث كثيراً عن الميناء باستثناء قوله إن هناك مصنعاً تابعاً لشركة الهند الشرقية، ولكن لا وجود إلا لقدر محدود من النشاط التجاري بسبب الاضطراب السياسي لبلاد فارس(٣٧). هذه الملاحظة أكدها أيضاً جان جريفث (John Griffiths)(٣٨). ويقدم مينستي وجونز تقريراً أكثر استفاضة عن الميناء، فيصفان إنشاء المصنع خلال عهد الشيخ سعدون وبتشجيع من كريم خان، وأنه قد عانى كثيراً نتيجة لفقدان السيطرة على البحرين عام ١٧٨٢. وعلى الرغم من هذا إلا أن بوشهر قد بقي الميناء الأكثر بروزاً على الساحل الفارسي بوصفه مركزاً تجارياً وخدمته للتجار الساعين لتجنب المكوس

الباهظة على الشحنات المنقولة إلى بغداد، وللتوزيع المحلي للمنسوجات الصوفية والمخمل في ظل القيادة المعتدلة من جانب الشيخ ناصر(٣٩).

وبينما يحتمل أن تكون بوشهر قد طمحت إلى الوضعية السائدة التي حظي بها بندر عباس في تجارة الخليج، فإن البصرة هي التي برزت في العشرينات من القرن الثامن عشر وازدهرت على امتداد السنوات الخمسين التي أعقبتها، إلى أن شكل انتشار الوباء عام ١٧٧٣ بداية لعشرين عاماً من الاضطرابات والقلاقل. وقد حظيت البصرة بثلاثة أوجه للتميز، شاركها فيها بندر عباس. فقد كانت أولاً مركز توزيع لسوق كبيرة، مع وجود سوقين كبيرتين هما حلب وبغداد، وهي ثانياً حظيت بمادة تصدير مهمة، تمثلت في التمر (انظر موضعاً لاحقاً من هذه الورقة) أمدتها برأس المال اللازم للتجارة ونجح الميناء ثالثاً على الرغم من بيئة العمل الرهيبة، التي شكلت الأوبئة والمجاعات فيها أموراً مألوفة، والفوضى السياسية وضعية مستمرة للأمور تقريباً. وذكر الأب كار أن البصرة كانت عام ١٦٧٢ أسوأ حالاً بكثير مما كانت عليه عندما زارها عام ١٦٦٩ - ١٦٧٠ بسبب عمليات النهب والتخريب على يد الأتراك، وأوضح كذلك أن الهولنديين قد أنشأوا مصنعاً، ولكن رأيه أن هذا المصنع له أهمية تجارية محدودة، وأنه أقيم هناك في المقام الأول مركز بريد للرسائل المبعوثة إلى هولندا تجمع معلومات المخابرات عن القوى الأوروبية الأخرى(٤٠). وذكر تشاردن في تقرير من أصفهان أن الحكومة الفارسية فرضت حظراً على كل عمليات السفر إلى الأراضي المقدسة مروراً بالبصرة، الأمر الذي ترك أثراً مدمراً على الاقتصاد المحلي، إذ إن المسافرين إلى هذه الأراضي كانوا ينتهزون الفرصة للتزود بإمدادات السلع المستوردة من الهند. وبعثت حكومة البصرة بوفد يتألف من سالم شاه (سالم تشوكس) ومير جاحظ إلى بلاد فارس عام ١٦٧٣ للتفاوض حول إنهاء هذا الحظر(٤١).

غير أنه في العشرينات من القرن الثامن عشر تغلب الميناء على العديد من هذه المشكلات، مع بدء السفن في الإبحار مباشرة من الهند إلى البصرة، متجاوزة بندر عباس كلية. وذكر مينستي وجونز، الوكيلان في المصنع

البريطاني في ثمانينات القرن الثامن عشر، أن الميناء كان موطن العديد من التجار الأثرياء، وأن تجاراً من المدن الرئيسية الأخرى وصولاً إلى القسطنطينية «توافدوا سنوياً إلى البصرة حاملين مبالغ طائلة من الأموال واستثمارات كبيرة في أنواع مختلفة من السلع المناسبة للأسواق الهندية، والعديد من السفن المنتمية إلى الأمة الإنجليزية وغيرها من الأمم الأوروبية وتجار سورات المسلمين قاموا بالاستيراد سنوياً في البصرة، جالبين إليها شحنات كبيرة وثمينة من السلع الأوروبية ومن محاصيل ومصنوعات الهند». وشملت الواردات ما يتراوح بين ٣٠٠٠ إلى ٣٥٠٠ بالة من «المنسوجات الصوفية البريطانية، وأطوال المنتجات النسيجية البنغالية في خمسين نوعاً تقريباً، والنسيج القطني المطبوع من مختلف الأنواع من ساحل الكوروماندل، ومطولات مدراس النسيجية، وسلع ميناء نوفوبلو، وأقمشة الساحل الملباري، وسلع سورات المباعة بالقطعة، والقطن المنسوج المطبوع، والقطنيات المختلفة، وقطن كامباي تشودرز ويروك وسندي» والأدوات المعدنية والصيني والتوابل وسلع أخرى منوعة. وتراوحت التعرفة الجمركية المفروضة على الواردات بين ٧،٥٪ إلى ٨،٥٪ بينما التعرفة المفروضة على الصادرات كانت ٥،٥٪ وتلقى التجار البريطانيون معاملة خاصة، فكانوا لا يدفعون إلا ٣٪(٤٢) كتعرفة جمركية، كما أعطوا ميزة المعاملة التفضيلية في المنازعات التجارية، حتى تلك التي كان تجار مسلمون طرفاً فيها(٤٣).

بعد عام ١٧٧٣ دخلت البصرة في عقدين من الوباء والمجاعة والقتال المستمر بين العرب والفرس والأتراك، مما كانت له آثار مدمرة هددت لا بالقضاء على نشاط الأعمال وحده، بل هددت وجود المدينة ذاته. وانتقل المصنع البريطاني بعملياته إلى بوشهر خلال الغزو الفارسي في عام ١٧٧٥. وقرر الوكلاء العودة عام ١٧٧٦، ولكن القيام بذلك كلفهم ٦٢٧٠ روبية(٤٤). وقد وصل جيمس كابر(Games Capper) إلى البصرة عام ١٧٧٨ ليجد نفسه أمام مشهد يسوده الدمار وكتب يقول: «في عام ١٧٧٢ كان يفترض أن يكون هناك ما يزيد على أربعمائة ألف من السكان في هذا المكان، وفي يوم وصولنا من المؤكد أنه لم يكن هناك ما يزيد على ستة آلاف نسمـــــة، بمن في

ذلك الفرس، وكانت الشوارع الرئيسية تشبه المقبرة، فلا يكاد يفصل بين القبر والآخر ثلاثة أقدام(٤٥).

ووصف فرانكلين(Franklin) ، الذي زار الميناء في عام ١٧٨٦، الاضطرابات السياسية التي ثارت بين المنتفق والعثمانيين، وذكر أن العثمانيين فرضوا عقوبة على تجار المدينة بمضاعفة المكوس عن العام رداً على تأييدهم للشيخ ثويني(٤٦). غير أن التجارة تمت ممارستها، ويذهب مينستي وجونز إلى القول إنه دون التجارة ما كان ليمكن للبصرة أن تواصل البقاء في مواجهة ما تعرضت له في القرن الثامن عشر(٤٧).

وبالإضافة إلى الوباء وعدم الاستقرار السياسي العام، فإن مينستي وجونز يأتيان كذلك على ذكر عدد من الظروف الاقتصادية التي ساهمت في تردي التجارة، فقد كانت البصرة، شأن بندر عباس قبلها، تعاني من نقص عام في السيولة، فقد اختفت القطع الذهبية التركية من السوق، لتحل محلها السكوينات البندقية والقطع الذهبية الهندية والفارسية والعملات الفضية المسقطية. ومما كانت له عواقب على المدى الطويل حيث تم طرد أطوال المنسوجات الهندية من السوق مع تطور صناعة المنسوجات في بغداد والموصل وديار بكر وحلب ودمشق وتستر التي أنتجت نسخاً من أطوال المنسوجات الهندية حلت محل النوعيات الأرخص ثمناً من المنسوجات المستوردة من الهند. وبحلول عام ١٧٨٩ تمّ إبرام صفقات في الميناء حول ٨٠٠ بالة من أطوال المنسوجات وما قيمته ٥٠ ألف روبية من الأنشطة التجارية فقط. وقد ترك هذا السوق المحدود للواردات المترفة وحدها فحسب. وفضلاً عن ذلك فإن السلع التي جلبها الأوروبيون لتصديرها إلى الهند، كانت تباع بخسارة. وأخيراً فإن العديد من التجار شرعوا في تجاوز البصرة وإرسال سلعهم إما بحراً إلى أوروبا مباشرة، أو براً إلى بغداد عبر بلاد فارس عن طريق بوشهر والكويت(٤٨).

وأتاحت مشكلات البصرة، شأن بندر عباس قبلها الفرص لبروز موانئ جديدة، وشهدت نهاية القرن الثامن عشر بروز البحرين. وكانت التجارة على الجانب العربي من الخليج في مرحلة بداية التطور فحسب في هذه المرحلة. وعندما قام هاملتون بجولة في المنطقة في أواخر القرن السابع عشر وأوائل

القرن الثامن عشر، ذكر أنه ليست هناك مدن على أي جانب من الأهمية على الجانب العربي من الخليج(٤٩). وحتى بعد عقود عديدة عقب ذلك ذكر مينستي وجونز أنه «على الرغم من أنه من المعروف أن ميزة جوهرية قد تحققت للأفراد البريطانيين من ممارسة تجارة واسعة للغاية مع تلك البلاد (شبه الجزيرة العربية) إلا أنه ما أقل الفائدة التي عادت على الشركة من إرسال شحناتهم إلى هناك، والتي تألفت أساساً من المنسوجات الصوفية، والتي نادراً ما لقيت رواجاً سريعاً(٥٠).

لم تحظ الكويت، التي عرفت باسم القرين من الرحالة الأوروبيين في القرن الثامن عشر، إلا بإشارة محدودة قبل الاحتلال الفارسي للبصرة عام ١٧٧٦، وأصبحت بالنسبة للبصرة ما غدت عليه بوشهر بالنسبة لبندر عباس، أي مجرد بديل ضعيف. وخلال الغزو الفارسي انسحب العديد من كبار تجار البصرة إلى الكويت والزبارة، مما أسفر عن البدء في تحول جانب كبير من تجارة اللؤلؤ وتجارة الهند الأخرى إلى هاتين المنطقتين(٥١). وعقب ذلك ظل ازدهار الكويت مرتبطاً على نحو لا انفصام له بظروف البصرة. وعلى امتداد الاحتلال الفارسي تجاوزت سلع التجارة الهندية الميناء القديم، ومضت إلى الكويت، ومن هناك بالقوافل إلى بغداد ودمشق وحلب والقسطنطينية(٥٢). وقد سافر كابر مع قافلة يقودها شخص يدعى بالخواجه روبنز (Rubens) ماضياً من بغداد إلى الكويت في ديسمبر ١٧٧٨(٥٣). وبحلول عام ١٧٩٠ عاد الميناء إلى التراجع مجدداً مع استقرار الأوضاع في البصرة. وخدم الميناء تجاراً إما من مسقط أو البحرين، ولم ترسل قوافل إلى حلب منذ عام ١٧٨١. وكانت معظم التجارة التي تمضي إلى الميناء مرسلة إلى تجار البصرة الساعين إلى تجنب دفع المكوس في مينائهم(٥٤).

وبينما عرفت الكويت حركة المد والجزر في أعقاب البصرة، أصبحت البحرين المركز التجاري الجديد بالنسبة للمنطقة. وكان الفرس قد سيطروا عليها، إما مباشرةً أو عن طريق شيخ بوشهر طوال معظم هذه الفترة. وعندما زار نايبور المنطقة في ستينات القرن الثامن عشر كانت الجزيرة في حالة ركود على الصعيد الاقتصادي، بسبب الصراع المتواصل. ومن الذروة التي

وصلت إليها باحتوائها ٣٥٠ قرية انحدرت الجزيرة الآن بحيث لا يتجاوز عدد القرى فيها ستين قرية(٥٥). وقد غدا بروز البحرين أمراً ممكناً من خلال سيطرة العتوب على الجزيرة عام ١٧٨٢ ونمو سوق جديدة في شرقي شبه الجزيرة العربية نتيجة هجرة السكان إلى الساحل في الأحساء وقطر والصين. ووفرت هيرات اللؤلؤ رأس المال الضروري. وذكر مينستي وجونز أن العتوب بدأوا في شراء سفنهم الخاصة، ونقلوا اللآلىء إلى سورات مباشرة، بدلاً من نقلها عن طريق البصرة أو مسقط. وفي البداية ابتاعوا السلع ليمدوا بها السوق المحلية للبحرين وقطيف والزبارة، ولكن ذلك حدث بصورة متزايدة بالنسبة للكويت والبصرة أيضاً. وطورت شبكة تجارية مع الحصول على مطولات النسيج والخيزران، والقصدير والرصاص والحديد في سورات، والبن والسكر والتوابل والزبدة والأرز في مسقط، والحبوب والتمر للاستهلاك المحلي وكذلك طائفة منوعة من السلع التجارية مثل النحاس والزرنيخ والخرز والمرجان والزعفران في البصرة، كما تمّ تشجيع التجار كذلك على الاتجار في البحرين، حيث فرضت مكوس على الواردات والصادرات معاً(٥٦). وبحلول نهاية القرن كانت البحرين تنافس مسقط في السيطرة على نقل عروض تجارة الخليج.

القسم الثاني

المجتمع الخليجي

على الرغم من أن الفرس والترك كانوا على الصعيد السياسي القوتين السياسيتين البارزتين في منطقة الخليج العربي، إلا أن العرب المسلمين سكنوا، على امتداد النصف الثاني من القرن السابع عشر وكذلك القرن الثامن عشر، شواطىء منطقة الخليج. ويذكر نايبور أن: «جغرافيونا يجافيهم الصواب.. في تقديم جزء من شبه الجزيرة العربية على أنه خاضع لملوك فارس، والأمر أبعد ما يكون عن ذلك حتى الآن، بل هو على العكس فالعرب يمتلكون الساحل البحري للإمبراطورية الفارسية بأسره..»(٥٧). وبالنسبة لهؤلاء الناس فإن الزراعة والرعي قدما المصدرين الرئيسيين لسبل العيش.

بينما سادت الأغلبية العربية على الصعيد الاجتماعي، وشكلت سوقاً مهمة للواردات، فإن المنطقة وجدت فيها جماعات أخرى، مثل أقليات الهندوس واليهود في الموانىء الكبرى، ولعبت أدواراً مهمة في الحياة التجارية للخليج.

ويأتي أفضل توصيفاتنا للمجتمع العربي في الخليج من كارستن نايبور، الذي يصف، ببعض التفصيل، بروز عرب الهولة على امتداد المنطقة. ويوضح نايبور كذلك أهمية القبائل العمانية في المنطقة، مع قدوم القبائل التي انعقد لها لواء السيادة في بوشهر وبندر رج معاً من عمان أصلاً، وتتمثل ملاحظة مهمة لنايبور وهي أنه في الحالتين كلتيهما تحولت هذه العائلات إلى المذهب الشيعي، وأن الشيخين الحاليين، وهما ناصر في بوشهر ومير مهنا في بندر رج قد اتخذا زوجتين فارسيتين، الأمر الذي أثار استياء قوميهما(٥٨).

كانت الزراعة نشاطاً اقتصادياً بالغ الأهمية عند عرب الخليج، وكان معناها التمور. وقد عقب العديد من الرحالة الأوروبيين على زراعة النخيل وألقوا أضواء مثيرة للاهتمام على أهمية التمر على امتداد المنطقة. ويقدّم لنا ستروِيس وصفاً ممتازاً لزراعة النخيل على الساحل الإيراني، معقباً على الطعم الممتاز واللون الجميل اللذين يحظى بهما التمر بوصفه فاكهة رخيصة الثمن، تباع مائة رطل منها بشلنين. ولاحظ هذا الرحالة الهولندي أن النخيل بدا كأنه يحظى ببعض «التناسق مع الحيوانات الحية من حيث التكاثر» إذ إن النخلة الأنثى لا تنتج ثمراً إذا ما زرعت بمفردها وإنه كنتيجة لذلك فإن النخيل المؤنث والمذكر يزرع معاً. وذكر كذلك أنه عندما تكف نخلة أنثى عن حمل الثمرة، فإن المزارعين يضعون فيها قطعة من الجريد الأعلى في نخلة ذكر، ويقومون بتطعيم النخلة الأنثى بها، وعندئذ تبدأ في حمل الثمرة من جديد. وقد استخدم هذا الإجراء نفسه كذلك لزيادة إنتاج النخلات الأصغر سناً وإنتاج تمور أفضل طعماً، ومضى فأشار إلى أنه عندما تغرس النخلة الذكر والنخلة الأنثى على مسافة معينة، فإن إحداهما تميل إلى الأخرى كأنما هناك تعاطف متبادل بينهما. ومن سوء الحظ أن ستروِيس لم يسرد الحقائق الأخرى العديدة التي زوده بها مزارعو النخيل(٥٩).

ومال الرحالة الآخرون إلى تأكيد الأهمية التجارية لإنتاج التمر. وأوضح فراير أهمية عمليات التلقيح عندما ذكر أن النخيل لا يحمل الثمرة إلا بعد غرس بذور النخلة الذكر عند جذور النخلة الأنثى، حيث تدق أولاً لتأخذ شكل الجريش ثم تنثر حول الجذور(٦٠). وقد وصف هاملتون نوعيات الثمار العديدة والخضر والحيوانات الموجودة في منطقة البصرة، ولكنه يذكر أن «التمور هي الأكثر وفرة وفائدة من بين جميع هذه الفواكه إذ تعيش عليها ملايين عديدة من الناس، يتخذون منها طعامهم اليومي، فتغذيهم على نحو مدهش». وهو يقدر أن البصرة كانت تصدر ١٠ آلاف طن من التمور سنوياً، ويأتي على ذكر الأهمية الاقتصادية لتلك التجارة في إيجاد الأعمال للبحارة والقائمين بالجني والتجفيف والتعبئة والذين استخدموا مقاطف من الحصير مشابهة إلى حد بعيد لتلك التي استمر استخدامها حتى القرن العشرين. وقد ابتاع هاملتون ١٦٠ رطلاً من التمر مقابل شلنين وثلاثة بنسات(٦١). وعقّب فرانكلين بدوره على زراعة النخيل في منطقة البصرة قائلاً: «إن النخلة تضيف إلى المكان الجمال والفائدة. وبغرس هذه الشجرة والحصول على ثمارها تجني الحكومة التركية عوائد كبيرة(٦٢). وذكر مينستي وجونز أن الصادرات عام ١٧٩٠ قدرت قيمتها بمليون روبية(٦٣).

وتمثل النشاط الاقتصادي المهم الآخر في صيد الأسماك إذ يوفر السمك طازجاً ومجففاً الطعام لكل من الاستهلاك الآدمي والحيواني. غير أن هيرات لؤلؤ البحرين هي التي حظيت بأعظم أهمية اقتصادية وتلقت أكبر قدر من اهتمام الرحالة الغربيين. وذكر تشاردان، وهو تاجر مجوهرات، أن الهيرات كانت تنتج ما يزيد عن مليون لؤلؤة سنوياً في ستينات القرن السابع عشر وسبعيناته، وزعم أنه قد شاهد لؤلوة تامة الاستدارة تزن حوالي خمسين قمحة [١٢,٥ قيراطاً] على الرغم من أن متوسط حجم اللآلئ كان ١٠–١٢قمحة [٢,٥ – ٣ قيراطات]. وأصدرت الحكومة الفارسية التي سيطرت على جزيرة البحرين في ذلك الوقت قراراً بأن تقدم للشاه كل اللآلىء التي تزن أكثر من ١٢ قمحة. وعزا تشاردن نوعية لآلىء الخليج إلى مزيج المياه العذبة والمالحة في المنطقة(٦٤). وكما هو الحال في أي سوق متقدمة، فقد أدرجت

اللآلىء في عدد من الفئات بحسب الحجم والشكل واللون. ووصف فراير اللؤلؤ الأدنى نوعية بأنه [خشرة] أي خليط من اللآلىء الخشنة، الصفراء، غير المنتظمة تباع بالبوشل(٦٥).

ويحظى تنظيم جمع اللؤلؤ وتسويقه باهتمام العديد من الرحالة فهيرات اللؤلؤ اجتذبت المشاركين في موسمه من أرجاء الخليج كافة مع قيام السفن من الكويت والقطيف وقطر والبحرين والصير والساحل الفارسي في مايو بالتجمع تأهباً للموسم الذي كان يدوم حتى سبتمبر. ولدى بيع اللآلىء، تقسم الأرباح بين التجار والملاحين والقائمين بالغطس(٦٦). وشكل ميناء كونج تحت السيطرة الفارسية المركز الرئيسي لتوزيع اللؤلؤ، ومضى اللؤلؤ الخشرة غالباً إلى الشمال ليصل إلى التجار الروس الذين كانوا يحملونه براً إلى أركانجل حيث يوزع على امتداد السواحل الشمالية لاستخدامه في تجميل القبعات المصنوعة من الفراء. وعرفت اللآلىء ذات النوعية الأرفع توزيعاً واسع النطاق، فبيعت اللآلىء ذات النوعية الجيدة، التي يصل حجم الواحدة منها إلى قمحة واحدة بستة بنسات في لندن في عام ١٦٧٦. بينما بيعت اللؤلؤة البديعة من فئة ٣ قيراط (١٢ قمحة) بـ ٢٨٠ شلناً(٦٧).

وتأثرت السوق كذلك بالظروف السياسية السائدة في الخليج، وأوضح هاملتون أنه في أوائل القرن الثامن عشر، عندما سيطرت مسقط على الجزر، وسعت إلى فرض رسوم على السفن، رفض العاملون عليها الغوص على اللؤلؤ، وقد فرض ذلك عبئاً اقتصادياً كافياً على العمانيين دفعهم إلى الانسحاب من الجزيرة، وعندئذ عادت السفن إلى الغوص على اللؤلؤ(٦٨) وأحدث دخول العتوب إلى البحرين عام ١٧٨٢ كذلك بعض الاضطراب في التجارة ولكنها كانت في بداية الانتعاش، وبحلول نهاية العقد كانت ما تزال منخفضة القيمة ولكنها قومت بحوالي ٥٠٠ ألف روبية(٦٩).

وحظي جانبان آخران من جوانب الثقافة العربية – هما الجياد والصقور – بانتباه الرحالة الأوروبيين كذلك. وقد أقر تشاردن، الذي أعجب بالجياد لحجمها وتناسقها ووداعتها، بأن الجياد العربية هي التي يسعى

إليها المربون أكثر من غيرها، ورسم صورة تثير الاهتمام للغاية حول الكيفية التي يمكن بها للمرء الحكم على نوعية الخيل، والتي كانت تتمثل في «جعلها تنطلق عطشى مسافة ثلاثين فرسخاً دون توقف، وبسرعة كبيرة، واقتيادها بعد ذلك لتخوض في الماء حتى صدورها، ثم تقديم الشوفان إليها، فإذا ما عكفت على الطعام في شره فإنها تكون جياداً عربية أصيلة»(٧٠). وقد لاحظ هاملتون أن الجياد حول البصرة «متينة التركيب ومتوقدة النشاط»(٧١). ويقدّم نايبور صورة مفصلة جداً لخصائص الخيول العربية، فبدأ بتحديد نوعي الحصان العربي، وهما الكديشي، وهو بلا نسب، وعادي تماماً، ويستخدم كدابة من دواب الحمل، والقشلاني وهو الجواد ذو النسب المدون، والذي يعود إلى فحول اسطبلات الملك سليمان التي كانت تستخدم للركوب. ثم يورد نايبور من بين قائمة خصائص القشلاني: أنه مؤهل لتحمل أعظم المشاق، ويمكنه أن يقضي أياماً بلا طعام، ويظهر شجاعة فذة في مواجهة الأعداء. وعندما يجرح، ويعجز عن الاستمرار في حمل راكبه فإنه يتراجع من الميدان ويمضي إلى مكان آمن، وإذا سقط راكبه عنه، فإنه يظل إلى جواره. ويختتم نايبور بتفاصيل حول عملية خدمة الإسطبل(٧٢). ويقدم كار صورة مبكرة للصيد بالصقور في منطقة الخليج، عندما تحدث عن رحلة صيد قام بها مع بعض معارفه في كونج. وقال إنه ما إن يتم إطلاق الصقور حتى «تتبع طرائدها [الغزلان والحبارى] في تحليقها، وعندما تواجه قنيصتها فإنها تنقضّ عليها، وتعمي عينيها بأجنحتها وبراثنها»(٧٣).

وبينما كان العرب يشكلون الغالبية الكاسحة من السكان فقد كانت جماعات أقلية عديدة ومهمة تعد المنطقة موطناً لها، وشكل البانيان الجماعة التي حظيت بأكبر قدر من الاهتمام، وهم من الهنود الهندوسيين، الذين يشير إليهم رحالتنا في بعض الأحيان على أنهم الأغيار. وكان لكل ميناء سكانه من البانيان. ويتضمن تقرير هاملتون القول إن البانيان في بندر عباس «لهم مكانة طيبة في المدينة وعددهم كبير للغاية»(٧٤). وهو وضع مألوف في المنطقة. وذكر الأب كار أنه كان هناك تاجر هندوسي في نخيلو عام ١٦٧٠ ووسطاء

تجاريون من البانيان في بندر رج عام ١٦٧٤(٧٥). وذكر هاملتون أن البانيان كانوا يتعاملون في معظم التجارة في ميناء كونج عام ١٧٢١(٧٦). وكان الوسيطان التجاريان في كل من المصنعين الهولندي والبريطاني في بندر عباس في سبعينات القرن السابع عشر من البانيان، حيث يدعى الوسيط الهولندي باسم النوخذه بيرم والوسيط البريطاني بالتكرسي(٧٧).

وفيما شكلت التجارة بؤرة اهتمام الهندوس في الخليج، فإن هذه الجماعة كانت لها، فيما يبدو، حياة مستقرة. كذلك وقد وصف ستروبس مزاراً أو «باجودا» يقع تحت أغصان شجرة بانيان عند مشارف بندر عباس، ويتولى رئاسته كاهن مسترسل الشعر واللحية، كان السكان الهنود في المنطقة يشدون الرحال إليه(٧٨). وذكر فراير أنّ معبدين هندوسيين كانا في نابند، وهي قرية صيادين قرب بندر عباس، وكانت هناك مقابر عديدة لشخصيات هندوسية لها قداستها في المنطقة المجاورة. وقد وصف عمليات الدفن ببعض التفصيل، موضحاً أن الرجال قد دفنوا واقفين كتلة من ملح هرمز مع طعام وماء وشراب ومال ومصباح مضاء وعصا، ثم أوصدت المقبرة بكتلة أخرى من الملح الصخري ووضع عليها شاهد على شكل مخروط مقلوب(٧٩). وبالاضافة إلى المعابد والمقابر فسوف يستثمر التجار الهندوس أموالهم في الإنفاق على تسهيلات أخرى على نحو ما ورد في رواية فراير عن «المستشفيات» التي مولها الوسيطان الهولندي والبريطاني بيرم والتكرسي في منطقة الينابيع الحارة خارج بندر عباس وقناة بيرم لسحب المياه في أصين(٨٠).

وشارك التجار الهندوس في الاحتفالات المدنية في مواطنهم الخليجية، ويروي فراير أن البانيان في بندر عباس كانوا يشهدون كل الاحتفالات التي يقيمها الحاكم، ولكنهم لا يتناولون فيها أي شيء، ومضى فذكر أن هؤلاء البانيان كانوا في الغالب من أبناء السند، وهم ليسوا نباتيين، غير أنهم لا يأكلون لحم البقر، وكانوا يدفعون مبلغ ٣٥٠ توماناً كل سنة لحماية ماشية بندر عباس من الذبح(٨١). وذكر هاملتون أن البانيان كانوا ما يزالون يقدمون هذه الهدية السنوية للحاكم، ولكنه أوضح أنها لم تسفر عن فرض حظر على ذبح

الأبقار، وإنما عن وقف ذبحها علناً(٨٢). وتمّ كذلك الاحتفال بالمهرجانات الهندوسية على الرغم من أن ذلك، كما روى الأب كار، كان من شأنه أن يسبب مشكلات مع السلطات المحلية، على نحو ما حدث في كونج عام ١٧٧٤ عندما اتهم الحاكم الهندوس المشاركين في أحد احتفالاتهم بإفساد الاحتفال بيوم النوروز، وأرغمهم على دفع غرامة قدرها (٧٥٠ جنيهاً استرلينياً)(٨٣).

وفي المرتبة الثانية بعد البانيان، حظيت الجماعة المسيحية بأعظم قدر من الاهتمام، حيث تركزت الحياة المسيحية في الخليج حول الدير الكرملي في البصرة(٨٤). ولاحظ هاملتون أن الرهبان الكرمليين كانوا يتلقون وتحدث احتفالهم علناً بأعيادهم الدينية، ولكنه لا يقدم الكثير من عموماً من الباشوات من الصنائع والأيادي البيضاء تفوق ما تلقوه من المسلمين من أبناء المنطقة(٨٥).

وقد قدمت الإرسالية، على نحو ما ذكر جميع الرحالة تقريباً عدداً من الخدمات الكنسية. وذكر الأب كار أنها قدمت خدمة كنسية يومية لـ «عدد كبير من المسيحيين اللوثريين واليعاقبة والمارونيين والنساطرة والأرمن ومن إليهم». وبالإضافة إلى الخدمات الكنسية، فإن الرهبان الكرمليين عملوا كمكتب بريد للبلاغات الرسمية الأوروبية(٨٦). وذكر فراير أن كل السفن «المسيحية» كانت تحمل على متنها كاهناً لا ليكفل لها وصولاً آمناً، وإنما كذلك يقدم «ترفيهاً مفعماً بروح المجاملة ولا يكلف كثيراً»(٨٧). ولما لم يكن هاملتون، فيما يبدو، يكن الكثير من الإعجاب للكرمليين فقد قال إنهم «أوغاد يرتدون مسوح القداسة» يقومون بتقطير العرق وبيعه في كنيستهم، مبررين ذلك بأنه خمر تستخدم في تناول العشاء الرباني.(٨٨). وقد اغتنم كار الظرف للاستفادة من الغرفة وتسهيلات الإقامة التي يقدمها الدير، واحتفل بعيد الميلاد مع الرهبان الكاثوليك عام ١٧٧٨ وتناول عشاء من لحم الخنزير كان «أطيب ما ذقته من اللحم قاطبة، وربما يرجع ذلك إلى اقتصار علفه على التمور»(٨٩). كان المسيحيون نشيطين في تجارة البصرة، ويشير جرفت انه في عام ١٧٨٦م «الأرمن وبعض الفئات المسيحية الأخرى.. شاركوا بشكل فعّال في تجارة الاستيراد والتصدير في المدينة.(٩٠) إضافة إلى ذلك كان رئيس الإرسالية الكرملية، في أغلب الأحيان هو نفسه القنصل

الفرنسي في البصرة. وكانت الكنيسة خارج البصرة في حدودها الدنيا. وتحدث الأب كار عن دير أوغسطيني في كونج عام ١٦٧٠ وعام ١٦٧٤ كان بعد إتمام الصلاة يحول إلى دار للقمار، حيث يشارك البحارة البرتغاليون في ألعاب الورق والنرد(٩١). وخلال زيارة هاملتون لبندر عباس، حيث لم تكن هناك كنيسة كان القس يستدعى من كونج لإتمام المراسم الرسمية لعقود القران وتعميد الصغار. ولاحظ هاملتون كذلك أنّ مقبرة للمسيحيين في بندر عباس كانت مليئة بالقبور(٩٢).

وكانت الطائفة اليهودية هي الجماعة الأخيرة التي حظيت بالاهتمام، فقد ذكر الأب كار عام ١٦٧٤ أن اليهود «عددهم كبير للغاية في كونج» وتحدث احتفالاتهم علناً بأعيادهم الدينية، ولكنه لا يقدم الكثير من المعلومات.(٩٣) بخلاف ذلك، ويذكر هاملتون أنّ في البصرة كثيراً من اليهود، وكانوا يعملون وسطاء وصيارفة(٩٤). وهي حقيقة أكدها فرانكلين في وقت لاحق من القرن نفسه(٩٥). ولكننا مجدداً لا نعرف شيئاً عن حياة الطائفة. وقد ذكر نايبور أنّ يهوداً كانوا في الأحساء(٩٦).

وتميزت الفترة من عام ١٦٥٠ إلى عام ١٨٠٠ بتغير تجاري كبير، إذ أدى طرد البرتغاليين من هرمز إلى فتح الخليج في وجه توافد الأوروبيين وتنافسهم على أوسع نطاق، ومع تغير الظروف السياسية والاقتصادية أخذت موانىء الخليج تبرز ميناءً بعد الآخر ثم تتراجع أهميتها، فبندر عباس، وهو مصدر للحرير الفارسي ومركز تجاري بالنسبة لأسواق إيران والخليج الأعلى، ارتفع أولاً إلى مرتبة الصدارة، غير أن الاضطراب الذي واكب سقوط الصفويين وانهيار سوق الحرير قد ألحقا كارثة بالميناء، وحلت محله في أوائل القرن الثاني عشر البصرة التي ازدهرت بقاعدتها، القاعدة الزراعية الراسخة والمنفذ إلى أسواق العراق وسوريا والأناضول وشمال فارس، على امتداد نصف القرن التالي. لكن البصرة سقطت بدورها ضحية لعدم الاستقرار السياسي حيث نشب الصراع بين العثمانيين والفرس والعرب من أجل السيطرة على المنطقة لتطوير صناعة منسوجات محلية قللت تدريجياً الحاجة إلى الواردات من

الهند. ثم برزت البحرين مدفوعة بالثروة الناتجة من تجارة اللؤلؤ، وخدمت أسواق شرقي الجزيرة العربية التي طورت مؤخراً. وخلال هذا كله عكف المجتمع الخليجي، الذي غلب عليه السكان العرب المسلمون، على الزراعة، وصيد الأسماك، والغوص على اللؤلؤ والتجارة، وظل الأجانب المقيمون بين ظهرانيه من الهندوس والمسيحيين واليهود مستقرين بصورة نسبية، وتأقلموا مع الظروف الجديدة. غير أنه بحلول عام ١٨٠٠ برزت مجموعة جديدة من الظروف اتسمت بالتنافس المحتدم على موارد الخليج وأسواقه المحدودة وبقدر أعظم من التدخل الأجنبي وبصفة خاصة من مسقط والبريطانيين.

المراجع

Abu Hakima, *Ahmed Mustafa, History of Kuwait*, (Kuwait, 1970), vol 1, part 2

Barlow, R., ed., *The Diary of William Hedges, Esq., During His Agency in Bengal; as well as on his Voyages Out and Return Overlan 1961 - 1687*, (Hakluyt Society : London, 1888), 3v.

Bidwell, Robin, "Bibliographical Notes on European Accounts of Muscat, 1500 - 1900", *Arabian Studies*, (1978), v. 4, 123 - 59.

Gerald Blake, Heather Bleaney, David Imrie, and Richard Lawless, "Geographers of the Persian Gulf", in Alvin J. Cottrell, gen. ed., *The Persian Gulf States*, (Johns Hopkings University Press: Baltimore, 1980), 109 - 113.

Capper, James, Observations on the Passage to India through Egypt, 3rd ed., London, 1785.

Chardin, John, *Travels in Persia 1673 - 1677*, (Argonaut Press: London 1927).

Franklin, William, "Observations Made on a Tour from Bengal to Persia in the Years 1786 - 7", in Pinkerton, v. 9, 1811.

Fawcett, Charles, ed., *The Travels of the Abbe Carre in India and the Near East 1672 - 1674*, (Hakluyt Society: London, 1947 -1948), 3 v.

Fryer, John, *A new Account of the East India and Persia*, (London, 1698).

Gollancz, hermann, ed. and Trans., *Chronicle of Events between the Years 1623 and 1733 Relating to the Settlement of the Order of Camelites in Mesopotamia*, (Oxford University Press: London, 1927).

Hamilton, Alexander, "A New Account of the East Indies", in Pinkerton,(1811), v. 8.

Manesty, Samuel and Hafrord Jones, "Report on the Commerce of Arabia and Persia". In Abu Hakima, 17 - 82.

Niebhur, Carsten, *Travel through Arabia and Other Countries in the East*, (Librairie du Liban: Beirut, n.d. Reprint of the 1792 Edinburgh edition).

Oaten, edward, *European Travelers in India*, (Kegan Paul Trench and Co.,: London 1909).

Ovington, J., *A Voyage to Surat in the Year 1689*, (London, Oxford University Press,1929).

Struys, John, *The Perilous and Most Unhappy Voyages of Johne Struys*, (London, 1683).

1 - Gerald Blacke, et al., "Geographers of the Persian Gulf," in Alvin J. Cottrell,

gen. ed., *The Persian Gulf States*, (Baltimore : John Hopkins University Press, 1980), 110.

2 - Full bibliographic citations for the travellers mentioned in this section are to be foud in the bibliography.

3 - Samuel Manesty and Harford Jones, "Report on the Commerce of the Arabia and Persia," in Ahmed Mustafa Abu-Hakima, *History of Kuwait*, (Kuwait, 1970), 60.

4 - John Struys, *The Perilous and Most Unhappy Voyages of John Struys* (London, 1963), 349-50 ; John Fryer, *A New Account of East India and persian*, (London), 1698), 221-222.

5 - Fryer, 221 ; Struys, 349-50.

6 - Alexander Hamilton, *A New Account of the East Indies*, in Pinkerton, (1881), v. .8, 296.

7 - Struys, 342.

8 - Fryer, 222.

9 - Charles Fawcett, ed., *The Travels of The Abbe Carre in India and the Near East 1672-1674* (London : Hakluyt Society, 1947-8), 3 v., vol.3, 803. Hereafter cited as Abbe Carre.

10 - Fryer, 223.

11 - John Chardin, *Travels in Persia 1673-1677*, (London : Argonaut Press, 1927), 60-62, 109.

12 - Chardin, 110-111, 120-121 ; Fryer, 352-353.

13 - Fryer, 301-302.

14 - Abbe Carre, .803-4.

15 - Fryer, .217-224.

16 - Chardin, 109.

17 - Abbe Carre, vol.2, 88.

18 - Chardin, 42, 108-10, 117, 120 ; Abbe Carre [V .3, .806-14] also reports on the French Embassy but this account is probably based on what he heard from Chardin.

19 - Abbe Carre, v..3, 803, 818.

20 - Fryer, 224.

21 - Hamilton, 296.

22 - Ibid., 301.

23 - Carsten. Niebuhr, *Travels through Arabia and Other Countries in the East* (The 1792 Edinburgh edition, reprint, Beirut : Librairie du Liban), v. 2, 141.

24 - Manesty and Jones. 60, 72, 74.

25 - Abbe Carre, 815.

26 - Fryer, 320.

27 - Struys, 351.

28 - Chardin, 64-6.

29 - Hamilton, 296.

30 - Manesty and Jones, 56.

31 - Abbe Carre, p.835 ; Hamilton, .295.

32 - Hamilton, 295.

33 - Manesty and Jones, 55-56.

34 - Abbe Carre,.835.

35 - Niebuhr, 145.

36 - Hamilton, 295.

37 - William Franklin, "Observations Made on a Tour From Bengal to Persian in the Years 1786-7", in Pinkerton, (1811), v. 9, 237.

38 - John Griffiths, *Travels in Europe, Asia Minor, and Arabia* (London, 1805), 393.

39 - Manesty and Jones, 35,55,60.

40 - Abbe Carre,.89-90.

41 - Chardin, 63.

42 - Ibid, 444, 490, 494-5, 616, 628, 634, 638.

43 - Menesty and Jones, 23, 33-39.

44 - John Beaumont to Presidency, Bushire, 6 May 1776, quoted in Abu Hakima, *History of Kuwait*, 6-7.

45 - James Capper, *Observations on the Passage to India though Egypt,* 3rd ed., (London, 1785), 228.

46 - Francklin, .276-8.

47 - Manesty and Jones, 33.

48 - Ibid., 38-42, 62.

49 - Hamilton, 289.

50 - Manesty and Jones, 25.

51 - Latouche to court of directors, Basrah, 4 November 1782 in Abu Hakima, 17.

52 - Manesty and Jones, 25.

53 - Capper, 220.

54 - Manesty and Jones, 31.

55 - Neibhur, 152.

56 - Manesty and Jones, 23, 29-30.

57 - Neibhur, 137.

58 - Ibid., 146-7.

59 - Struys, 341.

60 - Fryer, 223.

61 - Hamilton, 290-1.

62 - Francklin, 277.

63 - Manesty and Jones, 35.

64 - Chardin, 165-6.

65 - Fryer, 320.

66 - Manesty and Jones, 28-9.

67 - Fryer, 165-6.

68 - Hamilton, .289.

69 - Manesty and Jones, 28.

70 - Chardin, 167-8.

71 - Hamilton, 294.

72 - Niebuhr, 289-301.

73 - Abbe Carre, vol.I, 124.

74 - Hamilton, 297.

75 - Abbe Carre, vol.I, 97 and vol.III, 835.

76 - Hamilton, 296.

77 - Fryer, 305.

78 - Struys, 351.

79 - Fryer, 308.

80 - Ibid., 304-7.

81 - Ibid., 225.

82 - Hamilton, 297.

83 - Abbe Carre, vol.III, 825.

84 - Gollancz, 388, 482, and passim.

85 - Hamilton, 293.

86 - Chardin, 43, and Abbe Carre, 87.

87 - Fryer, 218.

88 - Hamilton, 293.

89 - Capper, 232.

90 - Griffiths, 390.

91 - Abbe Carre, vol.I, 113 ; vol.III, 822.

92 - Hamilton, 297.

93 - Abbe Carre, 825.

94 - Hamilton, 293.

95 - Francklin, 277.

96 - Niebuhr, 126.

مرحلة التنافس الأوروبي بين عامي ١٦٠٠ و ١٨٠٠ ونظرة المبعوثين الأوروبيين إلى القوى العربية

ب . ج . سلوت

دكتوراه فلسفة (جامعة ليدن).
رئيس قسم المكتبات والمخطوطات في الإدارة العامة لمكتبات الدولة في هيج.
من مواليد ١٩٤١.

من نتاجه :

«الاستيلاء العثماني على مجموعة الجزر اليونانية» (١٩٨٢).
«أصل الكويت» (ليدن ١٩٩١).
«عرب الخليج ما بين ١٦٠٢ – ١٧٨٤» (١٩٩٣).

بالاضافة إلى عدد من الأبحاث عن تاريخ العثمانيين وتاريخ العلاقات الدولية لهولندة وموضوعات عن المكتبات.

مقدمة

مصادر حول تاريخ عرب الخليج من الأمم الأوربية المختلفة

تستهدف هذه الورقة مناقشة الصورة التي قدمها الأوربيون عن الخليج والأحداث التي شهدتها تلك المنطقة، فيما يتعلق بالعرب، وينبغي تقرير أنها صورة مؤلفة من شذرات ضئيلة للغاية. وفي معظم الأوقات تركزت المصالح الأوربية في الخليج على التجارة مع فارس، ومع الإمبراطورية العثمانية. والمعلومات عن العرب منبثة على نحو منتشر في النص الماثل بين أيدينا وبإيجاز شديد.

هناك نوعان من الأجانب (المشاهدين) الذين تركوا ملاحظات مكتوبة أو خرائط ورسوماً. وفي المقام الأول هناك الرحالة، وهناك أيضاً ممثلو القوى الأوربية، المقيمون في أماكن مثل بندر عباس والبصرة، وأحياناً في أماكن أخرى مثل مسقط وبوشهر وجزيرة خرج. ولم يقدم هؤلاء المراقبون نصوصاً مكتوبة فحسب، وإنما قدموا كذلك، في بعض الأحيان، خرائط ورسومات للأماكن. ولسوف نتعامل مع المصادر التصويرية والخرائطية في فصل منفصل. وكان الرحالة النمطيون لا يقضون في الخليج إلا بضعة أسابيع فقط، ولا تتميز معلوماتهم دائماً بالرسوخ، وهم يؤلفون كتاباً، ولذا فهم يميلون إلى إضافة ملاحظاتهم على شكل قصة تجتذب القراء، وذلك من خلال إدراج الأقوال المتواترة، والمنقولة في بعض الأحيان عن مصادر ممتازة، وفي أحيان أخرى عن مصادر سيئة. والنوع الثاني هم المسؤولون الأوربيون المقيمون، مسؤولو شركات «ستا دو إنديا» و«بريتش إيست إنديا» و«داتش إيست إنديا» والقناصل الفرنسيون، والمبشرون الكاثوليك الرومان. وقد مكث هؤلاء زمناً أطول وكتبوا لرؤسائهم، الذين يعرفون بالفعل الكثير عن المنطقة،

من تقارير أخرى، أو من معلومات شفوية، وهكذا فإن هذه النصوص تميل غالباً إلى الإيجاز أكثر من كتابات الرحالة. فالنصوص التي أنجزها المسؤولون غالباً أقل اتساماً بالطابع الوصفي، وتميل إلى التركيز على الوقائع والمصالح الاقتصادية. وفي بعض الأحيان كتب المسؤولون كذلك تقارير وصفية أكثر عمومية عن المنطقة، كنتيجة للقيام برحلة استكشافية. وكان عدد الكتب المعاصرة المطبوعة التي ألفها رحالة أوربيون محدود، أقل من خمسين كتاباً، ولكن الوثائق التي تتعلق بالخليج في الأرشيفات ومكتبات المخطوطات وتعود إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر تشكّل كمّاً هائلاً. وهناك عشرات الألوف من الوثائق الهولندية، وألوف من الوثائق الإنجليزية، ومئات من الوثائق البرتغالية والفرنسية. وكثافة المادة المثيرة للاهتمام بالنسبة لموضوعنا في هذا العدد الهائل من الوثائق يمكن أن تكون منخفضة للغاية. وذلك هو الوضع بالنسبة للمادة الهولندية الرسمية، التي تعد هائلة في حجمها، ولكنها تميل إلى التركيز على تجارة الشركة الهولندية في الخليج، وأقل من ١٠٪ من هذه المادة يدور حول موضوعات أخرى.

ومصداقية المعلومات التي يقدمها هؤلاء المراقبون الأجانب لها حدود معينة. ومن المؤكد أنه كانت في مجتمع القرنين السابع عشر والثامن عشر زيادة يعتد بها في كم المعلومات وكذلك السرعة التي تمّ بها تداول هذه المعلومات، كما كان نطاق انتشارها أكثر اتساعاً. غير أنه انطبقت تماماً بعض الضوابط في طرق تقويم المعلومات، فروايات الرحالة وكتب الباحثين الجغرافيين تحتوي بجانب المعلومات الحقيقية على الكثير من التقولات التي لا قيمة لها، أو حتى الخيالية. وكان لا يزال من المتعذر التحقق في أوربا، أو حتى في مكاتب الأوربيين المركزية في آسيا من صحة المعلومات الآتية من الخليج، لأنه لم تكن هناك إلا قنوات محدودة، واستغرقت الرسائل والتقارير وقتاً طويلاً للغاية في الوصول، بحيث إنه كان من المتعذر غالباً التحقق من صحتها في الوقت المناسب. ومعظم الوثائق الأرشيفية التي بقيت هي بصفة أساسية معلومات تتعلق بالأنشطة التجارية، كتبت في إطار لمنظمات، اعتمدت إلى حد كبير على الحقائق الموثوقة، وكنتيجة لذلك، فإن الحقائق الواردة في الوثائق

دقيقة في مجملها. غير أن هناك أوجه انحراف وحذوفات معينة، يتم التعويض عنها إلى حد ما من خلال الحقيقة القائلة بأنه على امتداد معظم هذه الفترة لدينا معلومات من أمم مختلفة ذات مصالح وتحالفات متباينة. ومن أوجه الانحياز الميل إلى وصف الحلفاء بطريقة أكثر وداً من وصف الأعداء، الأمر الذي يعلل – على سبيل المثال – الطرق المختلفة التي يوصف بها زعماء قبائل عرب بعينهم في وثائق بريطانية وهولندية. والدافع إلى هذه التصورات الخيالية هو الأمل في أن المكتب المركزي سيوافق على تحركات معينة، أو سيرسل مالاً وتعزيزات. وفي الميدان الاقتصادي لا تمثل التقارير الهولندية إلا جانباً من الحقيقة، فهي لا تتناول إلا التجارة الرسمية لشركة الهند الشرقية الهولندية، لكنها تغفل ذكر أي معلومات حول التجارة غير المشروعة الواسعة النطاق التي مارسها الممثلون الهولنديون لحسابهم الخاص. وهناك شكل من أشكال الانحراف عن الحقيقة، يكاد يكون غائباً تماماً، فليس هناك تشويه للحقيقة أو هناك القليل منه، يرجع إلى أغراض الدعاية فالوثائق مخصصة للتداول الداخلي فحسب، وليس هناك أثر للانحراف السياسي الكلي، الذي يجده المرء في غمار مقارنته بين السجلات البريطانية والفرنسية، الخاصة بالفترة التي تدور حوالي عام(١٩٠٠).

وقبل الشروع في الدراسة السريعة المنظمة على أساس زمني للمواد المتوافرة من المراقبين الأوربيين حول التاريخ السياسي والاقتصادي لعرب الخليج نقدم هنا دراسة موجزة لما هو متاح من الأمم الأوربية المختلفة حول الخليج.

١ - المصادر البرتغالية

يمكن العثور على السلاسل الرئيسية للتقارير البرتغالية المتعلقة بالخليج من أرشيفات لشبونة وجوا. وقد تمّ نشر العديد من أكثر الوثائق أهمية(١). والمواد البرتغالية، وبصفة خاصة خلال النصف الأول من القرن السابع عشر، أكثر تركيزاً على الأحداث المتعلقة بالعرب من أي مصادر أوربية أخرى، حيث كانت هذه الأخيرة أكثر تركيزاً على فارس والإمبراطورية

العثمانية. والوثائق الأرشيفية البرتغالية موجودة كذلك في مخطوطات المكتبة الوطنية في لشبونة وفي الأرشيف البحري بها. والتقارير الوصفية مثل «كتاب المنشآت (الاستعمارية)» عن الهند في ١٦٣٨ يقدم لمحات عن حالة المناطق التي يهتم بها البرتغاليون: البصرة، والبحرين، والمناطق الساحلية الممتدة بين دبا وصور(٢). وهناك مصدر مهم آخر، يتمثل في «مذكرات» الشخصيات البرتغالية البارزة المعنية بشؤون الخليج: جوفيا (Gouveia)، سيلڤا فيجيروا (Silva Figueroa)، روى فرير دي اندريدي (Ruy Freire de Andracle). وهناك كذلك بعض نصوص الرحالة البرتغاليين المعاصرين الذين ينتمون للقرن السابع عشر(٣).

٢ - المصادر البريطانية

تتعلق الأهمية الرئيسية للمادة الأرشيفية البريطانية بالقرن الثامن عشر، فمعظم وثائق القرن السابع عشر هي إشارات تأتي بشكل غير مباشر، من خلال تقارير من الهند. وبالنسبة لأجزاء من القرن الثامن عشر هناك مذكرات جومبرون (بندر عباس) والبصرة (في أرشيفات الدولة ببومباي) التي تعطي انعكاساً مباشراً للغاية للأحداث اليومية في الخليج وأوراق المصانع في جومبرون وبوشهر. وهناك العديد من كتابات الرحالة المنشورة، إلا أنها محدودة ومختصرة في وصفها للأشياء. والمثال القياسي هو نص جوزيف سالبنك Joseph Salbanke الذي غطى رحلته براً، من قطر إلى مسندم، فيما لا يتجاوز كثيراً جملة واحدة(٤). ويحتوي بعض تقارير الرحالة اللاحقة على المزيد من التفاصيل(٥).

٣ - المصادر الهولندية

في أرشيفات شركة الهند الشرقية الهولندية ابتداء من عام ١٦٢٣ حزم سنوية من الأوراق تمّ تلقيها في هولندا من الخليج سواء مباشرة أم عن طريق باتاڤيا (Batavia) . وعلى الرغم من أن هذه الأوراق (وهي تتألف من تقارير ووقائع ومذكرات وأوراق متعددة الأغراض، تدور أساساً حول التجارة الهولندية في الخليج، إلا أنها تحتوي على معلومات متفرقة عن العرب. ويمكن العثور على عدد محدود من مذكرات البصرة، ولكنها على جانب كبير من الأهمية بين

الأوراق المرسلة من جنوب إفريقيا في أرشيفات شركة الهند الشرقية الهولندية. بينما هناك على نحو متفرق كذلك، أوراق تتعلق بالقرن الثامن عشر من أرشيفات السفارة الهولندية في اسطنبول (وتتعلق بصفة أساسية بالبصرة). وهناك أرشيف خاص مفصل للغاية هو أرشيف فولبراند جيلينسن دي جونج Wollebrand Geleynssen de Jongh وهو مسؤول هولندي في الخليج حوالي سنة ١٦٤٥. ويتسم بالأهمية البالغة تقرير كنيبهاوزن Kniphausen في مجموعة مقتنيات مختلفة مع وجود بعض التفاصيل حول الشؤون العربية. بينما ينبغي أن يذكر في هذا السياق كذلك بعض تقارير الرحلات بقلم مسؤولي المال في شركة الهند الشرقية الهولندية(٦).

٤ - المصادر الفرنسية

لا تحتوي السجلات الأرشيفية الفرنسية الأقدم عهداً كثيراً من المعلومات عن عرب الخليج. معظمها ينتمي إلى القرن الثامن عشر (مراسلات سياسية فارسية ومذكرات ووثائق فارسية). وفيما يتعلق بالسنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر يمكن العثور على الكثير من المراسلات القنصلية الخاصة بالبصرة ومسقط. وما يتعلق بالأولى موجود في الأرشيفات الوطنية، وما يتعلق بالثانية موجود في أرشيفات وزارة الخارجية. ويمكن العثور على بعض السجلات المتعلقة برحلات الخليج في الأرشيفات الوطنية، كما يمكن كذلك العثور على معلومات عن عمان، أواخر القرن الثامن عشر، في الأرشيفات الخاصة في المكتبة البلدية لكاين (Caen). وهناك تقارير رحالة منشورة بالغة الأهمية بقلم الرحالة الفرنسيين كاريه Carré، وتيفنو Thevenot وتافرنييه Tavernier متعلقة بالقرن السابع عشر وأوتيه Otter متعلقة بالقرن الثامن عشر(٧).

٥ - مصادر الكنيسة الكاثوليكية الرومانية

الأرشيفات الكرملية في روما تحتوي سجلاً مهماً فيه وثائق خاصة بالبصرة(٨). وتحتوي أرشيفات الدعوة الإيمانية Propaganda Fide في روما أحياناً صوراً بالغة الأهمية كتلك التي قدمها شهود العيان عن الأيام الأخيرة للبرتغاليين في مسقط وخصب، ومنها تقارير لاحقة من المبشرين

الكاثوليك الرومان في الخليج. وهناك كتابات رحالة محدودة منشورة بقلم رهبان تابعين للكرملين في فارس(٩).

٦- مصادر أخرى

هناك تقارير بعض الرحالة المنشورة من دول أخرى، وأكثرهم أهمية الإيطالي بيترو ديللا ڤال Pietro Della Valle والألماني نايبور Niebuhr الذي عمل في خدمة الهولنديين(١٠). ولا تكاد توجد سجلات دانمركية حول الخليج، على الرغم من أنه قد وجدت بعض الملاحة الدانمركية في المنطقة (مرتبطة بالمؤسسات الدانمركية الاستعمارية في الهند).

ونوعية المعلومات التي يمكن للمرء الحصول عليها من هذه المصادر يمكن وصفها على أفضل وجه بأنها لمحات عجلى، تفتقر إلى الخلفية، على أن نوعاً من الخلفية يمكن استخلاصه بوضع كل هذه المواد معاً جنباً إلى جنب. وتشكل هذه المعلومات المستقاة من مصادر نابعة من ثقافات مختلفة الكتلة الرئيسية لمعرفتنا التي تدور حول عرب الخليج. وبما أن المصادر تنتمي إلى بيئات ثقافية متباينة. وفي بعض الأحيان معادية إحداها للأخرى، فإنها تحتاج إلى قدر معين من تفسير الرموز، قبل أن تكون ذات جدوى. والمشكلة هي أن مادة المصادر العربية أكثر ندرة بكثير، وعلى الرغم من أن هناك حالات عديدة يمكن للمرء فيها أن يربط على سبيل المثال المعلومات المتوافرة من وثائق أوربية بالحوليات العمانية فإن هذه الإمكانية محدودة للغاية. ومعظم المصادر الفارسية تركز كثيراً على أحداث كبرى في فارس نفسها، بحيث إن التفاصيل المتعلقة بالخليج تأتي محدودة للغاية. والمصادر الوصفية العثمانية كذلك مركزة للغاية على الأحداث الكبرى للإمبراطورية العثمانية، ولكن بعض الوثائق الأرشيفية العثمانية تمّ وصفها(١١).

وهناك طريقة أخرى في النظر إلى المادة المصدرية وهي الطريقة المورفولوجية، أي المتعلقة بالبنية، أو الشكل: ما هي أنواع الوثائق المتوافرة لدينا. والمصدر الأكثر يسراً يتمثل في توصيفات الرحلات، سواء أكانت منشورة أم

مخطوطة، والتي بقيت من أمم عديدة. وهناك فئة أخرى هي اليوميات التي أنجزتها المؤسسات الهولندية في بندر عباس والبصرة حول الأحداث المحلية وهي لا توجد الآن إلا بالنسبة لفترات معينة محدودة. وتنتمي إلى نوعية قريبة من هذا حولية الرهبان الكرمليين في البصرة. وقد أنجز الهولنديون بعض النصوص الوصفية، وبقية تقارير رسمية كاملة حول خلفية مصالحهم في الخليج تنتمي إلى المصادر الأوروبية الأكثر أهمية، ووثيقة برتغالية أقدم عهداً تنتمي إلى هذه النوعية(١٢). وترتبط باليوميات – ولكن مع معلومات أقل عادة – السجلات الرسمية للسفن. وقد عرفت سجلات لسفن هولندية وبريطانية وبرتغالية وفرنسية عديدة(١٣). ويمكن العثور على معلومات أخرى في التقارير الدورية الصادرة عن مؤسسات برتغالية وهولندية وبريطانية وفرنسية. وأخيراً فإن كثيراً من المعلومات المتناثرة يمكن العثور عليها في جميع أنواع السجلات من المؤسسات الأوروبية في الخليج، مثل معلومات قديمة جداً عن التجارة من جلفار في سجلات قضائية هولندية. ولا تحتوي كتب تاريخ فارس التي ألفها كتّاب أوروبيون عادة على الكثير مما يتعلق بالخليج. وكتب السيرة الذاتية والمذكرات القديمة التي ألفها مسؤولون برتغاليون مثل «تعقيبات» لروي فراير Ruy Freire وكتب سيلفا فيجيروا Silva Figueroa وجوفيا Goueveia كتب ذات أهمية بالغة(١٤). وكتب التاريخ المعاصر للهند البرتغالية، مثل كتاب بوكارو Bocarro (١٥).

خلفية اقتصادية

كانت التجارة هي الدافع وراء الوجود الأوروبي. ولم تكن التجارة هي اقتصاد الخليج بأسره، ولكن قيمتها النقدية تجاوزت كل الأنشطة الاقتصادية الأخرى، في الصحارى الجبلية والصحارى الرملية، التي تغطي سواحل الخليج. وكان الغوص على اللؤلؤ هو النشاط الاقتصادي الآخر الوحيد، الذي يحظى بأهمية يعتد بها. غير أنه يتعين القول إن الأوروبيين لم يحظوا إلا بنصيب صغير من تجارة الخليج. وتشير مصادر عرضية محدودة إلى أنه خلال القرن السابع عشر ومعظم القرن الثامن عشر كان أناس من الهند

وبحارة عرب يحظون بنصيب أكبر. وعلى أي حال فإنه لما كانت التجارة الدافع الرئيسي للوجود الأوربي فإن معظم الوثائق الآتية من الأوربيين الذين كانوا بالخليج كانت لها علاقة بالأنشطة تجارية. والسبب في أن المغامرات الاستعمارية القليلة للغاية في الخليج تمّ إيقافها لأنها كانت تأتي بنتائج عكسية على صعيد التجارة.

وقد كانت للأمم الأوربية المختلفة مصالح متعددة في التجارة في الخليج، حيث أراد البرتغاليون السيطرة على وصلة جوهرية في أحد طريقي التجارة الرئيسيين بين آسيا والبحر المتوسط. وأراد الهولنديون أولاً شراء الحرير الفارسي، ومنذ حوالي عام ١٦٥٠ حلّ محل هذا الاهتمام الرئيسي بيع المنتجات من المستعمرات (السكر والتوابل، وفي وقت لاحق كذلك بعض المنتجات الهولندية مثل الملابس الصوفية) مقابل السيولة النقدية، حيث كان الهدف كسب المال في آسيا لتقليل تدفق النقد العام إلى آسيا الذي سببته تجارة الهند الشرقية. وكان للبريطانيين الاهتمام نفسه كالهولنديين، ولكن مع ميل أكبر في القرن الثامن عشر إلى بيع المنتجات الأوربية في الخليج. وكان الفارق الرئيسي بين الهولنديين والإنجليز حتى حوالي عام ١٧٥٠ هو أنه بينما عملت شركة الهند الشرقية البريطانية غالباً كعنصر دعم فقط للتجار البريطانيين الذين يعملون لحسابهم الخاص، فإن التجارة الهولندية كانت على الصعيد العملي حكراً على شركة الهند الشرقية نفسها، وكانت الشركة تاجراً بقدر ما كانت تجلياً للدولة ذات السيادة.

ولم تكن لدى البريطانيين ولا لدى الهولنديين خطط جادة لوراثة السياسة البرتغالية القائمة على السيطرة على خط المواصلات المار عبر الخليج أو مواصلة تلك السياسة، على الرغم من أن هذا قد تغيّر، فيما يتعلق بالبريطانيين في نهاية القرن الثامن عشر. ولم يكن الأوربيون إلا منافسين للشعوب الآسيوية في كسب المال، ومن أرقام قليلة عرضية لا تزال باقية يمكننا الخروج بانطباع بأنهم كانوا عنصراً ثانوياً للغاية في اقتصاد الخليج ككل. وخلال النصف الأول من القرن السابع عشر كان العنصر الاقتصادي

الأكبر في الخليج لا يزال التجارة البحرية الهندية تحت الحماية البرتغالية. وفي وقت لاحق انحسرت الحماية البرتغالية. وعلى الرغم من أن التجارة البحرية الهندية تواصلت، وزادت في بعض الوقت، فإن التجارة البحرية العربية أصبحت ذات أهمية متزايدة.

خلفية سياسية

كان الوضع البرتغالي في أوائل القرن السابع عشر ملتبساً للغاية، وأدى التوسع الصفوي باتجاه هرمز إلى مواجهة مباشرة مع البرتغاليين. وكان هذا الصراع خروجاً عن القاعدة في المشهد الجيوبوليتيكي العام لبدايات القرن السابع عشر، حيث كانت القوى الكاثوليكية الرومانية في أوربا في حالة حرب أساساً مع العثمانيين، وحيث جرى البحث على نحو متواصل عن تحالف بين الكاثوليك الرومان والفرس ضد العثمانيين وفي منطقة الخليج على وجه الحصر وفي الفترة من ١٦٠٠ إلى ١٦٣١ كان هناك تحالف عكسي، تزامن ذلك مع ظهور البريطانيين والهولنديين على الساحة(١٦).

وجهت السياسة البرتغالية بصورة أساسية باتجاه الحفاظ على وضع تتهدده الضغوط الخارجية. وكان معنى هذا شن الحرب ضد تلك العناصر العربية، التي أرادت طرد البرتغاليين من مواقعهم في شبه الجزيرة العربية وشرقي إفريقيا، وإبرام تحالف مع الفرس، عندما كانوا يتصادمون مع هؤلاء العرب أنفسهم.

وكانت للسياسة الهولندية في الخليج بؤرة واحدة : التجارة وكسب المال. وكانت فارس هي الشريك التجاري الرئيسي، وحاول الهولنديون الحصول على أفضل الشروط الممكنة لتجارتهم إما بتقديم الحوافز أو بفرض الضغوط السياسية بل والعسكرية. وعندما كانت هناك بصورة متقطعة مصلحة في الاتجار مع البصرة العثمانية اتبعت السياسة نفسها حيال الحكومة العثمانية هناك. وشهدت خمسينات القرن الثامن عشر الاستثناء الوحيد من هذه السياسة، عندما قام مسؤول كبير مغامر، هو كينبهاوزن (Kniphausen)، الذي كان مثقفاً ثقافة عسكرية، وتسيطر عليه النظريات العصرية عن التجارة الحرة

والصلات التجارية الكونية، قام بتأسيس نقطة عسكرية حصينة على جزيرة خرج لجعل ذلك المكان ميناءً مفتوحاً في وجه تجارة كل الأمم في الخليج. وقد أخفق هذا السلف الذي كان بمثابة نموذج سابق لدبيّ، ولكنه مهم باعتباره تجلياً دقيقاً لميلاد النظريات الليبرالية الحديثة المعارضة للنظام المغلق الذي فرضه البرتغاليون والهرمزيون في القرن السادس عشر.

واستهدفت السياسة البريطانية في الخليج تحقيق الغرض العام نفسه، الذي رمت إليه السياسة الهولندية. وقد كانت هناك بعض الخلافات. فقد كان للبريطانيين بصفة عامة اهتمام بالبصرة يفوق اهتمام الهولنديين بها. وقبل ستينات القرن الثامن عشر كانت القوة العسكرية البريطانية في الخليج أقل من نظيرتها الهولندية وبالتالي فإن البريطانيين لم يعلنوا عن حضورهم بقوة في ذلك الوقت. ولم تكن شركة الهند الشرقية البريطانية تاجراً عملاقاً محتكراً في حد ذاته مثل شركة الهند الشرقية الهولندية، وإنما ركزت بصورة أكبر على إيجاد الظروف التي يستطيع التجار البريطانيون الذين يعملون لحسابهم أن ينشطوا، وكذلك بدأ البريطانيون في القرن الثامن عشر في تبني السياسة البرتغالية العتيقة القائمة على جلب حركة النقل البحري من الهند إلى الخليج تحت علمهم(١٧). غير أن ذلك كان معناه احتياج البريطانيين إلى حماية سفن التجارة الخاصة الصغيرة غالباً بالوسائل العسكرية، الأمر الذي أدخلهم بين الحين والآخر في صراع مع البحارة العرب(١٨).

وكانت السياسة الفرنسية في الخليج مسألة جهود مؤقتة ومحاولات للحلول محل التجارة الهولندية أو البريطانية بالتجارة الفرنسية. والمثال الدقيق على هذا الاقتراح الشهير الذي تقدم به لويس الرابع عشر للشاه خلال الحرب الفارسية العمانية (١٦٩٥ - ١٧٢٠) بأنه سيقوم بغزو مسقط للفرس لو أن هؤلاء قاموا بطرد البريطانيين والهولنديين من بلادهم فحسب(١٩). وقد كانت هناك فلسفة جيوبوليتيكية واعية ومعمقة في التفكير السياسي الفرنسي فيما يتعلق بالخليج، ولكن الوسائل لم تكن متاحة لوضع الأمور موضع التطبيق. ومع ذلك فقد لعب الفرنسيون بعض الأدوار المهمة في أحداث الخليج، وخاصة عندما توافرت لهم خلال الحرب الأهلية الأميركية قوة بحرية يعتد

بها في المنطقة. وقد انتعشت ذكريات هذا كله جنباً إلى جنب مع النقاش العام في فرنسا حول التفكير الجيوبوليتيكي الذي دار فيما يتعلق بمهاجمة بريطانيا في الهند عن طريق فارس والخليج، وذلك في عهد الثورة الفرنسية وحكم نابليون، وشكل دافعاً مهماً للبريطانيين لبسط سيطرتهم على الخليج في أوائل القرن التاسع عشر.

الاتصالات بين الأوربيين والعرب أثناء الوجود البرتغالي وأعقابه

اتسمت بداية القرن السابع عشر بتوسع فارس وصولاً إلى ساحل الخليج. وهناك واجهوا البرتغاليين، وتابعتهم مملكة هرمز العربية. ولم يكن بالوسع تجنب نشوب الصراع مع قيام البرتغاليين والهرمزيين باستخدام الخليج طريقاً تجارياً بين الهند والإمبراطورية العثمانية عدو فارس. وأفضل صورة لهرمز ووضعها في الخليج يقدمها الرحالة البندقي غاسبارو بالبي Gasparo Balbi (١٥٨٠) الذي يصف كذلك بالتفصيل أسلوب العرب في الملاحة والغوص على اللؤلؤ، ويتضمن كتابه أقدم ذكر لاسم دبي (٢٠). وقد مكنت الصراعات الداخلية في البحرين التابعة لهرمز الفرس من إرسال قوة عسكرية إلى تلك الجزيرة عام ١٦٠٢. ومن أكثر المصادر إثارة للاهتمام فيما يتعلق بهذه الأحداث مذكرات الأسقف البرتغالي جوفيا الذي أرسل مبعوثاً إلى فارس(٢١).

كانت هناك على الدوام حرب عصابات تشنها العناصر العربية في مواجهة الزحف البرتغالي – الهرمزي بالسيطرة على التجارة المارة عبر الخليج، وقد أفرز هذا الوضع تحالفاً بين البحارة العرب وبين الفرس ضد البرتغاليين. ولكنه لم تقم جبهة عربية موحدة ضد البرتغاليين، فقد كانت قبائل عديدة على استعداد للتعاون مع البرتغاليين ضد العدو المحلي، ولم يكن هذا ما فكّر فيه البرتغاليون وتمنّوه كما جاء في مصادرهم فحسب، وإنما هو مؤكد في كتاب «كشف الغمة». وعلى هذا النحو يحدثنا سيلفا فيجيروا Silva Figueroa (السفير البرتغالي الذي تفاوض مع الفرس حول إعادة البحرين) عن زعيم قبلي عربي من نخيلوه، وهي منطقة تقطنها قبيلة العبيدلي، هرب من هناك واستقر مع بعض أتباعه(٢٢).

ويقدم سيلڤا فيجيروا كذلك صورة متوهجة عن الكيفية التي تعرضت لها القبضة البرتغالية – الهرمزية على المنطقة الواقعة بين جلفار وصحار للتهديد. وفي لحظة سقوط هرمز عام ١٦٢٢ كان هناك تمرد ضد الحكم الهرمزي على معظم هذا الساحل. وطلب العرب المساعدة من فارس، ومنذ ذلك الوقت فصاعداً أصبح العرب موضع خشية مباشرة من جانب البرتغاليين، ومعظم الوثائق البرتغالية التي تدور حول الخليج ترتبط بالدفاع عن الوضع البرتغالي في عمان ضد العرب.

وفي غضون ذلك، كان البريطانيون والفرس قد غزوا هرمز، وهي الموضع الوحيد داخل الخليج الذي كان لا يزال تحت السيطرة البرتغالية. وركز الأوربيون الجدد الداخلون إلى الخليج، الإنكليز والهولنديون، على العلاقات التجارية مع فارس غالباً. ونجد عند بيتر ڤان دين بروك Pieter van den Broecke أقدم إطلالة مثيرة للاهتمام على بندر عباس، المكان الذي قدر له أن يصبح بؤرة الوجود البريطاني والهولندي في الخليج. ومن المثير للاهتمام أن نجد صورة لعمل بالنحت النافر تظهر البراجيل، التي تعد الآن المعلم المميز لدبي(٢٣) ومن أكثر نصوص الرحالة أهمية في ذلك الوقت كتاب الإيطالي بيترو ديللا ڤال Pietro Dell Valle الذي زار فارس عام ١٦٢٢ والذي يتضمن كتابه إشارات مهمة إلى التصدي العربي للبرتغاليين وبصفة خاصة في دبا(٢٤).

وفيما يتعلق بالمصالح العربية، فإن أهم شخصية أوربية في الخليج هي شخصية المسؤول البرتغالي روي فريير دي أندريد Ruy Freire de Andrade، وقد تولى قيادة التحرك البرتغالي المضاد في مواجهة التوسع الفارسي والبريطاني في الخليج الذي ساهم يقيناً في فقدان هرمز. ويعد ضياع هرمز دعم القبضة البرتغالية على ساحل شبه الجزيرة العربية على نحو صارم للغاية. وفي عام ١٦٤٣(٢٥) نشر كتاباً على شكل سيرة ذاتية تتضمن دفاعاً عنه تحت عنوان «تعقيبات روي فريير». ويتضمن هذا الكتاب عدداً من المفارقات، وهو شديد التحيز لروي فريير ولسياسته القائمة على مواصلة إحكام القبضة البرتغالية على عمان عن طريق سلسلة من القلاع الصغيرة تمتد بين جلفار ومسقط وبإبرام تحالف مع

العثمانيين في البصرة والقطيف. وقد تمكن روي فريير في ختام حياته من تحقيق مصالحة بين البرتغاليين والفرس، واستغلت هذه السياسة التحالف بين البرتغاليين والفرس ضد التوسع العربي في عمان والاحساء الذي قدر له أن يميز معظم الفترة الواقعة بين عامي ١٦٣٠ و١٧٢١. غير أن مصالحته مع الفرس منحت البرتغاليين موطىء قدم في فارس، هو بندر كونج، حيث كان لهم الوضع المتميز ذاته الذي حظي به الإنجليز والبرتغاليون في بندر عباس(٢٦). ورغم ما يشوب كتاب «التعقيبات» من تحيز وأخطاء، فإنه صورة مباشرة لما كان يحدث هنا بين أعوام ١٦٢٢ و١٦٣٠، باعتباره كذلك فإنه يعدّ كتاباً فريداً وقيماً للغاية. وقد نشر لوتشيانو كورديرو Luciano Cordeiro وياندري بيسور لينسار(٢٧) Pendurenga Pissur Lencar وثائق برتغالية أخرى تدعم معلومات روي فريير من الأرشيفات البرتغالية وأرشيفات جوا في وقت لاحق. ويمكن الرجوع إلى وصف لنمط القلاع الجديد على نحو ما تمتّ إقامته تحت إشراف روي فريير في «كتاب الدولة». وقد شملت هذه القلاع أماكن مثل كلباء، التي انتزعت من أحد شيوخ القواسم، وهو ما كان سبباً لأول إتيان على ذكرهم في مصدر أوربي(٢٨).

وواجه البرتغاليون صعوبات في الحفاظ على موطىء قدمهم في شبه الجزيرة العربية في ظل ضغط توسع قوة اليعارية في عمان. وفي عام ١٦٣٢ سقطت جلفار في أيدي العمانيين، مما حدا بالهولنديين إلى وضع خطط لتحالف مع العمانيين ضد البرتغاليين ومن المؤسف أن صورة الرحالة الهولنديين عن هذه الفترة لا تحتوي إلا القليل جداً عن هذه الصلة العربية(٢٩).

وأدت الصداقة المتزايدة بين البرتغاليين والفرس إلى فتور في العلاقات الفارسية مع الهولنديين والبريطانيين، ووصلت مجموعات جديدة غريبة من الأوربيين. وكان دوق كيرلاند The Duke of Kurland يؤوي في أراضيه في هولشتين بألمانيا الهولنديين المنفيين الذين كانوا قد هربوا بعد حدوث انقسام في صفوف الكنيسة البروتستانتية في هولندا. وقد خطط هؤلاء المنفيون للسيطرة على تجارة أمستردام (وهو أمر لم يكن واقعياً) وبعث دوق كيرلاند بسفارة إلى فارس استقبلت استقبالاً طيباً، وأسفرت عن بعض صور

الرحالة الشهيرة(٣٠). وغضب الهولنديون من الفرس، وعندما لم يحصلوا على ما يرضيهم قرروا استخدام العنف لإجبار الفرس على تنفيذ ما يودونه. كما بحثوا كذلك سبل تحويل مصالحهم الخليجية بعيداً عن بندر عباس. وكانت النتائج هجوماً هولندياً على جزيرة قشم وحصاراً لبندر عباس وتحريات عن إمكانيات قيام تجارة هولندية مع البصرة (حيث كان الإنجليز يعملون منذ عام ١٦٣٨) والبحرين وساحل عمان. وعن هذه الفترة وحدها بقيت الأرشيفات الخاصة لمسؤول هولندي رفيع المستوى انخرط في هذه الأمور ذات قيمة كبرى. وأنجزت الحملات الهولندية أولى الخرائط التي توضح جزراً، مثل سرى، وأبو موسى وطنب الكبرى، وطنب الصغرى وطريق الملاحة الصعب وصولاً إلى البصرة. وتعد سجلات السفن الخاصة بالبعثة الهولندية إلى البصرة أول وصف مؤكد لخطوط الحدود في منطقة الخليج، لأنها تصف بشكل دقيق كيفية امتداد الحدود بين فارس والبصرة العثمانية. وكانت مساحة كبيرة داخلة في فارس الآن تعدّ وقتذاك أرضاً عثمانية(٣١).

وهناك جانب مثير للاهتمام في العلاقات العربية الخاصة بهذه البعثة في كتاب تافرنييه Tavernier وهو رحالة فرنسي كان هناك، في ذلك الوقت. ويقول تافرنييه إن الأمراء العرب من شبه الجزيرة العربية قد زاروا جلينشن دي جونج Geleynssen de Jongh الذي كان قد استقر في الحصن الواقع على جزيرة لارك، واقترحوا عليه خطة لتجنب عرقلة البرتغاليين لتجارة البلاد عبر الخليج، بسلوك طريق بري يجتاز منطقة ما في الإمارات(٣٢). ويصادف هذا بالمناسبة مع بقاء مسودة معاهدة بين البريطانيين وإمام عمان في صحار في العام نفسه، أي ١٦٤٥(٣٣).

وفي غضون ذلك تعرض البرتغاليون للمزيد من الضغط من العرب في عمان. وكان خط روي فريير من الحصون الصغيرة التي يضم كل منها ٢٥ جندياً شيئاً لا سبيل للدفاع عنه. وقد منيت محاولة سجلت في أرشيفات روما لاستقرار لاجئين من الصابئة من الخليج الأعلى في منطقة دبا بالإخفاق على نحو بائس(٣٤). وبالنسبة للسقوط النهائي للبرتغاليين لدينا مجموعة مفصلة على نحو استثنائي من وثائق عام ١٦٤٨ في الأرشيفات البرتغالية. وهذه

الوثائق ليست كاشفة لجوهر الأمر على الإطلاق لأنها تعكس المناقشات فيما بين البرتغاليين حول الطريقة التي ينبغي بها الحفاظ على وجودهم في عمان. وقد فقدوا العديد من الحصون. وتمّ اقتراح تسوية يتخلى البرتغاليون وفقاً لها عن دبا مقابل الاعتراف بحكمهم لمسقط. غير أن الاتفاقية التي تولى التفاوض عليها عن الجانب العربي شيخ القواسم وصلت إلى طريق مسدود، واستمرت الحرب، وسيطر العرب على مسقط في نهاية عام ١٦٥٠ وهو الحدث الذي لدينا، فيما يتعلق به أكثر الشهادات مباشرة، من جانب راهب كاثوليكي في عمان، وهي محفوظة في أرشيفات الدعوة الإيمانية في روما(٣٥).

مرحلة ١٦٥٠ - ١٦٩٥

لا يزال لدينا، فيما يتعلق بالأحداث التي أعقبت سقوط مسقط مباشرة، تقرير بعثة تجارية هولندية أرسلت لاستطلاع الموقف في مسقط، وقد عادت على الفور، لأن المكان أصبح فقيراً وبائساً للغاية. ومن الجانب البرتغالي كانت هناك أمور مثيرة للاهتمام منها: محاولة لإحلال مؤسسة في خصب محل مسقط (أفضل ما لدينا فيما يتعلق بهذا تقرير كتبه راهب كاثوليكي محفوظ في أرشيفات الدعوة الإيمانية في روما) وخطة لاغتيال الإمام على يد رجال قبائل تربطهم علاقات ودية بالبرتغاليين(٣٦). وفي الوقت نفسه كانت شركة الهند الشرقية الهولندية تخطط لإقامة محلات تجارية مع جلفار والبحرين(٣٧).

غير أن الدول الأوروبية لم تكرس الكثير من الطاقة في الخليج، في ذلك الوقت، إذ غالباً ما كانت تشغلها مشكلات في مناطق أخرى. وكان المندوب البريطاني رينزفورد Rainsford يتفاوض مع العمانيين عام ١٦٥٧ حول فتح مؤسسة بريطانية في إحدى حصون مسقط. ولدى وفاة رينزفورد لم يكن هذا قد أسفر عن شيء. ومعظم هذه الأمور لا نعرفها إلا من خلال ملاحظات عابرة ترد في تقارير هولندية وبريطانية عامة(٣٨).

وهناك كذلك شهود أوربيون على أحداث مهمة وقعت في البصرة. وقد أصبحت هذه الولاية مستقلة بصورة عملية، عندما أحرزت أسرة عربية، هي

أسرة أفراسياب، في السنوات الأولى من القرن السابع عشر منصب باشا البصرة، وتوارثه أبناؤها، واحتفظوا به بدعم من روي فريير في مواجهة الفرس وحلفائهم عرب الحويزة(٣٩). وبعد عام ١٦٥٠ فرض ضغط مكثف من الحكومة المركزية العثمانية، وفي نهاية المطاف نفيت أسرة افراسياب. وهناك روايات شهود عيان، في يوميات مكتب البصرة التابع لشركة الهند الشرقية الهولندية في البصرة قدر لها البقاء في الأرشيفات الهولندية(٤٠).

ودفعت مراسلات ودية بين إمام عمان والهولنديين هؤلاء الأخيرين للنظر مجدداً في إمكانيات جعل مسقط مركزاً لتجارتهم(٤١). وأفرز هذا الوضع بعض الوثائق الهولندية المتصلة المحدودة، وهناك تقرير تفصيلي حول استكشاف الساحل فيما بين خصب ومسقط سنة ١٦٦٦(٤٢). بل إن هناك وصفاً أكثر تفصيلاً لعمان يضم ملاحظات مثيرة للاهتمام، تظهر التوترات الكاملة في بنية الدولة القبلية، وكذلك الموقف القائم على المساواة الذي ساد في دولة قبلية عربية، وكان أكثر اجتذاباً لهم من الموقف السياسي في فارس، التي كانت تُعدُّ نظاماً يقوم على الطغيان السافر(٤٣). ويوضح التقرير كذلك أن التجارة الدولية كانت تتطور في مسقط. وهناك تقرير عن المفاوضات الهولندية مع عمان في عامين ١٦٧٢ – ١٦٧٣، يفصح عن مشاعر متضاربة: ذهن متفتح، بل إعجاب بالدين وطريقة الحياة الإسلاميين، ولكن مع خيبة أمل إزاء استحالة الوصول إلى اتفاق تجاري مقبول للهولنديين. ولم تستمر المؤسسة الهولندية في مسقط إلا سنوات قلائل، وقد تمّ القيام بقليل من التجارة، ولكن ليس على النحو الذي يرضي السلطات الهولندية العليا، التي قررت في نهاية المطاف إغلاق المؤسسة.

ونشر بعض الرحالة الهولنديين الذين زاروا مسقط زيارة عارضة، نشروا كتابات عن الخليج، ويحتوي كتاب المغامر يان ستريس Jan Struys الذي زار الخليج سنة ١٦٧٢ على صور رائعة لمسقط وبندر عباس. بينما يدور كتاب الجراح نيكولاوس دي غراف Nicolaus de Graaff حول رحلة في

العام نفسه ويتضمن وصفاً لمدينة البصرة ومخططاً لها. ويعدّ كتاب دي غراف كذلك أول كتاب أوربي مطبوع يرد فيه ذكر جزيرة طنب(٤٤).

ولا تحتوي السلاسل المتوالية من التقارير الهولندية والبريطانية التي تعود إلى تلك الفترة على الكثير فيما يتعلق بالشؤون العربية للخليج، باستثناء الإشارات المتوالية إلى الحروب البحرية بين العمانيين والبرتغاليين. وقد واصل البرتغاليون الوجود في الخليج من خلال مؤسستهم التجارية في بندر كونج. وكانوا لا يزالون يتلقون مدفوعات من الحكومة العثمانية للبصرة لقاء حماية القافلة السنوية من السفن إلى البصرة(٤٥). غير أن التوثيق البرتغالي يقتصر الآن كليةً تقريباً على إشارات قصيرة محدودة، وغالباً ما تدور حول العمليات الحربية التي دارت بينهم وبين العمانيين.

وفي غضون ذلك، هناك مصادر فرنسية محدودة تقدم بعض التفاصيل الجديدة، وقد قام الفرنسيون بتوجيه من الوزير كولبير Colbert بمحاولة لاحتلال موطىء قدم في فارس. وكانت المحاولة أخفقت إخفاقاً محزناً للغاية، ولكن عملية جمع المعلومات التي سبقتها وواكبتها تعدّ مصدراً بالغ الأهمية لمعرفتنا بالوضع العربي. وقد قام الرحالة الفرنسيون مثل تافرنييه Tavernier وجان دي تيڤنو Jean de Thevenot، وبصفة خاصة بارتلمي كاريه Barthelemy Carré بزيارة عدد من الأماكن الصغيرة(٤٦). ويصور كاريه كيف أصبحت المدن العربية على الساحل الفارسي مستقلة منذ إعدام الإمام قولي خان. يعتبر كاريه هو أول من حدثنا بالتفصيل عن صراع القبائل العربية المنتمية إلى الخليج الأعلى والخليج الأدنى حول السيطرة على مغاصات لؤلؤ البحرين. وهذا الموضوع الأخير عنصر كامن بالغ الأهمية في التاريخ العربي في الخليج، ونجد أصداء له على نحو متكرر في المصادر الأخرى. وتعدّ المعلومات الفرنسية، بشكل عام، مما يمكن الاعتماد عليه، وذلك على الرغم من وجود بعض نقاط الضعف التي تعود إلى الحقيقة القائلة بأن هؤلاء الرحالة كانوا مجرد عابرين، هذا على الرغم من أن هذه المصادر الفرنسية تتسم على نحو يمكن فهمه بتميز قوي ضد الهولنديين.

اتبع العمانيون منذ عام ١٦٥٠ سياسة دائبة لم تشبها إلا انقطاعات محدودة، تقوم على قطع الأواصر التجارية البرتغالية بين الهند وبندر كونج والبصرة، وترسيخ نفوذهم في شرقي أفريقيا. وقد وصلت هذه السياسة إلى ذروتها في هجمات متزامنة على ممباسة وعلى المؤسسة التجارية البرتغالية في بندر كونج في عام ١٦٩٥(٤٧). وقد سبّب هذا الهجوم الأخير مواجهة مباشرة بين عمان وفارس. وعلى امتداد وقت طويل توالت سلسلة من المحاولات الفارسية لدفع قوة أوربية ما لغزو مسقط لحساب الفرس، لكن هذه السياسة، التي يرد ذكرها في العديد من الوثائق البرتغالية والبريطانية والهولندية لم يكن لها تأثير عملي. وزاد الضغط الفارسي على الأوربيين عندما قام العمانيون (وأحد القائدين اللذين تزعما القوة العمانية كان الشيخ رحمة القاسمي الذي سنلقاه مجدداً مرات عديدة في تاريخ الخليج) باحتلال البحرين وقشم ولارك ومحاصرة هرمز(٤٨). ويمكن العثور على الكثير من التفاصيل وسط المذكرات والأوراق الخاصة بالمبعوث الهولندي إلى فارس(٤٩). وقد كان البرتغاليون وحدهم على استعداد لمساعدة الفرس، ولكن الأسطول البرتغالي لم يستطع إحراز نصر في معركة بحرية وقعت قرب جلفار (الوثائق البرتغالية هي وحدها التي تزعم إحراز نصر، وتقرر المصادر الهولندية والبريطانية أن البرتغاليين تراجعوا دون إحراز شيء)(٥٠). وفي نهاية المطاف حقق العمانيون هدفهم وتخلى البرتغاليون عن مؤسستهم في بندر كونج، موطيء القدم الأخير لهم في الخليج، ودفع الفرس مبلغاً طائلاً مقابل إنهاء العمانيين إحتلالهم لبعض الجزر الفارسية(٥١). وهناك نقطة مهمة، مفادها أن تقريراً هولندياً ذكر أن القبائل العربية على الساحل الفارسي قد أيدت العمانيين(٥٢).

وفي الوقت نفسه كانت هناك مشكلات خطيرة في البصرة، حيث تعرض العثمانيون لضغط قوي من القبائل العربية المحيطة بها. وربما كان من أسباب ضعف دفاع البصرة الفقر الذي تعرضت له من خلال انقطاع الصلات التجارية

التقليدية بسبب الحرب الناشبة في الخليج، على الرغم من أن معظم معلوماتنا عن الأحداث في منطقة البصرة تأتي من مصادر غير مرتبطة بهذا الموضوع (ويشكل جزئي من الممثلين الأوربيين الدبلوماسيين والقناصل في الامبراطورية العثمانية) لا تضع المشكلات هناك حقاً في سياق أوسع نطاقاً(٥٣). غير أنه مع اختفاء البرتغاليين من الخليج انتهت كذلك قوافل الشحن بالسفن السنوية التي كانوا يحمونها من الهند إلى البصرة، وستحل محلها حركة الشحن الجوجاراتية والعربية. ويبدو من ناحية أخرى أن جلفار أصبحت مركزاً تجارياً مهماً تماماً، وهو أمر أشارت إليه احدى الوثائق الهولندية(٥٤).

الحرب الأهلية العمانية : ١٧٢١ - ١٧٤٧

لم تجلب معاهدة السلام التي أبرمت بين عمان وفارس عام ١٧٢١ حالة من الاستقرار إلى الخليج. فقد انهار النظام الصفوي في فارس تحت وطأة الهجوم الأفغاني، ولكن الشاه الأفغاني الجديد في أصفهان عجز عن مدّ سيطرته إلى ساحل الخليج، حيث رفضت حاميات بندر عباس وقشم وهرمز (وهي القوات النظامية الوحيدة للفرس على الخليج)، الاعتراف بالحكم الأفغاني. وركز التجار العرب من بندر كونج وجلفار على مدينة تجارية مستقلة جديدة في بسيدو في بندر كونج. وهددت هذه المدينة الجديدة المزدهرة أرباح المؤسسة البريطانية في بندر عباس، ولذا حاول البريطانيون، عبثاً، وضع حدّ لها(٥٥). وابتداء من هذا الوقت نجد الكثير من تفاصيل الأحداث في الخليج في يوميات بندر عباس البريطانية والهولندية(٥٦).

وقررت حامية هرمز الصفوية المعزولة، التي لم تتلق رواتبها أن تبيع هذا الحصن لمن يدفع أعلى ثمن لها، وقد كان الشيخ رحمة القاسمي، أمير جلفار، أحد المتقدمين في هذا المجال، ولكن الهولنديين الذين كانت لديهم أموال أكثر كتب لهم الفوز. وقد سبب هذا انزعاجاً للأفغانيين، الذين سارعوا بإرسال جيش على عجل. وحدثت صدامات مع الهولنديين، الذين وافقوا في نهاية المطاف على أن يسلموا هرمز للأفغانيين. وقد أجرى المفاوضات شيخ عربي، هو جبارة

الطاهري، الذي حصل من الأفغان على جزيرة البحرين مكافأة له(٥٧). غير أن الأفغان لم يستطيعوا الصمود، وقام بطردهم القائد العسكري المطالب بالعرش الصفوي قولي خان، الذي ظفر بالعرش لنفسه تحت اسم نادر شاه.

واستأنف نادر شاه الطموحات الصفوية القديمة في الإطباق على الطرق التجارية عبر الخليج إلى البصرة. ومني هجوم على العراق بالهزيمة، وحاول نادر شاه عقب ذلك أن يكسر الصلة التجارية من الجانب الآخر، فاحتلت القوات الفارسية البحرين، وانتهزت مناسبة احتدام الحرب الأهلية العمانية للتدخل والسيطرة على عمان.

والمصدر الوصفي المفصل الوحيد للأحداث في الخليج والموقف فيه، خلال ذلك الوقت هو كتاب جان أوتيه Jean Otter، وهو سويدي عمل قنصلاً لفرنسا في البصرة(٥٨). وهو مصدر تفصيلي، ولكن المؤلف يختلط عليه الأمر في غمار تعدد القبائل. غير أنه من الممكن تماماً إعادة تركيب الأحداث من اليوميات البريطانية ومن اليوميات والتقارير ومحتويات المغلفات الخاصة بالمؤسسات الهولندية في بندر عباس والبصرة. وتغطي هذه المصادر الهولندية والبريطانية ثغرات كل منها الأخرى وتقدم صورة على شكل شذرات، ومع ذلك يعتمد عليه لما حدث(٥٩).

وقد احتاج الفرس للقيام بعملياتهم في جلفار إلى المساعدة اللوجستية من حركة النقل بالسفن الأوربية. ولم يمل الأوربيون إلى هذه الخطة، ولكنهم تعرضوا لضغط قوي، وفي النهاية قدموا سفنهم برغم عدم رضائهم عن الوضع. وكان من النتائج المترتبة على ذلك اهتمام الأوربيين البالغ بهذه العمليات، وأن الوثائق البريطانية والهولندية تتضمن العديد من التفاصيل، التي غالباً ما تطرح على نحو مناوىء للفرس. وقد احتلت القوات الفارسية جلفار وأسرت الشيخ رحمة القاسمي. وانتهى أول هجوم على مسقط بالهزيمة، الأمر الذي أسعد الهولنديين كثيراً. أما البريطانيون، الذين لم يقدموا السفن فحسب، بل والعون العسكري المباشر، فقد كانوا أقل ابتهاجاً.

وتواصل التقارير واليوميات البريطانية والهولندية تقديم إشارات عجلى تمكننا من تتبع الأحداث، فقد بنى الفرس صرحاً بحرياً من سفن حصلوا عليها

من البريطانيين، ومن الهند، ومن انهيار بسيدو. وكان على متن هذه السفن رجال قبائل عربية عوملوا أسوأ معاملة. وأعقب ذلك نشوب تمرد عام، وسقطت معظم السفن الفارسية في أيدي رجال القبائل العرب، وخاصة في أيدي آل العلي وبني معين. ولم تبرهن هذه القبائل على قدرتها على التعاون، فقد تحطمت سفينة آل العلي، وتصالح بنو معينٍ مع الفرس في نهاية المطاف. وقام الفرس بشراء المزيد من السفن، وتمكنوا أخيراً من الاستيلاء على مسقط. وبرهنت صحار على صعوبة الإيقاع بها، ولم يستطع الفرس إنجاز ما هو أفضل من الوصول إلى حل وسط من خلال التفاوض مع أميرها أحمد بن سعيد(٦٠).

وعندما اغتيل نادر شاه عام ١٧٤٧ كان عرب ساحل جنوبي فارس في حالة انتفاضة عامة بالفعل، وكان الجيش السيء الإمداد في عمان في حالة تمرد(٦١). ومما يؤسف له بالنسبة للمؤرخ أن الفوضى في جنوبي فارس قد دفعت الهولنديين إلى تقليص أنشطتهم إلى الحد الأدنى. وعلى الصعيد العملي فإن المصدر الوحيد الباقي، باستثناء بعض التقارير الهولندية الموجزة، هو يوميات جومبرون البريطانية.

مرحلة سيطرة الدول القبلية بعد عام ١٧٤٧

أدى انحسار الاهتمام الأوربي بالمنطقة إلى نقص عدد الوثائق المتعلقة بها. ولا يمكن إعادة تصور الأحداث المهمة في منطقة جلفار وعمان إلا من إشارات عابرة محدودة، وربما من صورة تصطبغ بانطباعات شخصية إلى حدٍ ما كتبها بعد حوالي عشرين عاماً الرحالة الهولندي نايبور(٦٢).

وكانت هناك قوتان عربيتان لا تزالان موجودتين، عندما انحل الجيش الفارسي في عمان. ففي جلفار أفلح الشيخ رحمة القاسمي في استعادة قوته السابقة، وشكّل دولة قبلية مستقلة حول جلفار. وفي عمان وضع أحمد بن سعيد يده على مسقط – ولسنا ندري إلى أي حد تمثل الحقيقة تلك القصة التصويرية التي قدمها نايبور للأحداث – واعترفت القبائل به بوصفه إماماً جديداً. وعلى الساحل الفارسي لم تتم تهدئة العرب إلا من خلال المفاوضات وبعض الضغط. وكانت قاعدة قوتهم سليمة لم تمس، واستطاع بعضهم الاستيلاء على سفن

البحرية الفارسية السابقة. وكانت العمارة البحرية الفارسية لبندر عباس والمرفأ نفسه تحت سيطرة الملا علي شاه. وهو عربي (وربما طاهري) على الرغم من كونه من الناحية الفنية مسؤولاً فارسياً، إلا أنه تصرف بوصفه أحد حكام الخليج العرب المستقلين. غير أن مشكلة الملا علي شاه تمثلت في أنه لم يكن رئيس قبيلة، وإنما كان القائم على أمر عدد محدود من القلاع والسفن، ولم تكن له قوة بشرية يمكن الاعتماد عليها، فتهاوى نفوذه(٦٣).

ثم أعقب ذلك مسلسل معقد من الأحداث، سجل في اليوميات البريطانية في جومبرون، وكذلك في الوثائق الهولندية. وكان الهولنديون يؤيدون إلى حدٍ كبير الملا علي شاه وحلفاءه من القواسم، بينما كان البريطانيون أكثر تعاطفاً مع بني معين من قشم وهرمز لاحقاً، الذين كانوا يتعاونون مع الزعيم العسكري الإيراني في المنطقة. وفي الخليج الأعلى كان كريم خان زند قد أفلح في استعادة بعض السيطرة، على الرغم من أن الشيوخ العرب، حتى هناك، كانوا يفعلون ما يطيب لهم. وفي الخليج الأدنى، كان نفوذ ناصر خان – وهو أحد الزعماء العسكريين وكان يسيطر على لارستان – يحظى بدعم قبيلة بني معين القوية من قشم، ولكنه كان في نزاع مع عرب جلفار الذين كانوا يحرزون موطىء قدم في جنوبي فارس، والذين كانوا في تحالف مع الملا علي شاه.

وقد ركز المراقبون الأوربيون، في هذه المرحلة، على الأحداث القبلية العربية، ولكن مما يؤسف له (عند المؤرخ) أن الموقف العام في الخليج اتسم بالفوضى والاضطراب إلى درجة انه أهمل من قبل (الباحثين والمؤرخين) وكانت المنشأة الهولندية في بندر عباس قد تقلصت، وغادر القائمون عليها البصرة بعد نزاع مع الحكومة العثمانية المحلية. وكان كبير قبيلة زعاب – وهي قبيلة من شبه الجزيرة العربية – سيطرت على بندر ريج وجزيرة خرج، قد عرضت خرج على الهولنديين، فقاموا ببناء منشأة محصنة هناك، قدر لها أن تصبح في تصورهم الايديولوجي ميناءً حراً للجميع في ظل الحماية القوية من جانب شركة الهند الشرقية الهولندية(٦٤).

كان كنيبهاوزن المقيم الأول (الحاكم) الهولندي لخرج نبيلاً مغامراً، تأثر تأثراً عميقاً بأفكار القرن الثامن عشر المستنيرة، ومن هنا جاءت دعوته للتجارة

الحرة وتعاطفه الصريح مع أسلوب الحياة الأكثر ديمقراطية الذي تتبعه القبائل العربية. وقدر له أن يكون أول من كتب وصفاً كاملاً لقبائل الخليج العربية. وقدم بالفعل مشروعاً للاحتلال الهولندي للبحرين، احتوى معلومات مفصلة للغاية حول الموقف في الخليج(٦٥). وينبغي قراءة تقريره العام عن القبائل العربية مع الوعي بوجود مقصد خفي فيه، وهو إيضاح أن العرب شعب طيب، وأفضل من العثمانيين والفرس، وأنهم يتبنون موقفاً ودياً تجاه الهولنديين، ولكنهم لا يملكون قوة عسكرية كبيرة، وأنه إذا بدأ الهولنديون مغامرة عسكرية ما فليس لديهم ما يخشونه من القبائل المنقسمة انقساماً شديداً. ويتضمن التقرير وصفاً للخليج بأسره، يأتي على ذكر كل الأماكن الساحلية تقريباً، ومدى سعتها، والقبائل المقيمة فيها، وهو يشدد بقوة على روح الاستقلال لدى العرب، وهذه الرؤية المؤيدة للحرية التي تعود للقرن الثامن عشر تنتمي في تواصل مباشر إلى صورة العربي النبيل المرسومة بالفعل في القرن السابع عشر بقلم لوران دي أرفيو Laurent d' Arvieux (٦٦). وكنيبهاوزن رجل ذكي ومطّلع، فهو يكتب اسم القواسم على هذا النحو "Qwassum" وهو ما يبدو واضحاً معه أن هذا الرسم للاسم مستمد من نص عربي مكتوب، وليس كالرسم الإنجليزي المستمد من الصوتيات "Jowasmee". وفي الصراع الناشب بين القواسم والبوسعيديين نجده يأخذ جانب القواسم.

ولم يحرز كنيبهاوزن الكثير من النجاح في هذه المبادرة وغيرها من المبادرات، إذ أرادت أغلبية المجلس الحاكم لشركة الهند الشرقية الهولندية الحد من النشاط الهولندي في الخليج وصولاً إلى التجارة. وتقلص ميناء خرج الحر بعد النجاح الأولي. وقد شهد بعض الازدهار بكونه ميناءً محايداً خلال حرب السنوات السبع ١٧٥٦ – ١٧٦٣، ثم أصبح مشروعاً غير اقتصادي. وتورط الهولنديون كذلك في الصراعات القبلية التي كانت نتيجة لعجز كريم خان زند عن فرض سلطته على سواحل الخليج بحزم أكبر. ويقدم حكام خرج الهولنديون في تقاريرهم صورة مثيرة للاهتمام وموضوعية للغاية عن الفوضى الضاربة الأطناب في المنطقة، تدعمها يوميات بريطانية مكتوبة في البصرة ومحفوظة في أرشيفات بومباي.

وهناك صورة مثيرة للاهتمام لخرج الهولندية في روايات الرحالة الأوربيين وتقاريرهم. ومن النصوص الشهيرة كتاب الجراح الإنجليزي أفيز (Ives) الذي سجل علاقات كنيبهاوزن مع شيخ الكويت، وكذلك خططه الخاصة باستخدام التقنية الحديثة في الغوص على اللؤلؤ وقائمة بالكتب طلبها كنيبهاوزن توضح اهتمام الرجل بالفلسفة الأوربية المعاصرة(٦٧) غير أنه يتعين ذكر الحقيقة القائلة بأن خوف البريطانيين، على وجه العموم، من سيطرة هولندية على الخليج دفعهم إلى أفكار خيالية حول الخطط الهولندية. وكل هذه الآراء بولغ فيها إلى حدٍ بعيد، فالخطط الهولندية المتعلقة بخرج كانت محدودة للغاية، وبالتأكيد لم تتضمن خططاً لاستقرار صينيين في الجزيرة كما كان البريطانيون يخشون. وكان صحيحاً أن خططاً قد وضعت لتجنيد جنود عرب في الخليج لاستخدامهم قراصنة في مناطق أخرى في آسيا، ولكن هذا لم يسفر عن الكثير.

ولم تصل المغامرة الهولندية في جزيرة خرج إلى شيء، فالميناء الحر لم يدر دخلاً كافياً، والتجارة مع فارس تقلصت في ستينات القرن الثامن عشر. وكانت الأرباح العائدة من خرج غير كافية لتغطية نفقات احتلال الجزيرة، وقررت السلطات العليا في الشركة إخلاء الجزيرة. وقبل التمكن من وضع هذا القرار موضع التنفيذ كان حاكم خرج قد تورط في الصراعات المحلية، ولم يجد طريقة لحماية المصالح التجارية إلا بالتحالف مع الفرس، وعندئذٍ غزا الجزيرة الأمير مهنا، زعيم قبيلة زعاب، الذي كان في حالة حرب مع الفرس، لكنه تصرف عموماً بشكلٍ نبيل نحو الهولنديين، الذين تركهم أحراراً ليمضوا إلى بوشهر(٦٨).

وفي عام ١٧٦٧ حمل نبأ سقوط خرج، إلى القنصل الهولندي في حلب، الرحالة الهولندي كارستن نايبور Carsten Niebuhr الذي كان آخر الناجين من البعثة الهولندية العلمية إلى شبه الجزيرة العربية(٦٩). وكان نايبور قد زار خرج الهولندية ومن هناك، وكذلك من المسؤولين البريطانيين عن الخليج جمع الكثير من المعلومات، التي سجلها في كتب نشرت عام ١٧٧٢. ويوضح وصفه للوضع القبلي في الخليج بجلاء وجود مصدر مشترك للمعلومات مع

تقرير كنيبهاوزن، ويبدو أنه قد استمد حقائقه مع بعض الخبراء الهولنديين في خرج، غير أن هناك أموراً يفتقر إليها تقرير كنيبهاوزن، ومنها على سبيل المثال الإتيان على ذكر موقف بني ياس. وتنبغي الإشارة إلى أن المرء يتعين عليه، فيما يتعلق بدراسة نايبور، أن يستخدم الأصل الألماني أو الترجمات الهولندية أو الفرنسية. والترجمة الإنكليزية هي صياغة موجزة، تفتقر إلى تفاصيل مهمة تتعلق بقبائل الخليج.

وموقف نايبور هو موقف مراقب محايد، غير أن اعتماده على معلومات مستقاة من أناس هولنديين وبريطانيين كانوا منغمسين للغاية في الأحداث يشير إلى أنه اكتسب تحيزاً معيناً. ومن المؤكد أن هذا هو الصواب في وصفه للأمير مهنا، الذي يتم تصويره في الوثائق الهولندية المنقولة من خرج بشكل موضوعي للغاية وخال من الانفعال، ولكنه يوصف في بعض الوثائق البريطانية بأنه شيطان. وقد استخدم نايبور، فيما يبدو، معلومات بريطانية في وصفه لزعيم قبيلة زعاب.

غادر الهولنديون الخليج ذاته، على الرغم من أنهم ظلوا سنوات طويلة على صلات تجارية مع مسقط. ولا تزال الأرشيفات الهولندية تضم مصادر مثيرة للاهتمام حول مسقط للسنوات اللاحقة. وغدا البريطانيون فيما بعد القوة الأوربية الرئيسية في الخليج. وكانوا في بوشهر وكذلك في البصرة. وحاولوا في البصرة مساعدة العثمانيين ضد قبيلة كعب، التي كانت تحارب العثمانيين وعرب الخليج الأدنى. ولم تؤد البعثة العسكرية البريطانية إلى البصرة عام ١٧٦٥ إلى نتائج دائمة (باستثناء رسمهم لبعض الخرائط الجيدة). وعندما قام كريم خان بمهاجمة البصرة عام ١٧٧٤ – ١٧٧٥ غادروا إلى الكويت، حيث مكثوا هناك إلى أن عادوا إلى البصرة عام ١٧٧٦. وكان لا يزال هناك بعض الوجود الفرنسي في البصرة. وبالنسبة للمؤرخ فإن المصادر الوحيدة الباقية هي الأوراق البريطانية، وبصفة رئيسية من مقر بوشهر، ولكن يومياتهم في البصرة موجودة كذلك، وهي محفوظة في أرشيفات بومباي. ويمكن العثور على وجهة نظر أخرى في المراسلات

الفرنسية من البصرة(٧٠). وهناك كذلك بعض روايات الرحالة المطبوعة التي تعود إلى تلك الفترة، مثل الروايات التي كتب بارسونز Parsons أكثرها تفصيلاً، والتي يتعين التزام الحذر في استخدامها، فهي قد نشرت بعد سنوات عديدة، أي عام ١٨٠٨ ومن شأن المقارنة مع يوميات البصرة العائدة إلى الوقت الذي كان بارسونز موجوداً خلاله بها أن تظهر بعض الأخطاء(٧١).

وكانت المعلومات في الوثائق الأوربية تتقلص بصورة تدريجية كماً وكيفاً. فبعد أن غادر البريطانيون بندر عباس عام ١٧٦٢ لم تعد هناك يوميات جومبرون بريطانية، ويوميات البصرة متناثرة، والسجلات البريطانية المعاصرة الوحيدة في الخليج هي الرسائل المدرجة في سجلات مصنع بوشهر، التي لا تقدم إلا صورة متفرقة وغير مكتملة. وتحتوي تقارير البصرة الفرنسية بعض المعلومات، ولكنها لا تضم الكثير من المعلومات عن عرب الخليج. ونحن نعتمد إلى حدٍ كبير على الإشارات المتباعدة في سجلات مصنع بوشهر لتغطية أحداث أواخر سبعينات القرن الثامن عشر وثمانيناته. ومنها نعلم بصورة شاملة كيف أنه بعد وفاة كريم خان، وبينما انهارت السلطة المركزية في فارس مجدداً، وضع عتوب الكويت حداً لحكم حليف فارس، شيخ بوشهر، للبحرين، وأن هذا فجَّر صراعاً عنيفاً بين القواسم وحلفائهم وبين العتوب، حول السيطرة على مغاصات اللؤلؤ(٧٢). وفي الوقت نفسه واصل القواسم خوض غمار المتاعب مع العمانيين، الذين كانوا يحرزون موطىء قدم في جنوبي فارس. وكانت النتيجة ركوداً في نمو دولة القواسم بوصفها قوة اقتصادية كبرى في الخليج، وهو النمو الذي كان ملحوظاً في السنوات التي أعقبت عام ١٧٤٧. والآن غدت هناك ثلاثة عناصر عربية رئيسية في الخليج: العتوب بين الكويت والبحرين، القواسم في معظم أرجاء الخليج الأدنى، وعمان التي شرعت في السيطرة على مضيق هرمز. وأصبحت المعلومات الأوربية عن أحداث الخليج أحادية في طابعها البريطاني، وتركزت بشكل متزايد على المخاوف البريطانية من قطع الطريق البري إلى الهند(٧٣). وكان هذا هو الموقف في حوالي عام ١٨٠٠ وهو العام الذي تنتهي عنده دراستنا.

على امتداد وقت طويل لم تجر اتصالات مباشرة بين العرب والأوربيون، وتركز اهتمام البريطانيين والهولنديين، إلى حدٍ بعيد، على التجارة مع فارس. وتمثل الاستثناء في البرتغاليين، الذين كانوا لا يزالون في عمان، والذين حاولوا الاحتفاظ بوضعهم من خلال إثارة الانقسامات القبلية، وهكذا توثقت صلاتهم مع العرب بشكل مباشر.

وبالطبع فإن اختيار الحقائق المجردة التي تتحدث عنها تقارير الأمم الأخرى، يعدّ عملية تشوب موضوعيتها الشوائب، فالكتابة تقتضي وقتاً، والورق يكلف مالاً، وهكذا فإنه لا يتم الإتيان إلا على أحداث لها بعض الصلة بالصالح الوطني. وفي حقيقة الأمر فإن المراقبين في مكان الأحداث كانوا يعرفون أكثر بكثير مما يذكرونه. وعندما كتب كنيبهاوزن وصفاً للقبائل في الخليج، فإن معظم المعلومات التي تضمنها وصفه ليست في السلسلة الراهنة من التقارير الهولندية عن الأحداث.

وعلى وجه التقريب فإن العرب الوحيدين الذين تعامل معهم الأوربيين بعد عام ١٦٥٠ كانوا هم العمانيون. وفي ضوء الوضع السائد في القرن السابع عشر فإن العمانيين كانوا بالنسبة للهولنديين، وبدرجة أقل بالنسبة للبريطانيين، قوة صديقة. والملاحظات المتعلقة بالعمانيين مكتوبة بصفة عامة من موقف ودي. وبالنسبة للهولنديين لم يتغير هذا الوضع، فالضغوط الفارسية على الهولنديين لمساعدة الفرس ضد العرب لم تؤد عادة إلا إلى زيادة المشاعر غير الودية نحو فارس.

غير أن الفوضى المتفاقمة في الخليج دفعت الأوربيين إلى التخوف على سلامة حركة ملاحتهم، وكان الإنجليز هم الذين عانوا أكثر من غيرهم،

فالسفن الصغيرة المملوكة للتجار الذين يعملون لحسابهم كان من الممكن بيسر أن تصبح ضحايا للقراصنة وسفنهم أكثر مما يمكن أن يحدث للسفن العملاقة التي تملكها شركة الهند الشرقية الهولندية. غير أن الهولنديين عانوا بدورهم، من خلال مزوديهم العرب المحليين من الصراعات القبلية. ودفع هذا الوضع البريطانيين إلى اتخاذ موقف أكثر عداء نحو القبائل العربية في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر.

وكان للفرنسيين نصيب أقل أهمية في هذه الأمور. فهم قد بدأوا بخطط للتحالف مع الفرس ضد الهولنديين، بل ودخلوا في صراع مباشر مع عمان(٧٤). وخلال العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر قاموا بمحاولات قليلة تنقصها الحماسة للتعاون مع العمانيين ضد الإنجليز. وكان المراقبون من الدول الأخرى هم أساساً من اللامنتمين، ولكنهم مالوا إلى أن يعكسوا وجهات نظر ممثلي القوى الأوربية المقيمين في الخليج، والذين ساعدوهم في رحلاتهم وإقامتهم في المنطقة.

وبشكل عام، فإن عرب الخليج يوصفون في التقارير الأوربية كما لو كانوا رفاقاً أوربيين، فهم لا منتمون في إطار هيكل القوى المؤلف من الإمبراطورية العثمانية وفارس. وهم بوصفهم كذلك كانوا من الممكن بمحض الصدفة أن يصبحوا أعداء. ولكن عموماً نظرت القوى الأوربية الرئيسية في القرنين السابع عشر والثامن عشر إلى العرب بوصفهم زملاء في التجارة، ومما له مغزاه أنه في التقارير الهولندية الخاصة بالنصف الثاني من القرن السابع عشر، سجلت الأحداث المتعلقة بالعرب بين الأحداث المتعلقة بالمنافسين الأوربيين، وليس بين الأحداث في فارس.

الحواشي

1. R.A. de Bulhao Pato et al. *Documentos remettidos da India ou Livros dos Moncoes*, (Lisboa, 1880-1935) vol. I -
P.S.S. Pissurlencar, *Assentos do conselho de Estado.* (Bastora 1953-1957), 5 v..

2. Isabel Cid, *Livro das Piantas* (Lisbon 1992), 3 v.

3. Pedro Texeira, *Relacione de Pedro Texeira* (Amberes 1610)
Manuel Godinho, *Re.acaos da novo caminho que fez por terra e mar vindo da India para Portugal*, (Lisboa 166S, later editions 1842 and 1944).

4. The text of several older travellers can be found in S. Purchas, ilgrimages (London 1626, 4 vols). Salbanke's travel there in vol. 1, p. 235-238

5. A. Hamilton, *A New account of the East Indies* ed. W. Foster (London 1930)
Ives, E., *A voyage from England to India in the year 1753* (London 1773) J. Capper, *Observations on the passage to India (London 1784).*
John Ovington, *A voyage to Surat in the year 1689* ed. H.G. Rawlinson, (London, 1929).
A. Parsons, *Travels in Asia and Africa* (London 1808).
W. Franklin, *Voyage de Bengale a Chyraz* (Paris VII, 1798)

6. Cornelis de Bruyn, *Reyse over Moscovien door Persien en Oostindien* (Delft 1711).
Coolhaas, W. Ph., *Pieter van den Broecke in Azie* ('s-Gravenhage, 1962-1963 =Werken uitgegeven door de Linschotenvereniging LXIV).
Graaf, N. de, *Reisen naar Asia, Africa, America en Europa.* (Hoorn 1701) Hagenaer, H., *Verhael van de Reyse van Hendrik Hagenaer* (Amsterdam 1645)
Hotz, A., (ed.) *Journael van de reis van de gezant der Oostindische CompagnieJoan Cuneaus naar Persia door C. Speelman* (Amsterdam 1908 =Werken van het Historisch Genootschap 3e serie vol. 26).
[Leupe, P.A.] 'Overlandreis van India naar Europa in 1757'(*Kronyk van het Historisch Genootschap* series 4, vol. 1, 1860, pp. 124-128) [This is an account by a Dutch East India Company dignitary, Loten, on the travel overland from Aleppo to Basra]
(Germans in the service of the Dutch East India Company:)
Engelbert Kaempfer, *Amoenitates exoticae* (Lemgoviae 1712).
J. Saar, *Reise nach Java ... und Persien* (Nurnberg 1672)
J. G. Worms, *Indien und Persianische Reisen* (Dresden-Leipzig 1 737).
We only mention the most important texts. For a full list of texts of old Dutch travellers including translations appeared in Holland from texts of travellers of other nationalities see: A. Hotz, 'Perzie' (*Trjdschrift van het Koninlijk Nederlands Aardrijkskkundig Genootschap 1897)*, 713-760.

7. F. Boullaye de Gouz, *Voyages et observations* (Paris 1657).
Carre, B., *Voyage des Indes Orientales*. (Paris 1699, English translation in Hakluyt society, 2nd series 95-97, London, 1947-1948; the manuscripts of Carre are in the National Library in Paris.)
Chardin, J., *Voyage du chevalier Chardin en Perse*. Modern edition: Sir John Chardin's *Travels in Persia* (London 1927).
L. Ferrieres de Sauveboeuf, *Metmoires historiques, politiques et geographiques des voyages du Comte Ferrieres de Sauveboeuf faits en Turquie, en Perse et en Arabie* (Maastricht 1790).
P.F. Henry, *La route de l'Inde*, (Paris 1799)
Paul Lucas, *Voyage au Levant* (Paris 1731)
G.A. Olivier, *Voyage dans l'empire Ottoman et la Perse* (3 v. Paris 1801)
N. Sanson, *Voyage ou relation de l'etat present de la Perse* (Paris 1695).
J.B. Tavernier, *Les six voyages* (3 v. Paris, 1676).
J. Otter, *Voyage en Turquie et en Perse* (Paris 1748)
Jean Thevenot, *Suite du Voyage du Levant*, (Paris, 1674 =vol. 2 of Relation d'un Voyage du Levant of 1667).

8. Chronicle of events between the years 1623 and 1733 relating to the settlement of the order of Carmelites in Mesopotamia, H. Gollancz ed. (London 1927)
The years after 1733 in:
'Continuatio domesticae Bassorensis historiae ab anno 1733' *Analecta Ordinis Carmelitarum Discalceatorum*. VIII,1933, 47-68, 108-140, 204-224.

9. M. Bastiaansen (ed.), *Souvenirs de la Perse Safavide et atres lieux d'Orient (1674-1678) du Pere Ange de Saint Joseph*, (Bruxelles 1985).
Leandro di Santa Cecilia, *Persia ovvero secondo viaggio dell'Oriente* (Roma 1757) 2 v.

10. C. Niebuhr, C., *Beschreibung von Arabien* (Kopenhagen 1772). Niebuhr, C., *Reisen in Arabien* (Kopenhagen, 1772)
Pietro della Valle, *Viaggi di Pietro della Valle il Pellegrino* (Roma 1650)

11. B.J. Slot, *Origins of Kuwait* (Leiden 1991), 70-71

12. Pieter van Dam, *Beschrijvinge van de Oostindische Compagnie*. ed.
F.W. Stapel and C.W.Th. van Boetzelaer (4 parts in 7 vols. s'-Gravenhage 1927-1954 =Rijksgeschiedkundige Publicatien, Grote Serie nos. 63,68, 74,76,83,87,96). Book 2 part 3, 275-375 specially concerns Persia.
Van Reede's report in the archives the Batavia High Government nr. 877 in the General State Archives
F. Valentijn, Oud en Nieuw Oost-Indien. vol.5, part Persia (Dordrecht 1726)
Kniphausen is published in W. Floor, 'A description of the Persian Gulf and its inhab-

itants in 1756' (Persica 8,1979, 162-185).

13. French in the series of journals in the navy archives in the Archives Nationales. Dutch: dispersed copies bound between the Persia reports and in the Geleynssen de Jongh papers

14. A. de Gouvea, *Relation des grandes guerres et victoires obtenues par les Roys de Perse*, (Rouen 1646).
L 'ambassade de D. Garcia de Silva Figueroa en Perse contenant la politique de ce grand empire ... (Paris 1667)
[Freire, Ruy] *Comentarios do grande Capitao Rui Freire de Andrada*, (Lisboa, 1940).

15. Antonio Bocarro, *Decada XIII da Historia da India* (Lisboa 1876).

16. The Dutch had been inspired to their intervention in Asia by a Dutch writer, Jan Huygen van Linschoten, who had visited Asia in the service of the Portuguese and who had written an extensive account of the economic possibilities. He also was the first to publish a Portuguese map containing some accurate details on the Gulf: Linschoten, Jan Huygen van, Itinerano. Amsterdam, 1596.

17 Slot, *Arabs of the Gulf*, (Leidschendam 1995), 2nd edition, 251, 260-261.

18 This was the background of such events as those described in J.G. Lorimer, *Gazetteer of the Persian Gulf* (Calcutta 1908-1915), v. 1/2, 1782-1784, 1806-1807 and in S.M. Qasimi, *The Myth of Arab piracy in the Gulf* (London 1986). 31-83

19. Anne Kroell, *Louis XIV, la Perse et Mascate*, (Paris 1977) p. 38, cf Slot, *Arabs of the Gulf* p. 232 and S.M. Al-Qasimi, *Les relations entre Oman et la France*, (Paris 1995), 19-20

20. Gasparo Balbi, *Viaggi delle Indie Orientali*, (Venezia 1590). A modern edition in: O. Pinto (ed) *Viaggi de C.Federici e G.Balbi alle Indie Orientali*. (Roma 1962 =Nuovo Ramusio vol. 4). Dutch version in P. van der Aa, *Naaukeurige versameling dergedenk waardigste Reysen*, (Leiden 1706), v.18. In the English translations in Purchas, *Pilgrimages* v. 2, 1727-1729 and in Pinkerton, *Voyages and travels* v. 9, 395 ff
the essential parts are missing See also Slot, *Arabs of the Gulf*, 37-39, 91-92.

21. Gouveia, *Relation*, 39-41; A. Faroughy, *Histoire du Royaume de Hormuz depuis son origine jusqu'a son incorporation dans l'empire persan des Safavis*, (Bruxelles 1949), 92-93 shows an interesting comparison between this Portuguese observer and a Persian source.

22. Silva Figueroa, *L'Ambassade*, 383

23. Coolhaas, Pieter van den Broecke, v. 2, plate next to p. 232.

24. Pietro della Valle, *Viaggi*, 368, 363-393, 461.

25. [Freire, Ruy] *Comentarios do grande Capitao Rui Freire de Andrada*, (Lisboa 1643, new edition Lisboa 1940). About his evil reputation with the local Arabs see Slot, *Arabs of the Gulf*, 130

26. Description of the new Portuguese position in the Gulf in two Dutch documents in Slot, *Arabs of the Gulf*, 132, 144.

27. L. Cordeiro, *Dois Capitaes da India* (Lisboa 1898).
L. Cordeiro, *Batalhas da India. Come se perdao Ormuz, processo inedito do seculo XVII* (Lisboa 1896)
P.S.S. Pissurlencar, *Assentos do conselho de Estado*, (Bastora 1953-1957) 5vols.

28. Cid, *Livro das Piantas*, X, v. 2, 58.

29. Hagenaer, Verhael does not mention the events at all, the main source is the unpublished report by the Dutch commodore Carstensz its text in Slot, Arabs of the Gulf p. 139.

30. A. Olearius, *Persiaense reyse uit Holsteyn door Philippus Crusius en Otto Brughman*, (Amsterdam 1651).

31. Documents quoted in Slot, *Arabs of the Gulf*, p. 143-152. One of the journals have been published: A. Hotz (ed.), 'Cornelis Cornelisz. Roobacker's scheepsjournaal Gamron-Basra' (1645) (Tiidschrivat van het Koninklijk Nederlands Aardrijkskundig Genootschap, 2nd series vol. 2, 1907, pp. 289-405).

32. Tavernier, *Les six voyages*, vl. 1, 256-237; cf. Slot, *Arabs of the Gulf*, 147

33. Slot, *Arabs of the Gulf*, 424

34. Chick, *Chronicle*, v.1, 329-330, 12C, 491

35. Pissurlencar, Assentos, v. 3, 488- ; C6 Chick, *Chronicle*, v 1, 358-359

36. Pissurlencar, *Assentos*, 551-554 ; H. Chick, A Chronicle of the Carmelites in Persia (London 1939), v. 2, 1116-1117.

37. VOC 1283, p. 765

38. Slot, *Arabs of the Gulf,* 172

39. Pietro della Valle, , 99-101; Cordeiro, *Dois Capetaes,* 54, 104-120, cf. Slot, *Arabs of the Gulf,* 120-121, 154-155.

40. Slot, 196-200
Dutch Basra diaries can be found in VOC vol. 1179, 1208 and 3988

41. The text of the first letter of the Imam to the Dutch in Slot, *Arabs of the Gulf,* 174-175.

42. The report is published in W. Floor, 'First contacts between the Netherlands and Masqat or a report on the discovery of the coast of Oman in 1666'. *Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft,* 132 (1982) 289-307.

43. These reports (VOC 1304, f. 473-494 and VOC 1288 f. 450-445) are partly published in Floor, W., 'A description of Masqat and Oman anno 1673/1084'. *Moyen Orient et Ocean Indien - Middle East and Indian Ocean XVIe XIXe s., 2-1* (1985) 1-69

44. N. de Graaf, *Reisen naar Asia, Africa, America en Europa* (Hoorn 1701); J.J. Struys, *Drie aanmerkelijke en rampspoedige reysen* (Amsterdam 1676

45. Slot, *Arabs of the Gulf,* 213-214; J.F.J. Biker, *Colleccao de tratados e concertos che o Estado da India Portugueza fez com os reis e senhores,*. (Lisboa, 1881-1887) 14v., v. 4, 223-224.

46. see note 7

47. Boxer C.R. and C. de Azevedo, C., Fort *Jesus and the Poetuguese in Mombasa.* (London, 1960), 57-58; VOC 1571, fol. 92-95.

48. Slot, .F, 236-239 includes a text of a Dutch sailor who met the Arab commanders besieging Hormuz.

49. In VOC vol. 1913 and 1928

50. Slot, *Arabs of the Gulf,* 242-24j

51. VOC 1043S, letter of August 1, 1721

52. VOC 1947, fol. 68-69

53. Slot, Arabs of the Gulf, 212, 226-229

54. VOC 1667, fol. 418-419

55. Slot, *Arabs of the Gulf,* 260-262

56. BGD***
Dutch diaries in VOC 2088, 2114***

57. Slot, *Arabs of the Gulf,* 266-270. The account there on Shaikh Jabar is based on the contemporary Dutch diaries; p. 270-271, note 55 about the several other (erroneous) accounts of how Jabara obtained Bahrain.

58. Otter, J., *Voyage en Turquie et en Perse,* (Paris, 1748) Otter's papers are in the National Library in Paris, manuscript NAF 989.

59. The documents from British and Dutch collections are mentioned in Slot, *Arabs of the Gulf,* 295-312.

60. India Office Records London, Gombroon Diary 21-7-1743

61. The main source for the events is the British Gombroon diary for 1747

62. Slot, *Arabs of the Gulf,* 327-328; Niebuhr, Beschreibung, 302-304

63. The documents on this period are quoted in Slot, *Arabs of the Gulf,* 333-349. Mulla Ali Shah was a relative of Shaikh Hatim of the Nasur, a Huwala tribe from Tahiri. It should be noted that in the contemporary sources the Huwala are described as purily Sunni Arab groups, generally very hostile to Persia, and connected with the Arabs on the coast of the Arabian peninsula.

64. The many sources on the events are used in the following publications on the subject: W. Floor, 'Mir Mohanna and the Dutch' (in: *Europeens en Orient au XVIIIe siecle,* Paris 1994, p. 157-202); J.R. Perry, 'Mir Muhanna and the Dutch, patterns of piracy in the Persian Gulf'(*Studia Iranica* II/1, 1973, 79-95); Slot, *Arabs of the Gulf,* 354-359, 426

65. The plan for Bahrain was published by W. Floor: 'The Bahrain project of 1754' (*Persica* 11, 1984), 130-148. The report on the Arab tribes was published by the same author, regrettably, sometimes with errors: 'A description of the Persian Gulf and its inhabitants in 1756' (*Persica* , 1979), v. 8, 162-185.

66. Laurent d'Arvieux, Voyage fait par ordre du Roi Louis XIV dans la Palestine vers

le Grand Emir (Paris 1711)

67. Ives, *Voyage*, 207-216. On the pearl diving see also W. Floor, 'Pearl fishing in the Persian Gulf in 17;7' *Persica*, 10 : 1982, 209-222.

68. Slot, *Arabs of the Gulf*, 366-370, 436-428; Floor, 'Dutch on Khark', 190-193

69. According to a letter of the Dutch consul in Aleppo in Archives of the Dutch embassy in Istanbul prior to 1811, 664, Niebuhr had come from the Gulf with the news of the fall of Kharg and he had written a report on it for the Dutch ambassador in Istanbul. Indeed there is between the papers of Basra of 1766 in the same archives (nr. 671) a paper containing approximately the same text as Siebuhr published several years later in his book.

70. National Archives, Paris, series AE B 1, Basra vol. 1.

71. Parsons, *Travels in Asia and Africa* (London 1808). One key difference between Parson's book and the contemporary- Basra Diary is shown in Slot, Origins of Kuwait, p. 109.

72. J.A. Saldanha, Persian Gulf Precis 1600-1800 in Selections from State Papers, Bombay, regarding the East India Company's connection with the Persian Gulf (Calcutta, 1908), vol. 1, p. 310-313

73. Qasimi, *Myth of Arab piracy*, 31, 47; For French views see H. Prentout, *L'Ile de France sous Decaen* (Paris 1901), 329-333.

المحور الرابع

مرحلة الانفراد البريطاني (١٨٠٠ - ١٩١٨)

-أعمال الرحالة والمبشرين في العالم العربي ١٨٠٠ ـ ١٩١٥ تحليل وصفي

فؤاد شعبان

-"ما لا تستطيع العين أن تراه قد لا يكون له وجود . . ." التحديات الواقعة والمتخيلة لوضع بريطانيا في الخليج

فراوكة هيردبي

أعمال الرحالة والمبشرين في العالم العربي ١٨٠٠ ـ ١٩١٥
تحليل وصفي

فؤاد شعبان

دكتوراه في اللغة الانكليزية (جامعة ديوك، دورهام ١٩٦٥).
مساعد وكيل الجامعة لشؤون الأبحاث (جامعة الإمارات).
سوري من مواليد ١٩٣٥م.

أهم الأعمال والوظائف :

– أستاذ في جامعة دمشق وجامعة الرياض والمعهد العالي للعلوم السياسية بسوريا (١٩٦٥ – ١٩٧٩).
– باحث زائر في جامعة ديوك، دورهام (١٩٨٢ – ١٩٨٣، ١٩٨٩).وأستاذ زائر في عدد من الجامعات العربية والأجنبية.
– أستاذ في جامعة دمشق (١٩٧٩ – ١٩٨٧).
– رئيس قسم اللغات الأجنبية بجامعة الإمارات (١٩٨٧ – ١٩٩٢) ثم أستاذ مميز في الجامعة نفسها.
– عميد كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة الإمارات (١٩٩٢ – ١٩٩٥).
– عضو في عدد من الهيئات الثقافية والجمعيات واللجان الجامعية، ومستشار لبعض المجلات المتخصصة.

من نتاجه :

عدد كبير من الكتب منها في التأليف :
– قاموس المصطلحات الأدبية (١٩٦٩ دمشق).
– المسرحية والمسرح – معدنة (١٩٧٠ دمشق).
– دراسات في المقالة الأدبية (١٩٧٩ دمشق).
– الإسلام والعرب في الفكر الأمريكي القديم جذور الاستشراق في أمريكا (١٩٩٠ دورهام).

ومن الأعمال المترجمة :

– تاريخ الأدب الغربي، جزءان (١٩٨٥ دمشق).
– الرابطة الصهيونية : ما هو ثمن السلام، الفرد ليلينتال (١٩٨٥ دمشق).
– مئة قصة عربية قصيرة (أذيعت من إذاعات دمشق والرياض ونشرت في صحف).
وله مقالات عديدة نشرت في مجلات مختلفة.

شهد العالم العربي، خلال القرن التاسع عشر، دفقاً من أنشطة الرحالة والمبشرين واهتماماً متزايداً بثرواته من جانب الحكومات الغربية. وأسفر هذا الاهتمام وهذه الأنشطة عن ترويج المعلومات والمفاهيم عن العرب وسط الجمهور الغربي. وبدورها أثرت مفاهيم الجمهور عن العرب والعالم العربي في الرحالة والمبشرين من خلال تهيئتهم مسبقاً قبل مجيئهم إلى هذه المنطقة. وهكذا فإن الرحالة الغربي لدى انطلاقه في رحلته، لم يكن بالقطع صفحة بيضاء، ولا لوحاً أملس، يتلقى الانطباع الأول عن الناس وأرضهم.

وقد جاء معظم الرحالة والمبشرين إلى هذه المنطقة حاملين معهم صورة، أو مزيجاً من الصور. وغالباً ما كان المفهوم المسبق ناجماً عن تراكم المعلومات، إما التي تناقلتها الأجيال أو التي نتجت عن مواد متاحة للجمهور الشغوف بالقراءة. وفي العديد من الحالات كانت صورة العرب والمسلمين ومنطقتهم تقف موقف التباين الصارخ بين الصورة الذاتية للرحالة و"الآخر" – في هذه الحالة العربي – بدائي متخلف، في تباين صارخ مع صورة الإنسان الغربي بوصفه متحضراً ومتقدماً، والمسلم ضائع جاهل، في تباين صارخ مع صورة المبعوث المسيحي بكونه ناجياً مستنيراً. ولكن عملية تصوير "الآخرين" هذه في إطار صور وأنماط مقولبة، غالباً ما لونتها الوقائع والتطورات السياسية والاجتماعية السائدة، وهكذا فإن دوافع الرحالة الغربي والمفاهيم الناجمة عنها هي غالباً امتدادات للتطورات الحضارية والأحداث السياسية، في كل من الغرب والشرق. ومن الضروري لهذا السبب تحليل السياق الغربي، سواء أكان تاريخياً أم حضارياً، لأنشطة الرحالة والمبعوثين الغربيين في العالم العربي، لكي نفهم على نحو أفضل دوافع الرحالة والمبعوثين وسلوكهم وطروحاتهم. لهذا السبب فإنني سوف أستهل هذه الورقة بتحليل موجز للمفاهيم الغربية، عن الرحيل، وبسياق الأحداث التاريخية في الغرب، التي ربما تكون قد ساهمت في دوافع الرحالة والمبعوثين وأنشطتهم مع إشارة خاصة إلى العالم العربي الإسلامي.

يتعين عليَّ كذلك الإشارة إلى أنه على الرغم من أنني أتحدث عن المبشرين Missionaries وأعمالهم، في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى أتحدث عن الرحالة والمبعوثين Envoys وأعمالهم، ففي حقيقة الأمر ليس هناك تمييز واضح بينهم، فالعديد من الرحالة إلى المنطقة العربية يفصحون عن مزيج من الخصائص والاهتمامات التي تنتمي إلى الرحالة بشكل عام، سواء أكانوا من المبشرين أم من السياح العارضين.

ولن أحاول، أخيراً، التأكيد على تواتر الرحيل إلى العالم العربي، أو القدر الهائل من الكتابات حول العربي المسلم والمنطقة، فمن شأن نظرة عجلى على المراجع المعنية بهذا الموضوع أن توضح مدى كثرة هذه الأعمال ورواجها.

١ - المفاهيم الغربية عن الرحيل

شكل الرحيل إلى الأصقاع النائية والغريبة موضوعاً رائجاً في الثقافة والأدب الغربيين، فالحياة في الفكر المسيحي عموماً، وفي الفكر البروتستانتي خصوصاً تعدّ رحلة قوامها المحن وضروب المعاناة، بحثاً عن التوبة والخلاص. والنموذج الأكثر رواجاً لهذا المفهوم هو كتاب بنيان Bunyan بعنوان "مسار الراحل إلى القدس". وفي إطار هذا العرف، فإن الرحلة سعي تصويري وراء تنقية الذات استعداداً للآخرة.

ويقدم العرف الغربي المسيحي نفسه مفهوماً آخر للرحيل. هذا المفهوم هو السعي إلى إقامة المملكة الثانية، القدس الجديدة، في أرض الميعاد وقد اعتقد "Puritans"البيوريتانيون، – أصحاب النزعة التطهرية، بصفة خاصة بتأثير إعادة الاكتشاف البروستانتي للعهد القديم – اعتقدوا جازمين بصحة الوعد، أو عهد الرب لإبراهيم باعادة ذريته إلى أرض الميعاد. وأصبحت إعادة بناء القدس الهدف المطلق لرحلة الحياة التي يخوض المسيحي غمارها. وقد كتب نيوتن Newton مطولاً عن هذا الموضوع. وعلى صعيد عملي بدرجة أكبر، فإن كتابات الآباء الحجاج(وهم المهاجرون الإنجليز البيوريتانيون الأوائل

إلى العالم الجديد) غنية بالإشارات إلى جهودهم في ذلك الإتجاه.فقد تم القيام برحلتهم إلى العالم الجديد تحقيقاً للوعد. وكما عبر المؤرخ الأمريكي فيرنون بارنغتون Vernon Parrington: "جاء قادة البيوريتانيون إلى أمريكا لإقامة مملكة الرب على الأرض"(١) ولم يساور أول قائد للحجاج وليام برادفورد William Bradford شك في أن: "جوانحهم انطوت على أمل كبير وحماسة داخلية... مما دفعهم للدعوة ونشر البشارة بمملكة المسيح، في تلك الأصقاع النائية من العالم"(٢).

وبينما تعد الرحلة بحثاً عن التوبة والخلاص (مثل "مسار الراحل إلى القدس") سعياً شخصياً يقوم به الفرد المسيحي، فإن الرحلة البيوريتانية إلى القدس الجديدة، تحقيقاً للعهد، هي هد ‌ئ جماعي يندرج في تحقيقه جهد جماعة بأسرها. والنداء هنا موجه إلى جماعة المؤمنين، لأن جميع ذرية إبراهيم هم ورثة لمواطنية مملكة الرب، ومن ثم بالتبعية ورثة للمسؤولية عن إعادة بنائها. وفضلاً على ذلك فإن البحث عن صهيون هو أكثر جدارة بأن يأخذ أبعاداً جغرافية، وهو الأمر الأكثر أهمية بالنسبة لتناولي لمفهوم الرحلة، على نحو ما سنرى تواً. وقد قام المؤرخون، على سبيل المثال، بإعادة بناء المعبد في سولت ليك سيتي "Salt Lake City"، واقتنع آخرون بأن المملكة الثانية لا يمكن تحقيقها إلا في الأراضي المقدسة. وقد كتب الرحالة الغربيون في هذا الإقليم من العالم عن هذا الهدف باقتناع مطلق.

وتمثل مفهوم غربي راسخ آخر عن الرحيل، كان دافعاً بارزاً للرحالة الغربيين إلى الشرق العربي، في الرحلة من أجل إصلاح أمر أرواح الأمم الأخرى وإنقاذها. وقد كانت النزعة التبشيرية على الدوام تحتل مكانة مركزية في الأيديولوجيا المسيحية. وترك الكثيرون من الغربيين المسيحيين الراحة المتوافرة في بيوتهم وارتحلوا إلى أرجاء العالم كافة من أجل "أن يمضوا ويعلنوا للكفرة أن عيسى اليسوع قد جاء " ولينشروا نور الإنجيل في بحر الظلام. وتلقى الشرق العربي نصيباً كبيراً من هذا الحماس. وشهدت أوروبا والولايات المتحدة دفقاً من الأنشطة التبشيرية في القرن التاسع عشر.

واندرج في النداء الموجه لإعادة بناء القدس الجديدة والحماس التبشيري لاستقطاب الآخرين، عندما وجه جغرافياً إلى العالم العربي، موقف معين من المنطقة وسكانها وقرارات تتعلق بمصيرهم. وكان هذان المفهومان للسفر معاً في أذهان الرحالة الغربيين إلى هذا الإقليم، وكان لهما معاً تبعات هائلة بالنسبة لموقف الرحالة من العرب وأراضيهم. وتوضح روايات الرحالة تبنياً جلياً لهذا الموقف.

إن ما يجعل هذين المفهومين بالغي الأهمية بالنسبة لمعالجتي لموضوع الرحيل في الاعتقاد المسيحي الغربي هو القناعة بأن هذه المشاريع جزء من مشيئة اللطف الإلهي، وأن الرحالة قائم ببعثة مخولة إلهياً إلى هذه المنطقة. ويتخلل هذا المفهوم عن مشيئة اللطف الإلهي كتابات العديد من الرحالة الغربيين إلى الشرق العربي.

وثمة مفهوم رابع للرحيل في الثقافة الغربية، وهو مفهوم أقل خطورة وعدوانية، في السعي الرومانسي وراء اليوتوبيا "Utopia" . وقد استقطب هذا الموضوع المتعلق بالرحيل – وهو بطبيعته فردي هروبي – خيال الإنسان على امتداد التاريخ. وغالباً ما أضفى الرحالة الغربي على الشرق العربي مسحة شعرية على مشهد الغروب، في صحراء شبه الجزيرة العربية أو على المشهد النادر للبدوي، وهو يمضي بقافلة جماله نحو الأفق. هذه الصورة للعرب ولشبه الجزيرة العربية كانت جزءاً من صورة العربي.

٢ - أصل الرحيل الغربي إلى المنطقة العربية

دعونا الآن نمضي، آخذين في الاعتبار هذه المفاهيم الغربية البارزة للرحيل، لإلقاء نظرة تاريخية على نشأة الرحيل الغربي إلى الشرق العربي. وسيكون هذا التحليل التاريخي، جنباً إلى جنب مع مفاهيم الرحيل المذكورة آنفاً، مفتاح تحليل له مغزاه لدوافع الرحيل إلى المنطقة وصور الرحالة عن المنطقة وسكانها.

وقد يبدو أمراً غير مألوف أن أقول أن مواقف الرحالة الغربيين في القرن التاسع عشر إلى الشرق العربي، تستمد جذورها من السنوات الأخيرة في القرن الخامس عشر. فقد انطلق الأوروبيون في ذلك الوقت في حملة كبرى للرحيل إلى الأصقاع المجهولة من العالم واستكشافها، وفي ذلك الوقت تشكلت هذه الصور والمواقف عن الشرق العربي.

وخلال الربع الأخير من القرن الخامس عشر انشغلت أوروبا فيما أسماه كريستوفر كولمبوس بـ "مشروع جزر الهند". وقد كان هذا هو الموضوع المتضمن في العديد من رحلات الاستكشاف التي قام بها الأوروبيون إلى الجانب الآخر من الكرة الأرضية. فقد كان البحر المتوسط لا يزال تحت سيطرة قوة إسلامية، ولعدد من الأسباب كان هناك شعور بالتعجل للرحيل بحراً عبر الكرة الأرضية وتطويق هذه القوة من الشرق. وغالباً ما يتعرض هذا الدافع للإهمال من جانب المؤرخين الذين بهرتهم الاكتشافات الرائعة التي قام بها كولمبوس ومعاصروه. وحقيقة الأمر هي أن كولمبوس كان رحالة مكتشفاً، قادته دوافع تبشيرية البحث المسيحي عن مملكة الرب والانشغال الأوروبي في القرون الوسطى بشن الحرب على الإسلام. ويقول أحد المؤرخين عن كولمبوس : إن "الصورة الذاتية التي جرى التمسك بها على نحو متزايد في سنوات لاحقة لم تكن صورة بحار جسور، إنما صورة رجل اختاره الرب لتحقيق نبوءات قبل حلول نهاية العالم"(٣). وقد ذكر كولمبوس بوضوح في رسائله ويومياته أنه قد قصد الرحيل بحراً «عن طريق الغرب الذي لا يعرف أحد حتى اليوم على وجه اليقين ما إذا كان أي شخص قد سلكه إلى أراضي الخان العظيم المتولي لجزر الهند.» وقد تعهد كولمبوس بأنه لدى وصوله سوف «يسعى إلى الطريقة التي يمكن بها إنجاز إدخال الأمراء والشعوب في ديننا المقدس» في هذه الأراضي. ولدى تحقيق ذلك فإن كولمبوس سوف يستعين بهؤلاء الداخلين حديثاً في الدين لحرب الحياة والموت مع العالم الإسلامي.(٤) وفي رسالة إلى راعييه الملك فرديناند والملكة إيزابيلا، أكد

كولمبوس لهما أن عملية تغيير ديانة شعوب الشرق ستكون حاسمة في الحروب مع "طائفة محمد البغيضة"(٥).

إنني أعتقد أن موضوعات الرحيل هذه وصور الإسلام، التي نراها هنا في كتابات كولمبوس، هي سوابق لرحالة القرن التاسع عشر للشرق العربي ودوافعهم وكتاباتهم. وعند كولمبوس نرى أيضاً المفهوم الأكثر تبكيراً عن الرحيل الذي يقوم على خطة كونية رسمتها الإرادة الإلهية، وقدمت للرحالة ليؤدي دوره فيها.

ويتضح في حقيقة الأمر من سجلات كولمبوس أنه قد اعتقد أشد الاعتقاد أنه "ممثل الدراما الكونية"، التي تتطور من الخلق، التنبؤ، مجئ مسيح – إمبراطور، إدخال العالم في المسيحية، وهي ممر يسفر في نهاية المطاف عن استرداد الأرض المقدسة من الكفرة. ومشروع جزر الهند "اندرج في خطة أوسع نطاقاً وفق سياق زمني مقدر مسبقاً. واعتقد كولمبوس أنه لم يبق إلا ١٥٥ عاماً" على استرداد جبل صهيون ومجيء المملكة الثانية(٦). وبهذه الروح وقع كريستوفر باسمه بوصفه "كريستوفرنز" وهي صيغة لاتينية لاسمه تعني "حامل لواء المسيح" مما "يشير إلى البعد الروحي لشخصيته" ويكشف عن الدوافع الدينية التي تتخلل الصدام(٧).

هذه كانت بعض الدوافع والمواقف التي تبرز من أكبر حملة رحيل في أوروبا. وأعتقد أن مفاهيم السعي إلى القدس الجديدة والحماس التبشيري لإدخال الآخرين في المسيحية بالغة الوضوح في هذه الحملة. وأعتقد فضلاً عن هذا أن هذين المفهومين للرحيل كليهما يمتزجان بالهوس الاستحواذي بالحرب ضد العالم الإسلامي، ليشكلا أصل موقف الرحيل الغربي إلى العرب ومنطقتهم والصورة الغربية عنهم وعن أرضهم.

وبهذه المقدمة الموجزة لخلفية مفاهيم الرحيل الغربي وممارساته سأنتقل إلى تحليل حركة الرحيل الغربية الأكثر نشاطاً إلى المنطقة العربية في القرن التاسع عشر وهي الحركة التبشيرية.

٣ - المبشرون وأعمالهم

اكتسبت الحركة التبشيرية، في أوروبا، وكذلك في أمريكا، قوة دفع كبيرة خلال القرن التاسع عشر. وتنافست عشرات من المنظمات التبشيرية، التي تنتمي إلى كل كنيسة، إحداها مع الأخرى، لإنقاذ الأرواح الضائعة. وعلى الرغم من ذلك فإن أهدافها المشتركة وجهودها المكثفة جعلتها واضحة للعيان كأشد ما يكون الوضوح على امتداد العالم. وكانت كتاباتها غزيرة جداً، بحيث ولدت اهتماماً كبيراً بالعالم العربي، وساعدت في نشر صور معينة، ومفاهيم بذاتها عن العربي والمسلم والعالم العربي.

إن الفكر التبشيري بحكم طبيعته حركة إيديولوجية، وبالتالي فإن الوسيط التبشيري ينطلق إلى عمله بحماس واندفاع وبمفاهيم مسبقة محددة عن نفسه وعن الآخرين. ومن منظوره فإن المبشر يحظى باستنارة مسيحية، بينما الآخرون – وخاصة العرب المسلمون – يعيشون في الظلام. ويحفل الأدب التبشيري، في القرن التاسع عشر، بمثل هذه الأوصاف للمسلم. واتسمت بالصراحة السافرة بصفة خاصة كتابات رجال ونساء لهم تجربة مباشرة في هذا المجال. فقد أوضح «تقرير لجنة التدبير التابعة لمجلس المفوضين الأمريكي للبعثات التبشيرية الخارجية» عام ١٨١٩ أن المسلمين والمسيحيين واليهود في العالم الإسلامي هم «في حالة مقيتة من الجهل والتدني محرومون من نعمة المعرفة الربانية»(٨). وفي«التعليمات» الصادرة إلى المبعوثين، الذين يشقون طريقهم إلى المنطقة، أبلغتهم اللجنة بأن «الهدف العظيم لبعثتكم هو أن تنقلوا لأولئك القاعدين في الظلام وفي ظل الموت المعرفة المنقذة بالمسيح» وتضيف التعاليم قائلة: إن الجهل المقيت للهمجي البائس سيكون على الدوام نصب أعينكم وتتراوح الأوصاف التي أطلقت على العرب مابين «الجهلة» و «المتخلفون» و«الآثمون» و«البهيميون». وخلص رحالة غربي في المنطقة إلى أن «التعاليم الأخلاقية هي يقيناً في الحضيض، في كل بلد يعلو فيه شأن الديانة المحمدية.. وبالتالي فإن الخطايا الأكثر فظاعة ومقتاً شائعة كما أن غرائز أتباع هذه الديانة مرتكسة وبهيمية»(١٠). ونصح المبشر المتمرس هنري جيسوب Henry Jessup الذي

أمضى ثلاثة وخمسين عاماً في هذه المنطقة مجمع كرادلته في الوطن بأن الكتاب المقدس ينبغي أن تلقى عظاته على «أبناء الشيطان، المكبلين والغارقين في الحزن والعذاب، في الأراضي المحمدية الهمجية»(١١).

ويعد جيسوب أفضل ممثل للاندفاع التبشيري، الذي لاهوادة فيه. في الشرق العربي، وقد ساعد في تشكيل المؤسسة التبشيرية وسياساتها في المنطقة. وفي عام ١٨٧٩ حدد مشكلة المبشر في الأراضي المحمدية بالقول: «إن تنصير هذه الجموع الهائلة، والمنظمة والمتعصبة والمنتشرة على نطاق واسع، من البشر [وقدر جيسوب عددهم بمائة وخمسة وسبعين مليون مسلم] يعد إحدى أعظم المشكلات وأكثرها إثارة للإلهام، التي قدر لكنيسة المسيح أن تواجهها على الأرض. وهو عمل على جانب هائل من الصعوبة، يقتضي عماداً جديداً للحكمة والطاقة واليقين والحب الرسولي»(١٢).

ووصف جيسوب جسامة هذه المهمة، بانياً آراءه حول هذا الموضوع على قاعدة من تجربة في المنطقة، دامت سنوات عدة: إن هذه المشكلة المحمدية الكبرى، المطروحة أمام كنيسة المسيح في المستقبل الوشيك، والتي ترتبط بالانجاز التبشيري العظيم لرأسها الإلهية لخلاص العالم، ستقتضي حكمة الكنيسة بأسرها، في كل أرض وإيمانها وحكمتها وحماسها.

وكان السؤال الجوهري، الذي طرحه كل مبشر يعمل في هذه المنطقة هو: «كيف يمكن لنا أن نصل إلى مائة وخمسة وسبعين مليوناً من أتباع محمد؟» ويقول جيسوب: إن هذا السؤال يفرض نفسه على نحو يتجاوز أي وقت مضى اهتمام الباحثين ودارسي اللاهوت المسيحيين.

ولم يتفق كل الرحالة الغربيون إلى المنطقة مع جيسوب حول هذه القضية، فبعضهم بمن في ذلك المبشرون، لم يعتقد أن العرب والمسلمين يمكن إنقاذ أرواحهم، إذا كانوا جديرين بذلك فعلاً. كان من هؤلاء المتشككين الروائي الأمريكي الشهير هرمان ملفيل Herman Meluifle إذ كتب، في إحدى يومياته يقول: "إن محاولة تحويل الشرقيين إلى مسيحيين لاتقل استعصاء عن محاولة

تحويل قوالب الطوب إلى قوالب كعك. ومما يتعارض مع المشيئة الإلهية أن نحاول جعل الشرق مسيحياً"(١٤). وكذلك كتب مبشر ذو خبرة كبيرة في هذا الميدان، هو جي. في. سي. سميث J.V.C. Smith : "لاينبغي للمرء أن يغرق لحظة في آماله أو توقعاته في إمكانية الوصول إليهم [المقصود المسلمون] من خلال الضمير أو القلب، وانهم يمكن أن يصبحوا، رغم ذلك مسيحيين"(١٥).

وعلى الرغم من ذلك، فإن غالبية الرحالة الغربيين، الذين جابوا أرجاء العالم العربي، في القرن التاسع عشر، أجمعوا على الاعتقاد بأن المسلمين مؤهلون لإدخالهم الدين المسيحي، وجديرون بالفعل بإنقاذ أرواحهم. وكانوا يعلمون أن هذه المهمة بالغة الصعوبة، وأنه مما زادها تعذراً "التصلب والتعصب المحمدي". وكانت هناك بعض المناهج والأساليب المختلفة التي اقترحها المبشرون لتحقيق أهدافهم. وكان هنري جيسوب مبشراً صبوراً، عمل طويلاً، وقضى في المنطقة ثلاثة وخمسين عاماً، واستند استنتاجه إلى تلك الخبرة، وكان قوامه أنه: «عندما يشعر المسلم، مثلما شعر الكثيرون بالفعل، بأنه خاطئ ضائع، وأنه عرضة للسخط الرباني الحق، لما جنته يداه، فإنه سيلوذ سعيداً وممتناً بالاقتناع وبالإيمان بأن الإنسان بحاجة إلى مخلص من الخطيئة، وأن عيسى بن مريم، لكي يكون مخلصاً، ينبغي أن يكون كذلك ابن الرب»(١٦) والدعوة إلى التبشير بالإنجيل لكل الخلق، حسبما يرى معظم المبشرين الغربيين، ينبغي أن تشمل المائة والخمسة والسبعين مليون مسلم، وأنه عندما يوجه المسيحيون هذا النداء فإن "الإنجيل العربي سيحل محل القرآن العربي"(١٧) وكانت هذه طريقة لطيفة للتعبير عن رأي اللورد كريمر Lord Cramer القائل : «إن إصلاح الإسلام يعني القضاء عليه».

وعلى الرغم من الأهداف التبشيرية المشتركة كانت هناك خلافات إيديولوجية ظاهرة بين الكنائس المسيحية، وبصفة خاصة بين البروتستانت والكاثوليك. فالكتاب المقدس الذي كان المبشرون يترجمونه إلى اللغة العربية لم يكن كما قال جيسوب : "الكتاب المقدس الذي شوهه وتلاعب به مستغلو

الدين المحدثون، وإنما العهد القديم كما وصل إلينا من اليهود، والعهد الجديد على نحو ما قبلته الكنيسة، في أيامها الخوالي"(١٨).

وضمنت الخطة التي اقترحها المبشرون الغربيون لإدخال العالم العربي في المسيحية أنه سيأتي وقت «يظهر فيه بين المسلمين أنفسهم رجال متحمسون يرون في عيسى بن مريم نبيهم الحق وكاهنهم وملكهم ويهيبون بالعالم الإسلامي أن يقبله سيداً ومخلصاً»(١٩). وكانت المؤسسة التبشيرية تعلق الآمال على إدخال زعماء بعض القبائل في المسيحية، وتركهم يمضون قدماً بمهمة تنصير أبناء قبائلهم. وكان أملهم أن هذا سيكون أكثر فعالية في التخلص من "ظلام" المنطقة و "جهلها".

وتبرز في كتابات المبشرين الغربيين، حول عملهم في العالم العربي، صورة للعربي بوصفه مسلماً متعصباً، ومخلوقاً جاهلاً متخلفاً، يقبع في منطقة يسودها الظلام. وهو يصوَّر في معظم الحالات على أنه خاطئ ضالّ، بحاجة إلى مد يد العون له من الوسيط التبشيري القادر على الوصول بالمنطقة إلى نور الإنجيل وفوائد الحضارة الغربية. وفضلاً على ذلك فإن المبشر يوصف عادة بأنه عضو في العرق الأنجلو - ساكسوني، وهو عرق بشري أكثر رقياً وسمواً. وفي أي سياق آخر، فإن هذا الموقف من العرب وتصورهم سوف يعتبران عرقيين ومتعصبين. لكن المؤسسة التبشيرية حظيت بحماية خطاب ديني، سمح لها بهامش كبير من التحلل من الضوابط، في التعامل مع العرب فقد كانت هناك النزعة الخيرية للوسيط التبشيري واهتمامه بأرواح المسلمين. وهكذا فإن توصيف المسلمين جميعاً بوصفهم خاطئين وضالين وجهلة وأناساً يعمهون في التردي، وتصنيف المبشرين كافة على أنهم ممن نجت أرواحهم، وفاضت نفوسهم بالعناية والاستنارة، كان خطاباً دينياً عادياً، ومقبولاً. وكان أساس هذا الطرح، إذا ما احتاج إلى أساس على الإطلاق، هو التكليف والتميز الربانيين، اللذين أضفيا على جنس من البشر، لكي يعمل على تحقيق الرفاه الروحي لجنس آخر.

ويغدو واضحاً من قراءة أعمال المبشرين أنهم ذوو سمات وخصائص معينة، ميزتهم من أولئك الرحالة العابرين، وأعطتهم هذه المفاهيم المحددة عن المسلم وعن المنطقة. وكانت هذه المفاهيم في معظم الحالات جزءاً من إيديولوجية المؤسسة التبشيرية، وقد جلب الوسطاء التبشريون هذه المفاهيم معهم إلى العالم العربي، حيث ترسخت لديهم، ثم مضوا لتكريسها في كتاباتهم التي قرأها وتقبلها قطاع عريض من القراء في أوروبا وأمريكا. ذلك أن ما اتسمت به المؤسسة التبشيرية في أوروبا والولايات المتحدة هو أنها كانت جزءاً من جمهور كبير. وقد جعلها هذا حركة قومية، بالمعنى الحقيقي، تحظى بدعم مادي وروحي كبير، الأمر الذي أعطى بدوره للصورة التي رسموها عن العرب قدراً كبيراً من الرواج والانتشار.

وفضلاً على ذلك فقد آمن الوسيط التبشيري بقوة أن التكليف الرباني بتحقيق مهمته هو جزء من المشيئة الكونية للطف الإلهي، وهذا التفويض الرباني جنباً إلى جنب مع التوقعات اللاهوتية البروتستنتية المستمدة من نبوءات إرميا منحت المبشر الحق، لا أن يصدر حكماً على المنطقة أو أهلها فحسب، وإنما كذلك في اتخاذ قرارات فيما يتعلق بمصيرهم.

وفي عام ١٨٥٩ أكد كاتب، بمزيد من الثقة، أن مثل هذه المشيئة للطف الإلهي تشق طريقها للتنفيذ. وقال هذا الكاتب إن الرسالة المستمدة من المسيح هي «امضوا إلى العالم، وبشروا كل المخلوقات بالإنجيل». وأضاف أن ألوهية البشارة المسيحية «هي شرعة هذا المشروع، التي تحمل توقيع المسيح، وهذه الشرعة لن تنقضي إلى أن تفيض الأرض معرفة بالرب. ونحن نتصرف وفقاً لها اليوم، دون تغيير لها، وبالإلزام ذاته، ونجاة منتهجها»(٢٠). وأكد صمويل ورشستر Samuel Worcester ، وهو منظر إيديولوجي تبشيري، الطبيعة الخالدة لهذه الشرعة، لبعض زملائه، الذين كانوا يستعدون للذهاب إلى العالم العربي، بقوله : "في صميم العهد المتضمن لوعد الرب لابراهام، تم النص على نقل الامتيازات والبركات المندرجة فيه من جيل إلى جيل حتى آخر الزمان"(٢١).

٤ - طروحات دينية وعلمانية

كان المبشرون في «ميدان العمل» أكثر اقتناعاً بوجود هذه المشيئة، على الرغم من أنهم أضافوا إليها عناصر زمنية مستمدة من التاريخ. وقد وضع هنري جيسوب Henry Jessup مشيئة اللطف الالهي في مثل هذا المنظور التاريخي، فلمح التأثير الالهي في التزامنات التي شهدها القرن السابع الميلادي والمتجلية في ظهور الإسلام وسيطرة الطابع الأنجلو – سكسوني على بريطانيا، والتي جاءت برهاناً على "المشيئة واللطف الإلهيين في الماضي والحاضر والمستقبل، بالنسبة لعلاقات الجنس المسيحي الأنجلو سكسوني بالعالم المحمدي... فالرب كان يعد المسيحية لظهور الإسلام، وهو الآن يعد الإسلام للمسيحية"(٢٢). وتمثل تزامن تاريخي آخر تصوره المبشرون في سقوط الأندلس المسلمة في الوقت نفسه الذي تم خلاله اكتشاف أمريكا. وبنغمة توحي بالاقتناع العرقي يحث جيسوب المسيحيين على «أن يلاحظوا التدخل(الالهي) الجلي في القيام، في إطار الفرعين العظيمين للعائلة المسيحية الأنجلو – سكسونية، في بريطانيا والولايات المتحدة، الوسائل والأدوات السياسية والدينية والتربوية التي تواكب جلب العالم المحمدي إلى رحاب المسيح»(٢٣). وهذا برهان لا سبيل إلى الخطأ بشأنه على المشيئة الإلهية فيما يتعلق بالعالم العربي في الإطار التبشيري.

خلال الفترة نفسها، التي كان المبشرون الغربيون يطرحون فيها مثل هذه التنبؤات والعبارات، كان أبناء جلدتهم في وطنهم، وخاصة في الولايات المتحدة، يشهدون ظاهرة أخرى، أطلق عليها صحافي تحظى كتاباته بالرواج "القدر المبين" فقد كتب جون ل. أوسوليڤان John L. O' Sullivan: «إن قدرنا المبين هو أن نوسع نطاق القارة التي وهبنا اللطف الإلهي إياها"(٢٤). وأصبح "القدر المبين" هو عنوان التوسع والاحتلال، اللذين كرسهما اللطف الإلهي. ولكن مناظرات التوسع شملت عنصراً زمنياً – سياسياً – خيرياً يتضمن الزعم بأن هذا الاحتلال حمل معه بركات الديمقراطية والتعليم.

وسعت هذه الحركة الغربية التوسعية التي تزعم أنها تتم بمشيئة السماء، الحركة التي أسماها في السياق الأمريكي فريدريك جاكسون تيرنر Fredrick Jackson Turner «عقلية الحدود»، سعت إلى توسيع نطاق سيطرة الرجل الأبيض إلى ما وصف بالبرية الشاسعة. وما تمس الحاجة إلى الإشارة إليه هنا هو أولاً أن عقلية الحدود التي قدرها اللطف الإلهي مسبقاً لم تكن مفهوماً جديداً في القرن التاسع عشر، فتلك هي «الشرعة الإلهية» التي استخدمها الصليبيون، وكولمبوس، والمبشرون في العالم العربي في القرن التاسع عشر، وثانياً فإن هذه الشرعة الإلهية تتضمن، بالإضافة إلى المجادلات والتبريرات الدينية، مقتضيات سياسية وثقافية واجتماعية، تحت مظلة مشيئة اللطف الإلهي.

إنني أعتقد أن الجهود التبشيرية الغربية في العالم العربي خلال القرن التاسع عشر كانت التوجه شرقاً لـ «القدر المبين» و «عقلية الحدود» واستمرارية للنزعة التوسعية الروحية العتيقة، فيما يسمى بـ «برية» الشرق العربي. وبأخذ هذه الخلفية في الاعتبار فقط يمكننا أن نتوصل إلى الفهم الكامل لطابع الاندفاع التبشيري، وبالتالي إلى فهم الصورة التبشيرية للعرب والعالم العربي.

وقد استخدم الأدب الاستشراقي فيما يتعلق بالشرق العربي مجادلات كولمبوس و«القدر المبين» و«عقلية الحدود» ذاتها. وعلى الرغم من أن التأكيد في هذا الأدب ينصب على «النزعة التوسعية الروحية» فإن الوسيط الروحي كان مدركاً للقدر السياسي والاجتماعي للمنطقة وشعوبها ولدوره في التعجيل به.

ووصف «القدر المبين» بصورة متباينة باعتبار أنه «مزيج من النزعة الجمهورية والديمقراطية وحرية الدين والنزعة الأنجلو سكسونية.وقد وضعت في خدمة قضية النزعة القارية في أربعينات القرن التاسع عشر»(٢٥). وفي عام ١٨٤٥ طرح أحد دعاة هذه السياسة التوسعية الحجة القائلة إن الإنسان الأبيض «متجاور مع الجانب الأعظم من الكرة الأرضية، الذي لم تطأه إلا أقدام الهمج والأنعام، ونحن ندرك قدرتنا على جعله خاضعاً للإنسان» وأهاب بـ "الديمقراطيات الاتحادية

للجنس الأنجلو – أمريكي" أن يمنح هذه البرية ميراثاً للإنسان(٢٦). وكانت الحجة هي «إننا لا نأخذ من إنسان وإنما نعطي للإنسان».

وفي السياق نفسه، رأى تيرنر Turner في «عقلية الحدود» قصة «تراجع البهيمية، من خلال دخول التاجر، الذي يمهد الدرب للحضارة»(٢٧) وكتب دعاة التوسع غرباً على نحو مستفيض عن الأهداف الخيرية للحركة والمنافع التي كانت في انتظار أولئك الذين عاشوا جاهلين يرسفون في أغلال العبودية.

وشهد القرن التاسع عشر التقاء هذه الميول والنزعات التوسعية الغربية وانطلاقها نحو الآخرين في ممارسات الرحالة الغربيين في العالم العربي وكتاباتهم. وقد أدرك معظم الرحالة والمبشرين في هذه المنطقة دورهم في خدمة قضية الدين والديمقراطية والتعليم في "برية رحبة". وعلى الرغم من أن لغة الكتاب المقدس تشير إلى موضوعات ومفاهيم دينية، إلا أن المبشرين برعوا في استخدامها للإشارة إلى وضعهم في الشرق العربي. وإذا أردنا أن نضرب مثالاً، فإن إهابة يوشع بالإسرائيليين أن «هناك أرضاً شاسعة لا يزال يتعين امتلاكها» أصبحت أوامر الانطلاق للمبشرين العديدين، الذين قدموا إلى هذه المنطقة. وأبلغ راهب جعل عنوان عظته، التي ألقاها في مبشرين عام ١٨١٩ "أرض الميعاد" جمهوره بأنه «كما كانت أمة إسرائيل وقتذاك محاربة، فكذلك الكنيسة الآن. وكما كانت أرض كنعان تخص إسرائيل، بفضل هبة ربانية، فكذلك العالم يخص الكنيسة، وكما كان شعب الله المختار مازال أمامه الكثير مما يتعين عليه القيام به، قبل أن يصل إلى الامتلاك الكامل والمطلق للأرض، فكذلك الكنيسة لا يزال أمامها الكثير من العمل، الذي يتعين عليها إنجازه في إخضاع العالم لطاعة المسيح»(٢٨).

وأكد همفري Humphery في عظته المهمة الكبرى التي تنتظر المؤسسة التبشيرية في "امتلاك" العالم، أرض الميعاد : "كم هي رحبة وقوية ومزدحمة امبراطوريات الظلام الوثني والضلال المحمدي ! بل ما أكثر الأرض التي فقدتها الكنيسة في كل من آسيا وأفريقيا !"(٢٩).

وكان تزاوج التطورات الدينية والعلمانية التاريخية والنبوءات هو الموضوع الذي تناوله العديد من المنظرين اللاهوتيين والوسطاء التبشيريين. فقد رأى إدوارد دور غريفيث Edward Dorr Griffith، عميد كلية وليامز تأثير اللطف الإلهي في الإنشاء المتزامن للجمعيات التبشيرية البريطانية وظهور الحماس التبشيري في أمريكا. وكانت تلك مؤشرات دالة على أن «صهيون قد شهدت أكثر ساعاتها حلكة، وأن سناها، من الآن فصاعداً، سيواصل التألق بمزيد من البريق، حتى يوم الكمال»(٣٠) وتحدث مؤرخ ديني، هو جورج بوش George Bush عن الموعد الذي سيحدث فيه هذا الحدث الكبير، وخاصة فيما يتعلق بتطورات العالم الإسلامي. وتكهن بوش بأنه: "من المعتقد أن الأشهر الخمسة والساعة واليوم والشهر والعام، أو الـ ٥٤١ عاماً و ١٥ يوماً التي انقضت منذ ذلك العهد، من المعتقد أنها قد استهلت بالدخول الأول لعثمان، مؤسس الامبراطورية العثمانية إلى المقاطعة اليونانية نيقوميديا، لشن حربه، ٢٧ يوليو ١٢٩٩، ثم انتهى ذلك العهد في «أغسطس ١٨٤٠ بتقديم الإنذار النهائي من قوى أوروبا المتحالفة إلى محمد علي، حيث حسم مصير الإمبراطورية»(٣١).

وبالتصور نفسه لمشيئة اللطف الإلهي، رأى هنري جيسوب التأثير الإلهي في التشظي المتفاقم لعالم الإسلام، على نحو ما تجلى في الوقائع السياسية لذلك العهد. فالأحداث القريبة والثورات السياسية، بما في ذلك حرب القرم التي جعلت الإمبراطورية التركية تتشنج، واستلت نزعة التعصب المحمدية الكامنة، والتي تهدد بإيقاف المد المتعالي للنور والحرية أسفرت عن ضمان الحماية والحكم الذاتي المدني للجماعات النصرانية في تركيا... [و] أعطت إنكلترة الحق في الإصرار على «امتيازها بممارسة تلك الحماية(٣٢). وأسفر الصراع الطائفي في سوريا بأسرها، الذي هدد ا ماعات المسيحية هناك (حسب ما يقوله جيسوب) عن إقرار المزيد من الحريات والحقوق لهذه الجماعات. وحدث الشيء نفسه كنتيجة للحرب البلغارية في عام ١٨٧٧. والأكثر أهمية، كمثال على أثر مشيئة اللطف الإلهي بالدفع باتجاه مملكة

الرب، قيام الثورة العرابية في مصر في العام ١٨٧٢ وذلك عندما: «... انطلقت من جديد الروح الضارية للتعصب المحمدي الأعمى، وسال الدم المسيحي في شوارع الإسكندرية.. ومن جديد كشف تدخل إنكلترة، هزيمة عرابي، وكبح جماح الحنق الإسلامي، وتهاوي الجامعة الإسلامية التي كانت قد أضحت خطراً يتربص بالتقدم والحضارة في الشرق، كشف كل ذلك عمل تلك اليد التي لا تعرف الأخطاء سبيلها إليها وذلك اللطف الإلهي الحكيم والمجيد الذي يسيطر على جميع الأشياء تمجيداً لذاته»(٣٣).

هناك تداخل مثير للاهتمام، إلى أبعد الحدود، بين المستويين الدنيوي والديني للخطاب في كتابات المبشرين والرحالة فيما يتعلق بقدر العرب والمنطقة، فـ «تنصير» و «إنقاذ» الآخرين هما اصطلاحان دينيان صرفان يستمدان مرجعيتهما وأهميتهما من الكتاب المقدس. وكذلك الحال بالنسبة لاصطلاحي «يمتلك» ويقيم «مستعمرات» تبشيرية. غير أن التملك والاستعمار والغزو تكتسب دلالات دنيوية، وبصفة خاصة دلالات سياسية دون التخلي عن مغزاها الديني. وبهذا المعنى فإن المبشر يتجاوز الحدود القومية والقوانين والأعراف التي تحكم العلاقات الدولية في سعيه لتنصير «الآخرين». فحق التنصير والامتلاك مستمد من سلطة ومرجعية أسمى. وفي حقيقة الأمر فإن هناك في بعض الأحيان عنصر ازدراء لهذه القوانين والأعراف. وفي معرض تفسير الميل إلى الاستعمار من جانب الأمم الغربية خلص كاتب ديني – دونما اعتذار – إلى أن «النتيجة هي الاستعمار على نطاق واسع». وفيما يتعلق بالسياسات الدولية المندرجة في الأمر عقب الكاتب بقوله: «حقاً كيف ينبع الحق والعدل من حاجز واهن بل إن المعاهدات الموثّقة تتدخل لكبح جماح» استعمار باقي قارة أمريكا. وفي حقيقة الأمر عملية الاستعمار هذه "لن تتوقف عند المكسيك وأمريكا الجنوبية، ولكنها ستشق طريقها عبر المحيط الهادي والمحيط الأطلسي إلى الشواطئ الافريقية(٣٤). وقد تمّ القيام بهذا باسم الدعوة الدينية و «تحرير» الأرواح الضالة.

وأضاف المبشر والمصلح الديني مستوى آخر هو هذه المرة المستوى العنصري إلى الخطاب، فـ « الإصلاح » كان بالنسبة للكثير من المبشرين يعني «إضفاء الطابع الأنجلو – سكسوني» والكاتب نفسه في مجلة *American Theological Review* أوضح أن "طابع الهجرة والاستعمار، الذي اتسم به الأنجلو سكسونيون قد أهلهم على نحو مدهش لعمل المبشرين. وتنتمي هذه الخاصية إلى سكان بريطانيا العظمى، وكذلك إلى الأمريكي»(٣٥). وخير تعبير عن هذه المعادلة بين «التنصير» و «إضفاء الطابع الأنجلو-سكسوني» على «الآخرين» كتبه أحد المتحمسين البريطانيين في نهاية القرن. فقد طرح "أمركة العالم أو اتجاه القرن العشرين" لمؤلفه وليام ستيد William Stead برنامجاً تفصيلياً لتنصير (أي إضفاء الطابع الأنجلو سكسوني) العالم، وفي غمار ذلك عرض علاجاً دقيقاً وتفصيلياً لمصير العرب والمسلمين. وقد ساهم هنري جيسوب وسارة هيت Sarah Haight وكثيرون غيرهما من الرحالة إلى المنطقة العربية في هذا المزيج من الخطاب الديني العنصري.

ويمكن رؤية المزيد من هذا المزيج في الاستخدام المضطرب لاصطلاحات مثل «نشر النور» و «التنوير» و «التخليص» و «الإصلاح» و «معرفة (المسيح)» و «التعليم» و «الحرية (الدينية)» و «التحرير (السياسي)» وغيرها كثير. وتعد الوصفة العلاجية التي تقدم بها جيسوب في هذا المجال فعالة للغاية : "لسوف تواصل كنيسة سوريا الأنجيلكانية العمل في تنصير القبائل العربية البدوية" ولسوف يساهم المبشرون الأمريكيون في قضية الإصلاح من خلال تكريس "طاقاتهم للتوجيه في الجامعات والكليات والمدارس اللاهوتية وندوات الفتيات والعمل في النشر". وأضاف أن النساء سيتم تحريرهن، من خلال التنصير، وسوف يكن "في مرتبة سامية في بيوتهن، وبارزات في الخدمة المسيحية ". وحتى "تحت الحكم المحمدي الطغياني... فإن حكم التاريخ هو أن النزعة الطغيانية [وعلى سبيل المثال المحمدية] والاصلاح [المسيحية] لا يتمشى أحدهما مع الآخر". وتنص وصفة جيسوب العلاجية كذلك على عودة ألوف المهاجرين العرب من الغرب لكي "يجلبوا إلى

الشرق العتيق أفكار الغرب الحرة وما فيه من مبادئ أصيلة". وتطرح الخاتمة هذا المزيج من الدين والسياسة "إن الروح الدنسة تمزق الفتى أولاً، ثم تنسل خارجة منه، ولسوف ينبذ الشيطان الشرير للمقت الإسلامي المتعصب للاستنارة والحرية، ولكن علينا ألا نندهش، إذا قامت أولاً بتمزيق الكيان السياسي العثماني وتهشيمه»(٣٦).

ومن الجلي أن الوسيط التبشيري في الشرق العربي قد نظر إلى نفسه بحسبانه وسيطاً للاصلاح الديني والسياسي والاجتماعي. وبالنسبة له كانت المفاهيم الغربية عن الديمقراطية والتعليم والتحرر مفارقة على نحو مباشر للمفاهيم الشرقية عن الطغيان والجهل والتعصب. والقائمة طويلة، ولكن ارتباط الغربي والمسيحي يوضع موضع التقابل مع الشرقي والمسلم وربما كانت هذه الصورة للعرب والمسلمين أكثر انتشاراً في أذهان الجمهور الغربي خلال القرن التاسع عشر، ويمكن أن نعزو معظم هذا الجانب إلى كتابات الرحالة والمبشرين في المنطقة العربية. وسيخدمنا مثال واحد على هذه الصورة، كنموذج لما نظر الجمهور الغربي إليه على أنه يمثل العربي. ففي يونيو عام ١٨٥٣ نشرت مطبوعة *The Knickerbocker* مقالاً ضافياً عن «الاستشراق» عكس الكثير مما كتبه المبشرون والرحالة عن المسلم والمنطقة. وتنبأت «ذا نكربوكر» بأنه بالنسبة للنظام العثماني فإن «الانحلال سيشبه تحلل الحشرة، التي أطبقت عليها زهرة دونما وعي بها». ويفترض أن هذه العملية ستجري على النحو التالي: «ولكن بينما تنحل على هذا النحو، فإن عناصر جديدة تدخل كيانها السياسي، وتركيا القرن العشرين، بينما قد تكون فقدت سراويلها المنتفخة وعمامتها المنسقة معها جنباً إلى جنب مع قوميتها، وتعصبها مع دينها، وانغلاقها مع جهلها، فإنها قد تكشف عن أمجاد وموارد جديدة في ظل رعاية الحضارة الغربية. فالتقدم هو القانون الكلي لعصرنا، بل قانون وجودنا، والتركي ليس استثناء، وهو نفسه نموذج بطئ للتقدم !»(٣٧).

والديانة والحضارة الغربيتان ستحددان العلاج لروح المسلمين وجسدهم المريضين: «لسوف تتراجع تجارة القافلة التي حملت القرآن ودينه، على امتداد

الشرق، أمام عبقرية البخار. ولسوف تفقد تبريز وحلب، اللتان تاجرت أوروبا من خلالهما عبر القافلة مع آسيا الوسطى، أهميتهما عندما تكون إنكلترا قد شقت طريقها إلى المناطق الداخلية عبر السفن البخارية المبحرة في السند والفرات. ولسوف يفقد تاجر الشرق الصبور أهمية الهودج، التاجر نفسه الذي تاجر وارتحل بالطريقة نفسها، على سبيل المثال منذ عهد إبراهيم(٣٨).

وكانت النتيجة أن الهلال سوف «ينهار في نهاية المطاف، لا أمام الصليب، وإنما أمام حماس وعلم المسيحي الأكثر تفوقاً»(٣٩).

في ميدان العمل في الشرق العربي، رأى المبشر «برية» يتعين «امتلاكها» وعلى حدود الحضارة وقف في الخنادق على أهبة الاستعداد لتحقيق النبوءة، ولفرض بركات الحرية والتعليم الغربيين. وقد أشادت سارة هيت Sarah Haight في روايتها عن رحلتها إلى المنطقة بالجهود التي بذلها لتحقيق هذه الغاية الأب جوديل Goodel والأب دوايت Dwight. وقالت إن مدارسهما ومؤسساتهما «قد أقنعتني بأنهما قد تبنيا المنهاج الصحيح والوحيد، لاختراق الظلام الذي ساد هذه البلاد الضالة»(٤٠). ولاحظ مبشر متحمس، يعمل في الميدان، أن المعارضة الإسلامية للعمل التبشيري «تقف عند النهاية الآن حقاً، ويسود الانطباع تقريباً بأن أيام النزعة الإسلامية معدودة»(٤١). وتنبأ مبشر آخر، هو جون باركلي John Barclay بأن إيمان المسلم بالقدر «لايمكن إلا أن يبرهن يقيناً على أنه عنصر شلل تحت هلال الإسلام المتقلص، على نحو ما كان دافعاً ومنشطاً تحت هلاله. لقد فات أوان احتفاظ المسلم بتميزه على النحو الذي كان له في الأيام الخوالي»(٤٢). وهذه النتيجة كان يتعين الوصول إليها، من خلال أساليب مختلفة، بحسب التوجه المذهبي للمبشر المعني. فعلى سبيل المثال أدرك جي. في. سميث J.V.Smith أنه «إلى أن يتم انتزاع السكان الحاليين من الأرض، ويضرب جنس آخر من البشر جذوره بدلاً منهم، لن يكون الإنجيل أثيراً إلا لدى قلة يمكن أن يكون لها تأثير محدود في تغيير أخلاق الجميع وعاداتهم»(٤٣). واقترحت الرحالة سارة هيت طريقة لـ "انتزاع" السكان، حيث وصلت إلى أن "الغاصبين" تنبغي

"مرافقتهم بأدب جم عبر الفرات، وهناك يسمح لهم بإعادة بناء امبراطورية"(٤٤) بينما يقوم الأوروبيون بـ "إعادة تملك" المنطقة.

وكان هناك خليط كامل من التعبيرات السياسية والدينية. في أدبيات التبشير، وبصفة خاصة في تفسير مشيئة اللطف الإلهي في ضوء الأحداث الجارية، فقد نظر إلى انهيار القوة العثمانية على أنه مؤشر إلى أن «الخداع المحمدي يترنح متجهاً إلى السقوط»(٤٥). وأن الأراضي التي «فقدتها» الكنيسة سوف «تستعاد»(٤٦). ويعد تفسير جيسوب للتاريخ مثالاً جيداً لهذا الاتجاه، فقد كان مقتنعاً بأن كل شيء يحدث في المنطقة العربية هو في سياق الصراع بين الإسلام والمسيحية وأنه «في غمار الصراع بين الحضارة والهمجية لا بد للإسلام من أن يكون الخاسر»(٤٧). وخلص جيسوب ومبشرون آخرون إلى أن الإسلام في صراع مباشر مع الحضارة والتقدم.

٥ - الصور السائدة للعربي والمسلم

لن يكون من الدقة الزعم بأن مفهوماً واحداً معيناً، أو صورة واحدة محددة عن العربي والمسلم كان سائداً في الغرب، أو أن المفاهيم عن العرب والمنطقة العربية كانت النتيجة المباشرة لكتابات المبشرين والرحالة الذين قدموا إلى المنطقة وحدها، فقد كان لدى الغرب تراكم في الكتابات عن الشرق العربي على امتداد قرون، ووجدت مفاهيم عن العرب في كتابات الباحثين اللاهوتيين والرحالة والأدباء وكثيرين غيرهم.

وعلى الرغم من ذلك، فإن القرن التاسع عشر كان حداً فاصلاً في الاهتمام الغربي بالعالم العربي، فالامبراطورية العثمانية التي شكلت خطراً على قلب أوروبا ذاته كانت في ذلك الوقت تتقلص، والقوى الأوروبية في غمار عملية استعمار أجزاء كبيرة من الشرق العربي، ومضى الاستشراق والاهتمامات الأكاديمية والدينية والشعبية والسياسية بالشرق في أخذ شكل محدد. وأخذت الولايات المتحدة تظهر على نحو سريع اهتمامات وطموحات

واضحة حيال المنطقة ومصيرها. وعلى الصعيد الأكثر أهمية راح الحماس الديني التبشيري يغدو قوة كبرى في الحياة الأوروبية والأمريكية، ووصل دفق الأنشطة التبشيرية في العالم العربي إلى ذروته في القرن التاسع عشر.

وكانت كتابات الرحالة والمبشرين في أوروبا والولايات المتحدة أجناساً أدبية شديدة الرَّواج، وقد تركت بالفعل انطباعات لدى القراء وأثرت في الصور الذائعة عن العربي والعالم العربي(٤٨). وبينما لم يكن هناك مفهوم أو صورة واحدة تعد الأكثر ذيوعاً كانت هناك بالقطع سمات وخصائص غالباً مايتم ربطها بصورة العربي. وفيما يلي أمثلة معينة على هذه السمات على نحو ماصورت في روايات الرحالة والمبشرين وكذلك في كتابات أخرى في الغرب.

ظهرت نتيجة للموقف الديني الغربي من الإسلام والمسلمين والتعبير عن هذا الموقف في الأدب التبشيري صورة للعربي والمسلم بوصفه كافراً متعصباً، أبقاه إيمانه بالإسلام غارقاً في الظلام والجهل والنزعة الطغيانية. وهاهنا مثال على الكيفية التي صور بها مرجع في الغرب الإسلام والمسلمين: «من المؤكد أن محمدًا قد استغل أعظم الاستغلال مبدأ القضاء والقدر، أو بالأحرى النصيب، للمضي قدماً بمخططاته، إذ شجع أتباعه على القتال دونما خوف، بل باستماتة، لنشر دينهم، بالقول لهم إن كل حذرهم لن يحول دون حلول القضاء الحتمي، أو لن يطيل أعمارهم، ذلك أنه ليس وقت موتهم هو وحده الذي تم تحديده منذ الأزل وإنما طريقة هذا الموت والظروف المحيطة به كذلك، ومن هنا فإن كل مسلم متشدد يحسب كل محاولة لتغيير النظام السائد تمرداً على الشرائع الإلهية الراسخة، وكذلك ينظر إلى الوباء، وهو من الأمور الشائعة في تلك الأصقاع، الذي يجتاح بلاده، ويقضي على الألوف وعشرات الألوف في الشوارع، دونما بذل جهد واحد لكبح جماح تأثيراته القاتلة(٤٩).

وقدمت مطبوعة أخرى ذائعة الصيت هذه الصورة عن الإسلام والنبي محمد صلى الله عليه وسلم: «لم يكن محمد مراقباً يفتقر إلى حدة الذهن لهذه العقلية الشرقية، فهو قد التقى بالحجاج إلى الكعبة في مكة، ومدّ يد العون إلى

هذا الحب للوحدة الإلهية المطلقة. ولكن مذهبه كان مثل سلم يعقوب، فالدرجات العليا من السلم ضائعة في ألق السماء، بينما الدرجات الدنيا تنغرس وسط غمامات الأرض. وبينما توجه بالخطاب إلى المطلق مستخدماً وسيطاً حياً. هل من العجيب أنه قد توج بالنجاح وهو يوجه خطابه على هذا النحو؟ انظروا إلى تاريخه وإلى قرآنه ! لقد وعد أنصاره بفخار الفتح الذي لايعرف الحدود، وجعلهم يتحلقون حول موائد عامرة بما لذ وطاب ويتكئون على وسائد فخمة، وكشف الحجاب عن المستقبل، لا لشيء إلا ليزيح الستر عن الحور العين وأيديهن الرخصة التي تمضي بالمؤمن إلى جنات عدن».

وحملت كتابات الرحالة والمبشرين العديد من المفاهيم المماثلة عن الإسلام والمسلمين، واستمدت نتائج مماثلة من تحليلات لما شاهدوه في المنطقة.

وكانت هناك صورة أخرى للعرب، أقل تهديداً، وأكثر مخاطبة للخيال الرومانسي للجمهور الغربي. وما على المرء إلا إلقاء نظرة على الأدب الأوروبي والأمريكي، ليدرك مدى ذيوع هذه الصورة الرومانسية بين الغربيين. فقد كتبت هارييت بتشر ستو Harriet Beecher Stowe في مقدمتها لـ «ألف ليلة وليلة» تقول: «لم يكن أقل روعة ذلك الموسم الساحر عندما كان كل شيء حولي يصبح موضعاً للعبث واللهو، فيما كنت طفلة تتوق إلى دارها وهي في منزل ريفي منعزل، وتحف بنا سحابة من رؤية ذهبية، فنمضي وسط العفاريت والجنيات والقصور المسحورة والأشجار التي تثمر جوهراً وأودية الماس، وأصبحنا أصدقاء حميمين لسندباد البحار، وعرفنا كل جوهرة في نوافذ قصر علاء الدين وتبحرنا في فنون السحر وفك طلاسمه».(٥١).

وكان مشابهاً، إلى حد كبير، ما كتبه بعض الرحالة عن تجاربهم من مدن المنطقة العربية وصحاريها، فقد تجاوز جورج وليام كورتيس George William Curtis في غمار مشاهدته لزحام سوق في القاهرة التفاصيل الحاضرة لحظة، وأبحر بخياله في الصحراء العربية، فكتب يقول:

«من المستحيل ألا يشعر المرء هنا، كما في أي مكان من الشرق، بأن الطابع القومي والأخلاق قد تأثرت بالصحراء، كما تأثرت بالبحر تلك الأجناس التي تحيا على شواطئه. هذه السكينة القدرية، هذا السكون الغريب، هذه الكآبة الشاملة في جوانب حياة البشر، في أصواتهم، على نحو ما تلاحظها في حوار هادئ، أو في النفحات التي تمس القلب المواكبة لصيحات المؤذن، اللهفة الحادة وإن كانت مكبوحة الجماح التي يصفون بها قصص الحب الصحراوية الجامحة، والتي يصفها الفتى المكاري، وهو يقف مستنداً بذراعيه على حماره، وملاحقاً بعيني الخيال أقدار«أبوزيد» أو القصص الرومانسية الأكثر ثراءً الخاصة بألف ليلة وليلة - هذا كله من الصحراء - هذا هو صمتها وقد صيغ في إطار الفن والحياة»(٥٢).

وليست أقل من هذا رومانسية، وإن كانت أكثر إثارة للإشفاق، صورة بدوي الصحراء: «البدوي معتدل، ويمكن مسالمته، وهو يبدو لك همجيا حالماً. وهناك وداعة وتكاسل، بل يكاد الأمر يصل إلى انطباع بالتخنث، هو تأثير كونه ابن الشمس، وهو لايأكل اللحم، أو نادراً مايفعل ذلك، وهو يحب الناقة البيضاء بمزيد من العاطفة، ويحارب دفاعاً أو بحكم الضرورة، ويرسل أبناء الأشراف، أو المنحدرين من صلب الرسول إلى الصحراء ليصبحوا أبطالاً. وهم يمكثون هناك قرابة ثماني سنوات أو عشر، ونادراً ما يزورون عائلاتهم»(٥٣).

وقد رسم شعراً الرحالة الغربيون إلى الشرق العربي ملامح بعض الصور الأكثر شاعرية لهذا المفهوم الرومانسي عن العرب والمنطقة. وبعد عودة بيارد تيلورBayard Taler من العالم العربي، مضى في جولة محاضرات بالولايات المتحدة الأميركية، ودرج على ارتداء الزي العربي،واعتمار الغترة والعقال، وإنشاد الشعر، وهاك مثالاً عما كتبه تيلور:

١٢- المقطع الأخير

للصحراء والجواد الصحراوي
وداعاً! ها قد اكتملت الرحلة الآن،

ضُربت خيام أحفاد إسماعيل الهائمين،
وعن جبيني أزحت عمامتي.

كفت الشمس عن السطوع، والنخلات التي ماست،
سكرى بالنور، تلاشت،

ولم يعد لي شيء في الشرق
غير الصدر الذي لوحته الشمس واللحية المسترسلة.

بيد أن دمي يحتفظ من تلك الحياة بوهج،
مثلما يتوهج المغيب في الياقوت

وهذي القصائد أصداء لمعاناتها الأشد ضراوة
الأحلام التي تعيد للذاكرة عاطفتها وسكينتها.

بين ظهراني أبناء الشمس هؤلاء، وجدت
مفتاح لغز طبيعتي، خلاص

قوى حيرى، ماكان لها بغير ذلك
أن تحظى بذلك التحقق الحر الذي يكلله السلام.

ذلك أنه لأي عرق أولأي مناخ
لم يكشف مجال الحياة المكتمل،

ومن يحقق لنفسه ذلك السمو الشامخ
ينبغي أن يضرب خيمته على آفاق رحبة نائية

على داره تتألق أشعة وهج السَّحَر
لكنه عبر الدنيا يمضي في رائعة النهار

جامعاً من كل أرض التألقات الأولى
التي، عندما توحد، تشكل الأشعة الكاملة.

امضي، إذن، أيتها القصائد التي في الشرق ولدت
واجتذبي ما يغذوك من سيطرة مولاك

واضربي حسب المصادفة ضائعة في الغرب
أو اتخذي من روح شرقية ملاذاً.

وإذا كان فراغ سمائنا الأكثر برداً
يقتضي دفئنا أقل، من العاطفة والحديث،

فإن هذي القصائد براعم عمري، وإني
نضجت في شموس أراض عديدة(٥٤).

هذه النماذج لصور العرب، والمنطقة العربية،ليست إلا قليلاً مما كان متاحاً للجمهورالغربي. وكان الرحالة والمبشرون إلى العالم العربي مصدراً بارزاً ساهم في تشكيل هذه الصور.

غير أنه كما هو الحال بالنسبة لأي مفاهيم ثقافية عن «الآخر» كان العرب ومنطقتهم على الطرف الآخر والأكثر ظلاماً في الغالب من الخط الثقافي والسياسي الذي يفصلهم عن الغرب. ولابد أن ذلك قد أثر في المفاهيم المسبقة عن العرب، التي حملها المبشرون والرحالة معهم، عندما أقبلوا إلى المنطقة، وربما غيرت تجاربهم الفردية مع حقائق المنطقة إلى حد ما من هذه المفاهيم المسبقة، ولكنني أعتقد أنه في العديد من الحالات مضى المبشر الديني يبحث عن برهان لهذه المفاهيم، وعثر آخرون في الشرق العربي على تأكيد لصورتهم الرومانسية، عن العرب ومنطقتهم.

الحواشي

1. Vernon L. Parrington, "The Puritan Divines, 1620-1720", *Cambridge History of American Literature.*

2. H. Richard Niebuhr, *The Kingdom of God in America* (New York, 1937). 48.

3. Maps of the *Columbian Encounter*, 49.

4. Christopher Columbus, *Journal.*

5. Christopher Columbus, "Letter to Ferdinand and Isabella", dated 15 Feb., 1493, from the *Caravel of the Canary Islands.*

6. Maps of the Columbian *Encounter*, 51.

7. Ibid., 49.

8. ABCFM, Report of the Prudential Committee to the Tenth Annual Meeting (Boston, 1819), 29

9. Ibid., 28

10. J. V. C. Smith, *A Pilgrimage to Palestine* (Boston, 1853), 118-119.

11. Henry Harris Jessup, *Fifty-Three Years in Syria*, 2 v. (New York, 1910), 8.

12. Hemy Harris Jessup, *The Mohammedan Missionary Problem* (Philadelphia. 1879), 22

13. Ibid., 23-24.

14. Herman Melville, J*ournal of a Visit to Europe and the Levant* (Princeton, 1955), 58.

15. J. V. C. Smith, 118-119.

16. Jessup, *The Mohammedan Missionary Problem,* 137.

17.Jessup, *Fifty-Three Years in Syria,* 784.

18. Ibid.

19. Ibid.,783.

20. "Divinity of Missions," *The American Theological Review,* I (Nov., 1859). 607.

21. Samuel Worcester Two Discourses (Salem, Mass., 1805), 9.

22. Henry Harris Jessup, *The Mohammedan Missionary Problem.* 13-14.

23. Ibid., 27.

24. *The Democratic Review* (July-August! 1845).

25. Frederick Merk, *Manifest Destiny and Mission in American History* (New York,1963), iii.

26. Ibid., 25.

27. Frederick Jackson Turner, *The Frontier in American History* (New York,

1962),11.

28. Heyman Humphrey. 'The Promised Land": A Sermon. delivered at Goshen. (Conn) at the ordination of the Rev. Messrs. Hiram Bingham & Asa Thurston as missionaries to the Sandwich Islands. Sept. 29. 1819 (Boston, 1819), 51.

29. Ibid., 8.

30. William R. Hutchison, *Errand to the World,* (Chicago, 1987), 55.

31. George Bush, *The Life of Mohammad Founder of the Religion of Islam. and of the Empire of the Saracens,* (New York, 1847), 479.

32. Jessup, The Mohammedan Missionary Problem 23.

33. Jessup, Sermon Delivered at the Opening of the General Assembly of the Presbyterian Church America at Saratoga, May 15th, 1884 (Saratoga, 1884), 25.

34. "The United States: A Commissioned Missionary Nation," 154, 156.

35. Ibid.

36. Jessup, Fifly-Three Years in Syria, 790.

37. "Orientalism," *The Knickerbocker*, v. XLI, no. 6 (June7 1853), 487.

38. Ibid., 489.

39. Ibid., 490.

40. Sarah Rogers Haight, *Letters from the Old World by a Lady of New York,* 2 v. (New York, 1840), I:45-46.

41. J. T. Barclay, *The City of the Great King,* (Philadelphia, 1858), 598.

42. Ibid., 599.

43. Smith, 118-119.

44. Haight, I:263.

45. ABCFM, The Second Report (February 7, 1812), 14.

46. Ibid.

47. Jessup, *The Mohammedan Missionary Problem,* 94.

48. On the popularity of travel literature, see *Islam and Arabs in Early American Thought: The Roots of Orientalism in America,* Chapter 6.

49. Hannah Adams, *A Dictionary of Religions and Religious Denominations,* (Boston, 1817), 160.

50. *The Knickerbocker,* 483.

51. Harriet Beecher Stowe (ed.), *A Library of Famous Fiction,* (New York, 1873), viii.

52. George William Curtis, *The Howadiji In Syria,* (New York, 1856), 3, 4.

53. Ibid., 59.

54. Bayard Taylor, *Poems of the Orient,* (Boston, 1856).

المراجع

ABCFM. See American Board of Commissioners for Foreign Missions.

Adams, Hannah. *A Dictionary of Religions and Religious Denominations*, (Boston: Cummings and Hilliard, 1817).

American Board of Commissioners for Foreign Missions. First Ten Annual Reports, 1810-1820 (issued in one vol.). Boston, 1834.

Barclay, J. T. *The City of the Great King; or, Jerusalem as it was, as it is, and as it is to be*, (Philadelphia: James Challen, 1858).

Bush, George. *The Life of Mohammad. Founder of the Religion of Islam, and of the Empire of the Saracens* (New York: Harper, 1847).

Columbus, Christopher. *Journal.*

"Letter to Ferdinand and Isabella." 15 Feb. 1493.

Curtis, George William. *The Howadiji in Syria,* (New York: Harper, 1856).

Nile Notes of a Howadiji. New York: Harper, 1851.

"The Divinity of Missions," *American Theological Review,* I (Nov. 1859): 605-618.

Height, Sarah Rogers. *Letters from the Old World by a Lady of New York*, 2 vols. (New York: Harper, 1840).

Humphrey, Heyman." The Promised Land" : A Sermon. delivered at Goshen (Conn.) at the ordination of the Rev. Messrs. Hiram Gingham & Asa Thurston. as missionaries to the Sandwich Islands. Sept. 29. 1819. (Boston: Samuel T. Armstrong, 1819).

Hutchison, William R. Errand to the World: *American Protestant Thought and Foreign Missions,* (Chicago: The University of Chicago Press, 1987).

Jessup, Henry Harris. *Fiftv-Three Years in Syria,* 2 v. New York: Fleming H. Revell, 1910.

The Mohammedan Missionary Problem (Philadelphia: Presbyterian Board of Publications 1879).

"Foreign Missions" : Sermon Delivered at the Opening of the General Assembly of the Presbyterian Church America at Saratoga, May 15th. 1884 [n.p.] Published by Friends of Foreign Missions, 1884.

Maps of the *Columbian Encounter.*

Melville, Herman. *Journal of a Visit to Europe and the Levant.* Oct. 11. 1856 Mav 6. 1857. Edited by Howard C. Horsford. (Princeton: Princeton University Press, 1955).

Merk, Frederick. *Manifest Destiny and Mission: in American History*, (New York: Alfred A. Knopf, 1963).

Niebuhr, H. Richard. *The Kingdom of God in America,* (Chicago, New York: Wallet, Clark, 1937).

"Orientalism." *The Knickerbocker,* 41 (June 1853).

O'Sullivan, John L. *The Democratic Review*, (July and Aug., 1845).

Parrington, Vernon Lewis. "The puritan Divines, 1620-1720," *Cambridge History of American Literature*, V. I. (New York: G. P. Putnam, 1917-21). 4 v.

Sha'ban, Fuad. *Islam and Arabs in Early American Thought: The Roots of Orientalism in America*, (Durham, North Carolina: The Acorn Press, 1991).

Smith, J. V. C. *A Pilgrimage to Palestine*, (Boston: David Clapp, 1853).

Stowe, Harriet Beecher (ed.). *A Library of Famous Fiction: Embracing the Nine Standard Masterpieces of Imaginative Literature*, (New York, 1873).

Taylor, Bayard, *Poems of the Orient,* 5th ed. (Boston: Ticknor and Field, 1856).

Turner, Frederick Jackson. *The Frontier in American History,* (New York: Holt, Rinehart and Winston, 1962).

"The United States a Corn missioned Missionary Nation." *American Theological Review*, I (1859): 152-173.

"ما لا تستطيع العين أن تراه قد لا يكون له وجود . . ."

التحديات الواقعة والمتخيلة لوضع بريطانيا في الخليج

الدكتورة فراوكة هيردبي

دكتوراه في التاريخ (جامعة برلين ١٩٦٧)
مركز الوثائق والبحوث في أبوظبي
ألمانية

من نتاجها :

«التحول الاجتماعي والسياسي للعاصمة برلين بين عامي ١٩١٢ و ١٩٢٠» (ستوتغارت١٩٦٩).

«من دول المصالحة إلى دولة الإمارات العربية المتحدة : مجتمع في طور التحول» (لندن١٩٨٢).

«الجذور التاريخية لدول مجلس التعاون الخليجي» (بون ١٩٨٣).

ولها عدد من البحوث بالانكليزية والألمانية والفرنسية نشرت في مجلات بحثية وكتب وألقيت في ندوات حول ملامح التاريخ الاجتماعي لدول الخليج.

مقدمة

يصف جورج لينكوفسكي في كتابه "الشرق الأوسط في الشؤون العالمية" التنافس البريطاني – الروسي بأنه "مرض مزمن تقريباً... اعتاد عليه الحكومة والرأي العام البريطانيان". وهو يتابع بتقرير فيقول إن "استقلال فارس في القرنين التاسع عشر والعشرين لم يتم إضعافه على نحو خطير، إلا عندما كانت بريطانيا وروسيا على استعداد – نتيجة لتدخل خارجي – لتنحية تنافسهما جانباً"(١). ويمكن النظر إلى الدور الألماني في الخليج وفارس على أنه مثل هذا "التدخل" على وجه الدقة في انعدام الثقة المتبادل الذي يحكمه توازن دقيق.

ويمكن العثور على إيضاح بديع للمسار المتردي الذي مضت فيه العلاقة بين بريطانيا وألمانيا خلال الفترة الممتدة من العقد الأخير من القرن التاسع عشر إلى نهاية الحرب العالمية الثانية من خلال النظر إلى التطورات التي وقعت في منطقة الخليج على امتداد هذه الفترة، وذلك مثال بليغ على الطريقة التي يمكن للأفكار المتخيلة أن تحكم بها السياسة الخارجية لأمة من الأمم، عندما تصبح البقع غير المرئية ثقوباً سوداء، حيث لا يؤخذ إلا القليل مما يراه المرء ويسمعه من الجانب الآخر على ما هو عليه، ولكن بدلاً من ذلك تفسر الأمور بطريقة يبدو كل شيء معها مندرجاً في صورة يرغب المرء أن يراها. وهكذا فإن ألمانيا القيصر الثالث بدت وكأنها قد عقدت العزم على تجاهل مؤشرات التحذير من تغيرات الطقس في أوروبا، فالمرء لم "يرغب" في رؤية أن بريطانيا وروسيا وفرنسا كانت بسبيلها إلى التقارب، الذي من شأنه أن يترك ألمانيا في عراء العزلة(٢) ومن ناحية أخرى فإنه ما إن استقر رأي القيادة والرأي العام البريطانيان على أن ألمانيا قد أصبحت المنافس الأول، وبصفة خاصة خارج أوروبا، حتى أمكن إلقاء ظلال الشك على الدوافع الخفية لما يفعله الألمان في الخارج كائناً من كان.

والأمثلة على هذه الظاهرة، على نحو ما يمكن ملاحظته في تطورات منطقة الخليج، يدعمها استخدام المصادر الأولية من الأرشيفين البريطاني والألماني بصفة خاصة بقدر ما يتوافران في مركز الوثائق والدراسات بأبوظبي(٣).

لم يكن توحيد ألمانيا عام ١٨٧١ مجرد مسألة متعلقة بإعادة الترتيب على الصعيد الدستوري للعلاقات بين السياسيين والحكام، وإنما كان المثل الأعلى الممجد لما علق عليه شعب هذه الممالك الأربع والثماني عشرة دولة الأخرى والمدن الثلاث الحرة الآمال على امتداد القرن التاسع عشر. وبعد إنشاء هذا الاتحاد الفيدرالي، فإن الطاقة الاقتصادية للبلاد، التي ظلت حتى ذلك الوقت مفتتة، أطلق سراحها وتم المضي بها إلى تصنيع تأخر عهده، ولكنه أكثر كفاية رغم ذلك. وفي معرض دعم هذا الاتجاه نشأت الحاجة إلى الوصول إلى المواد الأولية والأسواق، وهو ما ضمنته بعض القوى الأوروبية الأخرى منذ وقت طويل. وغامر أفراد وشركات من ألمانيا في الخارج، وغالباً ما كان نجاحهم في أعمالهم مرموقاً، على الرغم من أنهم لم يحظوا في البداية إلا بالحد الأدنى من دعم البعثات الدبلوماسية والقنصلية، بالمقارنة بما حظي به رعايا القوى الاستعمارية التي سبقت في بناء المستعمرات..

وفي الخليج أيضاً وصل المشروع التجاري الألماني قبل المصالح السياسية أو التمثيل الدبلوماسي. وكانت أول شركة ألمانية في الخليج هي شركة روبرت فونكهاوس Robert Woenkhous من هامبورغ، ومدت صلاتها التجارية التي كانت قد كرستها أصلاً مع زنجبار إلى الخليج في تسعينات القرن التاسع عشر. وفي العقد الأول من القرن العشرين أرست شركة هباج Hapag الألمانية للملاحة خدمة نقل بحري إلى الخليج، وأسندت الوكالة إلى شركة فونكهاوس، التي أقامت مكاتب لها في العديد من موانئ فارس المطلة على الخليج وفي البحرين وعلى امتداد أنهار "شبه الجزيرة العربية التركية" وفي المناطق الداخلية من الأراضي الفارسية(٤). ولم يكن التجار ووكلاء الملاحة التجاريون عادة مسرورين بمثل هذه المنافسة، التي لم تكن موضعاً للترحيب من جانب أي جنسية. ونظر السياسيون في لندن، وكذلك بصورة أكبر

السلطات في الهند البريطانية، إلى هذه التطورات التجارية على أنها نذير يتحدى السيطرة الإنكليزية المطلقة في الخليج. وكانت بريطانيا قد استثمرت بشكل كبير في الخليج الطرق الأخرى المفضية إلى الهند من خلال إنشاء الخطوط التلـ رافية، والخدمات الملاحية، والقيام بدوريات بحرية، والمتابعة عن كثب للتطورات في الأراضي الداخلية البعيدة عن الشواطئ جمع ثروة من المعلومات حول الوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والصحي في المنطقة بأسرها.

وكان الهدف النهائي للعديد من السياسيين في لندن والهند وقطاع كبير من الرأي العام البريطاني إنشاء جسر بري بين مصر والهند، حيث لا يلقى الحكم أو النفوذ البريطانيّان أي منافسة. ومن هنا جاءت الجهود المتعاظمة التي قام بها البريطانيون للتعامل مع الإمبراطورية العثمانية، التي كانت تعترض الطريق بصورة راسخة. وفي السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى حاولت بريطانيا إما مصادقة الباب العالي وبالتالي التأثير عليه من خلال دبلوماسية متأنية(٥) وإما تقويض سلطة الإدارة التركية في المناطق النائية من ذلك الإقليم. ومن هنا فقد تابع الكثيرون من السياسيين البريطانيين بقلق الصلات المتزايدة في توثقها التي تطورت بين برلين والقسطنطينية، وبصفة خاصة البعثات الألمانية المكلفة بإعادة تنظيم الجيش التركي وتدريبه(٦).

ألم تكن المنافسة الفرنسية في المشرق والتهديد الروسي المستمر للطرق الشمالية المفضية إلى الهند عبئاً كافياً بالفعل على كاهل القائمين على شؤون الإمبراطورية البريطانية..؟ ولقد أضاف المشروع الدولي الذي تصدى الألمان لقيادته والخاص بسكة حديد برلين – بغداد، بصفة خاصة الخطط المتعلقة بمدها إلى شواطئ الخليج، المزيد من الأعباء على كاهلهم.

حاولت برلين حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى، حيثما كان ذلك ممكناً، تجنب استعداء بريطانيا، وبالتالي فإنها لم تسع عامدة إلى توثيق صلاتها السياسية مع منطقة الخليج، ولم تكن هناك قنصليات ألمانية إلا في

بغداد وبوشهر، وأقام مسؤولون ألمان أقل من نظرائهم الفرنسيين أو الروس في الخليج أو قريباً منه. وقد عين دبلوماسي ألماني محترف أول مرة قنصلاً في بغداد عام ١٨٩٥، وفي بوشهر المطلة على جنوبي الساحل الفارسي، التي كانت مقراً للمسؤولين البريطانيين، الذين أنيطت بهم كذلك المسؤولية عن الجانب العربي من الخليج منذ عام ١٧٦٣، انضم دبلوماسي ألماني إليهم وإلى ممثلي روسيا والعديد من الدول الأوروبية عام ١٨٩٧، وفي تلك المرحلة لم يكن الدبلوماسيون الألمان يحظون بقدر من عدم الترحيب من جانب البريطانيين يتجاوز ما يحظى به دبلوماسيو أي دولة أخرى. وعكس وجودهم النمط المتغاير للاقتراب والرفض من جانب كل من بريطانيا وألمانيا إحداهما للأخرى في إطار لعبة القوى الأوروبية في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر. وفي السنوات السابقة لاندلاع الحرب مباشرة أصبحت المواقف على الجانبين أكثر عداء بصورة متفاقمة مع وصول بعض المسؤولين البريطانيين في الهند، ومنهم على سبيل المثال ميجور (وفيما بعد سير) بيرسي كوكس Major Percy Cox والذي تملكته حالة من الفزع والارتياب فيما يتعلق بأي نوع من النشاط الألماني في المنطقة.

البارون فون أوبنهايم - باحث أم عميل محرض ..؟

عندما قام نبيل ألماني شاب معتمد على مصادره المستقلة مالياً، وقدر له بفضل خلفيته القانونية أن يتولى منصباً حكومياً، بالسفر من القاهرة عبر سوريا والرافدين والخليج إلى الهند في عام صيف ١٨٩٣ سجل المسؤولون البريطانيون تحركاته على نحو واف. وقد زار البارون ماكس ڤون أوبنهايم Baron Max von Oppenheim القنصل البريطاني في بغداد موكلر Mockler والمعتمد في مسقط سيرجيون ياياكار Surgeon Yayakar. وقد استقبل بالطريقة المعتادة، القائمة على الانفتاح والود، التي يعامل بها أي رحالة أوربي وفقاً للعرف الذي درج عليه هؤلاء القائمون على خدمة التاج البريطاني في المناطق النائية. وكان أوبنهايم آنذاك في الثالثة والثلاثين من العمر. وقد درس القانون

في ألمانيا، ثم سافر إلى المغرب، حيث بدأت علاقته التي ستدوم طوال عمره وانشغاله بالعالم الإسلامي والشرقي.(٨) ولكي يتعلم اللغة العربية مضى للإقامة في القاهرة، حيث وطد العديد من الصداقات التي دامت طويلاً مع المصريين ومع تجار ورحالة ومثقفين عرب أقبلوا إلى القاهرة في وقت كان فيه العالم العربي في مرحلة إعادة تقييم لجوانبه الروحية والثقافية.

في عام ١٨٩٦ عاد أوبنهايم إلى القاهرة بصفة ملحق، وأخذ يعمل مع القنصلية الألمانية العامة في القاهرة في دور غير مألوف إلى حد ما، فقد تم الإقرار في برلين بأن الحكومة الألمانية بصفة عامة ووزارة الخارجية بصفة خاصة لديها معلومات محدودة للغاية عن الدول الناطقة بالعربية والعالم الإسلامي باستثناء الكتب والمقالات العديدة ذات الطبيعة البحثية الخالصة المؤلفة باللغة الألمانية، التي لا تلقي الكثير من الضوء على الأوضاع الراهنة في دول الشرق. ولم يكن أوبنهايم قد قام فقط بجمع معلومات مباشرة عن الدول العربية والإسلامية التي زارها، وإنما كان بمقدوره كذلك أن يجعلها في متناول الآخرين ومفيدة لهم في سرد مباشر لروايات رحلاته وكذلك في شكل أكاديمي يعكس بحثاً وتوثيقاً دقيقين، وكان حريصاً على العودة إلى العالم العربي، ولأنه اختار أن يحصل على نصيب من ثروة أبويه المتراكمة في مصرف أسرته في كولونيا، فقد توافرت له أسباب السفر إلى أرجاء نائية أو الاستقرار حيثما مضى به اهتمامه، ولكنه رحّب بالفرصة لجعل أبحاثه أكثر أهمية وجدوى بالمساعدة في ردم هوة المعلومات الواضحة في دوائر المسؤولين في ألمانيا حول الأمور والبلاد الشرقية. وتم "إلحاقه" بالقنصلية العامة بالقاهرة، وواصل أبحاثه، ووفر النتائج بصورة مباشرة لوزارة الخارجية، وكان ذلك في شكل تقارير إضافية يدور كل منها حول موضوع محدد. وفي غضون ثلاثة عشر عاماً ملأت تقاريره اثني عشر مجلداً(٩). وتراوحت الموضوعات التي كتب عنها بين اقتصاديات المنطقة إلى تاريخ حركات دينية أو سياسية بعينها، إلى أشجار أنساب العائلات الحاكمة والتفاصيل القبلية والجغرافية بالشكل الذي وصل به المسؤولون البريطانيون

إلى مرحلة الكمال في الإمبراطورية الهندية وحولها. ولما كان حراً تماماً في اختيار موضوعات دراسته، ولا يعوقه روتين الدبلوماسي المحترف فقد كان بمقدوره كذلك أن يكرس وقته لإنجاز أعمال ذات مستوى أكاديمي رفيع للغاية. وقد نشر النموذج الأول لهذا خلال العام الأول الذي أمضاه أوبنهايم في القنصلية العامة في القاهرة. وكان مقالاً ضافياً في مطبوعة أكاديمية مصحوباً بخارطة مفصلة للمناطق التي ارتحل فيها خلال عام ١٨٩٣ من دمشق إلى بغداد(١٠). وشمل كذلك صفحات عديدة تتألف من فهرس ألفبائي بالأماكن والقبائل والشخصيات. وورد في النص وصف لكل شيء مثير للاهتمام صادفه على امتداد الطريق.

واقتضى الأمر سنوات طويلة قبل أن يتم الوصول بصورة الرحلات التي استكملت بقدر كبير من أعمال البحث إلى المستوى المنشود : فقد أصبحت كتاباً مرجعياً في مجلدين عن المناطق التي مر بها، بما في ذلك الخليج، عام ١٨٩٣ مع إيضاحات مفصلة ورسوم ومقتبسات وصور وفهرس وكذلك بعض الملاحظات الشخصية(١١). وقام أوبنهايم متبعاً عرفاً سلوكياً مستقراً بتقديم مخطوط عمله هذا إلى السلطات "للنظر فيما إذا كانت هناك أي اعتراضات على أسس سياسية أو ما إذا كانت أي أجزاء من المخطوط يفضل أن تبقى دون نشر بسبب حساسيات سياسية"(١٢). وهكذا فإن الصناديق الضخمة التي تضم المخطوط والرسوم الإيضاحية أرسلت من القاهرة إلى مكتب المستشار الألماني(١٣) في برلين، وكان من الجلي أنه يثق في خبرة القنصل العام الكونت ميترنيخ Count Metternich لأن المادة أرسلت على عجل من هناك إلى الناشرين.

وقد كرس أوبنهايم نفسه بهذا الكتاب بوصفه مستشرقاً في ألمانيا وفي صفوف الباحثين الأوروبيين(١٤). غير أنه من سوء الطالع أن قلة محدودة من الناس في الدول الأخرى الذين كانوا على القدر نفسه من الارتباط بالشرق كان بمقدورهم تقويم هذا الكتاب وإدراك نطاق العمل الأكاديمي الذي بدأ يصبح شغل أوبنهايم الشاغل. هذه الأنشطة الأكاديمية لأوبنهايم كانت غائبة عن المسؤولين البريطانيين الذين كان عملهم يتضمن كذلك تجميع المعلومات

عن بلاد الشرق وأقاليمه أو الذين تعاملوا بوصفهم دبلوماسيين وسياسيين مع هذ المجال وذلك لعدم قدرتهم على قراءة اللغة الألمانية لذا توجهت أنظار هؤلاء المسؤولين البريطانيين إلى الدور الغامض الذي يقوم به هذا المستعرب الألماني، الذي كان يقيم في دارة منيفة بالقاهرة، زارها عرب وأفارقة من كل المهن والحرف من أولئك الذين سافر هو بدوره إلى بلادهم، وأقام في القصور أو الخيام التي أقاموا فيها واحتمل مصاعب جمة، وواجه أخطاراً لا يستهان بها خلال رحلته. ألم يبلغ كل ما هو جدير بالملاحظة للسلطات الألمانية..؟ كيف يمكن ألا يكون مجرد جاسوس عادي..؟ لقد بدأ بالتأكيد ومن المهم أن تراقب السلطات البريطانية والفرنسية البارون عن كثب !

أنجز البارون أوبنهايم تقارير ومذكرات، غالباً ما كانت مسهبة للغاية، حول موضوعات بالغة التنوع وعن نطاق جغرافي بالغ الاتساع في العالم الإسلامي. وتشمل هذه القائمة موضوعات مثل تغير حاكم زنجبار، وبعثة بريطانيا إلى أثيوبيا، وتاريخ الاختراق التركي لمصر، ووجهات نظر السنوسيين فيما يتعلق بخلافة الأتراك العثمانيين، والاضطرابات في صفوف البدو المصريين الذين أرادوا الهجرة إلى سوريا، وتجارة الأسلحة في اليمن والظروف السائدة في الصومال. وهذه القائمة وحدها تقدم أمثلة على تنوع الموضوعات التي تناولها أوبنهايم، كما أن معظمهايعطي خلفية تاريخية للتطورات الجارية وقتها في تلك البلاد وكانت لها أهميتها لفهم القضايا ذات الحساسية على الصعيد السياسي.

ويمكن لتقرير كتبه أوبنهايم خلال وجوده في الإسكندرية في ٢١ يوليو ١٨٩٦، الذي كان موضوعه طموحات الخديوي لإنشاء كيان لعموم العرب يتولى رئاسته، أن يكون مثالاً على طبيعة تنوع تقارير أوبنهايم. وهو هنا يعلق على التوقعات المحدودة التي يمكن انتظارها من مثل هذه الخطة في المناطق المتعددة من شبه الجزيرة العربية التي يسيطر عليها الأتراك، ويكتب قائلاً : «في معظم أجزاء هذه المنطقة الشاسعة ليس التركي إلا غريباً في حقيقة الأمر، بل وحتى في المدن الكبرى فإنه نادراً ما يتجاوز كونه موظفاً

مدنياً أو جندياً.» ويوضح أوينهايم، «أن الأتراك هم سادة على السواحل وحيثما وجدت لهم حامية فحسب.» وينطبق هذا بشكل خاص على غربي شبه الجزيرة العربية والممتلكات الجديدة في الحسا وقطيف على الخليج الفارسي، كما وينطبق في بعض الأوقات على مناطق كبيرة من الرافدين. أما وسط شبه الجزيرة العربية بسكانه من البدو الأقوياء والشديدي الحماسة فهم عن بكرة أبيهم موالون لسيد البدو وكبيرهم ابن راشد.(١٥).

وشأن معظم تقارير أوبنهايم، فإن هذا التقرير كان موجهاً للمستشار الألماني، تماماً كرسائل أي دبلوماسي محترف كبير، وعادة ما كانت توزع على نطاق واسع في وزارة الخارجية، حيث كان أوبنهايم معروفاً على الصعيد الشخصي لعدد من الشخصيات ذات النفوذ. ومن هنا فإن وجهات نظره فيما يتعلق بالشؤون الشرقية والإسلامية كان لها بعض الصدى في برلين قبل وقت طويل من إعطاء الحرب فرصة له لكي يصبح منخرطاً بصورة نشطة في السياسة الألمانية في الشرق.

وكان وسط شبه الجزيرة العربية إحدى المناطق التي اعتزم أوبنهايم أن يستكشف عنها الكثير، إضافة لما يعرفه خلال وجوده في القاهرة. كانت هذه المنطقة قد أصبحت موضع اهتمام كبير من جانب السلطات البريطانية في الخليج، حوالي نهاية القرن. وكان القتال ما يزال يدور حول القيادة العليا للعرب في داخل شبه الجزيرة، ولكن من المؤكد أن السلطات البريطانية في الهند أرادت أن يكون لها نفوذ قوي على الحاكم – أو الحكام – في أرض ظهير الشواطئ الشمالية الغربية للخليج. ومن شأن سيطرة تتصف بأنها أكثر من اسمية على هذه المناطق لم تحظ بالقبول والترحيب من جانب هذه السلطات. وكان التغيير العنيف للقيادة في الكويت حوالي ذلك الوقت على وجه الدقة يضع هذه القضايا موضع الاختبار(١٦). ولم يكن من المحتمل أن تنظر بريطانيا إلى زيارة مستشرق ألماني للممثلين المختلفين في لعبة القوى الجارية هذه على أنها تمرين بحثي محض، قصد به أن يخدم الأكاديميين وحدهم. وقد سادت مثل هذه الاعتبارات داخل القيادة الألمانية عندما تم في

خريف عام ١٩٠٠ سحب التصريح الأصلي للبارون فون أوبنهايم بقيادة بعثة لوسط شبه الجزيرة العربية، على الرغم من أنه كان هناك دعم وتشجيع لها على أعلى مستوى. وكان الامبراطور وليام الثاني Emperor William II قد دعا أوبنهايم في وقت سابق من ذلك العام إلى "القصر الجديد" في برلين ليقدم عرضاً لتفاصيل رحلته عبر سوريا إلى الخليج، مروراً ببلاد الرافدين. وقد استخدمت وزارة الخارجية التحذير الذي أصدره الوالي التركي على سوريا، والذي نقلته السفارة في القسطنطينية لتبرير تأجيل هذا المشروع إلى أجل غير محدد(١٧) وبناء على طلب أوبنهايم(١٨) أبلغ وزير الخارجية الكونت فون بولو Count v. Buelow القيصر بهذه الأسباب لإلغاء الرحلة إلى وسط شبه الجزيرة العربية.

في عام ١٠٩١ تشكل تقارير أوبنهايم عن نجد ووسط شبه الجزيرة العربية والكويت وسكة حديد بغداد مجلداً كاملاً. وبينما تدور تقاريره حول هذه الموضوعات فإنها من المحتم أن تصبح أكثر اتساعاً بالطابع السياسي وأكثر إثارة للجدل ويعكف على تدبيج وجهات نظره وتوصياته باتخاذ قرارات سياسية بعينها. فهو يكتب، على سبيل المثال قائلاً إنه عندما يسيطر الإنكليز على منطقة ما فإن أوضاعها غالباً ما تتحسن بشكل ملحوظ، وإن على المرء أن "يتمنى التوفيق للإنكليز". ولكنه يرى من الضروري أن يشجع السلطان العثماني على تأكيد وضعه في الكويت شأن أي مكان آخر في شبه الجزيرةالعربية تحت السيطرة التركية، لأن الهيمنة البريطانية على نهاية خط السكة الحديدية لن تكون أمراً مرغوباً فيه، غير أن قيام ألمانيا بالحصول على أي مستعمرات في الأراضي "التركية المحمدية" سيكون أمراً له نتائج سلبية، ومن هنا فإن محطة الإمداد بالفحم ينبغي أن تكون على جزيرة، ولتكن جزيرة فرسان على سبيل المثال، لأن "السكان المحليين" لن يثيروا مشكلات لألمانيا(١٩). وكانت وزارة الخارجية تدرك تمام الإدراك الحقيقة القائلة بأن مجرد ذكر محطة إمداد ألمانية بالفحم في الخليج يجعل اللون الأحمر يتوهج أمام عيني أي موظف مدني بريطاني في الهند تقريباً، بعد أن تلقت العديد من

التقارير حول هذا من الدبلوماسيين الألمان في بغداد وبوشهر وطهران والهند. وبينما سيكون من المناسب الحصول على المزيد من المعلومات المباشرة حول المنطقة المستهدفة للاستثمار في سكة حديد بغداد المقترحة، فقد كان من مصلحة ألمانيا بشكل أكبر أن تتجنب بأي ثمن تقريباً استعداء انجلترا، التي يمكن مالم يحدث هذا أن تتقارب مع روسيا.

ومن هنا فإنه اعتباراً من نهاية القرن فصاعداً طرحت أنشطة أوبنهايم مشكلات على السلطات الألمانية بالقدر نفسه الذي كانت به أبحاثه التي لا تعرف الكلل حافلة بالمعلومات وموضع ترحيب. ومع ذلك فقد ساد الاعتقاد بالفعل بأنه لن يستشيط البريطانيون غضباً إذا مضى أوبنهايم إلى الأجزاء التركية حقاً من آسيا الصغرى. ولكن بحلول ذلك الوقت كان حماس أوبنهايم للموضوعات الاقتصادية السائدة لا يعرف إلا قيوداً محدودة للغاية. وفي عام ١٩٠٢ أجرى أبحاثاً بشيء من التفصيل على العوائد المحتملة من أراضي امتياز السكة الحديدية فيما يتعلق بمصادرها الزراعية والمعدنية والسكانية. وقد أثار وجوده في تركيا التعليق، حتى في الولايات المتحدة(٢٠). وبعد هذه الرحلة القصيرة إلى حد كبير فيما وراء حلب، قام أوبنهايم وفي الغالب من تلقاء ذاته – بالانغماس بعمق في التخطيط لسكة حديد بغداد. ومضى إلى أمريكا لدراسة الطريقة التي يتم بها دفع تكاليف رأس المال الخاصة بالسكة الحديدية من خلال عمليات تأجير الامتيازات الخاصة بالتنقيب عن المعادن ومواقع البناء والأراضي الزراعية...إلخ على امتداد الخط. وكتب تقريراً مفصلاً للغاية حول الكيفية التي يمكن بها أيضاً استغلال هذه الأساليب في سكة حديد بغداد.

عندما تم إنهاء عمل أوبنهايم في القنصلية الألمانية العامة في مصر عام ١٩٠٩ كان ذلك لأنه قد أصبح، بحسب تعبيره " أسمر قليلاً" بالنسبة للبريطانيين والفرنسيين وجانب من الصحافة المصرية خلال السنوات الأربع المنصرمة. ولم يكن السبب الجذري تعمقه في بحث الوضع البريطاني في بلاد الرافدين وخطط بريطانيا المتعلقة بالنفوذ في وسط شبه الجزيرة العربية ورد فعل العرب على هذا، ولا انغماسه في التخطيط لسكة حديد بغداد، وإنما كانت

المشكلة الرئيسية دوره المزعوم في الدعوة إلى النزعة العربية وتحريض العرب على الإطاحة بالحكم البريطاني والفرنسي. وقد تشكك بشكل خاص لورد كرومر Lord Cromer الذي لم يرغب في رؤية مابناه في مصر منذ عام ١٨٨٣ وهو موضع تحد من القادمين الألمان الجدد إلى الساحة – في أن أوبنهايم هو الضالع الرئيسي في المحاولات التي تقوم بها بعض الدوائر في ألمانيا للقيام بمحاولة على نحو نشط لتقويض الوضع البريطاني في المنطقة(٢٢). وقد قامت الحكومة البريطانية في ذلك الوقت بتحويل أنشطة أوبنهايم إلى قضية كبرى، وواجهت الدبلوماسيين والوزراء الألمان صراحة بشكاواها. ووصلت الأمور إلى ذروتها في مايو ١٩٠٦ في أعقاب نزاع حدودي في العقبة، بل إن القائم بالأعمال الألماني فيدل Wedel ظن أن من الحكمة أن يزور اللورد كرومر بعد ساعات فحسب من عودته من الإسكندرية لـ "مناقشة الشائعات الخاطئة حول مكيدة ألمانية" وأبلغ اللورد كرومر فيدل بأن هناك علامة استفهام كبرى تدور حول وضع أوبنهايم الغريب في القنصلية الألمانية، وسأل عن السر في تعود البارون على زيارة مصطفى كمال باشا ومختار باشا، وكل منهما زعيم معروف للدوائر الإسلامية المناهضة لبريطانيا. وشدد اللورد كرومر على أن ما من قدر من التفسير سيجعل عامة الناس والصحافة يعتقدون أن أوبنهايم هو مجرد باحث، وبالتالي فإنه طالما ظل أوبنهايم مقيماً في القاهرة فإن النوايا الألمانية "ستظل على الدوام موضع شك بشكل من الأشكال"(٢٣) وفُرض ضغط أكثر قوة لإبعاد أوبنهايم من القاهرة من جانب لندن، عندما تحدث وكيل وزارة الخارجية سير تشارلز هاردنج Sir Charles Hardinge ووزير الحرب هالدان Haldane بشكل منفصل مع السفير الألماني في لندن الكونت مترنيخ Count Metternich في حوالي ٨ مايو ١٩٠٦ زاعمين أن أوبنهايم كان له ضلع في طبع منشورات داعية للحركة الإسلامية وتوزيعها. ولكنه عندما طولب الوزيران بتقديم تفاصيل واقعية رفض كلاهما تقديم أي منها. كما رأيا ميولاً معادية لبريطانيا في اتصال أوبنهايم القديم العهد بمختار باشا والقادة الآخرين لحركتي الإحياء العربية الإسلامية(٢٤).

وكان رد الفعل الأولي لدى الدوائر الرسمية الألمانية هو الاستياء حيال مستوى جنون الارتياب البريطاني في هذا الموضوع، وعقدت العزم على عدم الخضوع لمثل هذا الضغط بسحب أوبنهايم من القاهرة. ونصح وزير الخارجية فون شيرشكي V. Tschirschky في ١٤ مايو ١٩٠٦ شتوم Stumm الذي خلف الكونت مترنيخ Cont Metternich بأن يوضح لهم أن أوبنهايم ليس دبلوماسياً، ويمكن اعتباره نبيلاً يقيم في القاهرة ومستغرباً أن يتوقع منه أن تكون له صلات بالكثير من المصريين الذين ينتمون إلى اتجاهات سياسية مختلفة، ومع ذلك فإن هذه الاتصالات لن تعني أن ألمانيا قد ساندت وجهات نظر هؤلاء الناس(٢٥). ولكن شتوم لم يقدر له النجاح في تهدئة أي من الوزيرين لأن شيرشكي كتب إلى شتوم مجدداً في ٢٦ مايو مشيراً إلى أنه إذا كان بمقدور الجانب الانكليزي حقاً أن يجلب دليلاً على أنشطة تخريبية فإن أوبنهايم سيوقف إلحاقه على القنصلية العامة، ومع ذلك فإنه سيظل بمقدوره مواصلة الإقامة في القاهرة، وستكون للسلطات الألمانية سيطرة أقل عليه، وهو موقف ليس من شأنه حقاً أن يكون في مصلحة إنكلترة بدورها(٢٦).

واتخذ الأمر بالفعل أبعاداً كبيرة للغاية بحيث إن وزارة الخارجية طلبت من القنصل العام في القاهرة برنشتوف Bernstorff أن ينصح أوبنهايم بالتقليل من أنشطته، وخاصة من اتصالاته برجال الحركة الإسلامية. وبحلول ذلك الوقت أدرك برنشتوف أن من المهم بالنسبة له أو لأي قنصل ألماني عام في القاهرة أن يقرر ما إذا كانت الاتصالات مع الإسلاميين تساوي المخاطرة بعدم الثقة الإنكليزية والتشكك المستمر في مواجهة ألمانيا(٢٧). وكان السفير الألماني في القسطنطينية فون مارشال V . Marschall قد سمع أيضاً الكثير من الشائعات عن نشاط أوبنهايم. وكان بمقدور هذا الأخير تفنيد كل هذه المزاعم التي طرحت بالفعل وفصلت بنودها(٢٨). ولكنه فقد على نحو جلي الكثير من التأييد الذي منحته إياه الوزارة والدبلوماسيون الألمان واهتمامهم بعمله. وهكذا تم في مايو ١٩٠٧ إبلاغ أوبنهايم بأن زيارته المقترحة للقسطنطينية "ليست موضع ترحيب"(٢٩). ومنذ ذلك الوقت قلت

تقارير أوبنهايم إلى برلين، وهو الذي كان في يوم ما كاتباً غزير الإنتاج. وبدلاً من ذلك فإن الملف يضم المزيد من المزاعم ضده، وبصفة خاصة في رسالة كتبها بالفرنسية سوري وجهها إلى عضو البرلمان الألماني الكونت فون هيرتلنج Count v. Hertling واتهم فيها أوبنهايم بتقديم القنصل الألماني العام البارون فون هاتزفيلد Baron v. Hatzfeld لشخصيات غير مناسبة في القاهرة(٣٠) وعلى الرغم من أن المسؤولين واصلوا النظر إلى هذه الحملة ضد أوبنهايم على أنها ليست إلا جزءاً من جهد أوسع نطاقاً قصد به الإساءة إلى ألمانيا وزعزعة الثقة فيها، فإن ارتباطه المستمر بالقنصلية العامة أصبح شيئاً لا يمكن الدفاع عنه وإحراجاً لكل الأطراف. وهكذا فإنه في شتاء ١٩١٠ لم يعد أوبنهايم إلى القاهرة بعد إجازته.

أصبح علم الآثار يحظى بالمزيد من الأهمية في أبحاثه. غير أنه لم يستطع التركيز على ذلك الجانب وقتاً طويلاً، لأنه بعد أيام من اندلاع الحرب العالمية الأولى طلب منه أن ينشئ ويدير مركز معلومات عن الشرق، عرف باسم "Nachrichtenstelle" وكانت الفكرة أنه يتعين عليه أن يقدم معلومات عن تطورات الشرق الأوسط إلى وزارة الخارجية، لكي تتمكن بدورها من توجيه النصح إلى العسكريين إذا اقتضى الأمر. وكان يُتوقع من مركزه كذلك أن يفكر وينسق في سبل التأثير في السكان المحايدين في مسرح عمليات الحرب الشرقي. كما تصدرت قائمة الأولويات كذلك مهمة تحقيق فهم أفضل لتركيا التي حاولت ألمانيا تأمين وضعها كحليفة لها. وهكذا عاد البارون فون أوبنهايم إلى ساحته من جديد، وأصبح من الممكن الآن صرف النظر عن الحساسيات الإنجليزية.

وتملأ جهود مركز المعلومات عن الشرق والأنشطة المنطلقة منه وتنسيقه مع السلطات العسكرية، فيما يتعلق بالشرق الأوسط البعيد، ٣٤ مجلداً من ملفات وزارة الخارجية(٣١). وهي تلقي ضوءاً مثيراً للاهتمام على عدم كفاية الخارجية الألمانية، وحدود فرقة أوبنهايم المؤلفة من رجل واحد، والافتقار الأولي للتنسيق مع السلطات العسكرية. كما أنها توضح بجلاء أن العسكريين الألمان لم يركزوا على هذه المنطقة قبل اندلاع الحرب، وأنهم لم يكونوا يتوقعون أنه سيتعين عليهم

أن ينشطوا بأي شكل يعتد بـه إلـى الشرق أو الجنوب من البلقان. وتحمل جميع الأنشطة والحملات التي تم تطويرها رغم ذلك في الشرق في غمار الحرب جميع سمات الإجراءات المتخذة لغرض محدد. وحيثما تم تحقيق بعض النجاح من خلال التحريض والحملات العسكرية الألمانية المحدودة على امتداد الشرق الأوسط، فإن هذا كان راجعاً، ليس إلى الموارد الكمية أو الكيفية المتاحة لهذه المهام، وإنما إلى حد كبير إلى السخط في صفوف بعض الشعوب الشرقية على الدور البالغ القوة الذي لعبته بريطانيا وفرنسا بالفعل في بعض المناطق أو بدا لهما أنهما ستضطلعان به بعد الحرب في مناطق أخرى.

فيلهلم فاسموس - بارون قاطع طريق أم بطل استقلال..؟

في "مركز معلومات عن الشرق" الحديث الإنشاء وقعت بداية إحدى الوقائع الأكثر إثارة للدهشة في الحرب العالمية الأولى، فقد عقد الاجتماع المخصص لتنظيم بعثة ألمانية - تركية إلى أفغانستان بعد أيام قلائل من اندلاع الحرب بين ألمانيا وبريطانيا في أغسطس ١٩١٤، وكانت من بنات أفكار أنور باشا وزير الحربية التركي. وكان الهدف منها هو دفع أفغانستان إلى "الجهاد" ضد البريطانيين في الهند. وقد تبنى البارون فون أوبنهايم هذا المفهوم بمزيد من الحماس وحرص على التيقن من أنه على الأقل خلال الأشهر القليلة الأولى فإنه حتى الجوانب العسكرية كلها من المشروع سيقوم بتنسيقها مكتب المعلومات التابع له(٣٢).

وقد زار فيلهلم فاسموس Wilhelm Wassmus بمحض المصادفة رؤساءه بوزارة الخارجية الألمانية في برلين في اليوم نفسه الذي عقد خلاله الاجتماع الأول الخاص ببعثة أفغانستان. وكان قد عاد لتوه من بوشهر، حيث كان يعمل قنصلاً للمرة الثانية خلال غياب شاغل المنصب الأقدم في السلك القنصلي وهو ليستمان Listemann(٣٣). وكان بيرسي كوكس Percy Cox، وهو في ذلك الحين نجم بازغ وسط المسؤولين من الهند البريطانية في الخليج مقيماً سياسياً للخليج

في بوشهر، طوال معظم الوقت الذي أمضاه فاسموس هناك(٣٤) وعندما شاهد فاسموس أول مرة مدى السيطرة البريطانية على موانئ فارس المستقلة وما وراءها(٣٥) واجه الرجلان صعوبة كبيرة في علاقتهما بوصفهما زميلين. ولدى عودة فاسموس في عام ١٩١٣، الذي كان في الثالثة والثلاثين من عمره، إلى بوشهر كان ضليعاً باللغة الفارسية الفصحى والعامية ومتمرساً في الأدب الفارسي. وعندما غادر بوشهر مرة أخرى في يوليو ١٩١٤ لكي يتولى منصبه التالي في القنصلية العامة في القاهرة، لم يستطع أي منهما التنبؤ بالظروف التي سيلتقيان في ظلها في غضون ست سنوات.

وعندما أصبح جلياً في اجتماع للمشاركين المحتملين في بعثة أفغانستان في مقر الخارجية ببرلين أن فاسموس هو تقريباً الوحيد ذو الخبرة المباشرة بفارس ومعرفة بها، فقد تم على التو اعتماده عضواً في البعثة قائداً لها(٣٦). فغادر برلين إلى القسطنطينية على الفور تقريباً. وعانت البعثة منذ البداية من الافتقار إلى التنسيق، والتسرع الذي لا يقتضيه الأمر في اختيار المشاركين فيها، والالتزام بالاشتراك في توفير الأرصدة المالية مع السلطات التركية التي ستقود عملية تنفيذ الخطة، ومن التأجيلات في الإمداد بالمعدات والأسلحة. وما هذه إلا بعضاً من العراقيل(٣٧).

بعد عمليات تعطيل ممتدة في القسطنطينية وحلب ترجع في غالبها إلى التدخل التركي (٣٨) وصلت المفرزة إلى بغداد حيث أفلح فاسموس أخيراً في تسليم وضع القائد الذي لا يحسد عليه أحد لبعثة أفغانستان الرئيسية إلى الجيولوجي البافاري أوسكار ريتر فون نيدرمير Oskar Ritter v. Niedermayer(٣٩). وحدد فاسموس لنفسه هدفاً آخر: السعي وراء دعم قبائل جنوبي فارس ضد النفوذ البريطاني في الخليج (٤٠) ومن هنا فقد تعين عليه أن يمضي بحسبانه القنصل الألماني المعين حديثاً في شيراز(٤١). وقد اصطحب معه الدكتور ليندرز Lenders وهو طبيب ألماني مقيم في بغداد وإريك بونشتروف Erik Bohnstorff ممثل شركة فوكهاوس في بغداد وقلة من الهنود الذين رغبوا في بث الدعاية المناوئة للبريطانيين في الهند وبعض الشخصيات الفارسية البارزة من منطقة كاشيجاي أو

من أصفهان. وحملت القافلة عدداً محدوداً من الأسلحة وبعض الذهب والكثير من المنشورات الدعائية بالعديد من اللغات وغادرت بغداد في ٢٨ يناير ١٩١٥.

سرعان ما سمع السير بيرسي كوكس، الذي نقل للعمل ضابط اتصال للقوة البريطانية التي أرسلت لاحتلال بلاد الرافدين انطلاقاً من الخليج، سمع باتجاه فاسموس، وكان بمقدوره في يسر أن يخمن نوايا صديقه الذي أمضى معه ردحاً من الزمن في رحلات الصيد في أيام بوشهر. وأخفقت المحاولة البريطانية الأولى لاعتقال المجموعة في مدينة تستر الفارسية عندما وجد رجال القبائل الذين تمت الاستعانة بهم أن قافلة فاسموس قددخلت في حماية البختياريين، وكانت تلك جرعة مريرة لبريطانيا، لأن البختياريين كانوا في ذلك الحين يعدون أصدقاء لبريطانيا، وتم في بعض الأحيان الاعتماد عليهم لحراسة خط أنابيب النفط قرب نهر القارون(٤٢). وكانت المفوضية الألمانية في طهران قد أعطت لفاسموس الانطباع بأن القنصل الألماني في بوشهر يتمتع بالأمان الذي ينبغي أن يكفله حياد فارس حتى لممثلي الدول المتحاربة مع بريطانيا. ومن هنا فقد افترض كذلك أن وضعيته الدبلوماسية ستحميه من أي محاولة بريطانية لوقف مسيرته إلى جنوبي فارس. ولكن قرب الساحل عند بندر رج وقعت القافلة الصغيرة في كمين نصبه لها في ٥ مارس ١٩١٥ رجال من قبائل فارسية. واستطاع فاسموس وحده أن يهرب تحت جنح الظلام من خيمة يحيط بها الحراس، ومضى سيراً على الأقدام عدة أيام في محاولة لتأمين مساعدة قبائل صديقة. وقد تم تسليم الدكتور ليندرز Lenders وميرزا محمد خان Mirza Muhammad Khan ومتعلقات القافلة، بما فيها منشورات الدعاية إلى السلطات البريطانية في بوشهر(٤٣).

ولكي نتفهم بصورة أكبر خلفية الأحداث التى أعقبت ذلك، من المهم أن نتذكر جانباً من المناخ السياسي الذي وقعت فيه. فقد ظلت فارس حتى ذلك الوقت محايدة في الحرب العالمية، على الرغم من الجهود التي بذلت على الجانبين لتحويلها إلى حليف. وقد استخدمت فارس التأكيدات الدبلوماسية المتكررة لحيادها كبديل للثقل السياسي أو القوة العسكرية، وهي في كلا

الأمرين لم تكن على مستوى جارتها تركيا. وكان التباكي على "حياد فارس" كذلك أداة بالغة الأهمية استخدمتها الحكومات المتحاربة لتبرير الطريقة التي استخدمت بها الأراضي الفارسية بما يتلاءم مع أغراضها. ولم يسفر مجرد إعلان طهران لموقفها في إطار القانون الدولي عن الكثير مما يكفل حماية تكامل أراضيها. وفي عام ١٩٠٧ عندما قامت بريطانيا وروسيا بالفعل بتقسيم فارس فيما بينهما إلى مناطق نفوذ اقتصادي وسياسي وعسكري لا موضع للنزاع بشأنها لم تتم مشاورة حكومة طهران في ذلك(٤٤). وبحلول بداية الحرب في عام ١٩١٤ كانت روسيا قد قامت بالفعل بضم أذربيجان، وحاولت السيطرة على الحياة السياسية في طهران بفوج ضباطه من القوزاق الروس، ووضعت العديد من المواطنين الفرس البارزين تحت حمايتها القنصلية(٤٥). وكانت بريطانيا طليقة اليد في القيام بما تظن أنه ضروري لحماية إمبراطوريتها الهندية وتنميتها. وقد استخدمت جميع المواقع الهندية - البريطانية على ساحل الخليج وأرض ظهيره، وليس مجرد المواقع الكائنة في المنطقة الجنوبية الشرقية المخصصة لها عام ١٩٠٧ - استخدمت على غرار ما تقوم به القوة القائمة بالعمل محمية، عن طريق إقامة مواقع عسكرية وشرطية ومحطات تلغراف أو إرسال مفارز من الجيوفيزيائيين لإجراء أبحاث على الأراضي ومصادرها المعدنية، وغالباً ما كان ذلك اعتماداً فقط على موافقة الزعماء المحليين، هذا فضلاً عن الوجود السياسي والاقتصادي البريطاني. وفي ضوء كون بوشهر المركز الإداري والعسكري للوجود الهندي - البريطاني في الخليج منذ عام ١٧٦٣، فإن بريطانيا لم تتردد في استغلال هذا الوضع ذي المزايا والتعامل مباشرة مع قبائل أرض ظهير بصفة خاصة، إذ إن هذه القبائل ذاتها ما كانت لتكترث كثيراً بالحكومة الإقليمية في شيراز، دع جانباً الحكومة في طهران النائية.

من هنا فإنه لم يكن أمراً مدهشاً أن السلطات البريطانية في بوشهر قد تجاهلت الحقيقة القائلة إنها كانت في بوشهر ومن ناحية التوصيف الفني القانوني تعمل على أراضٍ محايدة(٤٦). ولم يتم فقط أخذ ممثلي الشركات

الألمانية وزوجاتهم أسرى فحسب، وإنما تم اعتقال القنصل الألماني في بوشهر الدكتور ليستمان في ٨ مارس ١٩١٥ واقتيد رفيق فاسموس في القافلة الدكتور ليندرز إلى بوشهر كذلك، وأرسلوا جميعاً إلى الهند لسجنهم هناك. وإذا لم يكن هذا الإجراء متفقاً مع النقاط الأكثر دقة في القانون الدولي، فقد بدا مبرراً تماماً في ضوء تجليات النوايا الألمانية، التي كانت قد أصبحت واضحة من المواد الدعائية التي صودرت مع القافلة ومن المراسلات بين القنصلية في بوشهر والمفوضية في طهران.

ومع ذلك فإن هذا التحرك لمس وتراً حساساً عند شيوخ قبائل جنوبي فارس وأبنائه، الذين اعتادوا أن يتملكوا بأيديهم ناصية أقدارهم، ولم يدركوا قط ضرورة أن يمنحوا السلطات الفارسية مايزيد عن الحد الأدنى من الولاء، وكانت رغبتهم أقل من ذلك في أن يروا حريتهم وهي تنحسر على يد الأجانب والكفرة. وعندما أدركوا مدى النفوذ الانكليزي على مينائهم الرئيسي، بوشهر، وعلموا فيما بعد بإنشاء قوة ضباطها من الانكليز، هي قوة حملة بنادق "جنوبي فارس " التي تقرر أن تعمل على إقرار القانون والنظام باسم الهنود – البريطانيين، وليس باسم الحكومة الفارسية المتسامحة على نحو يشوبه التردد، عند ذلك ثار أبناء قبائل فارس بسهولة للانتقام رداً على أي "انتهاك للحياد الفارسي" من جانب البريطانيين.

ولما كان فاسموس بعد هروبه قد أمضى الكثير من الوقت مع القبائل، وخاصة الطنجستانيين قرب بوشهر أثناء عمله قنصلاً هناك شق طريقه سيراً على الأقدام أو على ظهر حمار، عبر أراضي قبائل اللار وصولاً إلى برزجان، وهي بلدة صغيرة بها قوة درك من الفرس ومكتب تلغراف. وهناك كان يعلق الآمال على التمكن من إبلاغ الحكومة الفارسية عن طريق المفوضية الألمانية في طهران بمحنة الدكتور ليندرز. وبعث بيرس كوكس بضابط هو الميجور نويل Noel لإلقاء القبض على فاسموس في برزجان. واتخذ نويل من مكتب التلغراف مقراً له، بينما بقي فاسموس في خان القوافل المقابل له. ولكن عندما شاع أمر وجود الضابط الإنجليزي وأصبح معروفاً، ثارت المدينة

متفجرة بالغضب، واضطر الميجور نويل إلى المغادرة مسرعاً دونما أسين. أما فاسموس فقد مضى إلى شيراز حيث لقي ترحيباً ودياً من جانب الكثير من السكان وصديقه القديم حاكم المقاطعة "مجبر السلطنة"(٤٧). وطلب الملحق العسكري بالمفوضية الألمانية في طهران فون كاردوف v. Kardorff، الذي كان قائماً بالأعمال خلال غياب السفير، من الحكومة الفارسية أن تضمن سلامة كل الألمان في فارس. وقد نجح في دفع الحكومة إلى القيام بخطوات لمعاقبة الفرس، الذين قاموا بأسر الدكتور ليندرن، وتقدمت باحتجاج للحكومة البريطانية. ولكن في هذه الحالة، كما هو الشأن في العديد من حالات انتهاك السيادة الفارسية، لم تستطع الحكومة تحقيق النتيجة المرغوبة، ولم يطلق سراح الأسرى الألمان، الذين كانوا، على أي حال في الهند(٤٨).

خلال وجود فاسموس في شيراز، استهدفت حملة الإثارة التي كان يقوم بها دونما توقف وسط قادة المقاطعة القبليين والدينيين والديمقراطيين والتجار الهدف المطلق المتمثل في جعل عبارة "انتهاك السيادة الفارسية بؤرة لحركة متنامية في صفوف الفرس، الذين أرادوا، كل منهم لأسبابه الخاصة، الحيلولة دون المزيد من توغل النفوذ البريطاني في المنطقة، وأرادوا أن تقوم حكومتهم المتذبذبة وشاههم الشاب المفتقر للحسم أن يعلن الحرب على روسيا وبريطانيا(٤٩). وإذ شعر فاسموس بخيبة الأمل في "صولة الدولة" Saulat al-Daulah وتذبذبه غير المتوقع، فقد وجد أكثر أنصاره غيرة وحماساً في صفوف شيوخ الطنجستانيين في أهرام، الذين كتبوا إعلاناً بعزمهم على القتال ضد البريطانيين، حتى بعد أن أوضح فاسموس أن الأموال والأسلحة والذخائر الألمانية بطيئة للغاية في وصولها، أو قد تظل وعداً فحسب(٥٠). وفي المدى الطويل لم يكن من الممكن أن تتوافق هذه الأنشطة مع وضعية القنصل، ومن هنا فقد تم الاتفاق مع السفير الألماني الأمير ريوس Reuss على أن الدكتور فوستروف Wustrow ينبغي أن يعين قنصلاً في شيراز، وهكذا تتاح لفاسموس حرية البقاء في جنوبي فارس ومتابعة ما أصبح بمثابة تثبيت انفعالي

بالنسبة له، أي إطلاق سراح ليستمان وليندرز والألمان الآخرين المعتقلين في الهند ودخول فارس الحرب إلى جانب ألمانيا.

ونسق شيوخ الجنوب أنشطتهم، إلى حد أنهم بعثوا بإنذار نهائي إلى مقر المقيم السياسي في بوشهر للمطالبة بإطلاق سراح الأسرى وسحب القوات البريطانية المتمركزة هناك، ولم يتلقوا رداً. وفي ١٢ يوليو ١٩١٥ هوجم المقر الصيفي للمقيم في بوشهر. ولم ينفذ هذا التحرك وفقاً للخطة المعدة تماماً، ولكن أبناء القبائل شجعتهم كثيراً الحقيقة القائلة بأن بريطانيين اثنين والعديد من الهنود قد لقوا مصرعهم دون أن تتكبد القبائل خسارة في الأرواح(٥١). وقد أحدث هذا صدمة في الدوائر الدبلوماسية والعسكرية البريطانية والروسية وتعالت النداءات من القادة العسكريين البريطانيين في الخليج لإرسال بعثة عسكرية ضد هذه القبائل. وتمثل رد الفعل الفوري في بوشهر في إرسال الحاكم الفارسي الذي بدا ولاؤه لبريطانيا موضع تساؤل، ورفع العلم البريطاني على مقر إقامته، ووضعت على الأختام الفارسية كلمات "بوشهر تحت الاحتلال البريطاني" وهي الاجراءات التي تم إلغاؤها جميعها قبل مضي وقت طويل، لأنها يمكن أن تتحول عن طواعية بالغة إلى مثال تحتذي به روسيا في إجراءات ضم أراضٍ في مناطق أخرى من فارس(٥٢). غير أن أثر البعثة البريطانية لمعاقبة سكان ديلوار بقطع أشجار نخيلهم من جذورها لم يكن بالوسع تداركه. وقد كان ذلك لطمة قاسية، ولكنه في نهاية المطاف لم يسفر إلا عن تقوية العزم في صفوف القبائل على أن تتابع بمزيد من الحزم صيحة فاسموس الداعية للانتقام.

وبسبب حملة التحريض الناجحة التي قام بها فوستروف في شيراز علق فاسموس الآمال على أن خطة أخرى، نوقشت بينما كان فون كاردوف v. Kardorff مايزال قائماً بالأعمال في طهران، قد بدت الآن ممكنة التنفيذ(٥٣) وباسم " اللجنة الوطنية لحماية استقلال فارس" قامت قوة الدرك المناصرة للألمان بقيادة ضباط سويديين بأسر الرجال البريطانيين الستة والبريطانيات الأربع جميعاً الذين يقطنون شيراز في ١٠ نوفمبر ١٩١٥

وأرسلتهم إلى فاسموس في الجنوب. وقد ترك النساء يمضين مع حراسة مرافقة إلى السلطات البريطانية في بوشهر(٥٤) بينما سجن الرجال في قلعة أهرام على بعد ما لا يزيد عن أربعين كيلومتراً عن مقر المقيم السياسي في بوشهر. ولم يقدر لهم أن يستردوا حريتهم إلا في أغسطس ١٩١٦(٥٥). وقد علق فاسموس الآمال، طوال ذلك الوقت على أنه سيكون بالوسع مبادلتهم بالألمان الذين اعتقلهم البريطانيون، وعلى رفع الحصار الذي حال دون وصول الطنجستانيين إلى مينائهم الطبيعي(٥٦).

لم يدم الحكم المناصر للألمان في شيراز وقتاً طويلاً لأن القنصل فوستروف غادر المنطقة لتنظيم إمدادات ذخائر جديدة وأموال من بغداد. والسويديين المناصرين للألمان لم يستطيعوا الإبقاء على ولاء الدرك للقضية الديمقراطية بعد أن نفذت الأرصدة التي جاءت في معظمها من خزائن شركة فونكهاوس(٥٧). وهكذا فإن الجانب المناصر للتحالف تمكن من اعادة احتلال المدينة في ٦ إبريل ١٩١٦ ومن أسر رجل الأعمال نائب القنصل رويفر Roever والضباط السويديون والفرس المناصرون للألمان. وبالفعل تم رصد معظم المشاركين الألمان والنمساويين في البعثة الأفغانية الأصلية في مناطق مختلفة من البلاد وإحضارهم أسرى(٥٨) إلى شيراز التي ظلت قبضة الإنجليز مطبقة عليها بقوة، وأصبحت فيما بعد مقراً لقيادة "حملة بنادق جنوبي فارس".

غير أن هذا لم يكن نهاية المشكلات، التي تعرضت لها المصالح البريطانية في جنوبي فارس على يد بعض الألمان، الذين قطعوا كل هذا الطريق ليؤثروا على أذهان الفرس. وظل فاسموس بعيداً عن أيدي البريطانيين و"حملة بنادق جنوبي فارس". وازداد أنصاره بصورة ملموسة في صفوف القبائل بعد انتزاع شيراز(٥٩) من يد الديمقراطيين والوطنيين. ولكن فاسموس حيل الآن بينه وبين أي دعم مادي أو شخصي ألماني، ولم تكن لديه أي وسيلة للاتصال بالمفوضية الألمانية. وبعد أن وصل الطنجستانيون إلى تسوية مؤقتة مع البريطانيين في بوشهر، لإنقاذ شعبهم من الموت جوعاً مقابل إطلاق سراح الأسرى المحتجزين في أهرام، وبدا أن الطنجستانيين قد عجزوا ولم يعودوا

راغبين في مواصلة النضال. ولم يرغب فاسموس في أن يثقل كاهل الشيوخ بوجوده أكثر مما فعل، عندما لم يعد هناك ما يكفي من المال حتى لمواصلة توزيع الصحيفة الوطنية "نداء الحق" ودع جانباً الحصول على الذخيرة. ولكي يجنبهم أي إحراج غادر سراً في ١٠ سبتمبر ١٩١٦ ليحاول الوصول إلى بغداد. وفي غمار سيره متنكراً في زي فارسي تعرض للهجوم مع دليله على يد قطاع طرق، وأصيب بجروح قاسية. ولكن عندما أدرك قطاع الطرق هوية من هاجموه أعادوا له متعلقاته، وأبلغت قبيلتهم أصدقاءه في أهرام، الذين نقلوه في ستة أيام، عبر سلسلة الجبال التي يبلغ ارتفاعها ٢٠٠٠ متر، عائدين إلى أهرام. وهناك شفي من معظم جروح السكين التي أصيب بها، ولكن العصب الرئيسي في ساقه اليمنى قطع، فظلت متصلبة منذ ذلك الحين فصاعداً(٦٠).

ومن جديد تغيرت الحالة المزاجية للقبائل، وظهر للوجود التحالف القبلي الأكثر شمولاً ضد التهديد البريطاني، وضم الطنجستانيين والقاشقيين وشيوخ شاخوطه وقصيرون، وكلاهما من المدن الصغيرة، وسيطروا على الطريق بين بوشهر وشيراز. وأقرض زير خيضر كبير شيوخ الطنجستانيين فاسموس بعض المال وفرض الحصار على جميع القوافل التجارية باستثناء الصديقة منها من اجتياز ما بين بوشهر وشيراز وظل قائماً طوال مابقي من الحرب. وكانت تلك نكسة خطيرة للوضع البريطاني في فارس. وبعد إعادة إقرار السيطرة في شيراز اكتسب الطريق بينها وبين بوشهر أهمية كبيرة لإمداد القوات المرابطة في شيراز(٦١).

وفي أوائل عام ١٩١٦ سبب نفوذ فاسموس غير العادي لدى قبائل جنوبي فارس قدراً هائلاً من المشكلات لخطط البريطانيين وآمالهم، وقد كانت هذه المنطقة الممتدة على الخليج ذات أهمية بالغة لوضع البريطانيين في منطقة الخليج بأسرها بحيث إن القيادة العسكرية في الهند قررت شن حملة ضده. وهكذا فإن خصم فاسموس أصبح ضابطاً رفيع الرتبة في الجيش الهندي. أي البريجادير جنرال السيربيرس م. سايكس. وقد كانت مهمة هذا الأخير هي أن يمضي بالقوة الحديثة الإنشاء " حملة بنادق جنوبي فارس"

التي كان مفتشاً عاماً لها عبر الطريق الوحيد المفتوح له من الخليج إلى شيراز. وقد ألقى مراسيه مع بعض الضباط الانكليز والهنود والجنود الهنود من بندر عباس في مايو ١٩١٦م. ولأن الجهود التي بذلت لتجنيد الفرس لم تكن ناجحة للغاية فقد اضطر سايكس إلى انتظار التعزيزات من الهند. وبالفعل كان هناك تحت قيادته ٥٠٠ جندي عندما بدأ المسيرة الممتدة عبر ٣٠٠ ميل إلى شيراز، التي كانت حافلة بخطرالتعرض للهجمات ونقص الطعام والماء للرجال والدواب(٦٢). وبسبب الموقف السياسي احتاج للقيام بالالتفاف الطويل عن طريق جزد وأصفهان. واستغرق منه الوصول إلى شيراز ستة أشهر، وعندما بلغها في نوفمبر ١٩١٦ كانت قد أصبحت " أهم مركز (لبريطانيا) في فارس"(٦٣). وعندئذ أصبح اللقب الذي يحمله السيربيرس سايكس هو الجنرال الآمر لجنوبي فارس بالنسبة للحكومة الهندية. وقد شكلت قوة حملة بنادق جنوبي فارس على غرار القوات المؤلفة من أبناء الهند، وكانت مسؤولة عن استعادة القانون والنظام باسم الحكومتين الفارسية والبريطانية(٦٤). وكانت لسايكس بالفعل قوة قوامها حوالي ٣٠٠٠ رجل في شيراز، ورغم ذلك ظل الطريق الجبلي إلى بو شهر موصداً أمامهم وأمام إمداداتهم، على الرغم من المحاولات التي بذلت لإزاحة حلفاء فاسموس والإغراءات التي عرضت على رجال القبائل في صورة مكافأة كبيرة لمن يلقي القبض عليه(٦٥).

ولم يحط فاسموس علماً بتطورات الحرب في أوربا وبالتالي لم يبلغه نبأ الهدنة التي انتهت في « نوفمبر ١٩١٨ باستسلام ألمانيا دون قيد أو شرط. وفي ٢٩ نوفمبر بعث المقيم السياسي في بو شهر بكلمة إلى فاسموس عن الموقف الجديد ودعاه إلي تقديم نفسه للسلطات البريطانية في غضون أسبوع وإلا أصبح عرضة للأسر. وقد بعثت الرسالة بشكل أكثر تعجلاً مرة ثانية، وحملت تهديداً بإطلاق النار على فاسموس إذا لم يستجب لما طلب منه. ولم ير الأخير أن بريطانيا لها الآن الحق أكثر من ذي قبل أن تصدر له الأوامر على أرض دولة محايدة، وقرر المضي مع ألماني آخر هو أورتل Ortel الذي شق طريقه إلى أهرام في مارس ١٩١٨، إلى المفوضية الألمانية في طهران، ولم

تكن له معرفة بالوضع القوي لبريطانيا في فارس بعد انهيار روسيا القيصرية، كما لم يعرف بأن زميله القديم السير برس كوكس، أصبح الآن السفير البريطاني في طهران.

وبينما تم تنبيه سكان فارس جميعاً وتحذيرهم من حقيقة أن فاسموس قد غادر أهرام في ١٣ فبراير ١٩١٩، فإنه أفلح في شهر ونصف الشهر من السير عبر مسالك جبلية غير مأهولة غالباً، مع أورتل في الوصول إلى قم، دون أن يتم رصده (٦٦). وهنالك تعرف عليهما حارس من رجال الشرطة الفارسية كانت لديه أوامر باقتيادهما إلى الدرك في طهران. ولم ينتهزا الفرص العديدة التي أتيحت لهما للهرب في الطريق إلى طهران لأنهما افترضا أن السلطات الفارسية في العاصمة لن تسلمهما إلى قوة أجنبية. وبدلاً من ذلك، ووسط مشاعر الاستياء من جانبهما مضت بهما سيارة إلى السفارة البريطانية، حيث رفض فاسموس مغادرة السيارة وبالفعل حمل منها حملاً، وتم أسره ونقله إلى قزوين شمالي طهران مع أورتل بقصد إرسالهما إلى أوربا بحرا. واحتج فاسموس على سجنه غير المشروع بالاضراب عن الطعام، مما أسفر عن وضع الأسيرين تحت الحراسة في دار القنصل البريطاني في قزوين، حيث لم تعد أقدامهما مغللة بالأصفاد وأتيحت لهما حرية التجول في الحديقة. وبعد ٢٧يوماً من الانتظار أبلغ فاسموس القنصل السيد هارت Mr.Hart بأنه قد يحاول الهرب، وهو ما أفلحا في القيام به.

ومن جديد تغلبت قوة إرادة فاسموس وقوة بنيته، ذلك أن مسألة الشرف لديه كانت تتلخص في ألا تحتجزه قوة أجنبية في فارس وإذا احتجزته ألا تتمكن من الإبقاء عليه رهن الأسر. وهكذا فإنه رغم جروح ساقه مضى سيراً على الأقدام بمفرده ثمانية أيام وليال عبر جبال البروز، حيث لا يذوب الجليد والثلج أبداً على القمم، ووصل إلى الأرض ذات السيادة التي يقوم عليها مقر السفارة الألمانية في شمالي طهران، وكان أورتل قد وصل إلى هناك قبل أربعة أيام مخترقاً طريقاً آخر.

كان التمثيل الدبلوماسي لألمانيا المهزومة في ذلك الوقت بيدي السفير الإسباني، وتعين على المندوب الألماني سومر أن يجد طريقة لترحيل فاسموس وأورتل، وكان ذلك أمراً مستحيلاً دون الاستعانة بسفن تابعة للتحالف. ودارت مناقشات مطولة وطرح كل من الجانبين شروطه، واشترطت السلطات البريطانية التأكد من أن الاثنين سيغادران فارس، وهكذا سيحال بينهما وبين تأجيج الحركات المعادية للبريطانيين في صفوف القبائل. وتم بالفعل الاتفاق على اصطحابهما بمعرفة مرافقين إلى ألمانيا في أقرب وقت ممكن وبأكثر الطرق مباشرة بوصفهما رجلين حرين. وغادرا طهران مع مرافقيهما في ٢٠ مايو ١٩١٩ ولكن لم يتم إرسال تعليمات إلى السلطات في أي من الموانىء على الطريق، وبسبب الفوضى العامة السائدة فيما كان الأسرى والقوات على حد سواء يتم نقلهم على امتداد العالم، اضطر فاسموس وأورتل إلى تحمل فترات إضافية من السجن في القسطنطينية والإسكندرية وموانىء أخرى. واستغرقت الرحلة إلى كولونيا في أرض الراين الألمانية المحتلة أربعة أشهر. وبعد عودة فاسموس إلى ألمانيا في خريف ١٩١٩ تم إلحاقه مجدداً بخدمة وزارة الخارجية في جمهورية فيمار(٦٧).

دور عمليات إساءة الفهم

كان فاسموس قد غادر برلين في سبتمبر ١٩١٤ ليقود بعثة ألمانية – تركية إلى أفغانستان فما الذي صار إليه أمر ذلك المشروع بعد افتراقه عن هذه المجموعة في بغداد في يناير ١٩١٥ ..؟ لقد كان تقدمهم نحو فارس وفي أراضيها بطيئاً، الأمر الذي أتاح للقوات البريطانية والروسية في فارس وقتاً ملائماً لرصد تقدم البعثة والاستعداد لاعتراض سبيلها في أكثر الحالات تأخراً عند الحدود الأفغانية. ولكن خلافاً لكل الاحتمالات فإن بعثتي نيدرمير Niedermayer وهنتيج Hentig الموحدتين عبرتا الحدود في ١٩ أغسطس بعد اندفاع غير متوقع عبر الصحراء، لا لشيء إلا ليلقى أفرادهما معاملة الأسرى المكرمين على يدي الأمير. ولم يكن هذا الأخير كارهاً لإبرام معاهدة مع

ألمانيا، ولكن مع مضي الوقت وكون الاتصالات مع برلين من السوء بحيث تجعل كل تعاون أمراً لا طائل وراءه، فقد ترك البعثة تعود أدراجها إلى فارس، حيث أسر معظم أعضائها(٦٨). وفي غضون ذلك استهدف الأفراد والجماعات الألمان الآخرون المدن الفارسية الكبرى، وكللوا في بعض الأحيان بنجاح كبير في قلب الرأي العام ضد الروس والبريطانيين. ولكن الافتقار إلى الدعم المالي والمادي من الوطن جعل مثل هذه النجاحات قصيرة الأمد. وكان هناك كذلك الاختلاف والتنازع بين أعضاء البعثات المختلفة، وقد امتد ذلك عبر المذكرات واليوميات والمراسلات الرسمية في المواد الأرشيفية والروايات المنشورة عن الأحداث. ومن هنا فإنه يظل مدهشاً على نحو أكبر أن هذا الإنجاز الكبير قد تحقق بالفعل بمثل هذا العدد الصغير من الأشخاص الذين بدأ معظمهم بصورة أولية غير مناسب لأداء هذه المهمة. وقد أجاد الكثير من المشاركين في هذه البعثات استخدام الموارد المحدودة التي أتيحت لهم، مسببين إحراجاً كبيراً وقلقاً ليس باليسير للقيادة العسكرية والسياسية البريطانية في المنطقة.

ولا بد أن يكون الحنق قد استبد ببعض العسكريين والدبلوماسيين البريطانيين، قيادة ومشاركين، عندما تحولت الطرق مراراً وتكراراً في جنوبي فارس إلى مناطق من غير المأمون التحرك فيها بالنسبة للقوات البريطانية ومسانديها، وعندما هرب الأسرى الألمان، واضطر الأسرى البريطانيون للانتظار عاماً قبل أن يتم تبادلهم. ما الذي كان يمكن أن يكون أكثر إغراء في ظل هذه الظروف من التقليل من خطورة التحدي للدور البريطاني في المنطقة من خلال الادعاء بأن المرء يتعامل مع مجرد قطاع طريق متواطئين مع اللصوص والخارجين على القانون المحليين؟ لقد كانت الحقيقة ماثلة في عيني الناظر وفي قلم كتاب التقارير والرسائل حول الحملات الناجحة التي قادها ضباط بريطانيون وهنود في جنوبي فارس. لقد تم تمجيد شجاعة الأفراد وتفسير الإخفاق في التعامل بشكل نهائي مع المشكلة المطروحة بإحالتها إلى "مراوغة" العدو أو "وعورة الأرض" ومالت السلطات السياسية

إلى تصوير مصادر مشكلاتها في أرض الظهير باعتبارها مجرد ألمان وخارجين على القانون من الفرس(٦٩).

ومن ناحية أخرى فإن المسؤولين قد مالوا إلى التعامل مع الشائعات التي ترددت عن القوة الألمانية في الأفراد والمعدات على أنها حقائق، وقد علموا من البرقيات التي تم رصدها أن المفارز الألمانية كانت تطلب بصورة مستمرة الأسلحة والذخيرة، وفي غمار نقل هذه المعلومات عبر النظام أصبحت هذه الطلبات واقعاً. وفي حقيقة الأمر فإن مدفعي الماكينة اللذين صرفا للبعثة الأفغانية أصلاً انتزعهما الأتراك، ولكن نائب الملك في الهند أبلغ أمير أفغانستان بأن المجموعة الألمانية لديها ستة مدافع ماكينة. وفي ديسمبر ١٩١٥ قيل إن هناك ٣٠٠٠ ألماني وتركي في كرمان و ٣٠٠ منهم في أصفهان و٧٠ غيرهم في شيراز. وفي حقيقة الأمر كان هناك ما بين ألماني واحد وخمسة ألمان في كل من هذه المواقع يعملون مع حوالي ٥٠٠ إيراني مأجور(٧٠) وجاء باقي الدعم من المتعاطفين المحليين، الذين دعمت أفكارهم السياسية في بعض الحالات بالحافز المادي.

وفي أعقاب الحرب مباشرة، عندما وضع مؤرخو الجانب المنتصر أيديهم على الوثائق، لم يبدوا بدورهم اهتماماً بإلقاء الضوء على ألوان الإحراج، مثل الحقيقة القائلة بأن أجزاء كبيرة من جنوبي فارس ظلت منطقة محظورة على البريطانيين لما يزيد على ثلاث سنوات. ولدى ذكر مثل هذا التطور الذي وقع على هامش قصة النجاح الكلية تم المضي قدماً بالتوصيفات الملائمة، ووصف الممثلون الألمان في هذه المسرحية بأنهم "قطاع طريق" و"عملاء محرضون"(٧١) وعلى الجانب الألماني كان المؤرخون أكثر ذهولاً من جراء الموقف المفاجئ الذي وجد البلد المهزوم نفسه فيه بعد معاهدات السلام من أن يركزوا على ما يتجاوز البحث عن جذور هذه الحرب الكارثية. وخلال المرحلة التي اكتست بالصبغة القومية في أواخر الثلاثينات فحسب نشر داجوبرت ميكوش Dagobert Mikusch عام ١٩٣٧ صورة لدور فاسموس اقتربت بصورة منصفة من المذكرات التي كتبها فاسموس(٧٢).

غير أن عيناً فاحصة كان لابد لها إن آجلاً أو عاجلاً أن ترصد التضارب بين الحقيقة القائلة بأن هناك حالة لم تستطع بريطانيا أن تفرض فيها إرادتها على هذا الجانب من منطقة الخليج بالطريقة المعتادة هذا من ناحية ومن ناحية أخرى بين النمط الرسمي فيما يتعلق بهذا الموضوع. وقد روج هذا النمط للقول بأنه إذا كانت هناك أي متاعب تعرض لها البريطانيون في جنوبي فارس، فإنها كانت راجعة لتوافق المصالح السيئة الطالع بين "قطاع الطرق" الألمان ولصوص القبائل المحلية الذين تم شراؤهم بالمال الألماني. وقد كان الذهن الثاقب والعين الفاحصة الباحثة عن قصة مثيرة للاهتمام هما الأداتان اللتان استعان بهما كريستوفر سايكس عندما مضى يبحث عن المواد في جنوبي فارس ليكتب من خلالها أول كتاب يصدر بأي لغة عن "لورنس الفارسي" وقد كان المؤلف هو نجل السير مارك سايكس Sir Mark Sykes وهو "ممثل" بارز آخر على خشبة الشرق الأوسط. الذي سميت باسمه اتفاقية عام ١٩١٦ السرية بين بريطانيا وفرنسا(٧٣).

وكما كانت هناك عمليات إساءة فهم من جانب المسؤلين والكتاب الشعبيين والمؤرخين البريطانيين في ذلك الوقت والطرح المغلوط السائد للأحداث في وقت لاحق، فإن الجانب الألماني كان يعمل حقاً على امتداد هذه الأحداث في مناخ من التفكير بالتمني، وغالباً تحت تأثير الأوهام، وفي أوقات أخرى تجاهلوا الاحتياجات العملية للموقف. وفي المقام الأول بدت القيادة الألمانية العسكرية والسياسية وكأنها غير مدركة أبداً لما تتعين معرفته حول البلاد والناس الذين تتعامل معهم بأكثر الطرق عرضية. وقد تم الإعداد للبعثة الأفغانية في غمار الاستماع لروايات رحلات السويدي سيڤن هيدين Hedin Sven وقد كتب أحد المشاركين في وقت لاحق يقول : "لم يكن لدينا في أمتعتنا حتى نسخة من(دليل أفغانستان) الممتاز الذي كان بمقدور المرء أن يشتريه من أي مكتبة إنجليزية. وفي ذلك الوقت كانت أفغانستان بلاداً مجهولة تماماً حتى بالنسبة لوزارة الخارجية"(٧٤). وقد تمثل ماهو أكثر خطورة فيما يبدو أنه نقص تام في التخطيط العملي للإمداد وإعادة الإمداد للبعثة، على الطريق الطويل عبر

دول البلقان وتركيا وفارس، وبصفة خاصة لأنه لم يكن هناك معظم الوقت جسر بري آمن من الدول الصديقة في الوسط. ولم يتم منذ البداية تحديد هيكل بين أعضاء البعثة الذين كانوا من المدنيين والعسكريين وفي إطار الصلة بالمجموعات والبعثات الأخرى، مما ترتبت عليه نتائج كارثية بالنسبة للعمل اليومي لهذه المجموعات. وكان الثقل الهائل للمشكلات العملية التي واجهت بعثة نيدر مير شيئاً يتجاوز قدرة الوزارة ومنظمة أوينهايم على المساعدة في التعامل معه بأي شكل من الأشكال. وتم إدراك ذلك في فبراير ١٩١٦ عندما وضعت البعثة تحت إشراف وزارة الحرب.(٧٥)

وساد الانخداع في تعامل القيادة السياسية والعسكرية مع تركيا في الإعداد للقيام بهذه المغامرة. وقد قصد بالبعثة أن تكون جزءاً من المشروع التركي، وتقرر أن يرتدي الأعضاء المشاركون فيها الزي العسكري التركي وأن يحملوا رتباً في إطار الجيش التركي حتى إذا كانوا مدنيين، كما تقرر أن تسلم جميع الأرصدة المالية للقيادة التركية التي ستقوم بإمداد الوحدة التركية – الألمانية. واقتضت الجوانب اللوجستية العسكرية أن يكون قادة البعثة مسؤولين لا أمام الخارجية الألمانية وحدها وإنما كذلك أمام القيادة الألمانية العليا(٧٦). وساهمت هذه الترتيبات جميعها، على نحو كان من الممكن التنبؤ به في الفشل المطلق الذي منيت به البعثة الأفغانية، فقد تعطلت المفرزة الألمانية على امتداد شهر، لأن الجانب التركي لم يكن مستعداً بعد، وتسلم هذا الجانب الأرصدة المالية، لكنه لم يقدم وسائل المواصلات، بل وهدد بإلقاء القبض على أعضاء البعثة في بغداد. ومضى القائد التركي رؤوف بك Rauf Bey بالفعل دون المفرزة الألمانية، فشن حرباً خاصة ضد غربي فارس، إلى أن انسحبت تركيا في نهاية المطاف من المشروع في ربيع ١٩١٥، ومع ذلك فإن الوثائق تظهر أن السفارة الألمانية في القسطنطينية، التي اتخذها أوينهايم مقراً له كذلك منذ عام ١٩١٥ قد واصل الدفاع عن هذه الترتيبات. ويدا أن ألمانيا قد أعشى بصرها "حسن الطالع" المتمثل في أن تركيا قد أصبحت حليفة لها. وعلى الفور ارتفعت التوقعات الألمانية

الخاصة بالدور التركي إلى ذرى غير واقعية. فتركيا من شأنها "أن تدافع عن المضايق، وتحرس حدود امبراطوريتها التي لا نهاية لها تقريباً، وتغزو مصر، وتحرر فارس، وتعد مناطق عبر القوقاز لإقامة دول مستقلة، وربما تقوم بالفعل بتهديد الهند عبر أفغانستان"(٧٧). وتم الإبقاء على الوهم القائل بأن الأسباب التي حدت بتركيا إلى المشاركة في هذه الحرب من الممكن جعلها تتزامن مع الأسباب التي دفعت بألمانيا إلى أتونها وقتاً طويلاً على يد كثيرين من بينهم أوبنهايم ومستشاره للشؤون التركية أرنست جوخ Ernst Jaeckh. وفيما يتعلق بفارس كان من الأجدى لو أن تركيا ظلت محايدة.

قبل الحرب أثار الزخم المتزايد للمعارضة البريطانية لمشروع سكة حديد بغداد سخط الرأي العام الألماني، بالقدر ذاته الذي راقب به المسؤولون البريطانيون والصحافة البريطانية بمزيد من الانتباه مجرى الأمور عندما واصلت الصحافة الألمانية ومعها الناشطون المنبرون من تلقاء ذاتهم الإشارة إلى أهمية الشرق الكبيرة بالنسبة للإمبراطورية البريطانية(٧٨). ولكن الوثائق توضح أنه على المستويات المسؤولة في وزارة الخارجية في برلين كان هناك حرص على عدم استعداء بريطانيا على نحو لا ضرورة له في مصالحها الحيوية في الشرق(٧٩). غير أن معظم صانعي القرار في الوزارة وغيرها من المواقع كانوا في الوقت نفسه مقتنعين أشد الاقتناع بالطابع المستديم للتنافس البريطاني – الروسي، بحيث إن مؤشرات التغيير لم يتم إدراكها، ولم يكن أحد على استعداد لإعادة تعديل الصورة المألوفة(٨٠). كان التنافس مع بريطانيا يحتدم، ولكن إمكانية نشوب الحرب لم يتم بحثها بقدر كاف من الجدية، ولم يتم توقعها للتخطيط بالصورة الملائمة لمثل هذه الواقعة. ومن هنا فإنه لم يوضع موضع الاعتبار كذلك إمكانية اختراق بريطانيا في مصالحها الحيوية في الشرق. وبعد اندلاع الحرب مباشرة تم على عجل التقاط الأفكار التي طرحت حول الطرق التي يمكن لألمانيا بها أن تستغل هذه القابلية للاختراق، ووضعت موضع التنفيذ بغير قليل من التردد(٨١).

وبملاحظة الضغط الكبير الذي سببته الأنشطة الألمانية على الوضع البريطاني في الشرق الأوسط، على الرغم من الافتقار للإعداد بعناية لمسرح عمليات عسكرية محتمل في الشرق، فقد كان الجانب البريطاني محظوظاً لأن برلين لم تتمتع ببعد نظر أكبر، ولم تخطط في وقت أكثر تبكيراً، ولم تستثمر المزيد من المال والموارد الأخرى في المزيد من المتابعة بقوة لإمكانية استهدافها في الموضع الأكثر إيلاماً – في الهند والمناطق القريبة منها.

الخاتمة

في غمار مشاهدة هذه الأحداث بإدراك مؤخر لها بعد وقوعها من خلال عيون مؤلفي ملفات المحفوظات – الذين كانوا يشاركون في صنع الأحداث في ذلك الوقت، فإن من المثير للاهتمام أن نلاحظ نطاق وتواتر عمليات سوء الفهم المتبادل في المعسكرين الإنجليزي والألماني. وقد نسب البريطانيون إلى وزارة الخارجية الألمانية والقيادة العسكرية الألمانية فضل وضع خطة تم إعدادها بعناية لينتزع منها بأي وسيلة وضعها الذي اكتسبته بشق الأنفس في الخليج، بما في ذلك التحريض على إعلان "الجهاد". ومع ذلك فإن المواد الموثقة هي دليل دامغ على الجهل العملي فيما يتعلق بهذه المناطق قبل الحرب وعدم الكفاءة وإساءة التقدير خلال اشتعال نيرانها من جانب الشخصيات المدنية والعسكرية البارزة في وزارة الخارجية في برلين. ومن ناحية أخرى فإن البريطانيين لم يتفهموا دور الأفراد والمجموعات الصغيرة من الألمان، الذين أفلحوا في تحريض أعداد كبيرة من الناس من كافة الشرائح الاجتماعية في فارس، وبصفة خاصة دور فاسموس، الذي أفلح في حرمان القوات البريطانية من الوصول إلى منطقة ذات أهمية حيوية لمصالحها في الخليج، طوال الجانب الأعظم من فترة امتدت ثلاث سنوات ونصف السنة. وفي ضوء الافتقار للرجال والمعدات، ولكن في المقام الأول في ضوء الكراهية الجارفة لمواجهة الإخفاق الحافل بالإذلال في التعامل

مع هذا الموقف في جنوبي فارس، بدا من الأيسر الذهاب إلى القول بأن هذه المشكلات ناجمة عن قطاع طريق عاديين. وقد ناء المسؤولون الهنود – الإنجليز بشعورهم بالرسالة التي يتعين عليهم تحقيقها في جلب الأمن والنظام إلى جميع الأراضي التي تقع عليها عيونهم. وكون المشاعر المعادية للبريطانيين الواسعة النطاق والعميقة الجذور من جانب السكان المحليين هي السبب الحقيقي في نجاح فاسموس إنما هو واقع لم يتناسب مع تلك الصورة، أو كما تقول القصيدة الفكاهية الخماسية الأبيات التي طبقت شهرتها الآفاق :

"ما تستطيع العين أن تراه قد لايمكن أن يكون له وجود والباقي جد بعيد عن الاحتمال."

المراجع

India Office Library and Record,
L/P & S /10/827
WO 106 volumes 94, 925, 927, 930, 932, 932-941, 946, 948, 950
FO 416/vols. 65,68

Auswartiges Amt Archiv,
Orientalia Generalia, No.9,Nr.1, 12 vols.
Wk e, 34 vols.
Wk g, 19 vols.

Blucher, Weipert v., *Zeitenwende in Iran. Erlebnisse und Beobachtungen*, (Biberach, Koehler & Voigtlander, 1949).

Gehrke, Urlich, *Persien in der deutschen Orientpolitik wahrend des Ersten Weltkrieges*, 2 v. vol II Footnotes (Stuttgart, Kohlammer, 1961).

Graves, Philip, The life of Sir Percy Cox (London & Melbourne, Hutchinson),1941.

Hannekum, Wilhelm, *Persien in Spiel der Machte 1900-1907, Ein Beitrag zur Vorgeschichete des weltkrieges*, (Berlin 1938 Verlag Ebering : Vaduz, Kraus Reprint, 1965).

Lenczowski, George, *The Middle East in World Affairs*, 3rd ed., (Ithaca and London, Cornell University Press, 1962).

Mikusch, Dagobert von, *Wassmuss, der deutsche Lawrence*, (Berlin, Buchergilde Gutenberg, 1937).

Moltke, Graf Helmut v., *Unter dem Halbmond. Erlebnisse in der alten Turkei, 1835-1839*, ed. by Helmut Arndt (Tubingen, Edition Erdmann, 1984).

Oppenheim, Max Freiherr von, *Vom Mittelmeer zum Persischen Golf durch den Hauran, die syrische Wuste und Mesopotamien*, 2 v. (Berlin, Dietrich Reimer, 1899/1900).

Plass, Jens, England zwischen Deutschland und RuBland, 1899-1907 (Hamburg, Schriftenreihe des Instituts fur Auswartige Politik, Bd.3, 1966).

Sykes, Christoper, Wassmuss, *"The German Lawrence" : His adventures in persia during and after the War.* (London, Longman, 1936).

Sykes, Sir Percy M., *History of Persia*, 3rd ed. 2 v., (London, 1951).

The Times History and Encyclopaedia of the War, (Times Publication, London, 1917).

Vogel, Renate, "Die Persien-und Afghanistanexpedition Oskar Ritter v. Niedermayers 1915/16", *Studien zur Militargeschichte, Militarwissenschaft und Konfliktforschung*, Bd. 8, (Osnabruch, 1976).

Wilson, Arnold, S.W. *Persia Letters and Diaries of a Young Political Officer 1907-1914* (London, Oxford University Press, 1942).

الحواشي

(١) جورج لنكوفسكي، الشرق الأوسط في الشؤون العالمية، طظ، إيثاكا ولندن، ١٩٦٢.

(٢) أنظر على سبيل المثال فيلهلم هانكوم،

وانظر بصفة خاصة ص ٥٦ وما بعدها(بالألمانية).

Persien im Spiel der Muchte 1900-1907. Ein Beitrag zur Vorgeschichte des Weltkrieges, (Berlin, 1938).

(٣) هناك المزيد من المواد في القسم الهندي حول المواجهة البريطانية مع ألمانيا حول فارس في مكتبة ووثائق القسم الهندي تحت التصنيف

L/p & S/ 10/ 471ff وما بعدها لم تتوافر بعد في مركز الوثائق والدراسات بأبو ظبي.

.India Office L / P and S /10/ 471 ff

(٤) بدأ خط هباج الملاحي أولى خدماته إلى الخليج في ١٩٠٦، وحقق خسائر وصلت إلى ٥٠٠٠ جنيه في كل رحلة. انظر

Jens plass, *England zwischen Deutschland und Russland, 1899-1907, 395 ff.*

(٥) كانت من نتائجها الاتفاقية الإنجليزية – التركية الموقعة في ٢٩ يوليو ١٩١٣ ورسم خط مستقيم جنوبي عقير على ساحل الحسا وتحويل المنطقة الواقعة شرقي هذا الخط المسمى بـ "الخط الأزرق" إلى منطقة نفوذ بريطاني لا نزاع حولها.

(٦) كانت أولى البعثات العسكرية من هذا النوع برئاسة الكونت هلموت فون مولتكه والذي أعيد اصدار مذكراته

Erlebnisse in der alten Turkei, 1835-1839 was re-published with copious notes and explanations by Helmut Arndt for Edition Erdmann, Tubingen, 1984.

(٧) جاء في مذكرة تقع في ٣٠ ورقة أرسلت من السفارة الألمانية في القسطنطينية إلى برلين في ١٩١٥ تحت عنوان "Our Tasks in the Persian Gulf states" :

إننا(ألمانيا) لدينا الرغبة في الوصول إلى الحد الأدنى من الاحتكاك مع انجلترا بقدر الامكان دون المساس بمصالحنا ويقدر مايستطيع أي أحد أن يتذكر، فإنه ما من سفينة حربية قد رفعت علمها في الخليج"(ص ٢٦٨) ويقترح المؤلف أساليب يمكن لألمانيا في وقت كتابة المذكرة أن تستخدم بها مواردها لمحاربة بريطانيا في الخليج، ولكنه لا يعتمد على العون التركي لأن تركيا ضعيفة. وهو يرى أن عرب الرافدين ينظر إليهم كحلفاء محتملين لبريطانيا أكثر منهم للتحالف التركي – الألماني، ولكن قبائل الساحل وأرض

الظهير الفارسية لديها أسباب عديدة تدفعها لمعاداة بريطانيا. وفي مواضع أخرى من هذا الملف يصبح من الواضح أن المؤلف الحقيقي لهذه الصفحات هو السيد توماس براون Thomas Brown كبير موظفي فونكهاوس في البصرة، وهو إنجليزي ولد في ألمانيا وظل على الجانب الألماني طوال الحرب.

أنظر م. م. / A. A. /Turkei 165, Bd.37, p. 333ff.

(٨) لمزيد من التفاصيل انظر فراوكه هيردبي،' (بالانجليزية).

"Germany and the Gulf before 1971" in the forthcoming book entitled *Dialogue and Cultures* to be published by the Friedrich Ebert Foundation in 1995.

(٩) وهي تحمل عنوان :

Berichte des Freiherrn von Oppenheim uber orientalische Yerh ultnisse in the Foreign Ministry in Bonn.

A. A, Orientalia Generalia No. 9 Nr. I; after this quoted as

A. A / O. G. Vol.

(10) " Zur Routenkarte meiner Reise von Damaskus nach Bahgdad im Jahre 1893"

von Dr. Max Freiherr von Oppenheim; Sonderdruck (special issue) aus *Petermanns Geographische Mitteilungen*, 1896, Heft III & IV.

(١١)تفاصيل الإحالة المرجعية إلى الكتاب هي :

Max Freiherr von Oppenheim, Yom Mittelmeer zum Persischen Golf; durch den Hauran, die syrische Wuste und Mesopotamien, 2 v., Berlin, 1899/1900.

(12) A 5902 in AA/ O.G.,vol. 1, p.27.

ولم يتم إنجاز ترجمة إنجليزية لهذا العمل، لكن المجمع الثقافي بأبو ظبي بسبيله إلى تبني ترجمة عربية له.

(١٣) هذا هو اللقب الألماني للوظيفة التي يضطلع بها رئيس الوزراء في الدول الأخرى. وفي ذلك الوقت شغل هذا المنصب الكونت هوهيلوه شلنجفرست

Hohenlohe - Schillingsfuerst .

(١٤) شارك في المؤتمر الدولي للمستشرقين الذي عقد في الجزائر في ١٩٠٥ وأجرى أبحاثاً مع د. هانز لوكاس Dr. Hans Lucas ضمها كتاب عن النقوش الاغريقية والرومانية في سوريا والرافدين وآسيا الصغرى نشر بالألمانية في ليبزج وصدر عن دار ترويبنر في ١٩٠٥.

(١٥) A 7860, 21 July 1896 in AA/ O.G., vol. 1 pp. 135f. وهو يمضي موضحاً العلاقة بين العرب والأتراك، معطياً الانطباع بأن الحكم التركي على الأراضي العربية ضعيف للغاية ويتنبأ بأن السلطان التركي قد لا يظل خليفة للأبد وزعيماً للعالم الإسلامي وأنه

بمساعدة العرب قد يكون الهاشميون أو لابن رشيد منافسين ناجحين.

(١٦) في ديسمبر ١٨٩٧ تلقى أوبنهايم زيارة من تاجر شاب من البصرة، جلب له أنباء التطورات الجارية في الخليج، وبصفة خاصة فيما يتعلق بحاكم الكويت الجديد الشيخ مبارك. A 239 of 31 December 1897 AA/ O.G., vol.2, pp. 185-191.

(١٧) انظر برقية سفير القسطنطينية مارتشل إلى الوزارة في برلين، ٤ نوفمبر ١٩٠٠م.
A 15828 AA / O. G., vol.4 p. 182.

(١٨) في الرسالة نفسها يذكر أوبنهايم العديد من الخطط الأخرى، التي يرغب في تنفيذها، بعد أن أجلت هذه البعث، فهو يرغب في دراسة الطائفة السنوسية والرابيه والتركيز على الزوار العديدين للقاهرة الآتين من سوريا، لكنه يريد كذلك العودة إلى الجزء الآسيوي من تركيا "... لصالح سكة حديد بغداد".

(١٩) See A 13811, 27 September 1901 in AA/O.G., v .5,.271-290 وقد كرس أوبنهايم التقرير بكامله للموقف في الكويت وقدم اقتراحات حول الكيفية التي يمكن بها السلطان في القسطنطينية أن يدعم المطالب التركية في المنطقة.

(٢٠) طلبت برلين من السفير الألماني في واشنطن التأكد من أن رحلة أوبنهايم الحالية لا ينبغي أن تتأثر في سياق سكة حديد بغداد وزنه ينبغي أن يشار للصحف إلى أن الصحف الأمريكية أعطت انطباعاً خاطئاً عندما وصفته بأنه "مفوض ألماني".
see A 225; 5 July 1902 AA/ O.G., v. 6, 180-183.

(٢١) انظر :

A 7692 of May 1903 in AA/ O.G., v. 6, 231-256.

(٢٢) كانت بريطانيا مقتنعة بشكل خاص بأن ألمانيا، الصديق الوحيد لتركيا في مصر، كانت تعمل سراً ضد المصالح البريطانية في النزاع الحدودي في العقبة في ١٩٠٥/١٩٠٦.

(23) AA/ O.G., v. 8, 267 and A 9434; 17 May 1906.

(24) A 8788, AA/ O.G., vol.8, I76-187

(٢٥) A 8788, A A/ O.G., vol. 8, I88-195. وهو يضيف أن المشكلة من المحتمل أن تكون نتيجة لعصبية لورد كرومر واعيائه بعد سنوات عديدة من العمل في مصر وليس نتيجة للسلوك الألماني حياله. وكتب يقول : "ليس هناك شك في أن لورد كرومر يحكمه شك مرضي في مواجهة ألمانيا... ونتمنى أن تحرر إنجلترا نفسها من عدم ثقتها الذي يبرز في كل مناسبة، لكي تستطيع المساهمة في العلاقة الودية التي نعمل من أجلها".pp. 193f

(٢٦) انظر :

A 9434/9435 in AA/ O.G., v. 8, 292-299.

(٢٧) انظر برنشتوف إلى برلين في :
June 1906 in A 10608 in AA/ O.G. v. 9, 37 f.

(٢٨) انظر رسالة خاصة للقنصل العام الكونت فون برنشتوف،
6 June 1906 in AA/ O.G. vol. 9 pp. 41-49.

(٢٩) انظر. A 7381 in AA/ O.G. v.10. "Telegram from Berlin"

(٣٠) انظر رسالة : 12.9 December 1909 Ap 3415 in AA/ O.G., pp. 25-27

(٣١) سلاسل في أرشيف وزارة الخارجية بعنوان «أنشطة وتحريض ضد أعدائنا» (Afghanistan, Beluchistan, Persien), Weltkrieg 11e وهنالك ملفات أخرى تتناول المشرق وافريقيا ستقطف لاحقاً تحت التصنيف vol. AA/ Wk 11e,

(٣٢) انظر أورلغ، جيركه، دور فارس في السياسة الألمانية في الشرق خلال الحرب العالمية الأولى :
Gehrke, u. Persien in der deutschen Orientpolitik waehrend des Ersten Wetlkrrieges, 2v. Stuttgart 1961) v. II footnotes, 22ff.

وقد اقترح رئيس الأركان فون مولتامه V. Molty. الذي أمضى بعض الوقت في تركيا وبلاد إسلامية أخرى، أن يتم كذلك إحداث انتفاضة في الهند ومصر.

(٣٣) كان فاسموس قد أمضى في بوشهر ١١ شهراً من مايو ١٩٠٩ إلى أبريل ١٩١٠ ثم مرة أخرى من مايو ١٩١٣ وحتى ٢٨ يوليو ١٩١٤. وقبل ١٩٠٩ ومرة أخرى في الفترة الفاصلة عمل فاسموس في القنصلية في زنجبار.

(٣٤) قال ليستمان إن لورد كيرزون Lord Curzon وصف كوكس بأنه "ملك الخليج غير المتوج" رسالة. A 17153 of 3 September 1912; in AA/ Turkei 165, vol.35, p7.

(٣٥) في ١٩٠٩ كتب فاسموس يقول بمرارة إن السفينة الحربية البريطانية "فوكس" كانت قريبة بحيث تحرس مقر الجمارك الفارسية في بوشهر من القلاقل القبلية، لأن الإيصالات الجمركية قد تم رهنها لبريطانيا مقابل قرض كبير. وقد تم نشر قوات ومدفع ميداني من السفينة في المدينة ضد المتمردين القبليين المنتمين إلى أرض الظهير، وعرقلت السفينة "فوكس" السفينة الحربية الفارسية "برسبولس" عن المغادرة لأداء مهمة حكومية ومن هنا فإن الكثير من الفرس شعروا بعدم الإرتياح وخشوا الهيمنة البريطانية المتزايدة في جنوبي فارس. انظر .
AA/ Turkei 165, v. 30 and 31, of December 1908 to Mai 1910

(٣٦) في ٥ ديسمبر ١٩١٤ يكتب فاسموس مذكرة حول "المسيرة المخطط لها من قبل الضباط الأتراك إلى أفغانستان بمشاركة ألمانية" انظر AA/ Wk 11e vol.I,pp.18-21.

"Die Persien-und Afghanistan expedition Oscar Ritter v. Medermayers 1915/16", Osnabruck, 1976. *Studien* zur Militorgeschichte, Militurwissenschaft und Konfliktforschung, Bd.8.

(٣٧)انظر الأطروحة التي أجرى بحثها على نحو متميز وأعدها رينيت فوجل،
(٣٨) تشكل المشكلات التي تمت مواجهتها المجلدات العشرة الأولى من الأرشيف المعنى من أرشيف AA Archive, Wk 11e (من اجمالي المجلدات الأربعة والثلاثين).
(٣٩) كان فاسموس هو الذي لفت نظر أوينهايم إلى نيدرمير، حيث كان هذا الأخير ممن لهم خلفية عسكرية، وكان حغرافياً، وقد عاد لتوه من شرقي فارس. وقد وصفه سايكس Sykes بقوله : كان نيدمير رجلاً يعد الانضباط العسكري بالنسبة له شيئاً يوشك أن يكون غريزياً، وقد كان على وجه الدقة الرجل الذي جعل الجيش الألماني جيشاً لا يقهر تقريباً" p. 44.
(٤٠) كتب فاسموس في مذكراته "أعترف بأني على الدوام في غمار هذا كله كانت عيناي على الحامية البريطانية في بوشهر" فيكوش p.70.
("I admit that in all this I had always had my eyes on the British garrison in Bushire").
(٤١) وقد تقرر على أي حال أن قناصل الشرف الألمان الموجودين بالفعل في قنصليات في فارس المحايدة ينبغي تميلهم بشكل أفضل وأن تفتح قنصليات جديدة في أصفهان، همدان، جازد، كرمان، شيراز، كرمنشاه، رشت، وأريما على أن يتولاها غالباً رجال أعمال
Oppenheim, on 2 October 1914 with regard to this suggestion by Schunemann (unnumbered) in AA/ Wk 11 e, vol.3.
ألمان يقيمون بالفعل هناك ويصبحوا قناصل مخربين.
and Arnold Wilson, *S. W. Persia. Letters and Diaries of a Young Political Officer 1907-1914,* (London 1942), .85f.
(43) Bohnstorff had been sent back to bring further supplies from Baghdad.
(٤٢) انظر ميكوش، p. 78، جيوكه، وبصفة خاصة ٧٨ وما بعدها :
(٤٤) للتفاصيل وخريطة، أنظر على سبيل المثال :
وقد اعترفت ألمانيا ضمناً بالسيطرة الروسية على الجزء الشمالي من فارس في اتفاقية أغسطس ١٩١١ الخاصة بالتجارة في تلك المنطقة وإطلاق يد الألمان في سكة حديد بغداد.
(٤٥) وحذت بلاد أخرى حذو هذا المثال الذي لا يمكن الدفاع عنه قانونياً، وجذبت قنصلياتها ولاء الفرس الذين غالباً ما توقعوا الافلات من قبضة العدالة الفارسية بالاختباء وراء دبلوماسي أجنبي واسع النفوذ.
(٤٦) أعلنت بريطانيا للحكومة الفارسية أنه بسبب الاعتداء التركي الذي وقع في عربستان، فإن اعتبارات حياد فارس لا يمكن توقع الالتزام بها في منطقة النفوذ البريطاني.
(٤٧) انظر Gehrke, op. cit., l24ff.

(٤٨) انظر Gehrke, op. cit., 83.

(٤٩) لتفاصيل حول أهداف تحريض فاسموس في المقاطعة في هذه المرحلة انظر
Gehrke, op. cit., 124-131.

(٥٠) لم يستطع الأمير ريو المتسم بالواقعية ضمان الرعاية التي طالب بها الشيوخ في حالة قيام الحكومة الفارسية بإعلان أنهم عصاة خارجون على القانون.

(٥١) أعقبت ذلك اشتباكات أخرى، ولكن الخسائر الفادحة واستنزاف الذخيرة في مواجهة وقعت في ٩ سبتمبر ١٩١٥ وضع نهاية للهجمات في الجنوب لبعض الوقت. انظر في هذا
Gehrke, 8 ff. and Lenczowski, 1969, 33ff and a map on p. 176

Gehrke, op. cit., 156-58, Mikusch, op. cit., 150f and 176-78 and Sykes, op. cit., 106-110

الصدد وما يليه

(٥٢) انظر Gehrke، مرجع سبق ذكره، 158.

(٥٣) انظر Gehrke، مرجع سبق ذكره، 115 ,v .II وما بعدها.

(٥٤) سايكس، مرجع سبق ذكره، p. 120ff وما بعدها، وقد أخذ على عاتقه أن يصحح الأمور فيما يتعلق بالمزاعم القائلة بأن السيدات لم تتم معاملتهن بالتقدير اللائق.

(٥٥) غالباً ماتم بذل جهود لتحرير الأسرى، كما هو وارد على سبيل المثال في البرقية المؤرخة في ٣ مايو ١٩١٦ from Major A.P. Trevor نائب المقيم السياسي في بوشهر إلى سكرتارية الدائرة السياسية في سيملا، والتي جاء فيها : "... أعتقد أن الوقت قد حان ليكون بمقدورنا التعامل مع هذه المنطقة(بوشهر وأرض ظهيرها) بطريقة نهائية ومرضية... ولابد من معاقبة الأحمدي، والشاقوطه، والبوراسجون... والديكي... وإذا كان ذلك مرغوباً فربما يكون بمقدوري تأمين التعاون من أطراف صديقه على الجانب البعيد من البوراسجون... في إطار محاولة لمنع هرب الخانات ونقل الأسرى" .in IOR/ WO 106/ 950, p.44

"Summary of News of H.B.M's Political Residency in the Persian Gulf for the month of June 1916"

(٥٦) ورد في
أنه كان هناك تبادل متواتر للرسائل مع شيخ اهرام : "ذكر في اتصال حديث أن تبادل الأسرى بالنسبة له ليس مسألة ذات أهمية أولى وأن فتح المجال للتجارة والسماح (لشعب طنجستان الفقير) بالذهاب إلى بوشهر والعودة منها يحيطان بهذه الأهمية"
IOR/ L /P & S/ 10/ 827 p. 619.

(٥٧) انظر Gehrke، مرجع سبق ذكره، .v. II, 115

(٥٨) انظر Gehrke، مرجع سبق ذكره، p. 638 ,IOR/ L/P & S/10/827 and 229 .p وترد إشارات هنا وهناك حول هرب زايلر وفاستينج وباتشن وآخرين. وقد قامت السلطات

البريطانية بصفة مستمرة بتحديث سجلاتها المتعلقة بمكان وجود كل مشارك في البعثة الأفغانية وكل الجماعات المنشقة الأخرى. انظر أمثلة

وهكذا حصل البريطانيون على بعض from 1916 in IOR/ wo 106/946, 20-52.

مذكراتهم، والتي علموا منها بالكثير عن الخطط الألمانية المستقبلية. ويمكن العثور على
Major Zugmayer dating from 4 July 1914 to 31 December 1915 can be found in IOR/ WO/ 106/ 925, 2-82.

الترجمة الإنجليزية لمذكرات ميجور زوجمير

(٥٩) انظر Gehrke، مرجع سبق ذكره، 224 .p., 267-271 and for the following (٦٠)

انظر Mikusch ، مرجع سبق ذكره 245-250 .

(٦١) تشهد أوصاف الرحالة، منذ أقدم العصور، من ساحل الخليج إلى شيراز وأرض الظهير الفارسية على الصعوبات التي تكتنف عبور الهضاب الجبلية الوعرة، التي تعترض الطريق، والتي كان بمقدور القبائل المحلية المعادية أن تسيطر عليها في يسر.

(٦٢) وردت الأوصاف البيانية للمصاعب وكذلك الروايات التي تصور الاشتباكات والمعارك العديدة في رسائل بعث بها سير بيرس سايكس، في IOR/ WO 106/937.

(٦٣) Gehrke، مرجع سبق ذكره،
p. 268; quotation from Sir Percy Sykes, History of Persia, v. 2, 467.

(٦٤) Gehrke، مرجع سبق ذكره، v. II p. 272. وقد شكلت القوة قبل "اتفاقية صفردار" السرية التي لم يصدق عليها البرلمان الفارسي قط ويتم إيضاح وظيفة وتنظيم وهيكل قيادة هذه القوة على نحو ما انعقدت عليه النية في ١٩١٧ في تقرير كتبه لفتنانت كولونيل أورتون
Lieut. Colonel Orton; see IOR/ WO 106/ 934 pp.2-10 and other documents in this file

(٦٥) سجل الضيق المتزايد حيال الافتقار إلى النجاح في هذا الصدد وكذلك الإدراك المتنامي لعمق المشاعر المعادية للبريطانيين في صفوف هذه القبائل في الأجزاء
"Summary of H.B.M's Political Residency Persian Gulf, Monthly Reports" IOR/ L /P & S/10/827.

المتعلقة بهذه الموضوعات في

(٦٦) أو هكذا بدا الأمر في ذلك الوقت، ولكن من المراسلات بين السفير البريطاني في طهران سير بيرس كوكس ووزير الخارجية لورد كيرزون يمكن ادراك أن السلطات البريطانية كانت تعرف طوال الوقت مكان وجود فاسموس وأورتل وانه لدى السماع بأن الدبلوماسي الألماني سومر Sommer قد حادث رئيس الوزراء عن امكانية مضيهما طليقين، انتزع كوكس على الفور تعليمات من رئيس الوزراء للشرطة الفارسية بضرورة تسليمهما بدلاً من ذلك إلى المفوضية البريطانية. انظر FO 416/65 pp. 65ff.

(٦٧) لم يبق فاسموس هناك طويلاً، وبأعظم قدر من الصعوبات حصل من الحكومة

الألمانية على المبلغ الذي كان قد اقترضه من شيوخ طنجستان في نوفمبر ١٩١٦ ليواصل الكفاح. وعندما أصبح بمقدور الألمان دخول فارس مجدداً، حاول أن ينشئ مزرعة مثالية يكون أبناء شيوخ طنجستان حملة اسمها. ولكن المنازعات اكتنفت هذا المشروع، وعاد فاسموس إلى برلين رجلاً مفلساً وتسيطر عليه مشاعر خيبة الأمل، حيث سرعان ما توفي في نوفمبر ١٩٣١ عن ٥١ عاماً.

(٦٨) سلك هنتيج طريقاً مضى به عبر الصين.

(٦٩) هناك مثالان يمكن أن يوضحا هذه النقطة في "الموجز السري لأبناء مقر المقيم السياسي لجلالة ملك بريطانيا في الخليج الفارسي" أولهما: "إن طريق شيراز بوشهر... على امتداده بشكل عملي يشهد قتالاً بين القبائل وعمليات نهب من النوع البالغ الضآلة يصل بالإدارة والتجارة إلى مرحلة التجميد '(October 1916, p.643) أو "خلال الشهر تطورت المعارضة المتزايدة لقوة حملة بنادق جنوبي فارس لتصل إلى اشتباك مفتوح ومنظم. وفي أبريل... أدى الاعدام العاجل للعديد من الفارين من الخدمة في صفوف قوة حملة بنادق جنوبي فارس إلى ضيق تم تجاوزه عن طريق التأثير الديمقراطي النشط من العاصمة، ولا شك أن هذا الضيق ألهمه إلى حد كبير وساعد في تأجيجه عملاء ألمان" (May 1918, p. 717); IORI L /P & S/10/827.

(٧٠) انظر لمزيد من الأمثلة لتضاربات من هذا النوع بين ما نسب إلى ألمانيا وبين قوتها الفعلية على الأرض رينيت فوجل، op.cit., pp. 197 -201.

(٧١) انظر على سبيل المثال، :

The Times History and Encyclopaedia of the War, Part 139, 17 April 1917

١٧ أبريل ١٩١٧ أو الاجتماع السادس لشركة النفط الإنجليزية – الفارسية، والذي وصف فيه المشاركون في البعثة بأنهم "مغامرون سياسيون في بلد محايد" و"مغامرون عسكريون من النوع الرث، الأبتر". انظر كذلك Gehrke p. 80 und v. II, 64.

(٧٢) أدى نشر يوميات العديد من المساهمين في البعثة الأفغانية الأصلية إلى وعي أكبر

„(73) Christopher Sykes, *Wassmuss "The German Lawrence". His adventures in Persia during and after the War*, London, 1936.

في ألمانيا لهذه الأحداث.

(٧٤) Gehrke، مرجع سبق ذكره، vol.II, p. 10, مقتطف من مخطوط

quoting from the manuscript of Gunther Voigt's diary.

(٧٥) وكان معنى ذلك أن المشاركين قد تلقوا رواتب الخدمة العسكرية العادية فقط، وفقدوا الزيادات الخاصة التي كانت وزارة الخارجية تقدمها، انظر:

A 26166; 22 October 1919 AA/ Wk 11 e, vol. 34 ويمكن من اليوميات والتقارير المختلفة إدراك أن الأعضاء قد تحملوا مشاقاً لا توصف في طريقهم إلى كابول، وتعرض

معظمهم للأسر في طريق عودتهم، حيث احتجزهم البريطانيون ثم تم تسليمهم للروس. وهرب بعضهم إلى ألمانيا.

(٧٦) كان فيدرومير وآخرون قد حذروا الوزارة من أن مثل هذه الأوضاع لن تكلل بالتوفيق.

(٧٧) Renate Vogel, op. cit., 188, مقتطف من ليمان فون ساندرز Liman v. Sanders الذي انتقد هذه الترتيبات بشدة.

(78) See Jens Plass, op. cit..

(٧٩) من الأمثلة على ذلك وجهة النظر التي أعرب عنها المستشار فون بولوف v. Buelow لوزارة الخارجية في برلين في ١ أكتوبر ١٩٠١، حيث حذر من ألمانيا بأن لا ينبغي أن تؤيد المغامرات التركية في الكويت، التي يمكن أن تثير عداء بريطانيا، قائلاً : "في ضوء استقلال الحكومة الهندية، وارتباك بعض الوزراء الإنجلين، ومرارة الرأي العام الإنجليزي، فإننا ينبغي أن نحرص على ألا يصل الأمر إلى إحراج دبلوماسي يمكن أن يؤدي من جديد إلى تعكر صفو العلاقات الألمانية – الإنجليزية، بين الحكومتين ولكن بصفة خاصة بين الناس على امتداد سنوات مقبلة".

A 14029 in AA/ Turkei 165, Nr. 1 Kuwait, v. 2, pp.313-316

(٨٠) انظر فيلهم هانيكوم، مرجع سبق ذكره، وهو يقدم أمثلة، لطرح وجهة النظر القائلة بأن الوزير ف. بولوف لم يرغب في بحث إمكانية إعادة توجيه شبكة المعاهدات الأوروبية، انظر بشكل خاص ص ٥٨ وما بعدها.

(٨١) سقطت السلطات الألمانية أيضاً ضحية لبعض الناشطين – إن لم يكن أيضاً لبعض المعتوهين – من بعض الدول التي لم تكن مستهدفة وقتذاك، لأنه لم يكن هناك ما يكفي من الخبرة للحكم على ما إذا كان أي من هؤلاء الأجانب الذين توافدوا على برلين يحظى بثقل سياسي أو خبرة أصيلة ليقدمها أيهم يأمل في الاستفادة المادية من المشروعات التي يجري تطويرها.

المحور الخامس

مرحلة البحث عن النفط

- الساحل المتصالح في كتابات المنصرين

فاطمة حسن الصايغ

- تحليل للمصالح النفطية وأعمال الرحالين الغربيين

حسام مهدي

فاطمة حسن الصايغ

دكتوراه في التاريخ (جامعة إسكز ١٩٨٩)

أستاذة في كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية (جامعة الإمارات)

إماراتية

من نتاجها :

«الخط الجوي البريطاني إلى المشرق وأثره على صنع القرار البريطاني تجاه مشيخات الساحل، ١٩٢٩ – ١٩٥٢» (أطروحة الدكتوراه).

«الإمارات العربية والخط الجوي البريطاني إلى الشرق» (أبوظبي١٩٩٥)

«الوكيل الوطني ودوره في صنع القرار البريطاني تجاه منطقة الإمارات» (مجلة دراسات الخليج ع ٦٩، ابريل ١٩٩٣)

«المرأة في الإمارات : دراسة تاريخية لواقع المرأة وتطورها في منطقة الإمارات في القرن العشرين» (مجلة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ع ١١، ١٩٩٥).

«الخدمة الطبية والتبشير في منطقة الإمارات» (مجلة الدراسات العربية والإنسانية بالكويت).

«النظام القضائي البريطاني في منطقة الساحل المتصالح» (مجلة شؤون اجتماعية ع ٤٨، ١٩٩٥).

قليلة هي الدراسات التي تناولت بالدرس والتمحيص كتابات الرحالة عن منطقة الخليج العربي خلال القرنين الماضيين ونادرة تلك التي تناولت نظرة الرحالة إلى منطقة دولة الإمارات العربية. (والتي كانت تعرف قبل استقلالها عام ١٩٧١ بمسميات عديدة أهمها الساحل المتصالح، ساحل عمان وساحل القراصنة). وترجع أسباب هذه الندرة إلى :

أولاً : قلة المعطيات الوثائقية المتوافرة عن منطقة الإمارات التي تتضمن وصفاً لأعمال الرحالة.

ثانياً : الاعتماد الكبير على المصادر البريطانية السياسية (وثائق مكتب حكومة الهند ووثائق المكتب العام (Public Record Office). فقلة من المؤرخين خرجوا عن نطاق الأرشيف البريطاني إلى الأرشيفات الأخرى كالأرشيف الألماني أو العثماني أو الفارسي أو الفرنسي لتوثيق الدراسات العلمية.

ثالثاً : ابتعاد الباحثين شبه التام عن الأرشيف الأمريكي ونقصد به هنا أرشيف الإرساليات الأمريكية لعدة أسباب، منها الحساسية المفرطة التي يحسها بعض الناس تجاه عمل الإرساليات التبشيرية وبقاء وثائق الإرساليات الأمريكية محفوظة في أرشيف الكنائس الأمريكية وإحساس الباحثين بصعوبة الحصول عليها.

لهذه الأسباب مجتمعة قلّت الدراسات التي تتناول الجوانب غير السياسية من تاريخ منطقة الخليج وشبه الجزيرة، وتركزت الدراسات حول الجوانب السياسية، وندرت الدراسات التي تتناول التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لهذه الشعوب. لذا فهذا البحث محاولة لدراسة تاريخ الإمارات اعتماداً على الوثائق الأمريكية، أو بمعنى أشمل وثائق الإرساليات الأمريكية. فالمعروف أن وثائق الإرساليات الأمريكية تعدّ مصدراً غنياً من مصادر المعرفة، ولا يمكن إهمالها استناداً إلى الحساسية المفرطة التي يحسها البعض تجاه عمل هذه الإرساليات. بالإضافة إلى ذلك تعدّ تقارير المبشرين مصدراً غنياً لتاريخ المنطقة الاجتماعي والاقتصادي. فالمبشرون كانوا أقرب للأهالي من الموظفين البريطانيين، وتعاملوا معهم معاملة شخصية، تختلف

عن النظرة المتعالية التي كان البريطانيون ينظرونها للأهالي. لهذا جاءت التقاريرالأمريكية أقرب للواقع وأكثر إنصافاً من التقارير البريطانية. ومن الناحية الوصفية تعدّ الوثائق الأمريكية تكملة للوثائق البريطانية. فحين تختص الوثائق البريطانية بالجانب السياسي والإداري، تختص وثائق الإرساليات الأمريكية بالجانب الاجتماعي والاقتصادي لتطور الشعوب التي كانت على اتصال بها. لهذا فالدراسة المتأنية لكلا الأرشيفين تعطينا صورة كاملة بعض الشئ عن تطور الأوضاع في مجتمع الإمارات من بداية القرن التاسع عشر حتى النصف الأول من القرن العشرين.

الهدف من هذه الدراسة :

لو أخذنا بعين الاعتبار أن معظم تاريخ الإمارات تاريخ غير مدون لأدركنا أهمية هذه الوثائق؛ فقد ترك لنا هؤلاء المستشرقون معلومات قيمة عن الحياة الاجتماعية السائدة، فجاءت هذه الوثائق لتسد ثغرة في معرفتنا عن تطور الحياة في مجتمعات الإمارات في بداية القرن العشرين. فغياب المصادر المحلية لم يترك لنا خياراً إلا الاعتماد على المصادر الأجنبية. ففيما اهتمت الوثائق البريطانية بالحياة السياسية والتطور الإداري اهتمت التقارير الأمريكية بوصف الحياة الاجتماعية فجاء كلا الأرشيفين يكمل بعضهما بعضاً، والجدير بالذكر أن السلطات البريطانية اعتمدت في كثير من الأحيان على التقارير الأمريكية خصوصاً وأن الأمريكيين قد توغلوا إلى مناطق لم يصل لها أي انجليزي من قبل كالبريمي مثلاً. فبينما ترجع رحلات المبشرين الأمريكيين إلى البريمي إلى بداية القرن العشرين، كانت أول رحلة لمسؤول بريطاني إلى البريمي في عام ١٩٠٥ ، ومنذ هذا التاريخ لم يقم أي مسؤول بريطاني بزيارة إلى الداخل حتى الثلاثينات من القرن العشرين بينما استمرت زيارات المبشرين دون انقطاع ليس فقط إلى البريمي ولكن إلى العديد من المناطق النائية في الإمارات.

ومن جانب آخر تعدّ كتابات المبشرين مصدراً غنياً للمعلومات لأنها لا تتناول – كالتقارير الرسمية – الأوضاع السياسية والإدارية وإنما تتناول

الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسكانية والجغرافية والمعيشية. فهي كتابات يومية تكتب كتقارير إلى مقر الإرساليات تعدّ معلومات قيمة للسلطات السياسية، لأنّ المبشرين قادرين على التغلغل بين صفوف الشعب وأوساط العامة وتقديم تقارير أكثر دقة من تقارير المسؤولين السياسيين.

وتختلف زيارات الرحالة عن زيارات المبشرين في أن الهدف من قدوم الفئة الأولى هي الاستطلاع والدراسة وليس الإقامة والاستيطان بعكس الفئة الثانية. فالمبشرون في أغلب الأحيان أتوا ليستقروا فترات طويلة بين الأهالي بحكم طبيعة عملهم. لذا تأتي كتاباتهم مختلفة عن كتابات الرحالة، ومن هنا تأتي أهمية دراسة كتابات المبشرين في أنها تقدم سجلاً يصور الحياة بكل تفاصيلها في مجتمعات الخليج في النصف الأول من القرن العشرين.

ولغرض الدراسة العلمية فقد تم تقسيم هذا البحث إلى خمسة أقسام. القسم الأول منه عبارة عن خلفية تاريخية لطبيعة عمل الإرسالية العربية الأمريكية وهي الإرسالية التي تبنت نشاط المبشرين(١) في الإمارات في النصف الأول من القرن العشرين. ويتناول القسم الثاني الأوضاع في الإمارات منذ عام ١٩٠٠ حتى بداية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤. القسم الثالث تحليل لأوضاع المبشرين ونشاطهم في الإمارات في فترة ما بين الحربين (١٩١٨ – ١٩٣٩)، بينما يتناول القسم الرابع بالدراسة والتحليل أهداف المبشرين في منطقة الإمارات في الأربعينات من القرن العشرين. أما القسم الخامس والأخير فهو خاتمة إجمالية لأهم النتائج التي حققها المبشرين في منطقة الإمارات وتأثيرهم على المنطقة.

أولا : خلفية تاريخية :

عرفت الإمارات منذ نهاية القرن التاسع عشر نوعية مغايرة من المكتشفين الزائرين الذين توافدوا على المنطقة لأغراض مختلفة تماماً عن تلك التي كانت لدى من سبقوهم. وقد توافد هؤلاء الزائرون في إصرار عجيب يوضح لنا الأهمية التي بدأت الإمارات تكتسبها. ففي عام ١٨٩٦ شهدت

الإمارات وصول شخص يدعى عيسى يمثل الإرسالية العربية الأمريكية، وهي إرسالية تأسست عام ١٨٨٩ على يد جماعة من دارسي اللاهوت في نيو جرسي بالولايات المتحدة الأمريكية. وقد رسمت هذه الإرسالية خطة متكاملة للوصول إلى قلب شبه الجزيرة العربية.

وكان من هذه الخطة إنشاء مراكز أو محطات – على حد تعبيرها – يتم منها الانتقال إلى جميع مناطق الخليج وشبه الجزيرة. فأنشأت محطة رئيسية في البصرة وأخرى في البحرين وثالثة في عمان. ونظمت رحلات من هذه المحطات إلى المناطق المجاورة لتبادل الزيارات بين المبشرين والأطباء العاملين فيها. ونظراً للقرب الجغرافي بين البحرين وعمان من ناحية والإمارات من ناحية أخرى فقد أصبحت الأخيرة تابعة للمحطتين يتم منهما الإشراف على منطقة الإمارات وتبادل الزيارات وإرسال التقارير.

اعتبرت منطقة الإمارات جزءاً من شبه الجزيرة "تلك المنطقة الساحرة التي يجهلها الغربي على الرغم من أن لغتها تدرس في معظم جامعاتنا الغربية ولكنها لا تزال غارقة في الظلام"(٢). وقد اتخذ المبشرون التابعون للإرسالية العربية من البصرة مركزاً رئيسياً لهم لمد نشاطهم على سواحل الخليج العربي داخل شبه الجزيرة. ولم يأتِ اختيارهم للبصرة اعتباطاً وإنما جاء اختياراً مدروساً. فالبصرة هي مركز التقاء التجارة القادمة من بلاد الرافدين إلى الجزيرة العربية حيث تفدها السفن المحملة بالبضائع من حبوب وتمور. بالإضافة إلى ذلك فهي مركز لتوقف العديد من الحجيج القادمين من جميع أنحاء العراق وإيران وآسيا الصغرى. هذه العوامل مجتمعة جعلت من البصرة محطة رئيسية لخدمة أغراض المبشرين ونقطة تغلغل إلى سواحل الخليج ووسط شبه الجزيرة. أما البحرين فهي محطة حضارية على مر العصور وموقعها في وسط الخليج العربي أتاح لها أن تكون حلقة وصل بين أرجاء الخليج. أما عمان فقد اعتبرت إقليمًا قائماً بذاته.

كانت هناك عوامل سهلت تغلغل المبشرين إلى منطقة الخليج أهمها غياب الخدمات الصحية الحديثة وغياب الوعي الاجتماعي والثقافي. وقد استغل

المبشرون نقاط الضعف تلك وعمدوا إلى تقديم رسالتهم للناس بالطرق التالية :

١ – الحوار والمناقشة مع الناس في الطرق والمجالس العامة عن الإنجيل والمسيحية. نتيجة لغياب الوعي الاجتماعي لم يدرك الأهالي خطر هؤلاء الغرباء. في حين أن السلطات السياسية لم تتدخل لمنع هذا الاتصال المباشر بين المنصرين والأهالي.

٢ – تقديم الخدمة الطبية الحديثة كالعلاج والأدوية. فقد سهل غياب الخدمات الطبية من عملية تغلغل المنصرين. فالعلاج المحلي الوحيد الموجود هو الطب الشعبي الذي اعتمد على التداوي بالأعشاب وعلى الزار. وكان الدواء الشائع هو الامتناع عن نوعية معينة من الأطعمة التي توصف بأنها حارة أو باردة. وكان الوشم أو الحجامة وصفات شائعة لمداواة المرضى. أما الأمراض التي تحتاج إلى جراحة فكانت تهمل أو تعالج بالوسم. لذلك كثرت نسبة الوفيات خصوصاً بين الأطفال والنساء وتردت الأحوال الصحية ومن هنا قدم المنصرون خدمات جليلة للأهالي. فقد قام هؤلاء بزيارات منظمة لجميع المناطق النائية واستخدموا خلال جولاتهم طرق المواصلات المتوافرة كلها كالحمير والجمال والسفن الشراعية والدراجات الهوائية (التي عرفت تهكماً بين الأهالي بـ خيل إبليس) وكانوا أحياناً كثيرة يمشون على الأقدام. ولم يبالوا بظروف الحياة الصعبة كحرارة الجو القاسية أو معارضة الأهالي ورفضهم لهم، أو صعوبة العيش. إذ كانوا مؤمنين برسالتهم واثقين كل الثقة بالمردود الذي سوف يحصلون عليه. لأن الطب عندهم لم يمكن وسيلة إنسانية لرفع المعاناة عن بني الإنسان فحسب، ولكنهم عدّوه وسيلة دينية؛ ففي اعتقادهم أن الإنسان الصحيح البدن هو الإنسان السليم الروح (Healthy in Body Straight in Soul) المستعد لتلقي رسالتهم(٣).

٣ – التعليم، استغل المنصرون تعطش الأهالي للتعليم الحديث ورغبتهم في تخطي أسوار الجهل التي تحيط بالمنطقة. فبينما كان في اعتقاد الأهالي أن هؤلاء الغرباء القادمين من الغرب سوف يؤدون لهم هذه الخدمة مجاناً قام المنصرون بتقديم كلمة المسيح أولاً. فالدروس التي تعطى في المدارس التبشيرية غالباً ما تبدأ بالصلوات الدينية ثم بدروس في الانجليزية.

اعتمد المنصرون على هذه الوسائل في ايجاد موطئ قدم لهم في المنطقة، فلم تختلف وسائلهم باختلاف المناطق، بل إن الوسائل التي اتبعها المنصرون في مجاهل أفريقيا والهند وأمريكا اللاتينية هي نفسها التي اتبعوها في الخليج وشبه الجزيرة. فهي وسائل متعارف عليها في الأوساط التبشيرية في العالم.

وتعدّ رحلات المنصرين وتقاريرهم ضرباً من ضروب الأدب، فالمنصرون نادراً ما كانوا يغفلون جانباً من جوانب الحياة. فعلاوة على كون هذه التقارير مطلوبة من رؤسائهم ومن الأوساط الكنسية الأخرى التي تساعدهم وتدعمهم بالأموال اللازمة لاستمرار عملهم، كانت هذه التقارير تفريغاً للمشاعر والآمال التي يطمح المنصرون في تحقيقها. لذلك فالمنصرون كانوا يبالغون أحياناً في إظهار سيئات المناطق والشعوب الذين اتصلوا بها لأنهم يعتقدون أن عليهم واجباً كبيراً هو إصلاح الأوضاع.

أطلق المنصرون على الدول الإسلامية جميعها «إمبراطورية محمد»، وإمعاناً في التعصب كانوا يسمون المسلمين المحمديين.

فقد وصف د. بول هاريسون العالم الإسلامي بأنه "يضم أجناساً متعددة ومركز الإسلام في القاهرة [يقصد الأزهر الشريف] ونفوذه الكبير المتلاشي في تركيا [يقصد الإمبراطورية العثمانية] ولكن قوة الإسلام ليس في نفوذه السياسي ولا الجغرافي، ولكن في تغلغله إلى قلوب أتباعه خلال ثلاثة عشر قرناً من الزمان"(٤).

كان الهدف الأكبر والأسمى للمنصرين وشعارهم هو الوصول إلى قلب الجزيرة العربية من القواعد التبشيرية على السواحل، لذلك تميز نشاطهم بكثرة التجوال في شبه الجزيرة انطلاقاً من قواعدهم المعروفة بالبحرين ومسقط والبصرة.

ويروي مويرديك الذي زار الإمارات مرتين متتاليتين أن أقسى العقبات التي كانت تواجههم هي "تعصب رجال الدين ضدهم، وأنهم كانوا يأمرون الناس بإحراق كتبهم ويأمرون الشيوخ بمنع المبشرين من بيع تلك الكتب"، ويستمر مويرديك بقوله الشئ الوحيد الذي نجحنا في تحقيقه هو بيع الكتب من بيوتنا(٥).

ولم يخفَ على المنصرين أسطورة القرصنة في الخليج فقد روى أحدهم وهو بيتر تومس عن القرصنة فقال : «على خرائط القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت سواحل الخليج الجنوبية الشرقية الممتدة من قطر إلى خوركان تعرف باسم "ساحل القراصنة" ويحتوي هذا الساحل على أربع مدن رئيسية أهمها دبي والشارقة. ومن قديم الزمن عندما كانت بريطانيا وفرنسا وهولندا والبرتغال تمتلك مستعمرات في المشرق كان هؤلاء القراصنة يخرجون من مخابئهم في سفنهم الصغيرة الخفيفة ويهاجمون هذه السفن بحمولاتها الثمينة المكونة من الأحجار الكريمة والحراير والبهارات وغيرها من البضائع الثمينة. وقد تعرضت السفن الأجنبية العابرة في مياه الخليج والبحر الأحمر والمحيط الهندي لخطر هؤلاء البحارة المحترفين. وفي المرات القليلة التي استطاعت بعض السفن النجاة لحقها هؤلاء القراصنة. وقد حاول التجار أن يتخذوا خطوات يائسة للتخلص منهم وإنهاء خطر هذه الفئة القاسية من ذئاب البحر»(٦).

ويمضي المنصّر بقوله : "يبدو أن هؤلاء القراصنة الذين أطلق عليهم لقب «كلاب البحر» عرب لأنهم يتكلمون اللغة العربية ودائماً يقاتلون المسيحيين ويطلق عليهم كما كتب بيتر توماس Corssair تحريف للكلمة العربية قرصان Corsan.

ومضى بيتر تومس في شرح أوضاع في الخليج ومجئ الاستعمار البرتغالي والفرنسي ومن ثم الإنجليزي إليه، وكيف قضي على نشاط القراصنة في الخليج. ويقول : «كانت حكومتنا والحكومة البريطانية التي عقدت معاهدة مع سلطان عمان السيد سعيد بن سلطان الذي كان على خلاف مع زعيم القراصنة "شيخ دبي". ويقصد سلطان بن صقر زعيم القواسم». وعوضاً عن أن يذكر أن مقر القواسم هو رأس الخيمة والشارقة ذكر أنه دبي ورأس الخيمة(٧).

ومن الألقاب التي أطلقها المنصرون على أهل الإمارات "كلاب البحر المتوحشون" "هؤلاء الجناة القساة" و"القراصنة" وغيرها من الألفاظ التي أخذوها دون شك من الوثائق والأخبار البريطانية المتواردة(٨).

ثانيا : الإمارات العربية قبل الحرب العالمية (١٩٠٠ - ١٩١٤) :

منذ فجر التاريخ كان الرحالة أو المكتشف هو أول شخص تطأ قدماه أراضي الأخرين لاكتشاف مجاهلها. لذلك يقال : إن الوسيلة التقليدية المتعارف عليها في الأوساط الغربية لاكتشاف منطقة ما هي أن يأتي الرحالة ثم المنصّر ثم الجندي ثم التاجر لتستكمل بذلك حلقة الاستحواذ على المنطقة. وهذا التسلسل يوضح الأساليب التي اتبعها الأوربيون لفتح منطقة ما، وهي أن يرسلوا أولاً البعثات الاستكشافية ثم يبدأوا بتهيئة الناس لاستقبالهم بإرسال المنصرين، ،حينما يوقنون بأن الأمور أصبحت مهيأة فإنهم يرسلون الجيوش العسكرية لإحكام سيطرتهم على المنطقة وبعدها يبدؤون في الاستغلال الاقتصادي بإرسال التجار.

كان هذا هو التسلسل الذي اتبعه الأوربيون على الغالب في إخضاع منطقة ما، لكنه لم يكن متبعاً كما يبدو في الخليج وشبه الجزيرة العربية نظراً لخصوصية المنطقة لكونها مهد الإسلام، ونظراً لمعارضة شعوب المنطقة لأي تغلغل أجنبي مهما كان نوعه وأهدافه. لذا شهدت منطقة الإمارات أول ما شهدت في مطلع القرن السادس عشر توافد الجيوش الأوربية سواء البرتغالية أم الانجليزية. وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر شهدت مجئ الرحالة ثم المنصرين وأخيراً التجار.

ففي عام ١٨٩٦ شهدت الإمارات أول محاولة تبشيرية من قبل الإرسالية العربية. ففي تلك السنة قام شخص يدعى عيسى بزيارة لدبي التي وصفها بأنها أكبر مدينة على ساحل الإمارات والتي يبدو أنها شهدت قبل وقت قصير من زيارته حريقاً ضخماً أتى على جزء كبير من المدينة.

وكانت زيارة عيسى زيارة استطلاعية أكثر منها زيارة عمل. فلم يمكث في دبي إلا فترة وجيزة درس خلالها الأوضاع، ويبدو أنه قام باتصال مع الأهالي، لأنه أورد في تقريره إلى الإرسالية عن بيعه لحوالي مئة من الكراريس الدينية. وتعدّ زيارة عيسى خطوة مهمة في نشاط الإرسالية العربية الأمريكية في منطقة الإمارات وفاتحة للعديد من الزيارات التي سوف تتم في بداية القرن العشرين.

في عام ١٩٠٠ قام المنصّر صموئيل زويمر أحد مؤسسي الإرسالية العربية، بأول زيارة رسمية لمنطقة الإمارات. ففي فبراير من ذلك العام قام زويمر يرافقه مساعده إلياس، بزيارة استطلاعية للإمارات من مقرهم في البحرين التي تبعد حوالي ٦٥٠ ميلاً عن الشارقة. وقد وصلوا إلى الشارقة يوم ١٦ فبراير ١٩٠٠ على متن سفينة محلية واستغرقت رحلتهم فيها حوالي أربعة أيام زاروا خلالها جزيرة أبو موسى التي وصفوها بأنها جزيرة جميلة يكثر بها الظباء والغزلان وبها النخيل والمياه العذبة. أما الشارقة فقد قال عنها : إنها "أكبر مدن الساحل الثمانية ولا تزال مركز الوهابيين"(٩). ويبدو أن زويمر متأثر هنا بالكتابات البريطانية التي كانت تصف الشارقة بأنها مركز الوهابيين على ساحل الخليج العربي والامتداد الطبيعي للحركة الوهابية على الساحل. أورد زويمر أيضاً في تقاريره المقابلة الحسنة التي لاقاها من أهالي الشارقة وذكر باستغراب أنه لم يكن يتوقع هذه المقابلة منهم نظراً لتعصبهم للوهابيين. فهم كما يقول زويمر قد اشتهروا بانعدام الدافع الأخلاقي (نظراً لتاريخهم الطويل في المقاومة البريطانية)، كما اشتهروا في السابق بالقرصنة وليس هناك أي جزء آخر بالجزيرة العربية يماثل هذا الساحل في جفاء الكلام وانعدام الدافع الأخلاقي". ومضى زويمر في وصفه للأوضاع السكانية قائلاً: "هنا يمثل العنصر الزنجي حوالي نصف عدد السكان، وعلى الرغم من تحريم تجارة الرقيق إلا أن هذه التجارة تمارس في الخفاء.(١٠) ويشير زويمر بطريقة غير مباشرة إلى المزاعم البريطانية بشأن تجارة الرقيق.

وبعد استقراره في الشارقة قام زويمر بالمهمة التي جاء من أجلها وهي نشر المسيحية، وقد استخدم عدة أساليب للتغلغل في المنطقة، منها مقابلة الأهالي والتحدث معهم عن المسيحية والتطبيب وتقديم الدواء للأهالي على الرغم من أنه لم يكن طبيباً مؤهلاً. وبما أن الأهالي كانوا في أمس الحاجة للخدمة الطبية الحديثة فقد وجد زويمر أن أنسب الطرق لمقابلة الأهالي وإيجاد وسيلة للتغلغل معهم هي التطبيب. لذلك توافدوا الأهالي من كل صوب. وأورد زويمر أنه قد استقبل حوالي ٧٠ مريضاً، وباع مرافقه إلياس عدداً من الكراريس الدينية. وكان زويمر يستخدم مقر إقامته كقيادة ومركز تنصير دون أن يثير الانتباه إلى مدى خطورة مهمته.

بعد انتهاء زيارته للشارقة استقل ظهور الحمير التي نقلته إلى دبي والقرى المجاورة لها قاصداً كل يوم إلى قرية ناشراً دعوته ومقدماً خدماته الطبية. وبعد قضاء حوالي ستة أيام على ساحل الإمارات استأجر جمالاً ودليلاً ليسافر إلى صحار، وقدر زويمر المسافة التي سيقطعها بحوالي ١٢٥ميل، ولما كانوا سيجتازون طريقاً جبلياً وعراً عبر وادي حتا فإن المسافة ستقدر بحوالي ١٥٠ ميل تحتاج إلى حوالي ٤ أيام بلياليها. وعلى الرغم من هذا الجهد الكبير إلا أن زويمر كان مصمماً على أداء المهمة على أكمل وجه. فالمنطقة كما كان يعتقد مفتوحة للعمل التنصيري. وتوفر للمنصرين حقلاً خصباً لزرع أفكارهم. وقد قام زويمر بزيارة البريمي وقابل شيخها الذي ادعى أنه اشترى منه كتاباً للانجيل باللغة العربية.

لا يهمنا من رحلة زويمر هذه الجانب الاجتماعي فحسب، بل الوصف الجغرافي للمنطقة أيضاً. ففي تقاريره وصف زويمر الطريق الذي قطعه فقال : على الرغم من أنه محفوف بالمخاطر والصعاب إلا أنه طريق جميل. وعلى هذا الساحل ينمو العديد من الفواكه مثل المانجو والنخيل، ويستخدم الأهالي للري طريقة تسمى "فلج" جمع أفلاج، وهي تعمل عن طريق تحويل لمجرى الغدير ليصب في قنوات تروي المزروعات(١١).

يدلنا هذا الوصف على المسالك التي سلكها عرب الإمارات وعمان كوسيلة للاتصال بين المنطقتين على الرغم من وعورتها.

كما نتعرف من خلال هذه التقارير على الأوضاع الاقتصادية السائدة وطرق المعيشة.

في عام ١٩٠١ شهدت الإمارات زيارتين لمنصرين أمريكيين، الزيارة الأولى قام بها زويمر والثانية جون مويرديك. ففي ربيع عام ١٩٠١ زار زويمر منطقة الإمارات مرة ثانية. وفي هذه الزيارة زار أبو ظبي على متن سفينة محلية. وقضى في أبو ظبي حوالي أربعة أيام أمضاها كما يقول "في الصلاة والعبادة والتبشير" ويبدو أن رحلته تلك لم تحقق أي أغراض تبشيرية. فبعد فترة وجيزة كان زويمر ومساعدوه يحاولون استئجار الجمال للوصول إلى المناطق الداخلية من الإمارات على أمل تحقيق نتائج أخفقوا بتحقيقها في المناطق الساحلية.

ولكن يبدو أن خطة المنصرين في التوغل نحو المناطق الداخلية قد لاقت معارضة الشيخ زايد بن خليفة حاكم أبو ظبي، فقد اعترض الشيخ قائلاً : إنه يتحتم عليهم الحصول أولاً على تصريح من السلطات البريطانية في الشارقة قبل أن يسمح لهم بالتوجه نحو البريمي. وفي مقابل ذلك وعدهم بأنه سوف يؤمن لهم الطريق إلى البريمي في المرة القادمة وعندما يأتون له بتصريح من الوكالة الإنجليزية في الشارقة. والجدير بالذكر أن منطقة البريمي كانت غير مطروقة من قبل أي أجنبي. لذا يعدّ المنصرون أول من استطاع اختراقها(١٢).

بعد إخفاق الفريق في الذهاب إلى البريمي ركبوا سفينة لنقلهم إلى دبي التي وصفها زويمر في هذه الزيارة بقوله : "إن هذه المدينة الساحلية تنمو بسرعة كبيرة، وبها ما لا يقل عن ١٠.٠٠٠ نسمة"(١٣).

بعد قضاء يوم واحد في دبي توجه بعدها إلى الشارقة حيث كانت له نية إنشاء محل دائم لبيع الكتب الدينية. وعلق زويمر على الموقف قائلاً : بأنه لو كان لديهم مساعد منصر مقيم كإلياس لاستطاعوا احتلال هذا الشريط الساحلي بسهولة(١٤).

اتخذ زويمر وفريقه من الشارقة مركزاً للتنقل إلى باقي أنحاء المنطقة. فبينما قام إلياس بزيارة رأس الخيمة ورؤوس الجبال وعمان، واصل زويمر رحلته إلى لنجة التي وصفها بأنها مدينة عربية على الساحل الفارسي حيث يشكل العرب حوالي ثلثي سكانها.

في عام ١٩٠١ قام المنصّر جون موير ديك بزيارته الثانية للمنطقة برفقة مساعد له. فزار الإمارات أو كما أسماها "ساحل القراصنة" في محاولة يائسة لإنشاء محل لبيع الكتب الدينية، وليكون هذا المكان فيما بعد قاعدة تنصيرية. وقد قصد موير ديك الشارقة لما سمع عن مكانتها في منطقة الإمارات وإمكانية التحرك منها إلى المناطق المجاورة. بقي موير ديك في الشارقة حوالي شهرين، وهي أطول فترة قضاها منصر في الإمارات. وكان بيته هو البيت المسيحي الوحيد على ساحلها، وعلى الرغم من أنه لم يكن طبيباً مؤهلاً هو الآخر إلا أنه استخدم الخدمة الطبية وسيلة لجذب الأهالي من

أجل أحاديثه وصلواته. ومن خلال التقارير التي أوردها موير ديك ندرك أنه كان مصمماً على ارتياد جميع المناطق بما فيها الداخلية ورؤوس الجبال. وقد زار عجمان ورأس الخيمة. كما أورد في تقاريره أن الناس يرحبون بالخدمات المدنية للمنصرين ويرفضون الجانب الديني. وكما يبدو فإن محاولات المنصريين للحصول على دكان أو منزل في منطقة الإمارات إما عن طريق الإيجار أو الشراء باءت بالفشل نظراً للاتفاقيات البريطانية مع شيوخ الإمارات التي حرمت عليهم بيع أراضيهم أو تأجيرها دون الحصول على الموافقة البريطانية. لذلك لم يستطع المنصريين شراء أراضٍ كما حصل في البحرين أو الكويت أو مسقط، ولم يستطيعوا إقامة كنائس أو حتى بيوت سكنية لهم.

لم يكن المنصرين منفصلين ومعزولين عما يحدث من حولهم فقد كانوا على دراية تامة بالأوضاع والتيارات السياسية. وقد أورد المنصرون في تقاريرهم أن الخليج هو بالفعل بحيرة بريطانية، كما نوهوا بأهمية الخط الحديدي المزمع إقامته بين برلين وبغداد واحتمالات امتداده إلى الكويت وأهميته بالنسبة للعمل التبشيري(١٥).

ظلت السيطرة على منطقة الإمارات أملاً يراود المنصريين، وظل اختراقها من أقصاها إلى أقصاها حلماً قلما غاب عن أذهانهم. ففي ربيع عام ١٩٠٣ وضعت الإرسالية العربية خطة للوصول إلى أقصى نقطة على ساحل عمان، وسرعان ما جمع زويمر ومساعدوه رحالهم عاقدين النية على الوصول إلى رؤوس الجبال ورأس مسندم. فالقرى التي تقع شمال رأس الخيمة لم يصلها أي من المنصرين بعد. كما قرر الفريق القيام بزيارة أخرى للشارقة ودبي(١٦). وفي دبي والشارقة وتمكنوا من معالجة العديد من المرضى، كما تمكنوا أيضاً حسب زعمهم من بيع حوالي ٢٢٥ نسخة من الإنجيل. وقد التقوا مع ناس كثيرين، على حد قولهم، متحمسين لسماع صلواتهم. وقد كانت خطة الفريق تقضي بالوصول إلى رؤوس الجبال إلا أن تلك الخطة فشلت نتيجة بعض الاضطرابات التي حدثت حول الشارقة.

لم يكن زويمر شخصية عادية أو منصراً عادياً، فقد تنقل في العديد من مناطق الخليج وأمضى قرابة عشر سنوات في الترحال من مناطق شبه الجزيرة،

زار خلالها مناطق لم يزرها أي أجنبي من قبل. وألف حوالي سبعة عشر كتاباً عن شبه الجزيرة، ضمنها زياراته ومشاهداته عن الأوضاع في شبه الجزيرة. من أهم هذه المؤلفات "الجزيرة العربية مهد الإسلام *Arabia - The Cradle of Islam*، الذي نشر أول مرة عام ١٩٢١. وبالإضافة إلى تنقلاته وأسفاره كان ملماً بالأدب العربي وباللغة العربية وبالحضارة الإسلامية، وقد أصبح فيما بعد أستاذ الدراسات الإسلامية في كلية اللاهوت في نيو برنزويك New Brunswick في نيو جرسي. وعلى الرغم من أن كتاباته يغلب عليها طابع التحيز الديني بحكم طبيعة عمله إلا أنها تعدّ مرجعاً هاماً لتاريخ المنطقة الاجتماعي.

ويبدو أن كتابات زويمر عن منطقة الإمارات أو كما أسماها في كتاباته "ساحل القراصنة" قد جذبت اهتمام الكثير من المنصرين؛ ففي الفترة ما بين ١٩٠٢ و ١٩٠٨ توافد على منطقة الإمارات نوعية أخرى من المنصرين. فقد أدركت الإرسالية الأمريكية طبيعة المنطقة وصعوبة وصول المنصر العادي إلى قلوب الناس وأسماعهم فبدأت بإرسال أطباء مؤهلين هدفهم تقديم الخدمة الطبية الحديثة للناس، فقد زار كل من شارون توماس وستانلي مليري Sharon Thomas - Stanley Mylrea منطقة الإمارات وهما طبيبان متخصصان، ولكن يبدو أن طبيعة مهنتهما قد غلبت على كتاباتهما. فتقاريرهما تزخر بجميع الأمراض المستوطنة في الإمارات، وعدد الحالات والعلاج المقدم، ولكنها ليست كتقارير زويمر من ناحية الوصف والأهمية. ويبدو أنه حتى الإنجليز قد أدركوا أهمية تقارير زويمر، ولذا تقول جريدة Times of India إن تقارير زويمر تزخر بوصف الأوضاع في حضرموت والربع الخالي والمناطق الأخرى من شبه الجزيرة التي صعب على الأوربيين الوصول إليها، والتي لا يعرفون شيئاً عنها منذ أيام النبي إبراهيم عليه السلام(١٧). ولكن الجريدة المذكورة تأخذ على زويمر أنه لم يورد ذكر ذلك الجنس الغريب الذي يقطن رؤوس الجبال في منطقة الإمارات (يقصد هنا الشحوح). فتورد الجريدة بأن لديها معلومات عن وجود جنس يميل لونه للبياض ينتمي للجنس الأوروبي وينبذ جميع الأجانب(١٨).

ويبدو أن رحلات زويمر وكتاباته عن منطقة الإمارات قد آتت ثمارها. فمنذ عام ١٩٠٧ نشأت محاولات في مقر الإرسالية العربية الأمريكية في نيو

جرسي لإنشاء محطة دائمة للارسالية في الامارات كمحطة البحرين ومسقط والبصرة. وبدأت بالفعل التبرعات لإنشاء تلك المحطة. ويبدو أن الارسالية قد حصلت على منحة تقدر بـ ١٢٠٠ دولار. وكانت الارسالية تفكر في شراء أرض في الكويت لانشاء محطة، ولكن مشاكل مع شيخ الكويت الذي رفض السماح لهم بتملك أرض كويتية أدت إلى تفكير الارسالية باستخدام تلك المنحة لإنشاء محطة في دبي(١٩). إلا أن هذه الخطة لم تر طريقها إلى النور. فمنذ عام ١٩١٠ بدأت الإرسالية الأمريكية تواجه صعاباً في اقتحام الإمارات، إذ لم تعد أبواب الإمارات مفتوحة أمام الأجانب. فالتقارير الأجنبية والمحلية تجمع أن ساحل الإمارات أغلق إثر حادثة دبي المعروفة بحادثة (Hyacinth) هايسنث (التي اتهمت فيها فرقة انجليزية أهالي دبي بتهمة تهريب السلاح) وليس في وجه الأمريكيين فحسب ولكن كافة الأجانب. وظلت منطقة الإمارات مقفلة في وجه النشاط التنصيري طوال سنوات الحرب العالمية الأولى، فأثرت ظروف الحرب على نشاط الارسالية العربية ليس في منطقة الخليج وحدها ولكن في جميع أرجاء العالم لتبتدئ صفحة جديدة بعد أن تضع الحرب أوزارها.

ثالثاً : الإمارات العربية في فترة مابين الحربين (١٩١٨ - ١٩٣٩) :

أثرت سنوات الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) على الوضع السياسي في منطقة الإمارات. فالمصادر البريطانية وصفت المنطقة في ذلك الوقت بأنها تمر بفترة هدوء، تعهد فيها الشيوخ بالوقوف إلى جانب بريطانيا في حالة أي اعتداء أجنبي، كما تعهدوا بالوقوف ضد الدولة العثمانية وألمانيا وعدم السماح لأي أجنبي بالحصول على موطئ قدم له في الإمارات.

أما أثر الحرب على عمل الإرسالية فكان كبيراً، إذ تقلصت الإمدادات المالية التي كانت الإرسالية العربية تتلقاها، كما تقلص الدعم البشري الذي كان في صورة متطوعين. ففي عام ١٩١٨ كان هناك أقل من خمسة أطباء معينين لشبه الجزيرة. لذلك عانت الارسالية العربية مادياً ومعنوياً من جراء الحرب.

ومن ناحية أخرى أثرت الحرب على الخريطة الجغرافية للمنطقة العربية والإسلامية فقد أدت الحرب إلى هزيمة الدولة العثمانية وإلغاء الخلافة الإسلامية وظهور تركيا الحديثة، كما أدت إلى وقوع الكثير من الدول الإسلامية تحت نير الاحتلال الأوربي.

إلى جانب التغيرات السياسية أسفرت الحرب عن كثير من التغيرات الاقتصادية، فقد بدأ العالم إجمالاً يشهد نوعاً من الاستقرار السياسي والاقتصادي مما شجع على استثمار رؤوس الأموال وازدهار التجارة وتحسن وسائل المواصلات بين آسيا وأوروبا، وبدأت الدول المنتصرة في الحرب تفكر في استخدام الطيران في أغراض سلمية، مما أدى إلى تحسن وسائل الاتصال بين مناطق العالم. انعكس هذا الازدهار على الحركة التنصيرية التي عاودت نشاطها من جديد. فما أن وضعت الحرب أوزارها حتى نشطت العمليات التنصيرية ، وعاد الخليج من جديد يستأثر باهتمام هذه الجماعات.

وقد تميزت فترة مابين الحربين بالاهتمام المتزايد بنوعية الخدمات التي تقدم للناس، وبالتدقيق في اختيار المنصرين الذين حرصت الإرسالية على أن يكونوا أطباء مؤهلين. كما حرصت الهيئة الكنسية العليا على أن تكون العلاقة بين المنصرين والمناطق المستهدفة على أعلى مستوى، أي بين ممثليها وبين ذوي النفوذ والجاه في المجتمع (elite).

وقد ظهر اهتمام الإرسالية العربية بمنطقة الإمارات واضحاً في تقاريرها عن هذا الساحل. فهو تارة "بوابة عمان" وتارة أخرى "المحطة الوحيدة غير المحتلة على ساحل الخليج العربي"، لذلك كان التركيز على الإمارات قوياً. وفي عام ١٩١٨ قامت الإرسالية العربية بتوجيه رسائل إلى شيوخ المنطقة تخبرهم عن استعدادها لإرسال أطباء مؤهلين لتقديم خدماتهم الطبية للأهالي. ويبدو أن الإرسالية قد أدركت مدى فعالية هذا الأسلوب، وقررت استغلاله أحسن استغلال.

وجاءت الفرصة سانحة عام ١٩١٨ عندما طلب شيخ أبو ظبي آنذاك الشيخ حمدان بن زايد (١٩١٢ – ١٩٢٢) من مقر الإرسالية في البحرين طبيباً

لعلاج عمه من جلطة أقعدته الفراش. وسرعان ما لبث الإرسالية الأمريكية الطلب وأرسلت له طبيباً هو بول هاريسون، الذي أثبت على مر عقدين من الزمان أن الطبيب هو وحده القادر على فتح جميع الأبواب الموصدة.

يصف هذا الطبيب أول زيارة قام بها إلى منطقة الإمارات من محطتهم الكبرى في البحرين فيقول : "ركبنا سفينة صغيرة أقلتنا من البحرين إلى أبوظبي حيث استغرق سفرنا يوماً وليلة وعندما وصلنا إلى أبوظبي استقبلنا الشيخ حمدان بحرارة استقبال الصديق لصديقه الودود(٢٠). كان للاستقبال الحار الذي قوبل به هاريسون وبعثته أطيب الأثر في نفس الأخير الذي سرعان ما بدأ عمله الإنساني في تطبيب المرضى وتقديم الدواء للمحتاج. وقد أمضى في أبوظبي أسبوعاً كاملاً عالج خلاله المئات من المرضى الذين تراوحت أمراضهم بين انشقاق الشفة السفلى الذي كان سائداً والملاريا والتراخوما وأمراض الأسنان واللثة.

ومن مذكرات هاريسون ندرك أن أبوظبي لم تكن المحطة الوحيدة على جدول زيارته ولكن الواضح أن هاريسون عدّ هذه الزيارة فاتحة لزيارات أخرى تقوم بها الإرسالية إلى إمارات الساحل العماني كله. لذلك ما أن فرغ من زيارته لأبوظبي حتى تأهب وفريقه لزيارة الإمارات الأخرى. وكانت دبي هي محطته التالية. ويبدو أنه صرح للشيخ حمدان عن رغبته في زيارة دبي لأن الأخير حمله سلامه الأخوي الحار إلى الشيخ سعيد بن مكتوم حاكم دبي. في دبي ظل الفريق المكون من الدكتور هاريسون ومساعديه يعالجون الناس من أسقامهم وآلامهم بضعة أيام ثم تحرك الفريق نحو الشارقة وأم القيوين.

كان للاستقبال الحافل الذي لقيه هاريسون وفريقه في الشارقة أوقع الأثر في نفسه، فقد كتب هاريسون إلى مقر بعثته يطلب المزيد من العون لإنشاء كنيسة المسيح في شبه الجزيرة"(٢١).

فقد كان في اعتقاد هاريسون أن الترحيب الحار الذي كان يلقاه من الأهالي إنما هو ترحيب به بوصفه طبيباً ومبشراً في آن واحد، خاصة بعد أن

طلب منه أحد الأهالي أن يقوم بصلواته أمامهم، فلبى هاريسون طلبه وأقام قداس الأحد في الهواء الطلق، حضره جمهور كبير من المتفرجين.

بعد الشارقة قام هاريسون وفريقه بزيارات إلى المناطق الأخرى من الإمارات كعجمان والحمرية ورأس الخيمة، عالج خلالها العديد من المرضى. فلم يكن هاريسون يبخل على الأهالي بالعلاج أو الدواء، لأن الهدف من زياراته كما قال : "هو فتح ساحل القراصنة أمام البعثات التبشيرية"(٢٢). وأورد هاريسون في زيارته تلك أنباء عن ذلك الجنس الغريب الذي يقطن رؤوس الجبال (الشحوح) فوصفهم في كتاباته، وذكر أنهم طلبوا منه القدوم إليهم وتقديم العلاج لهم.

كما وصف هاريسون ساحل الخليج بأنه ذلك الساحل الذي يمتد من الكويت شمالاً حتى رأس الخيمة جنوباً، مسافة ثلاثمائة ميل من الأراضي الجرداء عدا عدد قليل من أشجار النخيل في القطيف وأخرى قليلة في دبي. الماء المتوافر هو الماء المالح وغير الصالح للشرب في معظم الأماكن. وقد وصف هاريسون الماء في أم القيوين بأنه غير صالح للاستهلاك الآدمي أبداً، لأنه ماء وحل(٢٣).

ومضى هاريسون في وصفه ساحل الإمارات بأنه ساحل لا ينتج شيئاً، وأن معظم الطعام يشترونه من الخارج، وفي بعض المناطق يمتد الاستيراد ليشمل الماء والوقود. وفي وصفه لمدن الإمارات قال : إن معظم المدن على طول الساحل الذي يمتد شمالاً حتى رأس الخيمة هي مجتمعات تعيش على الغوص على اللؤلؤ.

ويصف مغاصات اللؤلؤ قائلاً : "إن هذه المغاصات هي حقاً مشاع كالهواء، فلا أحد يمارس أي سلطة عليها أو يطالب بملكيتها أو يضع أجراً عليها، ولكن شيخ كل إمارة له الحق في فرض ضريبة رمزية على كل سفينة تذهب للمغاصات، وتعتمد هذه الضريبة على عدد الغواصين في كل سفينة. وتحرّم الحكومة البريطانية استخدام الأدوات الحديثة والجرافات في الغوص لأنها تحاول إبقاء الغوص مهنة للسكان العرب. ولذا فيجب أن يشكر الغواصون الحكومة البريطانية على جهودها لحماية هذه المهنة من الانقراض(٢٤).

انتهت زيارة هاريسون الأولى محققة نجاحاً باهراً على الصعيدين الشخصي والسياسي. فمن الناحية الشخصية استطاع هاريسون أن يأسر قلوب مضيفيه، الأمر الذي رغبهم في دعوته مرة أخرى لمعالجة مرضاهم. ورغم إدراكهم الهدف الحقيقي من وراء مجيئه إلا أن الحاجة الماسة لخدماته الإنسانية دعت مضيفيه إلى دعوته مرة أخرى إلى الإمارات رغم الانتقادات الجارحة التي وجهها هاريسون للنظام الاجتماعي والاقتصادي في الإمارات، والقائم على استخدام الرقيق في صناعة الغوص على اللؤلؤ.

أما على الصعيد السياسي فقد أدت زيارة هاريسون إلى إذابة الجليد بين أهل الإمارات وبين الأجانب الذي نتج عن حادثة ١٩١٠ المعروفة بحادثة هايسنث.

ولكن ذلك التقارب الإماراتي – الأمريكي أثار فزع الإنجليز الذين أخذوا يفسرونه على أنه تقارب بين الشيوخ وبين الحكومة الأمريكية، خاصة وأن المنطقة مقبلة على عهد بترولي هائل. لذلك سرعان ما أخذت الحكومة البريطانية تفرض قيوداً صارمة على تحركات المنصرين. وفي عام ١٩٢٢ أخذت من شيوخ الإمارات جميعهم تعهداً بألا يوقعوا أي اتفاق بترولي مع أي طرف إلا مع الشركات البريطانية. عرفت هذه الاتفاقية بالاتفاقية البترولية المانعة عام ١٩٢٢ التي أزاحت النفوذ الأمريكي الاقتصادي من منطقة الإمارات، وجعلتها حكراً على الشركات البريطانية.

لم يمنع هذا الاحتكار أهالي الإمارات من دعوة هاريسون مرتين عام ١٩٢٢ وعام ١٩٢٨ بطلب من شيخ دبي وأحد تجار عجمان وهو ناصر بن لوتاه. وقد بقي هاريسون في عجمان حوالي شهر أنشأ خلاله مستشفى صغيراً من سعف النخيل لمعالجة مرضاه من الأهالي، وكان المرضى يحضرون أسرتهم وطعامهم من بيوتهم. وقد ظل المستشفى يقدم خدماته الحديثة للأهالي، ويعدُّ شاهداً على التوغل التنصيري إلى مناطق الإمارات.

لم يقتصر هذا التوغل التنصيري على الإمارات الساحلية فحسب بل امتد نحو الداخل. ونجح المنصرون في الوصول إلى واحة البريمي حيث استقبل شيوخها هاريسون وفريقه، خاصة وأن هاريسون اتخذ من البريمي ممراً سلك به الطريق إلى

عمان. وهكذا وفي فترة زمنية بسيطة استطاع هاريسون وفريقه التوغل والتجوال في جميع أنحاء الإمارات، التي أصبحت معروفة لديهم، وأصبحوا هم كذلك معروفين بين الأهالي وصارت خدماتهم مطلوبة ووجودهم مرغوباً فيه.

ولكن الأمر الذي لم يحسب له الأمريكيون حساباً هو المعارضة البريطانية لوجودهم. فخلال العقدين الأول والثاني من القرن العشرين كان النشاط الأمريكي يحتمي بالمظلة البريطانية، ليس فقط في الإمارات، بل في جميع المناطق الأخرى من المستعمرات البريطانية. إلا أنه بعد التنافس البريطاني – الأمريكي على البترول في الشرق الأوسط وسياسة الباب المفتوح التي تبناها الطرفان أخذت بريطانيا تشكك في النوايا الأمريكية أياً كان نوعها وموقعها. فلم يعد الوجود التنصيري الأمريكي البروتستانتي يلاقي ترحاباً وحل محله الريبة في أن تكون هناك نوايا سياسية مغلفة برداء ديني. ولم تعد بريطانيا تنظر إلى زيارات المنصرين إلى الإمارات على أنها مجرد زيارات عادية يقوم بها أفراد من الكنيسة البروتستانتية بل أصبحت ترتاب في حركات هؤلاء المنصرين، وظهر ذلك جلياً في القيود التي فرضتها على زيارات الأمريكيين المتمثلة في تأشيرات الزيارة وتصاريح الإقامة، وغيرها من الإجراءات الإدارية.

لم تمنع تلك القيود المنصرين من زيارة الإمارات التي عدّوها حقلاً بكراً يمكنهم من زرع أفكارهم فيها. ففي عام ١٩٣٠ زار الدكتور لويس Dame Louis الإمارات أول مرة. وقد كتب هذا المنصّر إلى مقر الإرسالية كتاباً يوضح فيه التقصير الذي تعاني منه هذه المنطقة التي لا تزال في رأيه تعد من المحطات غير المحتلة ، ويجب على الإرسالية أن تبذل جهوداً كبيرة لضمها إليها. ولخص دام العقبات التي يواجهها المنصرون في هذه المنطقة من أجل فتح الأبواب وإبقائها مفتوحة وهي نقص الخدمات الطبية. فهي في رأي لويس دام السبيل الوحيد لفتح الأبواب وإبقائها مفتوحة من أجل إيجاد قاعدة مسيحية في ثلاث مناطق مهمة وهي عمان الداخل، وساحل «القراصنة» والأحساء(٢٥).

تلقى لويس دام عدة دعوات من شيوخ الإمارات لمعالجة الأهالي من أمراضهم. والشيء المهم الذي لاحظه دام هو تلك النزعة ضد الرجل الأبيض.

فعلى الرغم من أن الأهالي كانوا يرحبون بالخدمات الحديثة للطبيب المنصّر كانوا يرفضون دعوته الدينية. ومما يلاحظ أيضاً أن هذه النزعة من الأهالي قد تزامنت مع النزعة البريطانية الراغبة في إبعاد أي نفوذ أجنبي في الفترة التي كانت بريطانيا تعقد امتيازات البترول مع شيوخ الإمارات. فلا غرو أن يورد المنصرون في تقاريرهم أن هناك نزعة قوية ضدهم. فقد ضاقت بريطانيا ذرعاً بالمنصرين واحتمالات تدخلهم لمصلحة الحكومة الأمريكية.

ويعدّ لويس دام آخر المبشرين الأطباء الذين جاؤوا إلى الإمارات قبل الحرب العالمية الثانية، فما عدا زيارة قامت بها المبشرة الأمريكية اليزابيت كالفري إلى ميناء دبي لم تورد التقارير الأمريكية أي زيارة أخرى مهمة(٢٦).

رابعاً: الإمارات العربية في فترة الحرب العالمية الثانية ومابعدها (٩٣٩- ١٩٤٩):

في سنوات الحرب العالمية الثانية التي استمرت من عام ١٩٣٩ إلى عام ١٩٤٥ شهدت عمليات الإرسالية العربية تقلصاً في حجم عملياتها وفي الدعم المالي الذي كانت تتلقاه على شكل مساعدات وهبات، مما أثر كثيراً على عملياتها في شبه الجزيرة، لذلك لم تشهد سنوات الحرب أي نشاط تنصيري كالذي تلا الحرب العالمية الأولى، وما عدا نشاط الطبيبة المنصرة سارة هوسمان Hosman التي جاءت مستقلة عن الإرسالية العربية لم تشهد الساحة الإماراتية أي نشاط تنصيري.

اتخذت سارة هوسمان من الشارقة مقراً لنشاطها الطبي والتنصيري. وكانت تمارس عملها بين أوساط النساء وأطفالهن كقاعدة تنصيرية. واشتهرت سارة طوال الخمسينات وعرف المستشفى الذي كانت تعمل فيه بمستشفى سارة هوسمان الذي ظل يقدم خدماته في الإمارات إلى فترة قريبة.

بينما كانت سارة تواصل عملها من الشارقة كانت هناك مجموعة تنصيرية أخرى تعمل في الداخل تابعة للكنيسة الأنكليكانية، United Anglican Church.

أنشأ هذا المستشفى الدكتور توم الذي أرسل اثنين من الأطباء وهما بات وماريان كندي فقاما بزيارة العين عام ١٩٥٩ واختارا قطعة أرض لبناء المستشفى عليها. وفي البداية خصص لهذا الغرض بيت قديم هو بيت الشيخة سلامة الذي استخدم مدة قبل أن يتم إنشاء المستشفى الحديث، وهكذا بقي مستشفى الواحة يزاول نشاطه منذ بداية الستينات حتى الوقت الحالي(٢٧).

تاثير المبشرين على مجتمع الإمارات :

كان للمنصرين تأثير كبير من الناحيتين الثقافية والاجتماعية، أما الناحية الدينية وهي الهدف الأساسي لمجئ المنصرين فلم تترك أثراً ملموساً. ولكن هل تأثر المنصرون بمجتمع الإمارات؟ للاجابة على هذا السؤال ننظر إلى طريقة حياة المنصرين أنفسهم في مجتمع الإمارات، فنجد أن تأثرهم كان بسيطاً للغاية. فقد أحضروا معهم طريقة حياتهم، وأنشؤوا بيوتهم على الطريقة الغربية، وجلبوا معهم المعلبات الغذائية، كما جلبوا معهم عاداتهم وتقاليدهم الغذائية – والملبسية، رغم أنها لا تتلائم مع ظروف البيئة.أما اتصالتهم بالناس فلم يخرج عن نطاق عملهم وانحصر اهتمامهم في تمدين الأهالي. وقد حولوا البيوت ذات الطراز العربي إلى بيوت أوروبية بها مدافئ وأثاث حديث جلبوه معهم من الخارج بواسطة السفن.

أما اللغة العربية فقد حرصوا على تعلمها لكي يوصلوا رسالتهم التنصيرية إلى قلوب العرب. وكان منهم من يبدأ يومه في الساعة ٦.٣٠ صباحاً بالإفطار ثم بدراسة اللغة والقواعد العربية، ثم يبدأ العمل في التاسعة صباحاً في المستشفى أو المدرسة لتعليم الصبية أو الجلوس في الدكاكين لبيع نسخ الانجيل في الأسواق العامة.

خامسا - الخاتمة :

كانت منطقة الإمارات منذ بداية العصر الحديث (١٥٠٠م) نقطة جذب للتنافس الأوربي ومثار تساؤل لكثير من الغربيين الذين حاروا في تسميتها. فهي أحياناً ساحل عمان وأحياناً أخرى ساحل القراصنة، وهي تارة الساحل المتصالح وتارة أخرى مشيخات الساحل. وقد انجذب الغربيون إلى منطقة الإمارات لما تتميز به من خصوصية وأهمية، فهي ملتقى الحضارات القديمة وملتقى الطرق التجارية ونقطة تواصل الحضارات المجاورة. وقد قصد منطقة الإمارات الرحالة والمكتشفون الأوربيون منذ أمد بعيد. ولكن المنصرين هم أول من حاول كشف خبايا هذه المنطقة وإزالة الغموض الذي يكتنفها بدءاً من تسميتها وانتهاء بتحليل أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والسكانية.

وقد تعددت أغراض الرحالة إلى الخليج وأهدافهم، ولكن أغراض المنصريين كانت واضحة. فالهدف الرئيسي لهم هو ضم المنطقة إلى الأراضي المسيحية وإنشاء كنيسة المسيح الكبرى في الجزيرة العربية. ومنذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أصبحت الإمارات مقصداً دائماً لهؤلاء المنصريين الذين وضعوها على خريطة نشاطاتهم في منطقة الخليج والجزيرة العربية، ولم يتوقف النشاط المسيحي التنصيري إلا بإغلاق الإرسالية العربية وتنبه دول المنطقة لحقيقة أغراض هؤلاء المنصرين الذين دخلوا إلى المنطقة تحت ستار الطب.

وعلى الرغم من أن الأثر الديني لهذه الإرساليات كان ضئيلاً للغاية أو يكاد يكون معدوماً ،إلا أن الأثر الصحي كان كبيراً. فقد أدت هذه الإرساليات إلى إثراء الوعي الصحي في المنطقة، ونبهت الناس إلى أهمية العلاج الحديث وإلى تقبل الأهالي لفكرة زيارة المستشفيات وإيداع مرضاهم فيها، وإلى ضرورة التماس الخدمة الطبية الحديثة.

أما الأثر الاجتماعي فقد كان أيضاً ملموساً، إذ ركزت الإرساليات على أهمية العمل، سواء المهني أم الحرفي أم العمل الاجتماعي والتطوعي على مستوى الإمارات أو في منطقة الخليج بصفة عامة، وعلى الرغم من الإنفاق الكبير نسبياً على عمل الإرساليات إلا أن ما كان يؤخذ من الأهالي لم يكن

يعادل ذلك المبلغ الذي ينفق على العمل في المستشفيات، لأن الأطباء كانوا يتقاضون أجراً رمزياً.

أما من الناحية الأدبية فتعد كتابات المنصرين وتقاريرهم مصدراً مهماًمن مصادر معرفتنا عن المنطقة ، كما أن لهذه الكتابات قيمة علمية كبيرة لو أخذنا بالاعتبار أن معظم تاريخ الإمارات غير مدون وإنما يؤخذ من الصور. لذلك فتسجيل الأحداث والأوضاع يعد ذا قيمة كبيرة على الرغم من السلبيات الكثيرة التي تكشف هذا المجال وأهمها أن هذه الأحداث والتحليل قد كتب من وجهة نظر غربية بحتة وطبقاً لما تمليه مصالح المنصرين وأهوائهم وأهدافهم الحقيقية، وليس من واقع الأوضاع للمنطقة. ولكن على الرغم من هذه السلبيات تظل تقارير الإرساليات التنصيرية الأمريكية مصدراً غنياً لتاريخ المنطقة.

الحواشي

١ – وهي إرسالية أسسها ثلاثة من رجال الذين هم صلمويل زويمر، جيمس كانيتن وفيليب فيلبس.

2 - *Arabian Mission - Incoming Correspondence* No. 753, Box 2, Jan - June, 1897.

3 - Ibid

4 - *Arabian Mission Annual Report*, No. 1-29,1889 - 1912, No. 753, Box No.1.

5 - *Arabian Mission. Annual Report*, No. 22, 1910.

6 - *Arabia Calling*, year 1951 - 52, #. 226.

7 - Ibid

8 - Ibid

9 - *Arabian Mission Field Report,* No. 34,April to June 1900.

10 - Ibid

11 - *Arabian Mission Correspondence*, No. 753,Box 2, May 1900.

١٢ – أما الانجليز فأول محاولة لهم لاختراق البريمي كانت عام ١٩٠٦ عندما نجح برسي كوكس كُمذ، المقيم البريطاني في الخليج، من الوصول إلى البريمي واعتبرت زيارته تلك بأنها قد كسرت الحاجز النفسي الذي فرضه الإنجليز على أهل الإمارات

13 - Ibid, S. Zwemer to Hedquarters, April 18, 1901.

14 - Frederick Barny and Alfred De Witt, *History of the Arabian Mission*, (New York, 1926), 125.

15 - *Arabian Mission Correspondence,* Box 753, No 2, May 27, 1902.

16 - Ibid , Feb. 14, 1903.

17 - *Times of India*, (Feb. 2, 1901).

18 - Ibid.

19 - *Arabian Mission Correspondence,* Box 753, No 3, June 6, 1907.

20 - *Neglected Arabia,* No. 109, April - June 1919.

21 - Ibid.

22 - P. Harrison, *Doctor in Arabia,* (New York, 1940), 42.

23 - P. Harrison, *The Arabs at Home,* (Thomas Crowell Co., 1924), 71.

24 - Ibid, 77.

25 - Louis P. Dame, "Objectives in Arabia", The Moslem World, vol. xx, No. 11, 1930, P. 180.

26 - See Fatma Al-Sayegh, "American Missionaries in the U.A.E. Region", *Middle Eastern Studies*, v. 32, no. 1 Jan, 1996, 139.

27 - Local interview with Dr. Mariam Kennedy, Al-Ain, May 5, 1993.

تحليل للمصالح النفطية وأعمال الرحالين الغربيين

حسام مهدي

دكتوراه فلسفة في الفكر المقارن (جامعة غلاسكو ١٩٩٢)

مصري يحمل الجنسية البريطانية من مواليد ١٩٦٠

الوظائف :

- زميل فخري للأبحاث (كلية ماكينتوش لهندسة العمارة في غلاسكو).
- باحث مستقل وكاتب في موضوعات مختلفة.

من نتاجه :

آخر أعماله المنشورة : «الرحالة والمستعمرون والمحافظون في مصر : التأثير الأوروبي على المواقف المتوجهة نحو المحافظة على التراث المعماري الإسلامي» (بحث قدم إلى مؤتمر الرحالة في مصر المنعقد في دورهام يوليو ١٩٩٥).

١ - مقدمــة

شكلت أسباب عديدة الدافع للرحالة الغربيين، الذين مضوا إلى الخليج العربي، فقد مضى بعضهم بحثاً عن المغامرة، وذهب آخرون لأغراض أكاديمية. بينما حفزت بعض الرحالة قضايا عسكرية، أو تجارية، أو سياسية. وتراكمت أعمالهم لتشكل كياناً من الكتابات والصور، التي ساهمت في تحقيق معرفة أوروبية متزايدة بالمنطقة. واستخدمت هذه المعرفة في فترات مختلفة لضمان المصالح الغربية في الخليج العربي. وفي نهاية الحرب العالمية الأولى، كانت المصلحة الغربية الكبرى في المنطقة هي النفط. وأفرزت المصالح النفطية نوعية جديدة من الرحالة الغربيين إلى الخليج العربي، تتمثل في رجال النفط(١).

ومن ناحية فإن رجال النفط كانوا رحالة غربيين مضوا إلى الخليج العربي، وأقاموا، وعملوا هناك على امتداد سنوات. ومن ناحية أخرى فقد كانوا جزءاً لا سبيل إلى فصله عن صناعة النفط الدولية في القرن العشرين. ولم تكن هناك إلا علاقة محدودة للغاية بين إقامتهم وعملهم في الخليج والسكان المحليين وثقافتهم.

وشهدت الفترة الممتدة بين عام ١٩١٨ و١٩٦٠ تزايداً كبيراً في أهمية نفط الخليج العربي. وشهدت الفترة نفسها أحداثاً، كانت حاسمة، بالنسبة للوضعية السياسية والاقتصادية للمنطقة وللعالم بأسره، مثل سقوط الإمبراطورية العثمانية، ونشوب الحرب العالمية الثانية، ونهاية عصر الاستعمار الأوروبي. ولعبت هذه الأحداث دوراً مهماً في المصالح النفطية في المنطقة، ومن هنا فقد ارتبطت سجلات رجال نفط الخليج العربي بصورة وثيقة بأحداث هذه الفترة المضطربة.

وتهدف هذه الورقة إلى إلقاء الضوء على خصائص سجلات رجال النفط وقيمتها، في مواجهة سجلات الرحالة التقليديين إلى الخليج العربي. وقد تم إنجاز البحث الرئيسي لهذه الورقة في أرشيف شركة بريتش بتروليم(٢) في جامعة واروبك.

٢ - المصالح النفطية في الخليج العربي

٢-١ طبيعة المصالح النفطية في الخليج

٢-١-١ لماذا تكتسب المصالح النفطية هذه الأهمية الكبيرة..؟

يتميز النفط بطبيعته الفريدة، إلى جوار أهميته الاستراتيجية وبخاصة كونه وقوداً خلال الحروب. يشكّل النقص في الإمداد بالنفط كابوساً لأي حكومة، لأنه يفضي إلى خوف وقلق بالغين في المجتمع، يمكن أن يوقعا الحكومة في هزيمة سياسية. والسبب في رد الفعل البالغ هذا على النقص في النفط هو عدم الارتياح، الذي ينجم عن اضطراب خدمات من نوعية التدفئة والنقل. وتعد أهمية النفط الاستراتيجية من جهة أخرى ذات طبيعة فريدة، لأنه لا يمكن بسهولة تخزينه للاستخدام مستقبلاً، ويرجع هذا إلى أن حاويات تخزين النفط يمكن أن تكون باهظة التكلفة على نحو يحول دون اعتمادها، ولأن النفط عرضة للتلف، وكذلك فإن النطاق العريض للمنتجات المشتقة من النفط يعني أن النوعية الصحيحة من النفط المكرر ينبغي الاحتفاظ بها في المكان المناسب للتشغيل الصناعي لاحقاً. والسبب الثالث للطبيعة الدقيقة للأهمية الاستراتيجية للنفط هو أن إنتاج النفط والاتجار به في أيدي شركات عملاقة معدودة تتحكم في كل مراحل الصناعة، من البحث عن النفط إلى تسويق المنتجات النهائية المتعددة (من البئر إلى المضخة)(٣).

٢-١-٢ لماذا بحث الغرب عن النفط في الخليج ..؟

بحثت المؤسسات الغربية عن النفط خارج الغرب، ومضت إلى بلاد نظر فيها إلى ملكية الحاكم للأرض وما تحت تربتها على أنها ملكية مطلقة. وغطت امتيازات البحث عن النفط وإنتاجه مساحات واسعة، وفي بعض الحالات شملت بلاداً بأسرها. ونمت الحاجة إلى الاستثمار الكبير والمخاطرة الكبيرة في استكشاف هذه الفرص أن الشركات الضخمة(٤) التي تحظى بالدعم الحكومي هي وحدها التي تملك القدرة على الانطلاق لخوض مثل هذه المغامرة. وقد

كفل هذا الموقف سيطرة الحكومات على الخطوات الاستراتيجية التي تقوم بها شركات النفط. وأدى تحول البحرية البريطانية إلى استخدام النفط السائل في عام ١٩١٢ إلى مشاركة كبيرة من جانب الحكومة البريطانية في صناعة النفط، بشراء ما قيمته ٢.٢ مليون جنيه استرليني في شركة النفط، التي كانت تدعى وقتذاك شركة النفط الأنجلو-فارسية وذلك في عام ١٩١٤، وهي خطوة تبناها في ذلك الحين اللورد ونستون تشرشل الأول، وبالفعل أصبحت الحكومة البريطانية صاحبة غالبية أسهم الشركة. وقبل ذلك الحين كان الإنتاج والتوزيع في أيد أمريكية وهولندية بصورة كلية تقريباً(٥) وبرهن النقص الفجائي في إمدادات النفط في عام ١٩١٧، خلال الحرب العالمية الأولى على واقعية المخاوف الغربية، فيما يتعلق بمدى توافر النفط(٦). وقال ونستون تشرشل لمجلس العموم في ٧ يونيو ١٩١٤ : "لا أحد يهتم في زمن الحرب كم دفع في سلعة حيوية، ولكن في السلم وتلك هي الفترة التي أود أن أوجه انتباه اللجنة إليها فإن الثمن مسألة مهمة للغاية... وليس بمقدوري أن أشعر بأن موقفنا ليس مبرراً... في بحث كيف أنه في العديد من سنوات السلم، وفي فترة سلمية طويلة، قد نحصل على قدرة مناسبة على المساومة وعلى تسهيلات فيما يتعلق بشراء النفط. إن سعر النفط لا يعتمد كلية ولا حتى بشكل رئيسي على الآليات العادية للعرض والطلب(٧).

٢-١-٢ كيف تابع الغرب مصالحه في الخليج..؟

تم حشد القدرة الغربية السياسية والعسكرية والمالية والتقنية، بكل السبل الممكنة، لتحقيق الأهداف المرتبطة بالنفط. وتمثل الأمر الأكثر فعالية في التجربة الاستعمارية الأوروبية التي استغلتها الحكومات الغربية بصورة كاملة لضمان الحصول على امتيازات لرعاياها وشركاتها الوطنية. وعين العملاء السياسيون المحليون، وأبرمت صفقات مع شيوخ بعينهم. واتحدت شركات أوروبية متنافسة، تملكها حكومات متنافسة في أشكال مختلفة من (الكونسرتيوم)، لضمان مواقف قوية موحدة في مواجهة الحكام الفرديين،

لكي يتم الحفاظ على مستويات الأسعار وكميات الإنتاج، والأكثر أهمية من ذلك شروط الامتيازات المواتية للبحث عن النفط وإنتاجه. وفي العديد من الحالات اكتشفت آبار النفط التي تنتجه بكميات تجارية، قبل الحرب العالمية الثانية، وأغلقت حتى نهاية الحرب(٨). وفي عام ١٩٥٠ عندما مضت الحكومات العربية تبحث زيادة دخلها من النفط عن طريق فرض الضرائب وليس عن طريق عائد الملكية، أدخل الشركاء الأمريكيون في شركة أرامكو مبدأ المناصفة في الأرباح إلى الخليج العربي(٩) وحذت الشركات الأخرى حذوها، وأخذت بزمام المبادرة. وكانت المقاطعة التجارية للنفط المنتج ضد المصالح الغربية سلاحاً فعالاً، تم استخدامه في الحالات المتطرفة، مثل أزمة مصدق.

٢-٢ نطاق المصالح النفطية في الخليج

تلقت مؤسسة الاحتياطات النفطية، وهي هيئة أنشأتها إدارة الرئيس الأمريكي روزفلت، تلقت عام ١٩٤٣ تقريراً من إيفرت لي ديجولير DeGolye Everette Lee وهو باحث جيولوجي نفطي يفيد أن مركز ثقل الإنتاج العالمي من النفط ينتقل من البحر الكاريبي إلى الخليج العربي، ويحتمل أن يستمر في الانتقال(١٠). وفي عام ١٩٣٨ كان إنتاج الخليج من النفط أقل من جزء من عشرين جزءاً من إجمالي إنتاج العالم، وفي عام ١٩٦٠ بلغ ربع إنتاج النفط في العالم بأسره(١١) مع وجود أضخم احتياطي وأدنى تكلفة لإنتاج النفط الخام في العالم(١٢).

ونتيجة لذلك أقيمت مستوطنات عديدة قرب حقول النفط، وأنشئت نظم للنقل، مثل الطرق، وخطوط الترام والسكك الحديدية، وانطلقت الناقلات والسفن والسيارات والطائرات عبر خطوط ثابتة بين منطقة الخليج والغرب، وتم مد أنظمة الاتصال مثل البرق والهاتف بين الدول المنتجة للنفط وأوروبا، وجرى تشغيل الألوف من الأوروبيين ومئات الألوف من السكان المحليين، مباشرة أو بشكل غير مباشر، من قبل صناعة النفط في المنطقة.

وتطورت الزيادة الكبيرة للمصالح النفطية في الخليج منطقة بعد أخرى على امتداد فترة من الزمن. وفي بعض الحالات تسببت الضغوط السياسية في الاسراع في البحث عن النفط وإنتاجه، على نحو ما حدث في فارس خلال الحرب العالمية الأولى، أو في تعطيلهما، كما حدث في المملكة العربية السعودية خلال الحرب العالمية الثانية.

٢-٢-١ فارس (إيران)

منح امتياز دارسي الموقع في ٢١ مايو ١٩٠١ المحامي الأنجليزي وليام نوكس دارسي الحق في البحث عن النفط وإنتاجه وتصديره لمدة ستين عاماً. وقد أشعل اكتشافه للنفط بكميات تجارية في مسجد سليمان في٢٦ مايو ١٩٠٨ شرارة المصالح النفطية في منطقة الخليج العربي(١٣). وتوسع نطاق إنتاج النفط الإيراني خلال الحرب العالمية الأولى. وفي عام ١٩١٩ تم تغيير امتياز دارسي للعام ١٩٠١ لإعطاء امتيازات أفضل الجانب الفارسي داخل فارس وخارجها. وتمت مراجعة الامتياز في العام ١٩٣٣ وفي عام ١٩٤٩(١٤) لتحسين وضع الجانب الإيراني بعد محاولات من جانب الحكومة الإيرانية لإلغاء الامتياز. وفي عامي ١٩٥١ – ١٩٥٢ لم يسفر عرض تقدمت به شركة النفط الأنجلو-إيرانية(١٥) (وهي نفسها شركة النفط الأنجلو-فارسية وقد أطلق عليها اسم جديد) على أساس المناصفة في الأرباح عن إرضاء المجلس الإيراني ورئيسه الدكتور محمد مصدق Mohamad Mossadegh؛ ونشأ عن ذلك التأميم الشهير للنفط الإيراني، وجاء رد فعل بريطاني من خلال مقاطعة فعالة للنفط الإيراني على امتداد العالم. وفي عام ١٩٥٤ قبلت إيران الشروط التي كانت رفضتها من قبل من خلال التأميم. وعلى الصعيد العملي، استعادت شركة بريتش بتروليوم (وهذا هو الاسم الذي أطلق على شركة النفط الأنجلو-إيرانية) وضعها بوصفها الشريك الأكبر في الكونسرتيوم. غير أن إيران احتفظت بحق ملكية النفط المنتج من الحقول الإيرانية كاملا(١٧).

٢-٢-٢ بلاد مابين النهرين (العراق)

كانت بلاد ما بين النهرين على الدوام ذات أهمية استراتيجية بالنسبة للغرب، وبصفة خاصة بالنسبة لبريطانيا، بسبب الهند والخليج العربي. وكان النفط سبباً لاحقاً للاهتمام الاستراتيجي الغربي بها وخلال الحرب العالمية الأولى وبعدها أصبحت ذات أهمية أكبر كثيراً، فهي خلال الحرب كانت ميدان معركة، وبعدها أصبحت موضعاً لتنافس محتدم بين الدول الغربية، لوراثة الامبراطوريتين العثمانية والألمانية المهزومتين. ففي بعض المناطق كان من المعروف أن النفط موجود منذ الأزمان القديمة. وقد ضمن الألمان الحصول على هذا النفط بوصفه جزءاً من صفقة مد سكة حديد بغداد. ولم يتم العثور على النفط في بلاد ما بين النهرين بكميات تجارية قبل عام ١٩٢٧، وهو تاريخ متأخر كثيراً إذا ما قورن بالوضع في فارس(١٨) وقد توصلت إلى اكتشافات ١٩٢٧ شركة تركش بتروليوم(١٩) في كركوك وبدأ تصدير النفط في عام ١٩٣٤(٢٠). واستمرت المفاوضات بين شركة نفط العراق (شركة النفط التركية سابقاً) والحكومة العراقية لمدة خمس سنوات من ٧١٩٤ إلى ١٩٥٢، وتفاقم السخط الشعبي على الامتياز، وبصفة خاصة بعد ثورة ١٩٥٨. وأصدرت الحكومة العراقية قانوناً في عام ١٩٦١ ينص على خفض مساحة امتياز شركة نفط العراق إلى ٠.٤٤ ٪ من مساحتها السابقة (٢١) وقد قوى برنامج المساعدة السوفياتي للعراق بعد عام ١٩٥٨ وضع الحكومة العراقية في مواجهة شركات النفط الغربية.

٢-٢-٣ الكويت

منحت شركة نفط الكويت(٢٢) امتيازاً نفطياً في ٢٣ ديسمبر ١٩٣٤، وتم اكتشاف النفط بكميات تجارية عام ١٩٣٨ ولكن الإنتاج تأخر بسبب الحرب العالمية الثانية، وبسبب سياسات التسويق التي اتبعتها شركة النفط الأنجلو-فارسية حتى عام ١٩٤٦، وفي عام ١٩٥١ تم إدخال ترتيب للمناصفة في اقتسام الأرباح على الامتياز. وأدخلت تعديلات أخرى على الامتياز في عام ١٩٥٥. وفي عام ١٩٥٢ أدت الاكتشافات في الكويت وإيقاف الإنتاج في إيران بسبب أزمة مصدق إلى زيادة أهمية المصالح النفطية في الكويت. وفي الفترة من ١٩٥٣ إلى ١٩٦٥ كانت الكويت هي المنتج الرئيسي للنفط في الخليج(٢٣).

٢-٢-٤ المملكة العربية السعودية

تم منح امتياز لأرامكو(٢٤) عام ١٩٣٣ بعد جهود للمنافسة بين الإنجلين الذين كانوا راسخي الأقدام في المنطقة والأمريكيين الذين قدموا حديثاً، وقد بدأ البحث عام ١٩٣٥، ولكن لم يتم العثور على النفط بكميات تجارية إلا عام ١٩٣٨. وقد جرى خفض إنتاج النفط وتعطيله خلال الحرب العالمية الثانية. وفي أثناء هذه الفترة كانت الحكومة السعودية تواجه صعوبات مالية وتسعى للحصول على معونات من الحكومة البريطانية. غير أن الأمريكيين هم الذين بادروا إلى مساعدة السعوديين، وخلال برنامج الإعارة والتأجير. وكانت تلك نتيجة جهود بذلتها أرامكو. وخلال عام ١٩٤٣ و ١٩٤٥ أقيمت مصفاة رأس تنورة بوصفه مشروعاً عسكرياً أمريكياً(٢٥) وتم التوصل إلى المزيد من الاكتشافات على امتداد الأربعينات والخمسينات وفي ديسمبر عام ١٩٥٠ تم التوقيع على اتفاقية مناصفة الأرباح بين الحكومة السعودية وأرامكو. وبعد الحرب العالمية الثانية برزت السعودية باطراد إلى الصدارة على المستوى العالمي بكونها بلاداً غنية باحتياطاتها النفطية، وبصفة خاصة منذ أواخر الستينات فصاعداً(٢٦).

٢-٢-٥ الساحل المتصالح (دولة الإمارات العربية المتحدة)

وقع امتياز بين شركة تنمية النفط(الساحل المتصالح)(٢٧) وحكام دبي وكلباء ورأس الخيمة والشارقة عام ١٩٣٨ ووقع حاكم أبو ظبي امتيازاً منفصلاً في العام التالي، غير أن النفط لم يعثر عليه بكميات تجارية إلا عام ١٩٦٠(٢٨).

٢-٢-٦ البحرين

تعد البحرين من أقدم منتجي النفط في الخليج. وقد اكتشف النفط بكميات تجارية عام ١٩٣٢ من قبل شركة نفط البحرين.

٢-٢-٧ عمان

على الرغم من أن البحث عن النفط بدأ في وقت مبكر يعود إلى عام ١٩٢٥، إلا أن الجهود كافة لم تكلل بالنجاح حتى منتصف الستينات(٣٠).

٢-٢-٨ قطر

تم منح امتياز لشركة نفط قطر(٣١) عام ١٩٣٥. وجرى اكتشاف النفط في السنوات السابقة للحرب العالمية الثانية مباشرة. ولكن الإنتاج لم يبدأ قبل ١٩٤٩. ومنح امتياز للاستكشاف البحري لشركة النفط الملكية الهولندية / شل عام ١٩٥٢. وتم اكتشاف النفط عام ١٩٦٠(٣٢).

٣ - رجال النفط بكونهم رحالة

٣-١ بعض خصائص حياة رجال النفط الغربيين في الخليج

اضطرت طبيعة المصالح النفطية في الخليج ونطاقها خلال الفترة من عام ١٩١٨ إلى عام ١٩٦٠ ألوف الغربيين إلى الحياة في منطقة الخليج والعمل فيها. وزارها آخرون لمهام مرتبطة بالنفط. وأدت الأسباب التالية، التي ترتبط بشكل وثيق بطبيعة المصالح النفطية ونطاقها إلى عزلة غالبية رجال النفط الغربيين عن البلاد التي يعملون بها :

– شجعت السلطات السياسية والمالية الواسعة النطاق، التي حظيت بها شركات النفط، جنباً إلى جنب مع الروح الاستعمارية للعصر – شجعت رجال النفط على اكتساب مناخ من التفوق والتميز، وتطلعوا باستعلاء إلى السكان الأصليين غير الغربيين.

– لم يهتم كثير من رجال النفط بمواقع آبار النفط، التي كانوا يعملون بها. وفي معظم الحالات لم يكترث من قاموا بتشغيلهم بتثقيفهم، فيما يتعلق بالخصائص الحضارية والطبيعية للبلاد المضيفة.

– لم تترك الطبائع الفنية والإدارية والتجارية للعمل في صناعة النفط مجال للاهتمامات الثقافية والجغرافية والانترويولوجية في الحياة اليومية لرجل النفط.

– قامت شركات النفط بتشييد مجمعات سكنية معتمدة على ذاتها للعاملين فيها، ذات اتصال محدود، أو بدون اتصال على الإطلاق، بالدولة المضيفة أوبشعبها.

وساعدت الدورات الرياضية ذات التنسيق الجيد واللقاءات الاجتماعية وغيرها من سبل إزجاء الوقت على إبقاء رجال النفط داخل جدران تجمعاتهم السكنية.

– أعدت شركات النفط ترتيبات لقيام العاملين بها بقضاء عطلاتهم القصيرة في لبنان أو قبرص، الأمر الذي قلل أي احتمال للاتصال على مهل بينهم وبين البلاد التي تقع حقول نفطهم فيها.

٢-٢ هل كان رجال النفط رحالة..؟

يستخدم اصطلاح "الرحالة" في هذه الورقة للإشارة إلى فرد يرتحل من منطقة إلى أخرى، ثم يعود إلى وطنه بسجلات لمغامراته وبملاحظات ودراسات وانطباعات عن الأراضي التي كان فيها، وقد تكون سجلات الرحالة في صورة يوميات ودراسات جغرافية وخرائط أو ملاحظات انثروبولوجية، أو ملاحظات ثقافية أو شخصية، أو انطباعات بصرية، أو أي شكل من أشكال التعبير الفني، مثل الرسم، أو التصوير، أو التصوير الفوتوغرافي. وبالتالي فإن الاهتمام بالأرض التي تم الرحيل إليها وبشعبها وثقافتها وطبيعتها وكذلك الرغبة والقدرة على تسجيل تجارب الرحيل هي أمور ضرورية لكي يكون أي فرد قائم بالرحيل "رحالة" وبمقدور المرء، وفقاً لهذا التعريف، أن يفترض آمناً أن أقلية من رجال النفط الغربيين الذين عملوا في الخليج كانوا "رحالة".

٣-٢ أشكال مختلفة من كتابات رجال النفط

كانت معظم كتابات رجال النفط عن الخليج إما في صورة وثائق داخلية للشركة غير منشورة أو مقالات في مجلات الشركة التي كانت ذات توزيع محدود. وأسفر البحث في أرشيف شركة بريتش بتروليوم عن أن كتابات رجال النفط خلال الفترة من ١٩١٨ إلى ١٩٦٠ كانت بصورة أساسية في الأشكال التالية :

– تقارير عن زيارات تفقُّد كتبها صناع القرار.

– تقارير عن مواقف واتجاهات محلية أعدت للتخطيط الاستراتيجي.

– خطب ألقيت في مناسبات خاصة.

– توصيفات لأماكن شوهدت في الطريق إلى حقول النفط أو خلال العودة منها.

– يوميات وتأملات وذكريات.

– قصائد وقصص وروايات وتصوير فوتوغرافي وأشكال مختلفة للتعبير الفني.

– مجلات شركات النفط، التي تنشر بصفة أساسية أخبار المقار الرئيسية وكذلك أنباء حقول النفط المختلفة والمناسبات الاجتماعية للعاملين في أماكن مختلفة من العا ؟.

٤ - خصائص كتابات رحلات رجال النفط

٤-١ أساس منطقي محدد بوضوح

كانت أغراض الرحيل والكتابة وأهدافها تحدد عادة بوضوح بالغ، وتتم متابعتها، في معظم الحالات، عن كثب. فعلى سبيل المثال بدأت "رحلة بالقافلة من قشجولي إلى شيراز" بالفقرة التالية التي أوضحت الأساس المنطقي للرحيل ونمط التسجيل :

"عندما حان موعد رحيلي مع ر.، في الربيع الماضي، قررنا العودة إلى الوطن معاً، وخططنا لزيارة طهران في طريقنا. وكان السؤال المطروح هو: هل ينبغي علينا قطع المرحلة الأولى من رحلتنا عبر بختياري وصولاً إلى أصفهان أو عن طريق قشجولي وصولاً إلى شيراز؟ لقد تم سلوك الطريق الأول بصورة غالبة، ولكن على الرغم من أن عدداً كبيراً من العاملين قد سافروا من حين إلى آخر وبصورة متقطعة عبر الطريق الثاني، إلا أنه لم يتم الانطلاق عليه في رحلة إلى الوطن، ومن هنا فقد قررنا أن نسلك الطريق الأكثر إيغالاً باتجاه الجنوب، على الرغم من أنه كان أطول بطريقة ملموسة، واعتزمنا السفر من شيراز إلى طهران بالسيارة، ولكن فيما يتعلق بالمرحلة الأولى، أي بالسفر من قشجولي إلى شيراز فإن رحلتنا سيتم القيام بها بالقافلة، ولهذا الغرض كانت هناك استعدادات عديدة يتعين القيام بها(٣٢).

٤-٢ تعتمد الصور النمطية فيما يتعلق بالثقافة والعادات الاجتماعية والتاريخ والدين المحلي

على الرغم من أنه كان من العادي، بالمعايير الأوروبية، اعتماد الصور النمطية، فيما يتعلق بالقضايا "الشرقية" إلا أن المرء يتوقع موقفاً أكثر تفهماً واتساماً بالطابع العملي من أفراد أقاموا في المنطقة وعملوا بها. ويصف مور Moore البصرة بالكلمات التالية : "فينيسيا الشرق. تقليدياً المرفأ الذي انطلق منه السندباد البحار في(ألف ليلة وليلة) الذائعة الشهرة، ليخوض غمار مغامراته"(٣٤).

بينما وصف السير أرنولد تي. ولسون Sir Arnold T. Wilson في صوره عن معركة نشبت عام ١٨٠٠ في الخليج دوافع السكان المحليين بالكلمات التالية غير المتعاطفة : "اندفعت السفن التقليدية جانباً بمقدمات ضخمة سامقة. وفي لحظة أخرى كانت أسطح(سايلف) [وهي فرقاطة تابعة لشركة الهند الشرقية] تعج بالمغامرين الذين استهلوا، واسم النبي على شفاههم والظمأ للدم المسيحي في أفئدتهم، مذبحة هائلة، وفي دقائق معدودات قضي على الطاقم بكامله وأفراده يقاتلون في بأس(٣٥).

٤-٣ شعور قوي بالانتماء إلى الشركة وفخر كبير بمنجزاتها

يمكن للمرء، في يسر، أن يرصد تقرير لورد غرينواي Lord Greenway (٣٦) لمجلس الإدارة شعوراً لا سبيل إلى الخطأ بشأنه بالفخر بشركة النفط الأنجلو-فارسية، حيث يقول : "كانت عبدان صحراء موحلة أو مغبرة (بحسب الفصل من السنة) لم يبن فيها إلا كوخ واحد ونواة ورشة، وكان حاجز أمواج واحد فيها لا يزال تحت البناء. أما الآن فهي مدينة صناعية مترامية الأطراف تضم سكاناً يصل عددهم إلى حوالي ٥٠٠٠٠ نسمة، والألوف من المساكن التي تتراوح بين الدور الأكثر فخامة، التي يقيم فيها الموظفون الأوروبيون، وصولاً إلى المساكن المتواضعة، التي يقيم فيها العمال غير الفنيين، ومستشفى كبيراً يعمل به عدد كبير من الأطباء والممرضات، وأندية حديثة لكل مستويات العاملين تقدم جميع أشكال الألعاب والترفيه، وفرقتين ممتازتين من العازفين المتطوعين (إحداهما أوروبية، والأخرى هندية)

وملاعب للتنس والراكيت، وملعباً للغولف، وأراضي للعب كرة القدم، ومطعماً يحظى برعاية كبيرة مخصصاً للأوروبيين، يستطيع ٢٠٠ شخص أن يتناولوا فيه طعام الغداء أو العشاء في وقت واحد، ينقل إليه العاملون الذين يشتغلون في مناطق أبعد من أن تقطع معها المسافة سيراً على الأقدام، وذلك باستخدام الباصات، أو بالسيارة، ومغسلة بالبخار، ومخبزاً، ومتجراً للمؤن(يذكر المرء بمحل هارودن) يمكن فيه شراء جميع أنواع الأطعمة والمشروبات والطباق...(٣٧).

٤-٤ الاعتذار فيما يتعلق بأسلوب الكتابة

عندما كان مقال أو تقرير يدور حول صور للطبيعة الفعلية أو السوسيولوجية أو الثقافية، فإن عبارات تحمل معنى الاعتذار حول أسلوب الكتابة كانت تدرج، ومنها على سبيل المثال : "يقتضي الأمر قلماً أكثر اقتداراً من قلمي، لوصف أحداث ذلك اليوم المثير للاهتمام"(٣٨).

أو : "هذه الصورة النحتية النافرة وصفت جميعها في غير هذا المقام بأقلام أكثر اقتداراً"(٣٩).

٤-٥ تأثيرات عملية ومباشرة ومادية

كان هدف الرحيل أو الكتابة عن رحلة ما على الدوام هدفاً عملياً. وعلى سبيل المثال فقد استهدفت رحلات كيلي ممث إلى الجزر المختلفة في الخليج العربي بصفة أساسية إجراء الدراسات الجيولوجية التي تحتاجها شركة النفط الأنجلو–فارسية(٤٠). وهناك مثال آخر هو مقال ماكميلان Macmillan عن زهور جنوب غربي إيران، الذي لم يكن ذا طبيعة أكاديمية، وإنما قصد أن يكون ذا فائدة عملية لرجال النفط وأسرهم. ويتألف نصف المقال تقريباً من إشارة تتعلق بجمع وتجفيف أنواع من الزهور(٤١).

٤-٦ الحس الطبقي

يمكن بوضوح ملاحظة التمييز الجلي بين الشرائح الاجتماعية والطبقات المندرجة في الموظفين بالشركة والعاملين بها في تقرير

غرينواي(٤٢). ويمكن قراءة الاصطلاحات التالية المرتبطة بالطبقات في العديد من التقارير الأخرى التي كتبها رجال النفط : أوروبيون، هنود، عرب، سكان أصليون... طبقات، شرائح اجتماعية فنيون، كتبة، عمال غير ماهرين...

٤-٧ ثقة قوية في المؤسسة الغربية وولاء لها

حددت معظم كتابات رجال النفط الأماكن وفقاً لبعض المباني أو الأحداث الغربية المرتبطة بها. وفي العديد من الحالات يرد ذكر مدينة بأسرها، ذات تاريخ عريق وأماكن فريدة تتعين زيارتها ووصفها، في كتابات أحد رجال النفط من خلال وصف قنصلية أو ناد أوروبي. وترد المرة الوحيدة التي أتى فيها كابيتو Capito على ذكر مدينة شيراز في صوره الوصفية الصافية على النحو التالي :

"يمتد الطريق من حسين آباد إلى شيراز، في غالبه، عبر البساتين، الأمر الذي يشغل تغييراً يعد موضع ترحيب بعد التلال الحجرية الجرداء تقريباً المترامية لمسيرة ثلاثة أيام. والأمر الذي كان موضع قدر أكبر من الترحيب الانطلاق بالسيارة صعداً في الطريق المفضي إلى القنصلية البريطانية الذي تحف به على جانبيه نباتات القنطريون العنبري الزرقاء وزهور الخشخاش الحمراء تليها وفرة من الورود والأشجار السامقة، وعقب ذلك الجلوس في المرجة تحت الأشجار الضخمة وتناول وجباتنا في الظل وسط الهواء الطلق. ويكاد المرء يدرك أنه في فارس، وليس في أراضي دارة ريفية في الوطن.

واستقبلنا استقبالاً يليق بالملوك السيد تشيك، الذي نزلنا في ضيافته ثلاثة أيام قبل الانطلاق بالسيارة إلى أصفهان وطهران في المرحلة الثانية من رحلتنا إلى الوطن(٤٣).

في حين أن غالبية وصف مور لبغداد كانت تعكس مزاجاً استعمارياً على نحو خالص :

"توالت الفنادق على امتداد الشارع الجديد. وكانت في أواخر الثلاثينات أكبر وأكثر فخامة(٤٤). ومن هذه الفنادق فندق سميراميس، أما فخر المكان

فقد انعقد لواؤه قديماً لفندق قصر دجلة، وتميز بالطعام الجيد والخدمات العامة والغرف الرحبة الجيدة التهوية، التي تطل على النهر، وربما كانت حانته الملتقى الأكثر شعبية ورواجاً، وظلت كذلك على امتداد الحرب العالمية الثانية. أما الساقي فهو خبير يحظى بذاكرة تضاهي ذاكرة الفيل في قوتها... ومن الذكريات التي تعود إلى أيام الحرب عن تلك الحانة ذكرى القدوم عقب رحلة مترية ومجهدة في فصل الصيف ولقاء بمحض المصادفة مع زميل من العاملين في حقل النفط(٤٥).

٤-٨ الثقة الراسخة بالعلم والتقنية

لما كانت صناعة النفط تتصدر مسيرة التقدم التقني، فقد وثق رجال النفط أعظم الثقة بالعلم والتقنية، وأثر ذلك على رحلاتهم بطريقتين. فقد مالوا أولاً إلى السفر بأحدث الابتكارات التقنية في ميدان النقل. وثانياً فقد نظروا إلى نمط الحياة المحلي من المنظور التقني. وهكذا فإن تقديرهم للدولة المضيفة لهم لم يكن غالباً متسماً بالحماس.

٤-٩ الأوصاف السطحية والاهتمام السطحي تقريباً بالأماكن والتجمعات السكانية والموضوعات المحلية

بعد فقرات مطولة حول المشاعر التي ساورت الكاتب ورفاقه وما أكلوه وشربوه وبعض المواقف الطريفة أو التي تبعث الضيق يكتب الرحالة من رجال النفط وصفاً ظاهرياً موجزاً لما لا بد أنه كان مكاناً محلياً بارزاً، وعلى سبيل المثال كتب كابيتو يقول :

"وصلنا إلى قرية قوديون في الساعة الثانية ظهراً، وضربنا خيامنا. وكانت هذه أولى القرى المحصنة التي رأيناها. والقرية مستطيلة الشكل، ومقسمة إلى ثلاثة أفنية. والدور كلها مستندة إلى الأسوار الخارجية أو الفواصل بين الأفنية. وهذه الدور مؤلفة من طابقين، حيث الحيوانات في الطابق الأرضي والسكان والدجاج في الطابق الأول، وتستخدم أسقف المساكن كجدران ذات فتحات لإطلاق النار منها. وكانت القرية قذرة على نحو لا

يوصف، ففضلات الحيوانات لم يتم إبعادها منذ سنوات، والدخان المنبعث من الحرائق سود وجوه الجميع وثيابهم، وزارنا كبير القرية، وقمنا عقب ذلك بالتوجه إلى القرية لنلقي نظرة عليها. وكان الليل بارداً على نحو مرير، بسبب الارتفاع الكبير، وقدرنا ارتفاعنا بحوالي ٨٠٠٠ قدم(٤٦).

٤-١٠ الحس السياسي

كان كبار رجال النفط سياسيين من الدرجة الأولى، وكانت كتاباتهم مفعمة إلى حد كبير بالقضايا السياسية. وتراوحت المعلومات والأفكار السياسية التي اندرجت في كتابات رجال النفط بين التقارير الشبيهة بتقارير المخابرات عن كبار الشخصيات المحلية والمستوى الرفيع المتعلق بالقضايا السياسية ذات الأهمية الاستراتيجية. وعلى سبيل المثال أدرج السير جون كادمان Sir John Cadman(٤٧) في تقريره إلى مجلس إدارة شركة النفط الأنجلو-فارسية "دليلاً موجزاً للشخصيات الفارسية". وقد انتهت الصورة التي رسمت عن كل شخصية بأحد التصنيفات التالية : "شخصية صديقة"، "شخصية صديقة ويعتمد عليها"، "له موقف جيد من شركة النفط الأنجلو-فارسية"، "له موقف جيد للغاية من شركة النفط الأنجلو-فارسية"، "معاد لكل من الشيخ ولشركة النفط الأنجلو-فارسية"، "من المعتقد أنه جدير تماماً بالثقة"، "شخصية يبدو أنها صديقة لشركة النفط الأنجلو-فارسية"، "له موقف موات من شركة النفط الأنجلو-فارسية"، شاب غير جدير بالثقة يبذل الشيخ من خلال الرشاوى جهداً لاستغلاله لأغراضه الخاصة"، "بعيد عن التدقيق تماماً"، "بعيد عن التدقيق"، "شخص غير مرض أبداً"، "محمدي متصلب"، "جدير باللقاء"، "مناصر للبريطانيين ومناوئ لشركة النفط الأنجلو-فارسية في الماضي ولكنه يتحسن وربما يصبح مناصراً لشركة النفط الأنجلو-فارسية"(٤٨).

٤-١١ مخاطبة حصرية تقريبا لرجال النفط الآخرين

من الطبيعي أن جميع التقارير الداخلية والمقالات المنشورة في مجلات الشركات قصد بها أن يقرأها رجال النفط. ومن هنا فإن كتابات رجال النفط ينبغي أن تقرأ وتحلل وتفهم في إطار سياق عقلية رجل النفط ونمط حياته.

٤-١٢ نبرة حنين للوطن تتميز بالارتفاع

كان الحنين إلى الوطن سمة سائدة في كتابات رجال النفط،وقد تم التعبير عن هذا بشكل مباشر وغير مباشر في العديد من الصور. ومثل هذه التقارير لم تكن بالأمر غير المألوف في مجلات شركات النفط ونشراتها الداخلية :

«عبدان إلى لندن في سبعة أيام. رقم قياسي جديد في السرعة بالنسبة لرحلة العودة إلى الوطن من عبدان سجله في يناير السيد/ دنكان أندرسون Duncan Anderson الذي أكمل الرحلة في غضون فترة قصيرة لا تتجاوز سبعة أيام، أي أقل بأربع وعشرين ساعة عن المرة السابقة، بحسب ما جاء في مجلة النفط في الصيف الماضي»(٤٩).

ونشرت قصيدة قصيرة في مجلة «النفط» تحت عنوان «العودة إلى الوطن» وبتوقيع أدريف ذملاء على النحو التالي :

«فيما وراء شواطىء عمان القاحلة

حيث تتوحد الشمس والرمال،

ألقيت توماناً ممسوحاً

حيث بدأت اللعبة لأول مرة

وقت العمل والانتظار،

الأمل، الاهتمام، عدم التفكير،

عثور على اللذة، ثم إشباعها،

سريعاً يضيع، وسريعاً يطويه النسيان !»(٥٠).

٤-١٣ رحالة بالصدفة

(دون اهتمام سابق بالمكان الذي يشد الرحال إليه).

«تلقيت في فبراير أوامر الانطلاق الخاصة بي، فقد نقلت إلى عبدان في فارس، وسافرت بين عشية وضحاها إلى فاعوث لأستقل ناقلة النفط بريتش برايد وانتهى الحل الوسط المناسب والملائم القائم على الإقامة في لندن والعمل في الضواحي. وقد عرفت أن ما أقوم به الآن خطوة مهمة في مسيرة عمل... ومن فوق سطح الناقلة رأيت بضع دور جاثمة، وبعض خزانات النفط، وفي البعيد غابة من أبراج المصفاة ومداخنها.وفي السماء حجاب قاتم من الدخان يكاد في هذه الساعة المبكرة الباردة الساكنة يتحرك على ما يبدو بفعل القصور الذاتي تقريباً، ولست أدري ما الذي يتعين علي توقعه، ولكنني لم أدهش لما رأيته»(٥١).

٤-١٤ معايشة الثقافة والخصائص البشرية المحلية بعين جديدة والكتابة في معظم الحالات دون أية قراءات سابقة حول الموضوع.

في بعض المواقف التي يصادفها رجال النفط، يؤدي افتقارهم إلى معرفة سابقة بالخصائص الثقافية والإنسانية المحلية إلى تلقٍ ووصف جديدين على نحو جميل لمثل هذه المواقف. والمقتطف التالي من «ذكريات» لمور يعد مثالاً دالاً :

« في بداية صيف عام ١٩٣٥ كنت مسافراً من كرمنشاه، وحيداً في السيارة البويك، التي ينطلق بها سائق فارسي. وعلى نحو مبشر بالخير للغاية، وقع اللقاء في إحدى تلك المناطق المهملة. فقد توقفنا بإزاء صخرة، ومكثنا هنالك مدة ساعة أو أكثر. وكانت هناك قبيلة كردية كاملة تتحرك صعداً في إطار الهجرة التقليدية الموسمية إلي المرتفعات الباردة. وفي هذه الهجرات السنوية الشاملة ينتقل كل شيء على الطريق. السكان رجالاً ونساء وأطفالاً وحيوانات الجر بغالاً وحميراً ينطلقون. ويمضون بمنقولاتهم، أوعيتهم، مقاليهم، أنعامهم، قطعانهم. بانوراما لاسبيل إلى نسيانها. مرة أخرى ذلك التأثير الكامل الذي يفعم الحواس، وتحرك القافلة صعداً بلا هوادة. تشكيل لوني

يصحبه لحن صوتي ودفق من الأصوات ورنين النحاس والآنية ونباح الكلاب وصياح الديكة، في غمار فوضى نغمية. بل أنني لم أستطع أن أضمن اليوم امتداد تلك القافلة، ولكن لا بد أنها امتدت ميلين أو أكثر. والثوب الكردي هو مزيج من الألوان الزاهية، وفيض من ألوان قوس قزح، تناولنا الطعام، وشربنا، ورحنا نرقب القافلة (أغفى السائق بعد تناول وجبته) دنت الذروة، وكانت مع الأم الكبرى، التي تحظى بمهابة ملكية. ويتوجها الفخار، كانت كأنما تجلس على عرش وهي تمتطي بغلة عالية، تحمل على كل جانب من جانبيها سلالاً مقصبة بصورة ثرية، وأوعية نحاسية قليلة وغرائبيات أخرى معلقة. كانت امرأة فارعة، ذات ملامح تشبه ملامح الصقر، وعينين نجلاوين. وثوبها وفرة من الألوان، وقلادتها تحدث أصواتاً متنافرة، وقد تمنطقت بزنار عريض من الفضة والفيروز الأزرق. ورمقتني بنظرة مباشرة وللمحة «تواصلنا » وكان تواصلاً محتدماً. ويقينا كان هناك كبرياء وفخر في نظرتها. ربما سخرية؟ لست أدري. كنت عند مقدمة السيارة. وكان أمراً ملزماً أن أحييها بإشارةاليد الشرقية تلك، إشارة السلام. وأعتقد أنه كانت هناك استجابة، في حركتها الخفيفة. وممتطية بغلتها مضت في طريقها. وبعد ذلك بخمس عشرة دقيقة لم يبق من القبيلة المارة إلا الغبار، وواصلنا مسيرتنا إلى خانقين النائية. وكان مشهداً لا ينسى، ولم يقدر إلا لقلة من الأوروبيين أن تراه»(٥٢).

٥ - الخاتمة

في مقالهم بعنوان «جغرافيو الخليج الفارسي» أنهى جيرالد بليك Gerald Blake وآخرون استعراضهم للرحالة الغربيين إلى الخليج بالعبارة التالية: «في عام ١٩٤٦ - ١٩٤٧ قام ولفريد ثيسجر Wilfred Thesiger برحلتين بارزتين في مناطق لايعرف عنها الكثير في الربع الخالي. وعلى الرغم من أنه لم يضف الكثير إلى المعرفة المتضمنة في خرائط شبه الجزيرة العربية، فإن ملاحظاته حول الحياة البدوية قد أصبحت عملاً كلاسيكياً. وكانت رحلاته الأخيرة من نوعها(٥٣) وقدمت إطلالة عصرية على مشاق الاستكشاف سيراً على الأقدام وعلى ظهور الجمال»(٥٤).

ومن الصحيح تماما أن رحلات ثيسجر كانت الأخيرة من نوعها. والسبب في ذلك مزدوج، فأولاً كانت الرحلات التي لايحفزها بصورة أساسية نوع من العمل أو الترفيه ظاهرة أوروبية توقفت مع انتهاء الحقبة الرومانسية في الغرب، كما أن نهاية النزعة الاستعمارية الأوروبية، جنباً إلى جنب مع مسائل التنقل والاتصال الحديثة جعلت الرحيل على طريقة ثيسجر(٥٥) شيئاً أقل جاذبية والحاجة إليه أقل. وثانياً فإن المصالح النفطية هي التي أوقفت الرحلات الرومانسية إلى الخليج. ولاتعد المصافي ولا أجهزة الحفر بالقطع مشهداً ملهماً للرحالة الرومانسي. وقد أعرب ثيسجر، في معرض تعقيبه لدى عودة إلى الخليج في أواخر السبعينات عن شكواه من أنه : «شعرت بخيبة الأمل والضيق، حيال التغيرات التي جلبها اكتشاف النفط وإنتاجه على امتداد المنطقة - فطريقة حياة البدو التقليدية، التي شاركت فيها مع أبناء قبيلة راشد، على امتداد خمس سنوات لاتنسى، قضى عليها، على نحو لا ترجى معه عودة، من خلال إدخال النقل بالسيارة والطائرات والهليوكبترات. وعندما وصلت إلي أبو ظبي شاهدت المباني الشاهقة ومصافي النفط منتشرة على امتداد ماكان ذات يوم صحراء خالية، وشكلت المدينة رمزاً لكل ماكرهته ونبذته. وفي ذلك الوقت مثلت خيبة أمل عودتي الأخيرة إلى شبه الجزيرة العربية(٥٦).

وعلى صعيد أكثر أهمية فإن جسامة المال والقوى السياسية في صناعة النفط والمعادلات الدقيقة للغاية الخاصة بالمصالح والقوى العالمية في الخليج تجعل من المتعذر للغاية، إن كان ممكناً على الإطلاق، على الأفراد أن تحفزهم جوانب المنطقة الإنسانية أو الثقافية أو الطبيعية. ومن هنا فإن الدارسين الأكاديميين للخليج لا يسعهم تجاهل الأقلية من رجال النفط، التي قدمت أعمال رحالة حول الخليج. وهذه الكتابات على ماهي عليه، تعد في العديد من المجالات السجلات الوحيدة المتوافرة للظواهر الطبيعية والاجتماعية –الاقتصادية والثقافية المحلية.

(1) The term "Oil man" is used in this paper in its most general sense (i. e. any person whose woek is related directly or indirectly to the oil industry).

(2) I would like to express my gratitude to Jane Dobson, Archivist at BP Archive for her kind and valuable help during my research period in BP Archive. My gratitude extends to Dr. Bamberg and Michael Gasson for granting me the permission to publish this paper, and for Michael Gasson's valuable corrections.

(3) Elizabeth Monroe, *Britain's moment in the Middle East, 1914-1956,* (London, Chatto & Windus, 1963), 97.

(4) J. E. Hartshorn, *Oil companies and governments, An account of the International oil industry in the political environment,* (London, Faber and Faber, 1962), 110.

(5) Elizabeth Monroe, ibid, 98.

(6) Marian Kent, *Oil and Empire, British and Mesopotamian oil, 1900 - 1920,* (London, The Macmilan Press Ltd., 1976), 157.

(7) Quoted by Elizabeth Monroe, ibid, 98.

(8) Elizabeth Monroe, ibid, 95.

(9) J. E. Hartshorn, ibid, 258 -6.

(10) J. E. Hartshorn, ibid, 288.

(11) Elizabeth Monroe, ibid, p95.

(12) J. E. Hartshorn, ibid, 295.

(13) J. E. Hartshorn, ibid, 282 & the Introduction for readers leaflet of BP Archive, University of Warwick.

(14) According to Micheal Gasson, in 1949 revision was proposed. The proposal did not pass by the Majlis.

(15) Anglo-Iranian Oil Company, fromerly A.P.O.C (Anglo-Iranian Oil Company).

(16) British Petroleum.

(17) J. E. Hartshorn, ibid, pp282 - 3.

(18) Elizabeth Monroe, ibid, 101 & Marian Kent ibid, 148. According to Micheal Gasson oil was found by A.P.O.C. in 1923 at Naft Khana, in the transferred territories.

(19) An Anglo-German established consortium which was granted a concession by the Ottoman government. After World War 1, German interests were replaced by French and US participation. In 1928 it was renamed Iraq Petroleum Company. And share holdings were allocated 23.75 each to A.P.O.C., Royal Dutch/Shell, Compagnie Francaise des Petroles and Near East Development Corporation, and 5

percent to Participations and Explorations Corporation (the Gulbenkian Estate). Keith Mclachan, ¢Oil in the Persian Gulf Area¢†in The Persian Gulf States,A General Survey, Alvin J. Cottrell (ed.), The John Hopkins University Press, Baltimore & London, 1980, 201.

(20) Mediterranean pipelines were completed at the end of 1934 and officially opened in january 1935. Regular exports began in 1934, according to *Petroleum Year Book*, (1938), After Micheal Gasson.

(21) Decree Law 80 of December 1961. Keith Mclachan, ibid, 201.

(22) Kuwait Oil Company was equally owned by A.P.O.C. and Gulf Oil Corporation of the USA.

(23) Keith Mclachan, ibid, 202. According to S.H. Longrigg, *Oil in the Middle East*, 136-7, the reason for the delay in oil production was A.P.O.C. marketing policies.

(24) Arabian American Oil Company.

(25) J. E. Hartshorn, ibid, 285.

(26) Keith Mclachan, ibid, 203.

(27) Earlier was Petroleum Concessions Ltd., a subsidiary of Iraq petroleum Company.

(28) Keith Mclachan, ibid, 204.

(29) Bahrain Petroleum Company was jointly owned by Standard Oil of California and Texaco. Keith Mclachan, ibid, 205.

(30) Keith Mclachan, ibid, 205.

(31) Owend by the participants in Iraq Petroleum Company.

(32) Keith Mclachan, ibid, 205.

(33) C. E. Capito, O.B.E., "A caravan journey from Kashguli to Shiraz" in *The Naft, AOPC Magazine*, v. 4, no. 2, March 1928, p. 4.

(34) G. F. Moore, "Reminiscences" (4parts), 1939, from the BP Archive, Ref. no. 105470, part 3, 20.

(35) Sir Arnold T. Wilson, K.C.I.E., C.S.I., D.S.O., "A voyage up the Persian Gulf " in *The NAFT, AOPC Magazine*, vol. 1, no. 2, Oct. 1924, p. 8.

(36) Charles Greenway (later Sir Charles and then Baron Greenway), managing director and later chairman of A.P.O.C. according to Marian Kent, ibid.

(37) An A.P.O.C. internal report, with the title "Anglo-Persian Impressions" signeed by Greenway on the 13th of April 1927, BP Archive Ref. no. 87233.

(38) H.P. Keeley, R.N. (Retired), "Among the Islands of the Persian Gulf" in The *NAFT, AOPC. Magazine*, vol. 5, no. 5, Sept. 1929, p. 28.

(39) C. E. Capito, ibid, 6.

(40)Commander H.P. Keeley, ibid, 25 - 29.

(41) H. F. Macmillan, F.L.S., F.R.H.S., "The Bakhtiari Country, with some hints on collecting and drying specimens" in *The NAFT, AOPC Magazine,* v. 4, no. 2, March 1928, 20-23.

(42) An A.P.O.C. internal report, with the title "Anglo-Persian Impressions" signed by Greenway on the 13th of April 1927, BP Archive Ref. no. 87233.

(43) C. E. Capito, ibid, 10.

(44) "This is how it is spelt in text! But should, of course, read "Sumptuous", Michael Gasson.

(45) G. F. Moore, ibid, 36.

(46) C. E. Capito, ibid, 9.

(47) Later First Baron Cadman of Silverdale, director of Petroleum Executive, and subsequently director and second chairman of A.P.O.C. according to Marian Kent, ibid.

(48) Sir John Cadman, "Persia, Sir John Cadman's visit in Oct.-Nov. 1924" an internal report from BP Archive.

(49) *The NAFT, AOPC Magazine*, v. 4, no. 2, March 1928, 20-31.

(50) Ibid, 11.

(51) "Some Reminiscences of an Oilman in Persia, 1935 - 1940", by A.R. ¢Roy¢†chisholm, 2, BP Archive, Ref. no. 114946.

(52) G. F. Moore, ibid.

(53) The Bold is mine.

(54) Gerald Blake, heather Bleaney, David Imrie and Richard lawless, "Geographers of the Persian Gulf" in *The Persian Gulf States, A General Survey*, Alvin J. Cottrell, ed, (Baltimore & London,The John Hopkins University Press, 1980), 120.

(55) When Thesiger went back to the Gulf, 28 years later, his two old companions met him in their cars. "Well," Thesiger thought, "already your standards have dropped!". Colin Thubron, "A lifelong search for just desert" in *The Independent Sunday Magazine,* (25 Sept. 1994), 27.

(56) Wifred Thesiger, Arabian sands, Collins, London, 1990, 1st ed. 1959, Preface to New Edition, 7

المحور السادس

تقويم كتابات الرحالة والمبعوثين واستخلاص نتائجها

- كتابة الرحالة الغربيين عن المجتمعات الإسلامية والخليج العربي : محاولة في التقويم

ديل ف. إيكلمان
تعريب محمد عفيف

- كتابات الرحالة الحديثة عن الخليج

محمد حسين فهيم

- البحث عن النفط ١٩١٨ - ١٩٦٠ : رؤية شمولية جديدة لحقائق المنطقة

جوليان ووكر

كتابة الرحالة الغربيين

عن المجتمعات الإسلامية والخليج العربي: محاولة في التقويم

ديل ف. إيكلمان

تعريب محمد عفيف

أستاذ العلوم الإنسانية والعلاقات البشرية في جامعة دارموث

الوظائف:

– رئيس جمعية دراسات الشرق الأوسط في أمريكا الشمالية.

– زميل في جامعة كاغنهام.

– عضو هيئة تحرير مجلة عالم الأعراق البشرية الأمريكية.

من نتاجه:

اتجاهات جديدة في تحليل الفكر الصليبي» (١٩٩٣).

«السياسة الإسلامية» (بالاشتراك).

وله دراسات ومقالات وأبحاث ميدانية حول الشرق الأوسط وعمان والمغرب سافر من أجلها في رحلات طويلة منذ عام ١٩٦٨.

«الإسلام في المغرب» (١٩٦٧) [ترجمة إلى العربية].

«الشرق الأوسط – دراسة بشرية» (١٩٨١).

«المعرفة والسلطة في المغرب» (١٩٨٥).

«الرحالة المسلمون: الحج، الهجرة والتطور الديني» (١٩٩٠).

«الحدود الإسلامية مع روسيا:

تعمل الرحلة – التي هي في آن واحد شكل من أشكال الاكتشاف وشكل «ينظم» العالم – على جعل المجتمعات والشعوب البعيدة عن «الموطن» سهلة المنال، وذلك بوضعها في قوالب مألوفة. والملاحظ أنه حتى في الأوقات التي يكتب فيه الرحالون والمستكشفون عن الغريب وغير المألوف، فإنهم وجمهورهم من القراء يتعلمون كيف يرون ذلك بالطرق المألوفة لديهم. والجدير بالإشارة أن الرحلة تحدث حدوداً وفوارق حتى وإن اعتقد الرحالون أنهم يتجاوزون تلك الحدود والفوارق.

هذه الورقة تتابع تاريخ ظهور الخليج العربي بوصفه موضوعاً للكتابة والتحليل وكذا التغيرات التي طرأت على شكل السرد ومحتواه، بتحوله من شكل يؤثر في الخيال الثقافي إلى شكل منظم ومراقب يرتبط بالمصالح الأمبريالية والاقتصادية. وفي الوقت ذاته، وعلى الرغم من أن هذا السرد يتضمن تقارير دبلوماسية واقتصادية «سرية» غير موجهة في الأصل إلى الاستهلاك العام أو إلى الشعوب التي تعيش في المنطقة، فإنه تغير في شكله ومحتواه عندما أحس كتاب هذا السرد باحتمال ذيوع كتابتهم بين جمهور أوسع، وباحتمال تأثيره في قضايا الحدود والسيادة في المنطقة. ولعل الأمثلة الخاصة التي سأسوقها معروفة بشكل محدود، إلا أنها كانت ذات تأثير سياسي وتعلقت بتقارير شركة النفط التي عملت في شمال عمان الداخل. ولكي أضع هذا السرد المختص في سياقه، فقد وضعته أولا في إطار الكتابة التاريخية الأولى عن المجتمعات الإسلامية والشرق أوسطية.

سياسة السرد : العالم الإسلامي

يترك الرحالون ديارهم ويلتقون بـ«الآخرين» ويعودون بوعي حاد بالاختلاف والتشابه، كل ذلك أملا منهم في أن يكونوا السباقين في وصف الشعوب والبلاد «الجديدة» – ولأن الهدف من كتابة الرحلة هو إعطاء معنى وإحساسا بالاكتشاف. ومهما بلغت دقة الملاحظة لدى الرحالة وتعاطفه مع

شعب «الجهة الأخرى» التي يقوم الرحالة الرجل أو الرحالة المرأة - للاختلافات في الجنس (gender) تأثيرات على الكيفية التي توصف بها الشعوب وأوضاعها حتى وإن ظل مسكوتا عنها - فإن هيكل السرد الذي يورده الرحالة، لا بد أن يكون مألوفاً للجمهور المقصود به حتى يكون فعالاً وذا سلطة. ذلك أن كتابة الرحلة، على عكس النصوص الإثنوغرافية والسوسولوجية، تكون بالضرورة موضوعة في إطار ضمني للفهم (إبيستيمي) أكثر مما تكون في إطار واضح وجلي، ولذا فإنه يسلم جدلاً بأن من يكتبون ذاك السرد نادراً ما يكونون واعين تمام الوعي بالطريقة التي يصوغون ويوثقون بها ما يرونه ويحسبونه ذا أهمية.

ونتوافر على مثل محسوس من شمال إفريقيا يبين كيف أن محتوى سرد الرحلة غير منفصل عن شكله وبنيته. ويتعلق الأمر بالوزير المغربي محمد الصفار الذي رافق في بداية حياته العملية السفير أشعاش الذي كلفه السلطان مولاي عبد الرحمن (ح. من ١٨٢٢ إلى ١٨٥٩م) ببعثة سفارية إلى فرنسا في سنة ١٨٤٥ - ١٨٤٦م. ومعلوم أن فرنسا آنذاك كانت قد غزت الجزائر البلد المجاور سنة ١٨٣٠ وأن سلطان المغرب كان واعياً بتأثر شديد بمدى التدخل القوي لفرنسا في المغرب. والجدير بالإشارة، أن الحدود بين شاطئي البحر الأبيض المتوسط الشمالي والجنوبي كانت على مر العصور مرنة وغير واضحة، أي على نقيض الفوارق بين العالمين الإسلامي والمسيحي. غير أن هذه الفوارق زادت حدة في أوائل القرن التاسع عشر. وهكذا طلب السلطان مولاي عبد الرحمن من سفيره (وبالتالي من الصفار كاتب السفارة) تزويده بتقرير عن الكيفية التي يعيش بها الفرنسيون وعمن يكونون. وكانت النتيجة سرداً مثيراً للدهشة والإعجاب عن عادات الباريسيين وتقاليدهم والحياة في فرنسا في أواسط الأربعينات من القرن الماضي - السفر بالقطار، والجرائد والصالونات الراقية حيث يلتقي الرجال والنساء ذوو السمعة الحسنة من أجل تجاذب أطراف الحديث - فكل هذه الموضوعات قد صهرت في سرد الصفار المفعم بالحياة(١). والملاحظ أن محتوى رواية الصفار لم يكن مألوفاً لدى

جمهور قرائه – أي سلطان المغرب – غير أنه اتخذ شكل سرد تقليدي موضوع في جانب منه في صورة رحلة طلب العلم المعهودة، أي على نمط كتابات سلفه البعيد ابن خلدون (١٤٠٦) ومعاصره المصري رفاعة رافع الطهطاوي. ففي رواية الصفار، كما في غيرها، تعد كتابة الرحلة أساساً رحلة للذهن، وعملاً لإعادة تشكيل الخيال الجماعي والفردي.

كانت الخطوط بين الشرق والغرب، قبل القرن الحادي عشر إلى غاية القرن الثالث عشر مرنة وغير محددة بدقة. إلا أنه بعد أن شُرع في فترة جد متأخرة في تجاوز (أو تحدي) مفهوم «الفيودالية»(٢) في أوروبا باعتباره مفارقة تاريخية، بدأت آنذاك الظروف الذهنية والمادية تتيح المجال لوجود ثنائية رمزية بين الغرب و«الشرق» الإسلامي، حيث لم يتم ذلك إلا في نهاية القرن السادس عشر، ولم يتخذ شكله النهائي إلا في القرنين السابع عشر والثامن عشر(٣). وعلى الرغم من أن القدس ومكة ظلتا مثار فضول مستمر منذ القرن العاشر بصفتيهما مركزين روحيين، وبخاصة القدس التي كانت أكثر حضورا في الخيال الروحي الأوروبي، فإن الشعور الجلي بتعيين الحدود الجهوية والإقليمي، لم يظهر إلا مع تعمق المصالح الأمبريالية والاقتصادية،بدءاً من أواسط القرن التاسع عشر.

تؤشر حملة نابليون على مصر (١٧٩٨ – ١٨٠١) واحتلال الجزائر على تعديل في ميزان القوى بين القوى الأوربية والقوى الأخرى الموجودة على الضفاف الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط. وغالباً ما يستعمل المؤرخون حملة نابليون على مصر بمثابة رمز للحظة التاريخية التي أجبر فيها «الشرق» الإسلامي على الاعتراف بتعاظم هيمنة الغرب، واضطرار الشرق إلى السعي في اكتساب التكنولوجيا الغربية وبخاصة العسكرية منها، وبالتالي فإن الحملة مؤشر على الهزة العنيفة الذي عم الشرق الإسلامي نتيجة لقائه بكل مظاهر الحضارة الغربية. لقد سجلت حملة نابليون أيضاً نقطة البداية لعملية معكوسة، وهي إعادة اكتشاف العلماء الأوروبيين للشرق الإسلامي وزيادة اهتمام الغربيين بالبلاد الإسلامية. كان أسطول بونابرت محملاً

بخمسين عالماً انحصرت مهمتهم في القيام، ما أمكن، بجرد كامل لمصر – جيولوجيتها وأنهارها ومعادنها وآثارها وتحفها القديمة وكذا تقاليد سكانها وعاداتهم. وقد جمعت نتيجة أبحاثهم في مؤلف ضخم شديد التدقيق من أربعة وعشرين سفرا يعرف بوصف مصر (١٨٢٠) (٤).

هناك ثلاثة أسباب متضافرة تفسر تعاظم الاهتمام الأوروبي بالشرق الإسلامي في القرن التاسع عشر. وأول هذه الأسباب عموم حب الإطلاع على عادات شعوب البلدان الأخرى وخاصة شعوب الشرق الإسلامي. فمنذ القرن السابع عشر اعتاد الأوربيون على النظر إلى الشرق الإسلامي بمثابة شاشة يسقطون عليها خيالاتهم عن «الآخر» البدائي أو الغريب، وغالباً ما كانت هذه الخيالات تسقط على جغرافية وهمية أيضاً. وثاني هذه الأسباب تعاظم المصالح الأمبريالية. ذلك أن الشرق الأوسط عُدَّ أرضاً خصبة للمشاريع المالية الغربية وثمرة دانية القطوف في مجال السيطرة السياسية المباشرة. والسبب الأخير تزامن الاهتمام بالشرق الإسلامي مع ظهور اتجاهات معرفية مهمة في أوروبا، نخص بالذكر منها تلك النزعة المعروفة بـ«النقد العالي» للإنجيل، التي ظهرت أولا في ألمانيا ثم سادت بعد ذلك في دوائر علمية كثيرة. وكما علق على ذلك برنارد لويس (Bernard Lewis)، فإن أحد تلك الأسباب كان هو التعاطف اليهودي مع الإسلام. فبعد أن فسح العداء ضد اليهودية في أوروبا المجال لظهور العداء ضد السامية في صورته العنصرية، بدأ بعض العلماء اليهود يبحثون عن ساميين آخرين من أجل المواساة. ويضيف برنارد لويس، أنه على الرغم من أن هذه الصلة كانت وهمية في مجملها، إلا أن لها ضلعاً في تزايد الاهتمام بالإسلام في القرن التاسع عشر(٥).

الرحلة والخيال الاجتماعي : الخليج العربي

كان إطار معرفة المجتمعات الأخرى بالنسبة للكتاب الأوربيين، بما في ذلك مجتمعات الخليج العربي، متشكلاً بقوة الخيال الجماعي أيضاً. فقد كان يُنظر في الخيال الأدبي الأوربي المعاصر إلى دول الخليج العربي عموماً على أنها جزء

من العالم الإسلامي في مجموعه، ولم يكن ينظر إليها بوصفها وحدة منفصلة. ومن ثم فإن مرونة الحدود بين «الموطن» و«الجهة الأخرى» كانت تجعل من المستحيل وضع كتابات عن الخليج العربي تنفصل بشكل جذري عن الكتابات الموضوعة عن البحر الأبيض المتوسط والعالم الإسلامي. وأما الصورة الغربية المتميزة عن الخليج العربي فلم تتطور إلا بعد تشكل الصورة العامة عن الامبراطوريات الإسلامية والأراضي التابعة لها. ولذا نجد مثلاً أن الرحلات العربية لـ لودوفيكو ڤارتيما (Lodovico Varthema) (١٥٠٣–١٥٠٨) لم تتضمن الجزيرة العربية والخليج العربي بوصفها وحدة متميزة بقدر ما تضمنتها في مسلك عام يشمل مصر والجزيرة العربية وبلاد فارس وإثيوبيا والهند(٦).

ولعل من السهل استجلاء (الإبيستيمي) المتضمن في كتابة لويس بوركهارت (Lewis Burckhardt) (١٧٨٤ – ١٨١٧) التي تهم أساساً بلاد النوبة وشبه الجزيرة العربية. ولد لويس لأسرة سويسرية ميسورة، وسافر في شبابه إلى إنكلترا بقصد دراسة اللغة العربية حيث قضى سنتين ونصف السنة في جامعة كامبريدج(٧). وفي هذه الفترة أعد نفسه لما كان يتصوره من شظف العيش في الشرق، فكان يسير حافي القدمين في الريف الإنجليزي مكتفياً طيلة فترات طويلة بأكل الخضر. وعندما بلغ سن الخامسة والعشرين، غادر إنكلترا متوجهاً إلى الشرق الأوسط سنة ١٨٠٩، وكان في رحلته تلك يعيش على منحة هزيلة ترسلها إليه من إنكلترا جماعة تعرف بـ«جمعية دعم اكتشاف المناطق الداخلية من إفريقيا». غير أنه لم يلبث أن توفي بعد ثماني سنوات من ذلك التاريخ إثر إصابته بالملاريا.

كان بوركهارت طيلة إقامته في الشرق الأوسط يلبس الزي التركي، على غرار لباس صفوة أهل الحضر آنذاك، كما اختار لنفسه اسم الشيخ إبراهيم ولم يكن الأمر منه محاولة لإخفاء هويته بقدر ما كان إرادة للتلاؤم مع وضعه الجديد. والجدير بالإشارة أن لغة بوركهارت العربية كانت ممتازة – فقد كان يجيد الفصحى والعديد من اللهجات المتداولة آنذاك؛ بل إنه تمكن، في أثناء إقامته بدمشق، من نقل رواية روبنسون كروزو إلى اللغة العربية. ومع أن

الناس كانوا على علم بديانته المسيحية، فإنهم أقروا بمعرفته الدقيقة للشريعة الإسلامية. ومن بين الأعمال التي ألفها بوركهارت، نشير إلى مجموعة الأمثال العربية وتأليف عن رحلاته في بلاد النوبة ومذكرته عن البدو والوهابيين التي تعد من أكثر أعماله طموحاً(٨).

تستحق الافتراضات المتضمنة في القسم الإثنوغرافي من المذكرة المشار إليها نقاشاً مفصلاً لأنها تلخص الكثير من الأعمال التي كتبت في الفترة ذاتها. وصف بوركهارت المجتمع البدوي بطريقة منظمة؛ فهناك أقسام عن نصب الخيام والفصل بين الجنسين واللباس والعادات والحياة اليومية والاقتصاد والشعائر الدينية والتنظيم القبلي والنزاعات والحروب. ويبدو جلياً أن نقطة انطلاقه كانت متأثرة بالمذهب الطبيعي في الوصف. فهو يصنف أجزاء الخيمة و«أجزاء» القبيلة بذات الطريقة التي قد يسلكها عالم النبات في تصنيف أنواع النباتات. وعلى الرغم من أن أيا من الموضوعات السوسيولوجية لم يتم بحثها بصورة جلية، إلا أننا نجد طيلة روايته اهتماماً ضمنياً بـ«استقلالية» البدو وأعراف الشرف السائدة لديهم. ويرجع السبب فيما يعده «نقاء عادات» البدو مقابل «فساد» أهل الحضر، إلى تصويره البدو يعيشون كما لو كان ذلك خارج الزمن، فلا تغير يلحق بهم. أما المدن والمراكز الدينية، فقد وصفت أساساً في شكلها الطبيعي (الفيزيائي)؛ ذلك أن العديد من «العادات القديمة» التي وصفها، تم النظر إليها كقسم من المنظر الطبيعي. وعلى العموم أوضح بوكهارت أن الملاحظ هو المتأمل النشيط في حين أن حياة البدو رتيبة ودون هدف محدد(٩).

الخليج أو الملك البريطاني: حدود التقارير السرية ومدى التعويل عليها:

أصبح الخليج العربي منذ القرن التاسع عشر محمية حكراً على بريطانيا، ومن ثم فإن معظم روايات الرحلة التي نجدها هي من وضع الإداريين/ المكتشفين. ومع وجود استثناءات في هذا الباب، مثل رواية تشارلز داوتي (Charles Doughty) (١٨٤٣ – ١٩٢٦)، فإن ما ينقص منطقتنا هاته، هي تلك الكتابة العلمية الغنية التي تمتزج فيها الرحلة بالتقارير الإدارية،

والتي نجدها خاصة فيما كتب عن الهند «جوهرة التاج البريطاني» أو عن المغرب في بداية القرن العشرين، الذي أصبح بالنسبة لفرنسا في وضع يماثل مكانة الهند بالنسبة لبريطانيا(١٠). ولهذا السبب بالذات، يمكن اعتبار المعجم الجغرافي للخليج الفارسي وعمان ووسط الجزيرة العربية الذي وضعه ج. لوريمر (J.G. Lorimer)، وأعد خصيصاً لاستعمال المسؤولين البريطانيين، نموذجاً ممثلاً للكتابة السرية عن المنطقة(١١). وقد تم في هذه الورقة القيام بمعارضة ضمنية لمقاربة لوريمر بتقارير سرية تمَّ اختيارها من ملفات شركة الامتيازات النفطية، التي هي فرع من شركة نفط العراق. وهي تقارير كتبت بعد مضي نصف قرن على وضع المعجم. وإذا كان هذا المعجم يبرز نوعاً من كتابة التقارير السرية في فترة لم تكن فيها الهيمنة الإمبريالية موضع السؤال، فإن الملفات المشار إليها تظهر التغير الحاصل في محتوى هذه الكتابة وشكلها مع بداية استعادة الممتلكات محلياً.

مخلفات النظرة المتفحصة لـ «لوريمر»

تُعد الكتابات الوصفية التي قام بها لوريمر عملاً مرجعياً منتظماً بالمجال الجغرافي، ولذا فإنه متى دعت الضرورة مسؤولاً إدارياً أو رحالة للعمل في منطقة بعينها، فإنه سيجد في هذه الكتابة نظرة شاملة موجزة عن الناس والأماكن والنظام السياسي. فمثلاً تعطينا المذكرة الوجيزة عن عبري – وهي واحة في منطقة الظاهرة من سلطنة عمان – مؤشرا على الطريقة التي يمكن أن تحلل بها الوثائق المختارة من ملفات شركة الامتيازات النفطية المتعلقة بسنوات ١٩٤٨ – ١٩٥٤، ومن شأنها أيضاً أن تصلح خلفية في هذا التحليل. وعبري مركز غني بزراعته المتنوعة؛ ففي أحوازها يُنتج القمح والدخن والنيلة وقصب السكر والفِصَّة (البرسيم) إضافة إلى التمر والمانجو والليمون وفواكه أخرى. أما الصناعة الرئيسية بها فهي صبغة النيلة، في حين يصدر القمح والفواكه إلى ولايتي الشرقية وصحار(١٢). والملاحظ أن قسم المذكرة المتعلق بالهويات القبلية، قد كتب هو أيضاً بطريقة متناثرة وغير مركزة.

وتجدر الإشارة إلى أنه إذا ما اعتبرنا المذكرات الواردة في المعجم عن المدن والواحات الأخرى إلى جانب الوصف الوارد عن عبري المشار إليه، وقارنا كلّ ذلك بالروايات المعاصرة لها في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، فإننا سنستخلص معطيات شاملة يُعول عليها في معرفة أنماط التسويق الإقليمي وأنماط التجارة في شمال عمان الداخل، كما كانت عليه في الشطر الأول من القرن العشرين.

وهذا بالضبط ما أبانت عنه أعمال مارك سبيس(١٣). أما وصف لوريمر للهويات القبلية والولاءات القبلية، فلم يكن سوى مجرد إضافات لوصف المعالم الجغرافية للمناطق الوارد ذكرها.

حدد سبيس في عمله خطوط البنية التراتبية للأسواق العمانية وعلاقاتها المتداخلة في بداية القرن العشرين، حيث أقام تحديده ذلك على أساس معطيات ديموغرافية ومجالية مستعملاً مبادئ نظرية المكان المركزي(١٤). ودافع سبيس عن رأي يقضي بأن شمال عمان الداخل بقي محصناً نسبياً من العوامل الدولية التي ساهمت بشكل مهم في انهيار اقتصاد مراكز الأسواق في شمال عُمان المنفتحة على الخارج. ذلك أن العلاقات مع الداخل كانت ضعيفة نسبياً مقارنة بالمناطق الساحلية؛ مع الإشارة إلى أن المناطق التي شملها توثيق سبيس كانت تهم أساساً ساحل الباطنة ثم دبي في مستوى أقل. أما الاستثناء الوحيد في هذا الباب فهو تجارة العبيد التي كانت واحة البريمي مركزاً تجارياً لها يزود الأسواق السعودية. والأكثر من ذلك فإن اقتصاد الداخل كان في بداية القرن العشرين «مؤسساً على زراعة معيشية لم تتأثر إلا قليلاً بنظام اقتصاد السوق العالمي»؛ ذلك أن زعماء القبائل المحليين لم يكن لهم «اهتمام خاص بتشجيع الأنشطة الاقتصادية غير الزراعة، كما أن البريطانيين لم يكن لهم اهتمام بالداخل، ما دام هذا الداخل لا يشكل تهديداً لموقعهم في الساحل»(١٥).

ودافع سبيس أيضاً عن أن الأسواق في الداخل لم تبد اهتماماً خاصاً بالاندماج الكلي، وغياب الاندماج هذا ليس مجرد «انعكاس لانعدام المعطيات

أو إخفاق الملاحظين في تسجيل أنماط التجارة، فكثير من النقاشات التي تناولت أسواق الداخل تشير إلى وجود أنماط من الرعاية الزبونية المحلية. إضافة إلى ما تمت ملاحظته من تجارة المسافات البعيدة وحتى من وجود تجارة خارجية. وعلى سبيل المثال فقد كانت الظاهرة تصدُّر القمح والفواكه إلى صحار والشرقية»(١٦). وقد وصف سبيس عمان الداخل بأنها تتميز «بعدد من أنظمة التسويق الصغيرة التي لم تكن مندمجة في شبكة تسويق أوسع» والتي كان «العامل الأساسي في تحديد مواقع الأسواق فيها مرتبطاً بالعامل الاجتماعي وإلى حدٍ ما بعامل الحدود الطبيعية (الإيكولوجية)». وكما هو الحال فيما تم توثيقه ودراسته في جهات أخرى، فإن موقع الأسواق في فواصل الحدود الإيكولوجية والاجتماعية، يمثل سمة من سمات المجتمعات المستقلة أو شبه المستقلة، كما هو حال قبائل الريف في شمال المغرب، الذي ظلت عليه إلى حدود الثلاثينات من هذا القرن.

وإذا ما أخذنا المعجم الجغرافي للوريمر بصورة منعزلة، فإن كاتبه لا يعطينا حساً بالعلاقات القبلية والسياسية؛ فهو يحدد أسماء القبائل وزعماءها غير أنه لا يزودنا بأي فهم لمرونة الأنظمة القبلية والسياسية أو عن وسائل معارضة السلطة، كتلك التي نجدها مثلاً في كتاب مضوي الرشيد «السياسة في الواحات العربية» أو في الدراسات التاريخية والأنثربولوجية عن شمال عمان الداخل التي قام بها ديل ف. إيكلمان(١٧). ومن ثم فإن المعجم الجغرافي يشترك في كثير من مواضعه مع الكتابة الوصفية الساكنة لبوركهارت الموضوعة في بداية القرن التاسع عشر، التي يُفترض فيها ضمنياً أن الشخوص القبلية محدودة القدرات وأنها غير قادرة على التعامل مع العالم الخارجي. ذلك أن الوصف المتضمن في «النظرة المتفحصة» الواردة في معجم لوريمر يماثل وصف مساح الأراضي : فقد صُوِّر عرب الخليج وحكامهم أناساً سلبيين لا يتغيرون، ومن السهل التنبؤ بما يصدر عنهم من سلوك. وهذا يتعارض بشكل كبير مع ما ورد بحقهم في الفترة السابقة – التي كانت فيها الهيمنة الأوروبية أقل إحكاماً – ومع ما سيرد في شأنهم كذلك في الفترة اللاحقة، وبخاصة في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية التي تعاظمت فيها معارضة الهيمنة الأوربية.

توحي التقارير السياسية لشركة الامتيازات النفطية المحدودة – وهي الشركة التي منحت حق التنقيب، في أواخر عقد الأربعينات وبداية عقد الخمسينات، في منطقة الظاهرة في عمان والمنطقة المحاذية لواحة البريمي – بوجود تحولات سريعة في أسلوب السرد ومحتواه(١٨)، وذلك راجع إلى عدم استقرار الأوضاع الاقتصادية والسياسية، في الوقت الذي تنامى فيه شعور حكام المنطقة بالانعكاسات الناجمة عن التقارير التجارية والسياسية السرية، وعلى الرغم من أن هذا الصنف من التقارير كان محدود التداول، فإن الحكام العرب أضحوا واعين بقوته ونفوذه، وسعوا إلى إعطائه الشكل الذي يخدم مصالحهم. وكذلك كانت الحكومات قلقة من انعكاساته، عندما بدأت مصالح الشركة تتعارض مع استمرار الهيمنة البريطانية في المنطقة. وبما أن هذا الصنف من التقارير غير مألوف، فإن بؤرة التركيز في هذه الورقة سينحصر في التحليل المكثف لوثائق وحوادث مختارة، مع الإكثار من الاستشهاد، وذلك قصد إعطاء فكرة عن أسلوب هذه التقارير وجودتها.

بعثات بيرد: ١٩٤٨ - ١٩٤٩

إلى حدود سنة ١٩٤٨، لم تكن شركة الامتيازات النفطية ووزارة الخارجية البريطانية تملكان ما يكفي من المعلومات لمعرفة منطقتي البريمي والظاهرة أو معرفة العلاقات بين سلطان مسقط وعمان وإمامة الداخل. ولتغطية هذا النقص ترأس بيرد (R.E.R. Bird) في فصلي الشتاء من سنتي ١٩٤٨ و١٩٤٩، البعثات التي أرسلتها شركة الامتيازات النفطية لضمان وصول فرق المسح الجيولوجي التابعة لها إلى المنطقة، وكانت التعليمات تفيد التفاوض المباشر إن اقتضى الأمر، مع زعماء القبائل المحليين، عوضاً عن التفاوض مع سلطان عمان ومسقط.

لم يكن اهتمام بيرد بالوصول إلى مخزونات النفط مساوقاً بأي نظر إلى ما قد يكون لنشاطه من انعكاسات على ما تدعيه السلطنة من سيادة على المنطقة. لقد كان بيرد يميز بشكل حاد بين السلطة القائمة في أرض الواقع

وادعاء السلطان في السيادة، في حين أن الاهتمامات العليا للسلطان سعيد كانت تماثل اهتمامات السعوديين ووزارة الخارجية البريطانية(١٩). وعلى أي، فقد كانت اهتمامات بيرد في حدود برغماتية ضيقة؛ فخلال بعثته التي قام بها في شهر فبراير من سنة ١٩٤٨ إلى البريمي والظاهرة، تفاوض مع عدد من زعماء القبائل بشأن اتفاقيات التنقيب. وتجدر الإشارة إلى أن المراسلات التي تلقاها من المقيم السياسي للخليج الفارسي والبحرين جعلته يعتقد أن السلطان أعطى موافقته على التفاوض المباشر. غير أن السلطان تميز غيظاً عندما علم بنشاطات بيرد، ونفى أن يكون قد أعطى موافقته على التفاوض المباشر أو صرف مبالغ مالية لزعماء القبائل. وقد ورد في المراسلات الداخلية للشركة حول ادعاء السلطان السيادة على المنطقة هذه التعليق التالي الذي كتبه بيرد:

«لا أفهم كيف تكون مصالح السلطان متأثرة عكسياً [بالتفاوض المباشر مع القبائل] ما دام ليس هناك أي أثر لنفوذه عملياً في الظاهرة، فهو لا يستطيع شخصياً تأمين دخولنا إلى هناك، كما أن أخذ رسالة من الشيوخ ليس بالقضية التي يمكن أن تصل أهميتها إلى الاعتراف باستقلالهم [رجال القبائل] عن السلطان (الأمر الذي تم فعلا). إننا في الواقع نؤدي حقوق دخولنا لذلك البلد وإننا بفعلنا ذاك نجعله في حل من النفقات الباهظة ومن المسؤولية [التي قد تؤول إليه] إن هو أصر على سلطته المزعومة والغريبة هناك»(٢٠).

وفي رسالة لاحقة يبدو بيرد أكثر قسوة من السابق حين يقول : «في اعتقادي، آن الأوان لكي تواجه حكومة جلالته الوقائع، وأنه إن تضمن دعم سيادة السلطان على عمان رفضاً يمنع الحكام الفعليين في الداخل من التفاوض مع الشركة في شأن الامتيازات، فإنه لن تكون هناك أية إمكانية من أي نوع كانت لتنمية الموارد الهائلة المحتمل وجودها في عُمان».

وواضح أن بيرد كان واثقاً من أن كتابته (أو سرده) هذا لن يتم تداوله خارج حدود شركة الامتيازات النفطية. كما كان أيضاً آخر ممثل للشركة يكتب وهو متمتع بضمانة تكفل بقاء رسائله محفوظة ضمن الوثائق الداخلية للشركة.

وفي مـايو من سنـة ١٩٤٨، زار بيرد مسقط بغاية الاعتذار للسلطان، وفي زيـارته تلك عُرضت عليه رسائل من زعماء قبائل الظاهرة يقسم فيها أصحابها على «الولاء والطاعة» لسلطانهم. وبعد هذه الزيارة، كتب بيرد قائلاً: يجب أن تعطى للسلطان «فرصة أخرى ليظهر قدرته على إدخالنا» إلى المنطقة(٢١).

وفي مراسلة سابقة في شهر الزيارة نفسه، أبدى بيرد «استغرابه التام» من أن الحكومة البريطانية تدرس إمكانية تقسيم عُمان انطلاقاً من خطوط العرض «شمالاً وشرقاً»، وذلك على أساس «معلومات ضعيفة» وخرائط أقل ما يقال فيها: إنها «أكثر رداءة مما هي عديمة النفع وغير دقيقة في كليتها»(٢٢) وبالفعل اعترفت الإقامة [البريطانية] في البحرين بأن معرفتها بمنطقة البريمي سواء القسم الواقع منها في عمان الموجود تحت الانتداب أو القسم المحاذي له أي المنطقة التي توجد ضمن «حدود سلطنة عُمان ومسقط»، كانت «غير تامة بشكل كبير وقديمة غير محينة»(٢٣).

وفي أواخر سنة ١٩٤٨، بعث السلطان وزيره في الشؤون الداخلية سيد أحمد بن إبراهيم إلى الظاهرة للتفاوض بشأن عقد اتفاقات مع آل بوشامس ونعيم وبني كعب. وفي أواسط شهر فبراير من السنة التالية ١٩٤٩، قامت بعثة مكونة من بيرد وخبراء في الجيولوجيا تابعين للشركة وممثلين عن حكومة مسقط، بالتحرك نحو البريمي عبر وادي جزي، وذلك بعد أن كان انطلاقها عرضة لعدد من التأجيلات. وعندما واجهت البعثة معارضة تمنع تقدمها، التحق سيد أحمد بن إبراهيم بالبعثة. وفي واحدة من المناسبات التي أصيبت فيها البعثة بنكبة، رفض أربعة عشر شيخاً يمثلون ثماني قبائل من قبائل المنطقة، رفضاً جماعياً قبول ممثلي السلطان مدعين أن رسائل الولاء التي يتوافر عليها السلطان تم أخذها منهم بالحيلة، وأنهم مستقلون [عن السلطان]. وهكذا أوَّل بيرد نتائج لقائه مع السلطان بشأن ادعاء السلطان السيادة على الظاهرة تأويلاً متشائماً : «وبإيجاز، فإن حكومة مسقط أخفقت إخفاقاً تاماً في أن تثبت ادعاءها في الظاهرة»(٢٤).

وعلى إثر ذلك وافق السلطان على السماح لممثلي الشركة بالتوقيع على اتفاقيات منفردة مع القبائل، متخذاً احتياطاً بهذا الشأن ينص على الاعتراف

بسيادة السلطان في كل اتفاق يعقد. وعلى الرغم من الإغراءات المالية التي عرضتها شركة النفط على زعماء قبائل البريمي مقابل توقيعهم على هذا الصنف من الاتفاقات، إلا أنهم رفضوا ذلك. وفي هذا الصدد يعلق بيرد قائلاً: «وفيما هم عليه من مزاج، فإن المال لن يقنعهم بقبول سيادة السلطان»(٢٥). وكان من آثار هذا المأزق السياسي وتحول اهتمام خبراء الجيولوجيا التابعين للشركة عن التنقيب في الظاهرة إلى التنقيب في جبل الفهود – الواقع في أراضي قبيلة ديرا من الدروع – أن بادر ممثلو شركة الامتيازات النفطية إلى التخلي عن الجهود التي كانوا يبذلونها في سبيل الحصول على اتفاقات مع قبائل شمال الظاهرة.

سرد هندرسن : العام والخاص

كان من آثار احتلال السعوديين سنة ١٩٥٢ واحة الحماسة – وهي واحة من واحات البريمي – أن عملت شركة الامتيازات النفطية المحدودة على تكثيف جهودها في سبيل إقناع السلطان برفع دعوى ضد ادعاءات السعوديين الإقليمية وبسط سلطته الإدارية على منطقة الظاهرة. وكان المسؤول الأول عن هذه الأنشطة هو إدوارد هندرسون (Edward F. Henderson) ممثل شركة الامتيازات النفطية المحدودة في البحرين. وتجدر الإشارة إلى أن رواية هندرسون المنشورة عن هذه الأنشطة غالباً ما كان يختلف محتواها عما ورد في التقارير السرية التي كتبها هو ذاته في الفترة نفسها، والتي كانت موجهة للاستعمال الداخلي للشركة. كما كانت مختلفة أيضاً عن الروايات الأخرى المعاصرة لها(٢٦). ولهذا السبب تُعدّ روايات هندرسون [المختلفة] ذات أهمية خاصة بهذا الشأن، وذلك لما تدل عليه من القضايا التي كان هندرسون يفضل أن تعلن للعموم. ولعل أهم قضية في هذا الباب، هي تلك التي تبرز مدى ما «اقترحه» هندرسون على حاكم عمان من الأعمال الضرورية لدعم دعواه في السيادة على منطقة الظاهرة المتنازع عليها. وعلى أي، فإن وثائق هندرسون المحتفظ بها ضمن الوثائق الداخلية للشركة تدل على أنه كان واعياً باحتمال اطلاع آخرين عليها من غير العاملين في الشركة، بما في ذلك الحكومة

البريطانية والوسطاء المعينون للتحكيم في النزاع الدولي حول وضع واحة البريمي. وابتداء من سنة ١٩٥٣ إلى غاية ١٩٥٥، كان من بين النشاطات التي أجراها هندرسون، قيامه بدور رئيس في تعبئة الفرقة العسكرية المعروفة اختصاراً بـMOFF (القوات الأرضية لعمان ومسقط). وعلى الرغم من أن هذه الفرقة كانت وحدة تابعة للسلطنة، إلا أنها كانت ممولة بشكل كبير من قبل الشركة. وقد تضمن نشاط هندرسون في هذا المجال، تحمل مسؤولية قيادة بعثة لشركة الامتيازات النفطية التي انطلقت من دقم إلى الفهود، وتم خلالها الاستيلاء على عبري في أكتوبر ١٩٥٤ – خلافاً لتعاليم السلطان – وكذا طرد عامل عبري المعين الذي عينه الإمام. وفي هذه الفترة أيضاً قام هندرسن بجمع الوثائق وإعداد الحجج التي تدعم دعوى السلطان في السيادة على شمال عمان الداخل.

تستحق المذكرة التي كتبها هندرسون في زيارته المطولة لمسقط سنة١٩٥٣، الوقوف عندها والاستشهاد بها بشكل مكثف، لأنها تدل بوضوح على وعي صاحبها بسياسة مخاطبيه. ونشير هنا، على سبيل المقارنة، إلى أن سرد بيرد كان عبارة عن تقرير من المكان ذاته، الذي ربما عكس أسلوب صاحبه المستقى من وظائفه السابقة؛ فهو موظف سابق في الخدمة المدنيّة بالهند وضابط ميدان يجيد العربية، غير أنه لم يكن متعوداً على العمل في مجالات تصطدم فيها الشؤون القبلية بالسياسة الدولية. وعلى النقيض من ذلك، يُوحي سرد هندرسون بأن صاحبه مدرك لحاجات الشركة ومصالح الحكومة البريطانية وعلى استعداد للتوليف بينهما. ومن ثم، فإن وصف هندرسون لدوره الشخصي قد صيغ بأسلوب يفوق كثيراً أسلوب سابقه بيرد إحكاما وتلويناً. وكلما زاد انغماس هندرسون في إعداد الملف العماني، زادت معه حساسيته بدوره الشخصي واعتباره للمراحل التي تقطعها أوراق الملف. ويصف هندرسون دوره في دفاعه عن مصالح السلطان في مواجهة المطالب السعودية الإقليمية على النحو التالي:

«العمل الراهن محاولة لإقناع حكومة جلالتها [الحكومة البريطانية] بأن عُمان في حقيقتها ليست مستقلة بأي شكل من الأشكال عن مسقط. وأننا

نستعمل هنا وثائق عُمانية غير متوافرة لدى حكومة جلالتها، غير أنها وصلت إلينا عن طريق الاتصال الشخصي بين الموقع أسفله وحكومة عُمان وأن الكثير مما هو في هذه الحجة يحمل أهمية كبرى وأنها [أي الحجة] فريدة في نوعها ولم تطلع عليها حكومة جلالتها بعد.

«وسيتذكر الناس مستقبلاً، أنه بفضل نتائج جهود الشركة وحدها تم إقناع حكومة جلالة الملكة بأن لأبوظبي الحق في قضية [لم يكن يفكر فيها] إطلاقاً، وأن خط [حدود] ادعاء أبوظبي – بما أن المنطقة متنازع عليها – وُجد فقط لأن الشركة أقنعت حكومة جلالتها بأن أبوظبي لها قضية يمكن الدفاع عنها. ولو لم تقم الشركة بهذا العمل، فمن المحتمل جداً أن تكون المنطقة موضوع النزاع الراهن أرضاً سعودية اليوم.

«وأن الوضع هو ذاته على نحو ما بالنسبة لعُمان – مع اختلاف وحيد هو أن القضية هنا غير واضحة تمام الوضوح – أي في الوقت الذي بدأت حكومة جلالتها تعدّ عمان في حقيقتها مستقلة، فإنها تتفق في ذلك مع السعوديين.

«وحجتنا التي لا يمكن دحضها تثبت بطلان ذلك بشكل كبير. ومن البديهي أن أقساماً كبيرة من الأراضي هي الآن موضوع رهان ومخاطرة.

وأنه من مصلحتنا في هذا الشأن أن نسجل أنه في الوقت الذي علينا أن نقنع حكومة جلالتها بأن أبحاثنا دقيقة في معطياتها، أي قبل الإقدام على استعمال النتائج، فإن خصمنا رينتز (Rentz) (وهو مستعرب يعمل في شركة أرامكو) بإمكانه أن يضع ما يشاء على الورق وسيستغل ذلك السعوديون بمجرد حصولهم عليه. وحكومة جلالتها لن تدافع عن قضية إلا إذا اقتنعت بها، في حين أن السعوديين يمكن أن يقوموا بذلك»(٢٧).

يبدو أن هدف هندرسون المتضمن قد كان صياغة وثيقة تقنع حكومة جلالتها بتغيير سياستها القائمة آنذاك. وإذا طرحنا جانباً ثقة هندرسون الزائدة بنفسه – حجتنا التي لا يمكن إبطالها – فإن الهدف من مذكرته، التي هي وثيقة تامة ومكتفية بذاتها، هو إعداد الحجة وتقديمها للأطراف غير العارفة بالادعاءات المتنافسة للسيادة على منطقة البريمي والظاهرة. وقد

اقترح هندرسون في مذكرة أخرى متعلقة بالموضوع، أن السلطان متردد في الموافقة على التحكيم بشأن النزاع حول البريمي، لأنه ربما كان غيرقادر على إظهار سلطته الفعلية على الظاهرة. ويضيف هندرسون أن السلطان في الوقت الراهن «مدرك للخطر الناجم عن كونه لا يستطيع إيصال المحكمين لعمان في حقيقته [على سبيل المثال شمال عمان الداخل] إن هم طلبوا الذهاب إلى هناك، في حين أن السعوديين بإمكانهم ذلك، بتفاوضهم مع زعماء [القبائل] المستقلين. وهذه هي أضعف نقاط السلطان إطلاقًا، وأنها الدافع الرئيسي في عدم ثقته بفكرة التحكيم»(٢٨). وما كان متنبأ به – على الأقل في استرجاعنا للأحداث – هو تحسب هندرسون في آخر لحظة من إعادة الاستيلاء على عبري – أهم واحة في الظاهرة – الذي قام به، خلافًا لأوامر السلطان، بعد عدة أشهر.

وقد أظهر السلطان حذرًا مماثلاً عند سماحه للشركة بالوصول إلى الفهود، فربما كان انشغاله في هذه المرة متعلقًا باحتمال التفسير الدولي لمبادرة من هذا القبيل على أنها خرق لاتفاقية ستاندشل (Standshill) المنعقدة سنة ١٩٥٢. وهكذا فإن البعثة التي كان من المقرر انطلاقها من دقم في مارس ١٩٥٤، أوقفت في آخر لحظة بسبب ما سماه هندرسون بتعليمات السلطان المشلة(٢٩).

غير أن موت الحاكم الفعلي لشمال عُمان الداخل محمد بن عبدالله الخليلي – وقد كان شيخًا مسنًا – في ٣ مارس ١٩٥٤، وتعويضه بسرعة بالغالب بن علي الهناء الذي سبق له أن عمل في القضاء وكان مستشارًا لسلفه، جعل السلطان يغير رأيه ويسمح للبعثة ببدء تحركها. وقد كانت شركة الامتيازات النفطية المحدودة منشغلة بأمرين؛ أولهما: ما كان عازمًا عليه طالب بن علي الهناء – أخو الإمام الجديد – من اقتطاع أرض لحسابه الخاص في الداخل وإعادة عبري إلى السلطة الفعلية للإمامة، بعد أن ظلت ثمانية عشر شهرًا خارج السلطة الفعلية لكل من الإمامة والسلطنة. وثانيهما: التهديد الذي تمثله إمكانية سيطرة قوات الإمامة على عبري والواحات القريبة منها، حيث كان هذا الأمر ذا أهمية بالغة لدى الشركة، لأن منع الدروع لها من الوصول إلى عبري والواحات المجاورة، ربما أجبرها على الاعتراف بسلطة الإمامة

وفسخ اتفاقها مع السلطان المتعلق بتسهيل وصولها (شركة الامتيازات النفطية) إلى الأراضي التي يسيطر عليها الدروع(٣٠). والإحساس بحال الاستعجال الذي كانت عليه الأمور، نجده مؤكدًا أيضًا في مذكرات العمانيين الذين شاركوا في الأحداث(٣١).

وفي أوائل شهر أغسطس من سنة ١٩٥٤، وصل عدد من شيوخ الدروع إلى مسقط(٣٢). وبمجرد ما علم هندرسون بخبرهم سافر جوًا من البحرين إلى مسقط. وبعد أن ألح على المدير الداخلي – وزير الداخلية – سيد أحمد بن إبراهيم في السعي لدى السلطان – الذي كان في صلالة – قصد الحصول على التعليمات الضرورية، قام بمساعدة سيد أحمد في كتابة مسودة الرسالة التي كان من المنتظر أن يوقعها الشيوخ، وهي رسالة يعرضون فيها «ولاءهم التام بوصفهم رعايا مخلصين للسلطان» ويعدون فيها بمساعدة ممثلي الشركة على دخول منطقتهم. وفي هذا الصدد يقول هندرسون بالحرف الواحد: «بعد نقاش مع إي. إف. هندرسون، صاغ سيد أحمد مسودة رسالة. وعلى أي، ففي الوقت الذي جاء فيه الشيوخ للتوقيع، كانت (الرسالة) قد تحورت كثيرًا وأصبحت إطنابًا وحشوًا»(٣٣).

تم التوقيع على الرسالة في ٨ أغسطس من سنة ١٩٥٤، بعد أن وافق سيد أحمد على أن تقوم السلطنة بحماية الشيوخ من الإمام الغالب، كما أعطى سيد أحمد ضمانات شفوية لحمايتهم أيضًا من أهل الدروع الذين يُخشى ألا يوافقوا على ما اتفق عليه. وقد كان هندرسون شديد الحذر في تأكيده على أن: «ما ذكر أعلاه كان أول اجتماع لـ إي. إف. هندرسون مع الشيوخ، ومن ثم لا يمكن أن يقال بعد ذلك إن الشركة تدخلت بأي طريقة كان في كتابة الوثيقة، فمحتواها في كليته هو مسؤولية سيد أحمد...». وكيفما كان الأمر، فقد عمل هندرسون على أن تقوم الشركة بصرف مبلغ مالي بطريقة غير رسمية للشيوخ في المكان ذاته في اجتماع أغسطس المشار إليه وقد نصت المذكرة على أن سيد أحمد وافق على صرف مبلغ مماثل باسم السلطان في وقت لاحق. ولا يفهم من الحسابات المالية لهندرسون، ما إذا كان المبلغ قد صرف أم لا، ذلك أن تلك المحاسبة تشير فقط إلى أن الشركة قدمت، في مناسبات متعددة، مبالغ

مالية لزعماء القبائل وممثلي الحكومة في الظاهرة دون إشارة إلى استعادة تلك المبالغ، ومع ذلك توضح المذكرة بجلاء، أن اتفاقًا عقد مع شيوخ الدروع حول سيادة ذات طبيعة متفردة، يؤكد فيه الشيوخ «ولاءهم التام بوصفهم رعايا مخلصين للسلطان» مقابل الحماية من معارضة الغالب بن علي [الإمام الجديد]، إن دعت الضرورة لذلك(٣٤). وبديهي أن هذا اللقاء جاء بمبادرة من هندرسون، على الرغم من أن هذا الأخير ظل منكرًا لتدخله بهذا الشأن ومصرًا على أنه لم يسبق له أن قابل الشيوخ، وكيفما كان الأمر فإن جميع الأعمال أقيمت باسم السلطان، في حين كان هندرسون حذرًا في نعته لصرف الشركة مبالغ مالية للشيوخ بأنه عمل حكومي «غير رسمي».

وفي لقائين لاحقين جمعا بين هندرسون والسلطان في صلالة أوائل أكتوبر، حافظ السلطان على تردده بشأن السماح لموظفي الشركة أو القوات العسكرية الأرضية لمسقط وعمان MOFF بالدخول إلى المناطق الآهلة بالسكان، غير أنه أبدى موافقته على القيام برحلات استكشافية سريعة إلى منطقة الفهود. والذي جعل السلطان يغير رأيه، هو الأخبار التي وصلت إليه عن طريق البريطانيين، التي تفيد بأن قوات الإمامة العسكرية استولت على سلايف وعبري. ونشير في هذا الصدد إلى أنه سبق للعامل والقاضي الذي عينه الإمام سفيان بن محمد الرشيدي، أن هدد بتخريب حدائق الدروع في عبري وتنعام وضنك، إن لم يعترف زعماء هذه التجمعات السكنية بسلطة الإمام على كل منطقة الظاهرة. وبعد مضي وقت وجيز، التقى هندرسون بشيوخ الدروع في الشارقة، حيث طلبوا إعطاءهم ضمانات منه شخصيًا لمساعدتهم على استعادة عبري وتنعام من الإمام، وإلا فإنهم، حسب قولهم، سيعودون مباشرة إلى الظاهرة لعقد الصلح مع الإمام. ويدعي هندرسون أنه على الرغم من عدم إعطائه لهم أي «تعهد نهائي»، إلا أن الشيوخ وافقوا لتوهم على مرافقته بالجو إلى دقم(٣٦).

وهكذا تم الإعداد لبعثة مسيرة نحو الفهود في ١٩ أكتوبر. وبينما كانت البعثة في طريقها، تجاوز هندرسون التعليمات الصادرة إليه ودخل قرية تنعام من الدروع في ٢٦ أكتوبر. وفي اليوم التالي من الشهر نفسه عمل هندرسون رفقة الكولونيل بيرسي كوريات (Percy Coriat)، قائد القوات

الأرضية لمسقط وعُمان MOFF على تحصين قلعة عبري. كما تفاوض هندرسون بشأن استسلام عامل الإمام وحاميته العسكرية ونقل سلاحهم إلى منطقة تبعد حوالي أربعة أميال خارج عبري حيث تم ترحيلهم، وحينئذ صرف هندرسون رواتب «جند خاص مكون من أكثر من ٥٠٠ فرد من البدو» التحقوا بالبعثة. كما قام هندرسون بمساعدة ممثل السلطان سلطان بن سيف الحسني بالعمل على ضمان استسلام القرى المجاورة. وفي ٣١ أكتوبر «استسلم الشيخ رشيد بن سعيد المتزعم لحي بلوش – بالقرب من واحة عراقي – وسلم العلم السعودي الذي ظل يرفرف في المنطقة طيلة السنوات الثلاث الخوالي، وأعلن ولاءه لجلالة السلطان (ربما في الأمر استهزاء) أكثر من قبل، ومن البديهي أن اعترافه يستحق التسجيل»(٣٧).

وأخيرًا، وفي ١٢ نوفمبر ١٩٥٤، وصل الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان إلى عبري قادمًا إليها من البريمي، وذلك بطلب من هندرسون. وبعد وصوله ساعد في إقناع الدروع بالسماح للشركة في إقامة مخيم لها في الفهود(٣٨) وفي الفترة ذاتها، قدم إلى عبري عدد من زعماء القبائل من ضنك بقصد إعلان ولائهم للسلطان. وتجدر الإشارة إلى أن «مطر بن سليم العزيزي وشيخ دوت (قرب ضنك) كانا قد جاءا إلى عبري، وأن بني كتاب كانوا قد أكدوا ولاءهم لسموه. ولم تبق سوى قلعة صقر (وهي قلعة رئيسية)، التي كان يسيّرها ثلاثة وكلاء أو أربعة دون وال عليها، وحي يحياني وحي وحشي. وقد كان مطر وزايد واثقين معًا من أن الأمر بسيط»(٣٩) وإلى هذا الحد من تطور الأمور استعاد السلطان سلطته الإدارية المباشرة على المدن الرئيسية في منطقة الظاهرة.

الحكم المباشر للسلطان في الظاهرة: السنوات الأولى

بعد مضي فترة وجيزة على طرد قوات الإمام من عبري في أكتوبر ١٩٥٤، عين السلطان واليًا على عبري وعددًا من الإداريين في مجموع منطقة الظاهرة(٤٠). وفي تحليل لهندرسون للوضع في الظاهرة الذي كتبه وهو في المكان ذاته في ١ ديسمبر ١٩٥٤، استعجل مخاطبيه على وجوب «وضع

الظاهرة، ما أمكن الأمر، تحت سلطة حكومة مسقط... قبل أن يقوم السعوديون بأي عمل مضاد». كما أشار أيضًا إلى أنه «في حوزة حكومة مسقط رسائل تظهر ولاء معظم الظاهرة، إن لم يكن جميع الظاهرة. ومن البديهي أنها [أي الرسائل] تجاوزت من العمر ثلاث سنوات، إلا أنها تتعلق بفترة طويلة امتدت دون انقطاع قبل مجيء الأتراك»(٤١).

كان القصد من مذكرة هندرسون رسم الخطوط العريضة لنصيحة تقدمها الشركة للسلطان في وقت لاحق. لقد كان هندرسون منشغلاً بكيفية خاصة بالوضع السياسي في الظاهرة، ففي رأيه أن من شأن وجود وضع سياسي مائع وغير مستقر بها فتح الباب على مصراعيه في وجه السعوديين ومناصري الإمامة والسلطان لاستغلال ذلك الوضع. وكان من بين الإجراءات المستعجلة التي أوصى هندرسون القيام بها باسم السلطان الاستيلاء على ضنك، وكانت واحة مهمة موالية للسعوديين، وكذا تسيير دوريات من الخفر في كل المناطق التي يعلن زعماء قبائلها الولاء للسلطان (وذلك لمنع عمليات الانتقام ضدهم)، ومنها كذلك اتخاذ الإجراءات التي «تضمن ولاء» البلوش والشيخ سيف بن عامر من بني علي. كما أوصى أيضًا ببناء طريق للسيارات يمر عبر وادي الحواسنة وساحل الباطنة.

وتبعًا لهذا، كانت هناك حاجة تدعو إلى توسع عام عبر الظاهرة إلى منطقة البريمي، بدءًا من بدو بني آل شامس، الموجودة مراكزهم الرئيسية – سنينة وقابل – في مواقع مكشوفة من أراضي الأحراش المفتوحة، التي كانت بذلك تحت رحمة القوات المتحركة. وإن لم تقم حكومة مسقط بتعزيز موقعها فإنها ستبدأ مرة أخرى في فقدان مناصريها، وأن الإمام سيتضامن على كلمة واحدة مع السعوديين. فالرأي في عُمان يتغير بسرعة كبيرة [في الأصل ينهار انهيار الصخر]، و[الواقع] أن السعوديين يسيطرون فعلاً على الكثير من الظاهرة ولربما عززوا [نفوذ] أصدقائهم في ضنك(٤٢).

وكان هندرسون منشغلا أيضًا بالانعكاسات التي قد تنجم على المدى البعيد، عن التماهي الوثيق للشركة مع القوات الأرضية لمسقط وعُمان MOFF،

التي كان هندرسون يعمل معها في الظاهرة بشكل وثيق منذ النصف الثاني من شهر أكتوبر. وفي هذا الشأن ألح هندرسون على وجوب اعتبار «الوضع الراهن الذي نقوم فيه بكل شيء لمصلحة القوات الأرضية لمسقط وعُمان ثذدح، بشكل يهم التفاصيل، كما تحمل توصيته، التي نصح فيها هذه الفرقة العسكرية ثذدح بأن تتخذ لها ضابط مخابرات أو ضابطًا في الأمور السياسية، اعترافًا منه بدور الشركة – سواء في دورها السابق أم الراهن – في «النشاط الحيوي» الذي يزودنا «يومًا بعد يوم بمعلومات مفيدة عن أحداث [داخل] عُمان... ويبدو [مستحسنًا] في كل الفترات الحرجة... أن يبعث بوكلاء إلى بهلا وتنوف ونزوى ليتعرفوا ردود فعل المعارضة. وقد نجح ذلك الأمر نجاحاً كبيراً عندما كان الإمام يستجمع جيشه المتشتت آنذاك في أوائل شهر نوفمبر(٤٣).

وبعد استيلاء السلطان على عبري، تجدر الإشارة إلى أن محمد بن عبدالله اليعقوبي – الشيخ المتزعم لأهم قبيلة في عبري – وهو الذي حكم الواحة حين كانت مستقلة عن الإمامة (من مايو ١٩٥٣ إلى أكتوبر ١٩٥٤)، كان حاكماً فعلياً على هذه المنطقة مدة قصيرة. أما أول من عيَّنه السلطان بصورة رسمية فهو سلطان بن سيف الحسني، الذي كان مكلفًا بالعلاقات بين السلطان وهندرسون والقوات الأرضية لمسقط وعُمان ثذدح، إذ عينه السلطان واليًا مؤقتًا خلال مدة قصيرة أيضًا، وفي ١٣ مايو عيَّن السلطان سعيد كذلك سيد بن سعود بن حريب واليًا قارًا على المنطقة، وهو المنصب الذي ظل يشغله إلى آخر سنة ١٩٧٠. وقد أوردت [جريدة] «عُمان دايري ىَ فِد» في تقرير لها، أن سيد سعود «خلف انطباعًا جيدًا جدًا لدى الجميع ودون استثناء، بلطفه وكياسته وعزمه وحسه العام» في التوسط في النزاعات القبلية التي كان يفضها أحيانًا بتعاون مع الشيخ زايد الكثير التردد على عبري في هذه الفترة(٤٤).

الخلاصـة :

في استعادتنا للأحداث التي عرفتها الظاهرة من سنة ١٩٤٨ إلى سنة ١٩٥٤، يتضح لنا أنها تشكل فترة في العهد «البطولي» للشركات العالمية في تنقيبها عن النفط، لقد وقعت هذه الأحداث في فترة النزاعات الدولية الإقليمية التي أجبرت بريطانيا – من بين عواقب أخرى ناجمة عنها – على تحديد علاقتها مع السلطنات والمشيخات التي كانت تحت سلطتها الفعلية. ويعدّ قسم من التقارير الواردة في هذا الشأن استمرارًا لما كتبه لوريمر في معجمه الجغرافي، وهي بكل تأكيد تنطوي على مفارقة تاريخية بوضعها في أواسط القرن العشرين.

وكيفما كان الأمر، فهناك وجه آخر لتقارير شركة النفط أكثر مواكبة للعصر، ونشير هنا بكيفية خاصة إلى أن السنوات الأولى من عمر شركة الامتيازات النفطية المحدودة – التي أصبحت فيما بعد تحمل اسم zPetroleum Development{ (عُمان) – عرفت اهتمامًا قويًا بالجانب الإنساني وخاصة عندما أقامت الشركة قاعدة لها في عبري في الفترة الموالية للأحداث الوارد ذكرها في هذه الورقة. فقد كانت ترد في التقارير نصف الأسبوعية، أخبار عن المواليد والأعراس لدى الأسر المرموقة والنزاعات على الأرض والظروف الاقتصادية والأعمال الخيرية وصور من الشهامة والبطولة التي كانت غالبًا ما تنجز في ظروف قاسية. وكثير من هذه التقارير يماثل في جودته أسلوب بوسويل (Boswell) في الكتابة عن الأقاليم، التي أصبح بالإمكان تتميمها عن هذه المنطقة بالروايات الشفوية المتوافرة اليوم. والملاحظ أن الناس في منطقة مثل منطقة الظاهرة التي ظلت محط نزاع إلى عقد الثمانينات، يفضلون عدم الخوض في رواية أحداث الماضي، فرواية هذه الأحداث تدفعهم إلى خيار صعب بين أحداث تثير أسى النفوس، وتجعل الاختيار الحكيم ملتبسًا عليهم في أغلب الأحيان. ونسجل هنا أن التقارير الروتينية لجريدة عمان دايري توثق لتسلسل الأحداث، وأنه بالإمكان التأكد من صحتها من خلال العدد القليل من الروايات العمانية الشفوية والمكتوبة التي بدأت تتوافر اليوم.

أما بالنسبة لأدبيات الرحلة في مرحلتها الأولى، فإنه من السهل الكشف عن خلفيات الفهم لدى كتابها ونقاط التركيز في سردهم – فرضياتهم حول الأشخاص والأحداث التي يصفونها – وطبيعة جمهور قرائهم الأصلي. في حين أن الأمر بالنسبة للروايات المتأخرة، وخاصة تلك الموجهة إلى دوائر جد محدودة، مختلف ومحمل بتحديات أكبر. وعلى الرغم من كل ما حمله سرد بيرد من فظاظة وانعدام الحس – المتعلقين مباشرة بقضايا السيادة – فإن سرده ذاك ربما تضمن قيمة أكثر قدرة على البقاء من تلك المتضمنة في سرد غيره. وليس السبب في ذلك هو «قيمة الحقيقة» التي تحويها تأويلاته للسيادة، كما كانت تُرى في القانون الدولي أو لدى المحكمين الدوليين، بل السبب هو الظرفية التي أحاطت به وهو يُسجل وقائع الاجتماعات المريرة والصدامات مع الآخر في عهد كانت فيه العلاقة بين الحاكم والمحكوم موضوعًا لاعتراض وتفاوض لا ينقطعان. وقد اقترحت في دراستي عن العلاقات بين الإمامة والسلطنة في عُمان في القرن العشرين، أن الحدود سهلة الاختراق وغير ثابتة، بما فيها حدود تنقل القضاة والإداريين بين منطقتي النفوذ، في حين أن معظم الروايات الأخرى ترى هذه الحدود ثابتة ومستقرة(٤٥). وقد سجل بيرد في سرده لقاءات سعت كل الأطراف الحاضرة فيها – بمن فيهم زعماء القبائل – إلى تقويم بعضها البعض الآخر والحصول على المعلومات التي تقيم عليها أحكامها. والواقع أنه بحث مستمر عن المعلومات، وهي معلومات كانت اليد الطولى فيها لجميع الأطراف، دون تخصيص لطرف واحد – المسؤولون البريطانيون وسلطان مسقط وعمان والشركة وزعماء قبائل المنطقة. والصحيح [وردت في أصلها العربي] أو الحقيقة من غير السهل تحديدها، حسب ما احتج به جيرتز Geertz ما في تأويله لاقتصاد البزار – أو الأسواق الشرقية – (٤٦). فكل طرف من الأطراف الحاضرة في الصدامات أو اللقاءات التي وصفها بيرد، له من الأسباب والدواعي ما يجعله يشك في صدق نوايا الآخرين وتخطيطاتهم، وأن كل طرف يلصق بالأطراف الأخرى تهم الخداع والتحيز وانعدام الثقة، ومن ثم فإن كل ما هو متأصل في جميع الأطراف من أهلية ومصداقية، يوضع موضع السؤال. وهكذا فإنه من الصعب على جميع الأطراف أن تثمن ما هو ممكن أو ممكن التعويل عليه.

سجل بيرد في سرده أيضًا السرعة الكبيرة التي تعلمت بها مختلف الأطراف كيفية التصرف في أوضاع جديدة عليها كل الجدة. لقد كان الأمر عند لبيرد مغامرة في مناطق لم يعمل بها من قبله سوى عدد محدود من الأوربيين. في حين تعلم السلطان سعيد، الذي كان ذا حساسية بكل القضايا المتعلقة بالسيادة، كيف أن الأعمال الرسمية لبريطانيا لم تكن معصومة من الخطأ عندما يتعلق الأمر بمصالحه [أي مصالح السلطان]، كما دفعته الظروف إلى الاعتراف بضعف قدراته على التحرك والعمل. أما سرد هندرسون، فهو سرد ذلك العامل البارع المتمكن من مهارات إقناع الناس ودفعهم للعمل، إلا أنه من الجلي أنه كان أيضًا ذا قدرة على تسيير الأشخاص وتحوير الأحداث عند تسجيلها، كما هو واضح في تنقله الدقيق بين السرد السري والسرد العلني العام، وكذا في التلميحات التي يحويها سرده السري (على سبيل المثال: «ما ذكره أعلاه كان أول اجتماع لهندرسون مع الشيوخ، ومن ثم لا يمكن أن يقال بعد ذلك إن الشركة تدخلت بأي طريق كان في كتابة الوثيقة، فمحتواها في كليته هو مسؤولية سيد أحمد...»). وإذا ما أخذنا سرد هندرسون من وجهة تسجيله لمصالح شركة الامتيازات النفطية المحدودة ونواياها – حيث تجاوز بكثير المهام المنوطة به – فسنجد أن سرده عظيم الفائدة لا يقدر بثمن. أما إذا ما أخذناه من وجهة تسجيل الأحداث ذاتها ودور الأشخاص وأعمالهم فيها، فإنه لا يمكن التعويل عليه إلا بشكل محدود، لأنه كتبه عن وعي ذاتي يقصد التأثير في إدراك الملاحظين الأجانب وصناع القرار السياسي للوضع في المنطقة. وأخيرًا، على الباحثين أن ينتظروا بصبر قرار بريطانيا بالإفراج عن كل الوثائق المتعلقة بالموضوع، بما فيها وثائق المخابرات المتصلة بأحداث الفترة، حتى يتمكنوا من معرفة «القصة الرسمية» البريطانية. وفي انتظار ذلك، على مؤرخي الخليج الشروع في جمع التاريخ الشفوي عن هذه الفترة قبل فوات الأوان.

الحواشي

يود المؤلف أن يقدم شكره لدبره هودجس Deborah Hodges، التي أبدت ملاحظاتها القيمة حول الصيغة الأولى لهاته الورقة.

(١) محمد الصفار،

Disorienting Encounters: Travels of a Moroccan Scholar in france in 1845-1846, translated and edited by Susan Gilson MIller (Barkely and los Angeles University of California Press, 1992)

وكذا الأصل العربي المنشور تحت عنوان: صدفة اللقاء مع الجديد: رحلة الصفار إلى فرنسا ١٨٤٥ – ١٨٤٦، تحقيق وترجمة المقدمة: خالد بن الصغير (منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، ١٩٩٥).

(٢) انظر:

Susan Reynolds, Fiefs and Vassals: The Medieval Evidence Reinterpreted (Now York: Oxford Press, 1994)

(3) Thierry Hentsch, Imagining the Middle East, translated by Fred A. Reed (Montreal: Black Rose Books, 1991) pp. 75,81.

(4) Discription de l'Egypte (Paris: Editions d'Art Albert Guillot, 1966)

(5) Bernard Lewis, "The Study of Islam." Encounter, 38, no. 1 (January 1972): 35-36)

(لقد عملت أعمال أمثال هذا الباحث على تسهيل اهتمام المسلمين بماضيهم. فلم يكن متوافرًا من تاريخ الطبري (٨٣٩ – ٩٢٣) سوى بعض الأقسام إلى أن جمع الكتاب برمته بطريقة علمية ونشر في ليدن ملىمج ما بين سنتي ١٨٧٩ و ١٩٠١.

والواقع أن منجزات «مستشرقي» القرن التاسع عشر المتأنية عملت على إثارة اهتمام المفكرين المسلمين ومعاصريهم في الفترة السابقة بهذه النصوص، وجعلتها في متناول الباحثين من الشرق الأوسط وأوروبا بصورة أفضل مما كانت عليه. وفي شأن تثمين قيمة تاريخ الطبري، الذي أصبح اليوم متوافرًا باللغة الإنجليزية في ثمانية وثلاثين مجلدًا بفضل إشراف وإعداد إحسان يارشطار(Albany: State University of New York Press, ١٩٨٥

أنظر:

Hugh kennedy, "Invoking the Heroic Age of Islam," The Times Literary Supplement (london), March 14, 1986, pp. 263-64.

،(٦) زهرة فريث وفيكتور وينستون:

Zahra Freeth and Victor Winstone, Explorers of Arabia from the Renaissance to the Victorian Era (London: George Allen & Unwin, 1978), pp. 19-39.

(٧) انظر كاثرين سيم:

Katharine Sim, Desert Traveler: The Live of Jean Louis Burckhardt (london: Gollancz, 1969).

(٨) جون لويس بوركهاردت:

John Lewis Burckhardt, Arabic Proverbs: or, the Manners and Customs of the Modern Egyptians (Totowa: Rowman and Littlefield, 1972 [orig. 1830]; Travels in Nubia (london: John Murray, 1822); Notes on the Bedouins and Wahabys (London: Henry Colburn and Richard Bently, 1831).

(٩) انظر كينيث ساندبانك:

Kenneth Sandvank, "Literary Representation and Social Legitimation: J.L. Burckhardt's Approach to 'The Orient', "International Journal of Middle East Studies, 13, no. 4 (November 1981): 497-511.

(١٠) انظر إدموند بيرك ققة:

Edmund Burke, Ill, "Fez, the Setting Sun of Islam: A Study of the Politics of Colonial Ethnography, "The Maghreb Review, 2, no. 4 (July-August 1977): 1-7.

أما عن كتابة دوتي وأهميتها، فانظر ستيفن تاباشنيك:

Stephen E. Tabachnick, ed., Explorations in Doughty's Arabia Deserta (Athens and London: The University of Georgia Press, 1987).

(١١) ج. لوريمر:

J. G. Lorimer, Gazetter of the Persian Gulf, Oman and Central Arabia (Buckhamshire: Archive Editions, 1988 [orig. 1908, 1915).

(١٢) المرجع السابق، المجلد ٧ الصفحة ٤٢٩.

(١٣) مارك وليام سبيس:

Mark William Speece, Sultan and Imam: An Analysis of Economic Dualism in Oman, "M. A. Thesis, Department of Oriental Studies, University of Ariaona (Tuscon, 1981); Mark Speece, "Duality of Market Structures in Nineteenth and Early Twentieth Century Oman, "Erdkunde, 4 (1987): 196-210; and Mark Speece, "Aspects of Economic Dualism In Oman, 1830-
1930, "International Journal of Middle East Studies, 21, no. 4 (November 1989): 495-515.

(١٤) مارك سبيس "Duality" ص. ١٩٦

(١٥) المرجع السابق، ص١٩٩

(١٦) المرجع السابق، ص ١٩٩

(١٧) مضوي الرشيد (مدوي؟):

Madawi Al Rasheed, Politics in an Arabian Oasis (London: I. B. Tauris, 1992); Dale F. Eickelman, "From Theocracy to Monarchy: Authorrity in Inner Oman.

1935-1957. "International Journal of Middle East Studies, 17, no. 1 (February 1985)
"Religious Knowledge in Inner Oman," Journal of Oman Studies, 6 (1983): 163-72.

وأيضًا ديل إيكلمان «المعارف الدينية في عُمان الداخلية، الحصاد (مسقط: وزارة التراث (الوطني) والثقافة، ١٩٨٩، المجلد ٦، ص ٢١٩ - ٤٥. وقد نشر هذا المقال بالإنجليزية تحت عنوان:

Dale F. Eickelman, "Counting and Surveying in 'Inner Omani Community: Hamra Al-Abriyin." in Tribe and State: Essays in Honor of David Montgomery Hart, ed. Richard Pennell (Wisbech [UK]: MENAS Press), pp. 253-77.

India Office Records R 15/6/250 (25 Aoril 1950), cited in Thomas Bierschenk, "Oil Interests and the Formation of Centralized Government in Oman, 1920-1970,"

(١٨) تم الاطلاع على الوثائق المستشهد بها هنا في أرشيف شركة النفط Petroleum Development Oman في ١٩٧٩ - ١٩٨٠. وأنا مدين بالشكر لشركة ذ.ذ لسماحها لي بالوصول إلى هذه الوثائق.

(١٩) ويتعلق الأمر هنا أيضًا بالاهتمامات العليا لوزارة الخارجية البريطانية. ففي أواخر الأربعينات، ربما كانت هناك مصالح محلية لشركة نفط العراق ذ.ذ تدعوها لعقد اتفاقيات التنقيب مع زعماء القبائل المحليين في الظاهرة، غير أن ذلك كان ضد المصالح البريطانية في المنطقة. وقد كتب المقيم السياسي في الخليج إلى لندن قائلاً ما مفاده أنه في حال اتخاذ بريطانيا لموقف يستفاد منه أن شمال عُمان الداخل، بما في ذلك الظاهرة «غير متضمن في ممتلكات السلطان، فإنه لن يكون لدينا أي موقع نستند عليه في تفاوضنا حول الحدود مع ابن سعود، وسيكون من الصعب علينا الاعتراض إذا ما عزم على وضعه تحت نفوذه. وثانيًا، حصلت شركة نفط العراق على امتيازات من السلطان. كل هذه الممتلكات باستثناء كوادور، وعملنا هذا سيلغي آليًا جميع حقوقهم في هذه المناطق ويفتح الباب أمام كل قادم جديد. ثالثًا، [عملنا] سيدعونا إلى جرح مشاعر السلطان.. [الشيء] الذي من شأنه التأثير على وضعنا في مشيخات الخليج عمومًا» المصدر:

Orient 30, no. 2 (June 1989), p. 215.

(23) India Office Library and Records, R/15/6/242, Persian Gulf Residency, Bahrain, to Political Agent, Muscat, 25 May 1948.

(٢٠) رسالة من بيرد (من دبي) إلى ليرميت (مُتَّيَمج)، ٢٠ مارس ١٩٤٨.

(٢١) رسالة من بيرد إلى ليرميت، في ١٨ مايو ١٩٤٨. لم يعط بيرد تفصيلات أخرى عن الرسائل التي عرضها السلطان عليه.

(٢٢) رسالة من بيرد إلى ليرميت، ٢ مايو ١٩٤٨.

Edward Henderson, This Strange Eventful History: Memoirs of Earlier Days in the UAE and Oman (London and New York: Quartet Books, 1988), pp. 87-152.

(٢٤) رسالة من بيرد إلى ليرميت، ٢٢ مارس ١٩٤٩، ص ٥. لقد كانت قبائل الظاهرة مرتبطة في هذه الفترة مع الولايات الواقعة تحت الانتداب في كل ما يتعلق بالتجارة بصورة أكثر من ارتباطها في هذا الشأن مع مسقط، كما أن ممثلي شركة النفط دخلوا هذه المنطقة في بداية الأمر انطلاقًا من الولايات الواقعة تحت الانتداب ودون حماية رسمية من السلطنة.

(٢٥) رسالة من ريتشارد بيرد إلى صاحب السمو (لونجرج Longrigg)، ١٥ يونيو ١٩٤٩، توجد نسخ من المسودات (التي رفض السلطان نعتها باتفاقيات) الملحقة برسالة بيرد الأصلية، إلا أنها غير محفوظة في ملفات الشركة. ومرة أخرى نسجل إلحاح السلطان على الاحتفاظ بسلطته على المفاوضات وعلى جميع الأنشطة التي من شأنها المس بادعاءاته الإقليمية.

(٢٦) انظر:

Neil Mcleod Innes, Minister in Oman (Cambridge: Oleander Press, 1987), pp. 184-88.

.قبل يومين من طرد السعوديين من البريمي في ٢٥ أكتوبر من سنة ١٩٥٥، وإلغاء البريطانيين من جانب واحد الاتفاقية المعروفة باتفاقية ستاندستيل ىُلَفَس سنة ١٩٥٢، رتبت وزارة الخارجية البريطانية هندرسون في مرتبة ثانية، وهو المنصب الذي شغله لغاية سنة ١٩٧٤. وخلال ستة الأشهر التي أعقبت طرد السعوديين من البريمي كان

هندرسون مسؤولاً سياسياً يعمل لصالح الحكومة البريطانية في الواحة. وقد وقعت خلافات عدة كان السبب فيها تدخل هندرسون في النزاعات المحلية، الشيء الذي رأى فيه الوالي اجتثاثًا لسلطته هو [أي الوالي]، وقد سجلت جريدة عمان دايري خلال الأشهر القليلة التالية (على سبيل المثال فبراير ١٩٥٦) شكايات متكررة ضد دور هندرسون. غير أن هندرسون لم يشر في مؤلفه ىبدُ نمٌ ص ١٧١، إلى ما أثاره وجوده في المنطقة من خلاف. انظر في شأن رواية شهود العيان، المتعلقة خاصة بالمواجهة الدرامية:

(٢٧) رسالة من هندرسون (البحرين) إلى جاكسون H.M.Jackson، الممثل المحلي الموجود في دخان (Dukhan) (قطر)، ٣٠ ديسمبر ١٩٥٣ (TSE.1/3557, Secret).

(٢٨) «نقاط مختلفة متعلقة بالزيارة الأخيرة لهندرسون إلى مسقط وظفار» (غير مؤرخة [ربما كتبت في ديسمبر ١٩٥٣]).

(٢٩) هندرسون Eventful History ص ١٠٦.

(٣٠) هندرسون، المرجع السابق، ص ١٠٧ – ٨. لاحظ أن هدف طالب، المعلن في قوله، هو اقتطاع إمارة مستقلة لمصلحته، والملاحظ أنه لم يتم في أي حين من فترة الخلاف مع الإمامة، أن قامت شخصية من الإمامة أو قام زعيم سياسي عُماني معارض للسلطان سعيد بالاعتراف بالمطالب الإقليمية السعودية في الظاهرة.

(٣١) على سبيل المثال، المؤلف المجهول، أحداث في حياتي، مخطوط غير منشور. [مكتوب باللغة العربية، منه نسخة في حوزة المؤلف، ١٩٨٦] وهذه السيرة الذاتية هي لموظف سابق في عمان الداخل، كان في عبري وعراقي لغاية الخمسينات.

(٣٢) هندرسون، Eventful History, ص ١١٠، وهو يعطي تاريخ يونيو ١٩٥٤، على نقيض التواريخ الواردة في التقارير المعاصرة.

"Note of E. F. Henderson's Visit to Duru' shaikhs in Muscat- 4th- 11 th August, 1954".

(٣٤) هندرسون "Note of E. F. Henderson لاتوجد نسخة من المسودة أو نسخ من الاتفاقيات الموقعة المرفقة بالمذكرة، كما يبدو أن هندرسون لم يحصل على توصيل بالمبالغ المالية التي دفعها للشيوخ في ٣ أغسطس ١٩٥٤. ويوحي التناقض الموجود بين حسابه لهذا الصرف المالي في مذكرته المؤرخة في ١١ أغسطس ١٩٥٤. وبين حسابه له في ديسمبر ١٩٥٤، بحساسية في الأمر، وقد كتب هندرسون في أغسطس ١٩٥٤: و«بعد صرفنا المبالغ (إلى علي ٢،٣٠٠ وإلى مسيلم ١،٧٠٠) بوجود سيد أحمد، كان من المؤمل أن يخجل من أدائنا لهذا المبلغ الكبير...» وفي ديسمبر من سنة ١٩٥٤ لمح هندرسون إلى أن سيد أحمد أدى المبالغ المالية: «أديت ... بحضوري من قبل سيد أحمد، وزير الداخلية» انظر في هذا الشأن:

"Special Account - E. F. Henderson - August to December, 1954"

وتوجد نماذج من إيصالات بصرف مبالغ مالية إلى الشيخ هلال بن سلطان في عبري خلال شهري أبريل ومايو، في Misc/1.B9-10 وأيضًا في: Misc/1/C3.

أما عن صيغة أخرى لاجتماع أغسطس ١٩٥٤. فانظر هندرسون Eventful History, ص ١١٠.

(٣٥) انظر في هذا الشأن، هندرسون

Visit of H. M. Thomson and E. F. Henderson to Salala, 2-5 Oct. 1954"R

والتي عُلِّمت بعلامة «سرّي». أما هندرسون في مؤلفه "Eventful History" فلم يشر إلى أن الإقامة هي المصدر الذي بلّغه السلطان بمعلومات عن الظاهرة، وأشار فقط إلى: «ما اعتبرناه أخبارًا يعول عليها».

(٣٦) المرجع السابق، ص ١١٣.

(37) (Secret), 5 December 1954, pp. 5-7 ¢SHenderson, The Fahud Expedition

وقد لاحظ هندرسون أن السلطان كان راغبًا في الحصول على «رسالة ولاء من شيخ البلوش ومن آخرين. ونأمل في الحصول على ذلك». وبعبارة أخرى، فإن الرسائل لم يتم الحصول عليها بعد في الوقت الذي كتب في تقريره.

(٣٨) أسقط هندرسون في كتاباته المتأخرة, Eventful History، ص ١٥٠، واقع أنه أرسل في طلب زايد من البريمي، واستعاض عن ذلك «أن زايد كان يصطاد في وادي العميري».

(39) Henderson, "The Fahud Expedition, "Dukhan, 5 December 1954, p. 9.

(40) Sidney Glencross, "Muscat and Oman Diary for November 1954, " 1 December 1945.

(41) E. T. Henderson, "Oman Appreciation of the Situation - 1st December 1954."

لم يتضمن التقرير السابق لهندرسون أية إشارة خاصة إلى رسائل الولاء من شيوخ الظاهرة، على الرغم من أنه أشار في تقارير سابقة إلى الوثائق التي عرضها عليه السلطان سعيد سلطان مسقط.

(٤٢) هندرسون، المرجع السابق.

(٤٣) هندرسون، المصدر السابق.

(44) Boyle, 'Ibri "Oman Diary" for 21 May-5 July 1955.

(45) Eickelman, "From Theocracy to Monarchy."

(46) Clifford Geertz, Suq: The Bazar Economy in Sefrou," In Clifford Geertz Hildred Geertz and Lawrence Rosen, Meaning and Order in Moroccan Society (New York: Cambridge University Press, 1979), pp. 206-208.

كتابات الرحالة الحديثة عن الخليج

حسين محمد فهيم

دكتوراه في الأنثربولوجيه الثقافية (جامعة كاليفورنيا – بيركلي ١٩٦٨).
أستاذ بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية (جامعة الإمارات).

الوظائف :

– أستاذ في عدد من الجامعات العربية والغربية، بوصفه عضوًا في هيئة التدريس أو أستاذًا زائرًا (الجامعة الأمريكية بالقاهرة، جامعة الملك سعود، جامعة الملك عبدالعزيز، جامعة الكويت، مركز الدراسات الدولية بجامعة بطرسبرغ، جامعة ليون، جامعة يوتا وجامعة ميتشجان الأمريكيتان).
– عضو اللجنة التنفيذية بمكتب وزير التعليم العالي والبحث العلمي بدولة الإمارات.

– عضو في عدد من اللجان الجامعية.

من نتاجه :

« قصة الأنثروبولوجيا» (١٩٨٦ – عالم المعرفة).
«أدب الرحلات : منظور اثنوغرافي» (١٩٨٩ عالم المعرفة).

وله مؤلفات بالانكليزية في تخصصه. بالإضافة إلى أكثر من أربعين ورقة بحثية في دوريات متخصصة عربية وأجنبية وكتب تحت الإعداد.

مقدمة

ظلت منطقة الخليج العربي، على امتداد زمن طويل، منطقة غامضة إلى حد ما في إطار الاهتمامات الغربية والدولية، على الرغم من الحقيقة القائلة بأن حقولاً نفطية كبيرة تم اكتشافها في الثلاثينيات وتدفق النفط بوفرة وبأسعار رخيصة. وقد تغير الموقف مع حظر النفط في العام ١٩٧٣ وما أعقب ذلك من ارتفاع كبير في أسعاره، ومنذ ذلك الحين تحظى المنطقة باهتمام كبير على الصعيد الدولي. وقد أصبحت السياسات ودوائر البحث الغربية معنية بصفة خاصة بالأهمية المتزايدة للجغرافيا السياسية للمنطقة واقتصادها. وكان من نتائج ذلك الانفجار الإعلامي المتعلق باحتياطيات الخليج النفطية. وسياساته، والتنمية المستندة إلى دولاراته النفطية، وتأثيرها على طرق الحياة التقليدية فيه.

غير أن الاهتمام السائد في الكتابات المنشورة دار حول الجوانب الاقتصادية، وبصفة خاصة القضايا المتعلقة بالنفط، والشؤون السياسية، بأكثر مما تناول أبناء المنطقة وثقافتهم. ومع ذلك فإن كتابات الرحالة الحديثة عن الخليج، باعتبارها نوعية مختلفة من الكتابات، قد اكتسبت فيما يبدو رواجاً بين القراء الغربيين. وهذا تيار له أهميته، حيث أن صور الرحالة تميل بشكل عام إلى أن تكون أكثر تأثيراً من الأعمال الإثنوجرافية ذات الاتجاه البحثي في تشكيل تصورات الشعوب ورؤية أحدها للآخر، وفي تحديد صور ذهنية عن الشعوب والثقافات الأجنبية.

ومنذ أوائل السبعينيات، وحتى الوقت الحالي، تقوم مجموعات من الكتاب الغربيين بالترحال في منطقة الخليج، كصحافيين، أو ضيوف للمعلومات المحلية. وقد كانت مهمتهم، بشكل أو بأخر، تقديم «صورة حقيقية» عن الشعوب العربية ومجتمعاتها في منطقة الخليج، بدلاً من تلك الصورة السائدة لدى الرأي العام الغربي عن «شيوخ النفط» أو «البدو الأثرياء». وينبغي أن يلاحظ أن أولئك الكتاب ليسوا بالفعل مكتشفين أو رحالة، مثل أولئك الرحالة المنتمين إلى الماضي، الذين غادروا أوطانهم بمبادرة منهم

لاستكشافات شبه الجزيرة العربية والخليج، ومد جسور صلة تقوم على الانجذاب إلى هذه الأرض الجديدة وشعوبها.

وقد قدم هذا النوع الجديد من الرحالة المعاصرين، وهم غالباً ضيوف وزوار، مادة مستفيضة عن طرق حياة الخليج، الآخذة في التغير. وقد كشفت مراجعتي الأولية لأعمال غربية مختارة عن تغير جلي في النوعية والغرض بالمقارنة مع الكتابات التي تعود إلى وقت سابق من هذا القرن. ولسوف تظهر هذه الورقة طبيعة ذلك التغير وأسبابه، كما ستوضح كذلك كيف أن هذه النوعية الجديدة من كتابات الرحالة الحديثة عن الخليج قدمت معلومات مفيدة في تثقيف القراء، فيما يتعلق بالطبيعة وتطوير نماذج ثقافية عن مجتمعات الخليج العربية. ولعبت دوراً بارزاً في تغيير الصورة المشوهة عن أبناء الخليج في أذهان الجمهور الغربي. ولسوف تقتصر مراجعة الأعمال المختارة في هذه الورقة على السبعينيات والثمانينيات. ويبدو أن الرحالة إلى المنطقة ابتداء من حرب الخليج في العام ١٩٩١ قد عادوا باهتمامهم مجدداً إلى الجغرافيا السياسية والاقتصاد، وليس إلى تصوير المجتمع العربي الخليجي وثقافته.

ملاحظات حول الخليج

ربما لم يقدر اليوم لخليج آخر أن يصبح معروفاً على هذا النطاق الكبير، وأن يثير هذا القدر من الاهتمام والتدخل العالمي، على نحو ما حدث للخليج العربي، الذي تدور حوله هذه الورقة. ويشكل هذا الخليج ممراً مائياً يمتد عبر آسيا الصغرى، ويفصل عالمين ثقافيين، هما العرب من ناحية والإيرانيون وشعوب شبه القارة الهندية من ناحية أخرى. ويعرف هذا الممر المائي بصورة شائعة في الأطالس الغربية باسم «الخليج الفارسي» على الرغم من أن العرب يطلقون عليه اسم الخليج العربي. والدول العربية التي تمتد حول شواطئ الخليج الغربية متماثلة إلى حد كبير، في العديد من الجوانب، وهي تشترك معاً في المناخ والبيئة والتاريخ واللغة والدين والثقافة. وهذه المجتمعات

التقليدية كلها تجد نفسها مالكة لنفط وفير، وبالتالي شهدت تحولات اجتماعية واقتصادية هائلة. وقد كان الانتقال من الدور ذات الجدران الطينية إلى القصور المرمرية مفاجئا.

وأصبح اصطلاح «مجتمعات الخليج العربية» في الكتابات الغربية الحديثة مألوفاً بصورة متزايدة، وهو يشير إلى ست دول هي : السعودية، الكويت، البحرين، قطر، عمان، والإمارات العربية المتحدة(أ). وتشمل هذه الدول مساحة من الأرض تمتد إلى حوالي ٢.٥ مليون كيلومتر مربع، متخذة شكل مستطيل عرضه حوالي ٢٠٠٠ كيلومتر تقريباً، على امتداد مدار السرطان، وطوله حوالي ٢٣٠٠ كيلومتر، على امتداد محور يترامى من الشمال إلى الجنوب . وتطل دول الخليج العربية على ثلاثة ممرات مائية مهمة، هي : الخليج إلى الشرق، والبحر الأحمر إلى الغرب، وبحر العرب (الذي يشكل الجزء الشمالى الغربي من المحيط الهندي) إلى الجنوب. ومن منظور المساحة فإن المساحة الإجمالية لمنطقة الخليج العربية تعادل ربع مساحة الولايات المتحدة الامريكية، وعشرة أمثال مساحة المملكة المتحدة. غير أنه من حيث السكان لا يتجاوز سكان هذه المنطقة ١٩ مليون نسمة فقط(ب).

وبينما كانت الخمسينيات هي التي استهلت الواقع النفطي في دول الخليج العربية، فإن هذا الواقع قد اكتسب بالفعل في السبعينيات، مع تراكم عائدات النفط الهائلة، أبعاد التحول العريض النطاق وقوة دفعه. منذ عام ١٩٧٤ خلق الارتفاع الكبير والذي لم يسبق له مثيل في العائدات النفطية امكانية حدوث تغيير اجتماعي واقتصادي سريع نقل منطقة الخليج العربية إلى مستوى جديد من التنمية والديناميكية والوحدة. ولم يقدر لمنطقة أخرى في التاريخ الحديث أن تستفيد من مثل هذه الثروة التي جاءت بين عشية وضحاها، ولم تتح لغيرها فرص يمكن أن توضع موضع المقارنة لتحقيق نمو اقتصادي حقيقي(١) وكنتيجة لهذه التطورات الاقتصادية الجديدة على المستوى الإقليمي والاهتمامات العالمية بالجغرافية السياسية للخليج كاحتياطي هائل لنفط الخام وكممر مائي، فإن الحاجة لتنسيق السياسات في العلاقات الخارجية والأمور الأمنية والسياسات الاقتصادية – النفطية أدت

إلى قيام دول الخليج العربية الست بإبرام اتفاق في مايو ١٩٨١ لإنشاء مجلس التعاون لدول الخليج العربية(ج).

يعتبر تاريخ منطقة الخليج منذ رحلة نيارخوس في ٣٢٦ – ٣٢٥ ق. م. إلى قدوم البرتغاليين في القرن السادس عشر تاريخاً قوامه نشأة الإمارات وسقوطها، ونمو الموانئ وتراجعها، والمراوحة بين السيطرة العربية والفارسية. ولم يقدر لقوة أن تسيطر على منطقة الخليج بأسرها لأي فترة يعتد بها من الزمن قط(٢). وقد كان البرتغاليون أول أوروبيين، منذ الاسكندر الأكبر، يغامرون بشق طريقهم إلى الخليج. غير أن السيطرة البرتغالية على الخليج لم تمض دونما تصد لها. كما تمكن الأتراك من الوصول براً، إلى البصرة في العراق في العام ١٥٤٦ وفي وقت لاحق توغلوا إلى شمال شرقي شبه الجزيرة العربية. غير أنهم فشلوا في السيطرة على باقي الخليج، بما في ذلك هرمز الحصينة، وأصبحت البحرين منطقة عازلة، تفصل القوتين المتنافستين، وتوضح حدود نفوذهما(٣).

وجاء تحد آخر للبرتغاليين من الفرس، الذين منحوا في العام ١٦١٦ شركة الهند الشرقية البريطانية إذناً بالتجارة في بلادهم. ويقول بليك إن شركة الهند الشرقية وافقت عندئذ على أن تشن هجوماً مشتركاً مع الحاكم الفارسي على المعقل البرتغالي في هرمز. واستسلمت القلعة في العام ١٦٢٢ وهكذا انتهى قرن من السيطرة البرتغالية في الخليج. وقد كانت المصالح البريطانية في منطقة الخليج تجارية بصفة جوهرية(٤). غير أن الاهتمام البريطاني بتأمين خطوط مواصلاتها مع الهند والتهديد من جانب القوى الأوروبية المنافسة، وبصفة خاصة من جانب الفرنسيين والهولنديين قدما قوة الدفع لدور سياسي متزايد، ولسياسة تقوم على الهيمنة والسيطرة على مشيخات الخليج وكذلك على المقاطعات الفارسية الجنوبية.

وفي حوالي نهاية القرن التاسع عشر، وقبل وقت طويل من اكتشاف النفط، وقع البريطانيون اتفاقيات انفردوا بها مع البحرين والكويت والدول المتصالحة(د) تعهد بمقتضاها الحكام بألا تكون لهم علاقات مباشرة مع أي

قوة خارجية أخرى، وألا يبيعوا، أو يؤجروا، أو يتنازلوا عن أرض لمثل هذه القوة. وقد وقع الحكام هذه الاتفاقيات لأنهم أدركوا أن استمرار استقلالهم لا سبيل إلى ضمانه إلا من خلال الحماية البريطانية(ه). ودلّ اكتشاف النفط في جنوب غربي بلاد فارس، في العقد الأول من القرن العشرين، إلى أن النفط يمكن العثور عليه كذلك على الشواطئ الغربية للخليج، وبالتالي وقع البريطانيون اتفاقيات مع حكام الخليج تقضي بألا يمنحوا أي امتيازات للتنقيب عن النفط دون موافقتهم، وهكذا ضمنوا إمكانيات الفوز بها للشركات البريطانية في المنطقة.

وقد وصفت المشيخات العربية العشر عادة بـ "الدول المحمية" على الرغم من أنه لم يتم قط إعلان قيام أي محمية. وظلت هذه المشيخات مستقلة داخلياً، بينما اضطلعت الحكومة البريطانية بالمسؤولية عن شؤونها الخارجية وحمايتها الفعلية. وقد تغير هذا الوضع مع اكتشاف النفط واستخراجه على الشاطئ الغربي للخليج، في أواخر الثلاثينيات. وقد ساد الاعتقاد في العقود التالية بأنه من المهم أن تندرج القبائل العربية المتناثرة التي سيطرت على المنطقة في دول منفصلة، مستقلة، ذات سيادة، لا أن يتم استيعابها في دول قائمة بالفعل، مثل المملكة العربية السعودية أو العراق. كما لم يرد لها أن تتوحد في إطار دولة واحدة. ومن الأمثلة على هذا الإمارات العربية المتحدة، التي نشأت في العام ١٩٧١. وقد حلت هذه الدولة من الرابطة القديمة المؤلفة من الدول المتصالحة، التي كانت تحت النفوذ البريطاني. وقد تم إدخال بنية سياسية جديدة تضم بصورة أوثق الإمارات المفردة، التي كان كل منها حتى ذلك الحين يعيش حياة منفصلة ومستقلة تحت حكم شيوخها(هـ).

وهناك جانب مهم، لا ينبغي تجاهله في غمار فهم مجتمع الخليج العربي وثقافته اليوم، حيث ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار سمتان رئيستان هما: حداثة عهد هذه الدول، وصغرها، باستثناء السعودية. وسمتا حداثة العهد والصغر معاً مهمتان لمواصلة البقاء بالنسبة لكل الدول الصغيرة عموماً. وعلى الرغم من أن الصغر لا يعدو، أياً كان شكله، أن يكون متغيراً واحداً ضمن

متغيرات عدة، إلا أنه يحمل اعتبارات سياسية واقتصادية مهمة، خاصة وأن دول الخليج العربية تجد نفسها في قلب التنافس الإقليمي وتنافس الدول العظمى(٦).

حول كتابات الرحالة الحديثة عن الخليج

شكلت كتابات الرحالة أحد المصادر الرئيسية للمعلومات، حول ثقافة عرب الخليج، منذ أقدم العصور حتى وقت قريب (منذ الخمسينيات) عندما بدأت المنطقة تثير اهتمام الباحثين في العديد من العلوم الاجتماعية، سواء أكانوا من المواطنين أو الأجانب. وهكذا فإنه منذ قرون كانت المعلومات المتعلقة بأبناء وثقافة شبه الجزيرة العربية والخليج يقوم بجمعها المستكشفون، والتجار، والمبشرون، والمستوطنون. وكما سلفت الإشارة، فإن البرتغاليين والفرس والأتراك جميعاً قد احتلوا أجزاء من دول الخليج في أوقات مختلفة، ابتداء من أوائل القرن الخامس عشر، ولكن البصمة الأجنبية الأكثر دواماً تركها البريطانيون. وقد عكس الجانب الأعظم من كتابات الرحالة، إذن، الاهتمامات السياسية لهذه المجموعات ومواقفها التمييزية حيال الثقافات الأجنبية. وقد حفلت كتاباتها بألوان من اساءة الفهم والتفسير لما رآه الرحالة أو سمعوه، تضاف إلى هذا المبالغات والافتراءات، التي اسفرت عن تشكيل رؤية مشوهة وصورة قبيحة لشبه الجزيرة العربية وأهلها وثقافتها في عيون الأوروبيين. حيث أصبح من الصعب التمييز بين العادي وغير المألوف.

وفي جوناثان رابان (Jonathan Raban) بعنوان «شبه الجزيرة العربية على قارعة طريق إيرلزكورت» أشار إلى ملاحظات مثيرة للاهتمام حول أبناء شبه الجزيرة العربية في لندن، وأوضح السر في أن البريطانيين قد استجابوا لوجودهم "بمزيج من التهكم والحسد"(٧). وقد عزا ذلك إلى التصورات الكلاسيكية البريطانية عن عرب الخليج ومنها على سبيل المثال كتاب تي. إي.

لورنس "أعمدة الحكمة السبعة" (١٩٧٦) وكتاب ولفرد ثسيجر «الرمال العربية» (١٩٥٩) وكتاب سي. إم. دوتي «رحلات في صحراء شبه الجزيرة العربية» (١٩٤٩). فقد قدمت لهم كتابات الرحالة صورة تثير الانقباض على نحو مستحيل بالنسبة للعرب أنفسهم، صورة تضرب جذورها في انجلترا والحياة الانجليزية، وليس في شبه الجزيرة العربية على الاطلاق. ويستطرد رابان، قائلاً: «في غمار الثرثرة الساخرة، التي تابعت عرب لندن، مثلما يتابع السفينة أثرها في الماء، كانت هناك نغمة يمكن رصدها من الضيق المتواصل، فقد قضى العرب على حلم، إنجليزي أساساً، حول ما ينبغي أن يكون العرب عليه، حيث تعلمنا أن نحبهم لأنهم بسطاء على نحو بطولي وفقراء، أما الآن، ومع مؤسساتهم الاستثمارية المتعددة القوميات، ورجال أعمالهم المتنقلين جواً على متن طائرات الكونكورد، ودورهم في الريف الأنجليزي، وكاميراتهم الباهظة الثمن، وسياراتهم وأجهزة الاستماع المتطورة، فإنهم يلقون في وجوهنا أوهامنا العاطفية... ولا يقتصر الأمر على أن العرب أكثر ثراء منا، وإنما بكونهم شعباً كان الانجليز يظنون أنهم يعرفونه، وتحولوا على حين غرة إلى غرباء يثيرون الحيرة»(٨).

ولكن لما ذا قام الرحالة البريطانيون، مثل ثيسجر، الذي تتمتع كتابته بقوة تفوق بكثير ما تتمتع به كتابات لورنس، برسم تلك الصورة المفعمة بالحب للعرب ؟. إن بول فوسل (Paul Fussell) يخبرنا، في إطار تحليل لكتابات الرحالة البريطانيين فيما بين الحربين بأن : «مؤلف كتب الرحلات البريطاني فيما بين الحربين العالميتين لم يكن يحس بالارتياح في مجتمع أعادت الحرب الكونية الأولى صياغته، فقد كره غياب الحضارة الراقية، وكذلك الأماكن التي كانت (قذرة... تتناهبها العثة... حقيرة... يلطخها الشحم... تدفع للغثيان، مقيتة الرائحة.. ميتة... ورطبة، حيث المياة كئيبة.. فظيعة... تعسة.. زائفة... رهيبة... مقيتة، وتخلو من البهجة)(٩). وانطلق ذوو النزعات الفردية القوية الذين كانت نزعتهم للعزلة-باعتبارهم من أبناء الطبقات العليا تتعرض الحد منها من خلال «الاشتراكية الوطنية» التي تفرضها القوى الرافعة باتجاه المركز التي تقف وراء المجهود الحربي – انطلقوا ينشدون إعادة تأكيد لوضعيتهم المتحضرة من خلال

المفارقة مع الحضارات البدائية والبائدة، ما قبل الصناعية. ويصور فوسل Fussellشخصية الرحالة البريطاني باعتباره : «شخص غير واقعي، يوجه إيماءة التحرر إزاء ما يمكن التنبؤ به، وهي النزعة الدولية الكئيبة للترتيبات الإجتماعية والسياسية التي جاءت بعد الحرب العالمية الثانية»(١٠).

ومما له دلالته إلى حد كبير أن نرصد الفارق في الأسلوب والاهتمامات بين كتب الرحالة، التي تم تأليفها في وقت كانت فيه المنطقة بالغة الفقر، وتلك التي تم تأليفها منذ منتصف السبعينيات. فقبل مرحلة النفط كانت معظم الصور التي رسمها الرحالة للخليج تركز بصفة أساسية على تاريخ المنطقة وجوانبها المتعلقة بالجغرافيا السياسية. غير أنه كانت هناك كتابات قصيرة، متناثرة، ذات طابع وصفي، تدور حول العادات والتقاليد، التي تعد مهمة للدراسات المتعلقة بالاستمرار والتغير في ثقافة الخليج العربية اليوم. وفي السبعينيات، عقب الازدهار النفطي وطفرة الثراء القائم على الدولارات النفطية، انتقلت اهتمامات الصور التي يرسمها الرحالة لتبرز هذا الازدهار الاقتصادي والنتائج الاجتماعية والاقتصادية والبيئية. وقد برز هذا الاهتمام بوضوح في عناوين معظم كتب الرحلات، التي صدرت منذ منتصف السبعينيات، وحتى أوائل الثمانينيات. فالمؤلفة البريطانية سوزان البانز Albans, Suzann, على سبيل المثال، تقدم الصورة التي ترسمها تحت عنوان «النفط يتحول الى خضرة» (١٩٧٥) والمؤلفة الأمريكية موللى عازار، التي تنظر إلى منطقة الخليج باعتبارها مكاناً لثروة وفرصة رائعتين، تستهل كتابها «الطرق الغربية لفهم الخليج وشبه الجزيرة العربية» بفصل تعقده بعنوان «الالدوراد العربي». وهكذا تعيد إلى الأذهان تلك المملكة أو المدينة الأسطورية في أمريكا الواقعة تحت حكم الاسبان، الغنية بالمعادن الثمنية والمجوهرات، والتي كان المستكشفون في القرن السادس عشر يسعون وراءها.

ومن الاهتمامات الأخرى التي عبر عنها العديد من الرحالة، خلال السبعينيات في كتاباتهم، إعادة تقديم أبناء الخليج وجوانب من ثقافتهم للغربيين، الذين نظروا إلى « العرب على أنهم قبيلة من البدو ذوى الثراء الطائل، والذين لا جذور ثقافية لهم»(١١) في وقت لاحق شملت صور رسمها

الرحالة للخليج العديد من العادات والمهرجانات والتقاليد. وفضلاً عن ذلك أظهر الرحالة اهتماماً بالجوانب المادية وغير المادية من ثقافة الخليج العربية. وتم تقديم توصيفات للمهرجانات وأزياء الرجال في الإمارات العربية المتحدة بقلم جون دانييلز (١٩٧٤) وبقلم ميشيل تومكنسون (١٩٧٥) وبالإضافة إلى ذلك فقد عقدت سوزان سانت البانز في كتابها بعنوان «النفط يتحول إلى خضره» (١٩٧٨) فصلاً عن الحلي التقليدية، وقدمت صورة عن الصيد بالصقور، وهو رياضة عربية تقليدية. وفضلاً عن هذا فإن لورنزو ريتشاياردي، الذي أبحر في سفينة تقليدية صنعت خصيصاً لرحلته في الخليج، رسم في صورته التي قدمها تحت عنوان «رحلة السفينة أميرالات» الملمح الخاص بحب أبناء شبه الجزيرة العربية لصقورهم :

«عند ما ذكّرت الشيخ بأن السفينة التقليدية موجودة على قطع النقود المعدنية والأعلام والشارات وطوابع البريد في معظم الإمارات والمشيخات في شبه الجزيرة العربية، قال إن هذا الرمز ينبغي تغييره. وأضاف : «لسوف نضع مكانه الصقر الحر، فأنا، كما لعلك لاحظت، من أبرز المعجبين بهذا الطائر. وآمل أنه سيكون بوسعي أن أصحبك ذات يوم إلى الصحراء لصيد الحبارى» (١٢).

وقد استمر هذا الاهتمام، في السنوات اللاحقة، وتجلى في كتاب بعنوان : «عمان ونهضتها» لدونالد هاولي (Donald Hawley)(١٩٧٧) ويصور هذا الكتاب، المزود على نحو وافر بصور ملونة جميلة، طبيعة عُمان المتنوعة. وهو يغطي العديد من جوانب الحياة التقليدية مثل الطعام، وكرم الضيافة، والزواج، والطلاق، وتقسيم العمل، وطقوس الميلاد والبلوغ والموت. وبالإضافة إلى ذلك فإن الكتاب يصف الايقاع اليومي لحياة قروية عمانية، بدأ في الصباح بإعداد اللبنة، ومروراً بقيلولة الأصيل الهادئة، ثم الزيارات الاجتماعية، التي يتم خلالها شرب القهوة وتناول التمر في المساء. ويلاحظ الكاتب أن : «موقف العماني من المرأة أكثر رقة ولطفاً منه في العديد من أرجاء شبه الجزيرة العربية الأخرى». ويقرر أنه ليس هناك الكثير من الاستياء لدى ميلاد طفلة، كما هي الحال في مناطق أخرى.

وتلاحظ زوجته، ليدي هاولي، كذلك إنه على الرغم من الكراهية الإسلامية لتصوير الشخوص في اللوحات والتماثيل، فإن لدى الكثير من الخليجيات تماثيل فضية صغيرة، تتدلى من القلائد، أو تبرز من الحلي ذات النحت النافر. وهي تشير إلى أن هذا ربما كان يرجع إلى ما درجت النساء عليه قبل الإسلام. ومن العجيب حقاً أن هذه الأشكال تصنعها النسوة عادة بأنفسهن، أو تصنعها امرأة اكتسبت مهارات خاصة، وتقدمها أو تبيعها للأخريات. ويتم التجمل بهذه الحلي الصغيرة بصفة خاصة خلال فترات الحمل، للاستعانة بها في الوضع، أو للمساعدة في إدرار اللبن. وهناك قطعة حلي ممدودة لها استخدام أكثر اتساماً بالطابع العملي والأنثوي، فقد اعتادت النساء التجمل بخلاخيل وأساور ذات أحجار صغيرة معلقة بها، والغرض منها أن يعرف الرجل عن طريق الصوت الذي تحدثه أيّ من زوجاته في طريقها إليه. وتتكون حلية صغيرة مميزة تنتمي إلى الخليج الأدنى، وتنفرد عن الاتجاه العام للحلي البدوية، من أشياء محلية يتم صياغتها في الفضة، ومنها سدادات الزجاجات القديمة، أو قرنات البذور، أو قطع من عظام أو أسنان حيوانات تأخذ شكل قلادة أو أساور أو تمائم، وهي ترد إلى معتقدات تعود إلى ما قبل الإسلام. وفي البلدان المحيطة بشبه جزيرة مسندم وحدها تستخدم النسوة لهذا الغرض أشياء مما يعثر عليه على الساحل.

وفي اعتقادي أن محتوى كتب الرحلات الحديثة هذه الهدف منها يشير إلى تغير في نوعية كتابات الرحالة المتعلقة بمنطقة الخليج. غير أنه على العكس من الإثنوجرافيين، فإن كتاب هذه الصور يحجمون عن تقديم الفكر التجريدي، وهم بالأحرى ينقلون أوصافهم وملاحظاتهم واستنتاجاتهم بأسلوب عرضي، أقرب إلى الحوار، ليسهل استيعابه والتعلم منه. وبشكل عام فإن معظم كتابات الرحالة الحديثة تظهر اهتماماً لا سبيل إلى أن تخطئه العين بتعليم القراء، وليس مجرد تسليتهم. ويميل الرحالة إلى الخليج اليوم إلى تعليم أنفسهم فيما يتعلق بالمنطقة، قبل شد الرحال إليها، وقد أصبحت مصادر معلوماتهم أكثر تنوعاً من ذي قبل، فهم يلتقون برؤساء الدول التي تتم زيارتها وبمسؤوليها، وبالناس في الشارع. كما نجحوا كذلك في إعطاء انطباع جيد وملموس عن الثقافة، وذلك بالانغماس في الحياة اليومية للناس.

والوصف الذي يقدمه جوناثان رابان للمنامة، عاصمة البحرين، بأناسها المتميزين على نحو متوهج بالحيوية، وأصواتها، ومناظرها وروائحها يشع عن طواعية بالانطباع بأن المؤلف موجود هناك نيابة عن القارئ.

سرت على غير هدى، في متاهة من الشوارع، التي كان وجهي فيها هو الوجه الغربي الوحيد الذي يتراءى لعيني الناظرين. وكانت إحدى الحارات الضيقة مليئة بالنجارين، وتضوع بعبق خشب الصنوبر، الذي تم نشره لتوه، بينما كانت حارة أخرى قناة تتألق بأقطان هونج كونج الملتمعة، وثالثة، هي منطقة تصليح السيارات، تضج بصفوف من الرجال، الذين ينهالون على قطع لا شكل لها من المعدن بالمطارق. وكان كل ذلك على العكس تماماً من الاكتساب المجهد للطابع الغربي الذي توقعته من البحرين: إن المتاهة التي تكفل الحماية، والتي تحتل كل مهنة فيها البقعة المخصصة لها من خلال الاستعمال والتقاليد، هي أقوى معقل تعتصم به شبه الجزيرة العربية ضد الثقافة ذات الطابع الأحادي. والأشياء يتم الفصل فيما بينها – الذهب واللحم، الخضر والثياب، البهارات والأجهزة الكهربائية... كل نوعية لها شارع واحد على الأقل قائم بذاته. وهذا الفصل ما بين الأشياء يفصل ما بين الناس كذلك، فعند كل منعطف في المتاهة يلاحظ المرء فارقاً متميزاً في لون البشرة وأسلوب ارتداء الثياب، وليس بمقدورك أن تقطع مائة ياردة أن تجد نفسك متعدياً على حدود فاصلة رسمت بدقة. وبوسع رجل ضرير أن يتلمس طريقة خلال هذه المتاهة مستعيناً بالرائحة وحدها، فزيت الماكينات يفسح المجال للكركم والكزبرة، ورائحة النشارة الطيبة تفضي إلى رائحة الدواجن الحية التي تزكم الأنوف، ورائحة تحميص القهوة تليها الرائحة المسكية الغريبة المنبعثة من البلاستيك الرخيص(١٣)..وتأتي لوحة أخرى من وصف Mackey ماكي لساي الصباح في العاصمة السعودية الرياض، حيث كتبت تقول :

«أحببت النشاط الصاخب في الأسواق، خلال الصباح، فالشاحنات ذات الضجيج تطلق العنان لأبواقها، فيما هي تنتقل عبر جموع المتسوقين في الميدان، غير بعيد عن طريق المدينة. والصيرفي المتعامل بأنواع العملات على اختلافها عند المنعطف يعكف على الريالات السعودية، والدولارات،

والجنيهات الاسترلينية، والفرنكات السويسرية، في مكتبه الصغير، المزدحم بالعملاء. وصبية المقاهي يهرعون بين المكاتب الأخرى حاملين الصواني المثقلة بأكواب صغيرة مليئة بشاي حار محلى بالسكر. والنسوة متجمعات في منطقتهن من السوق يتساومن حول أسعار المكسرات والتوابل»(١٤).

وعلى الرغم من كل ما كتب عن ثقافة الخليج العربية خلال أوائل السبعينيات ومنتصفها فإن أبناء الخليج وثقافتهم كان ما يزال من العسير على الذهن الغربي أن يتفهمهم. وبقي الأمر "متاهة" كما أشار جوناثان رابان (Jonathan Raban) في عنوان الصورة التي رسمها لرحلة «شبه الجزيرة العربية – رحلة عبر متاهة» وهو الكتاب الذي صدر في العام ١٩٧٩. وقد شعر بالحاجة إلى الكشف عن سلوك الناس والسعي إلي المنطق الكامن وراء ما بدا غير مقبول ولاعقلاني في العيون الغربية. وقد أدلى في هذا الصدد بملاحظة تتعلق بكرم ضيافة العربي، الذي غالباً ما نظر إليه في الغرب على أنه حماقة من جانب الأفراد أو من قبيل الدعاية القومية عند ما تستضيفه دولة، على نحو ما حصل معه، حيث كتب يقول :

«وجدت أفضل تفسير لوضعي المحرج نوعاً ما في القسم الخاص بتاريخ البدو، في متحف قطر الوطني. فهناك مسافر يرغب في المرور عبر أراضي قبيلة، فيقترب من شيخ هذه القبيلة، ويطلب منه الأمان. وإذا تعين على رجل أن يسافر عبر أرض لا تسيطر عليها قبيلته، فإنه وفقاً للعرف السائد يحتاج إلى أن يكون له مرافق من المنطقة التي يسافر فيها، ويمضي تحت حمايته».

وتمضي البطاقة الموجودة في المتحف لتوضح أن القبيلة المضيفة ملزمة بأن تقدم للمسافر الطعام والماء وأن تكفل له المأوى في خيامها طوال رحلته. وقد حل محل شيوخ القبائل، والمرافقين في السفر، والجمال التي تنحر، وخيام البدو، وزارات الإعلام وسائقون رسميون وغرف في فنادق انتركونتنتال، ولكن العادة الذهنية لا زالت على حالها. وأن تكون ضيفاً على قبيلة هو امتياز مشرف، وقد كان بيرتون ضيفاً على قبيلة، وكذلك دوتي، وثيسجر ، أما أن تنزل ضيفاً على حكومة فيعني أن تكون بصورة مستديمة موضع شك في أنك عدت مثقلاً

بهدايا ثمينة. وفي شبه الجزيرة العربية يظل النمط الفاصل بين وضعين بعيداً عن الوضوح، وبصفة خاصة في تلك البلاد التي ما تزال التقاليد البدوية قائمة فيها، على نحو ما هي في الخليج والسعودية(١٥).

وسرعان ما أصبحت الرغبة في الكشف عن الحقائق الواقعية في الخليج وإزالة ضروب سوء الفهم والصور المشوهة عن أبنائه وثقافته موضع اهتمام فائق في صفوف العديد من الرحالة الغربيين، وبصفة خاصة خلال أوائل الثمانينيات. ومع ازدياد أهمية منطقة الخليج على امتداد العالم ومع الشعور بصفة خاصة بتأثيره على العالم الغربي، مال القراء الغربيون، خلافاً لحالتهم المزاجية السائدة في الماضي، إلى رفض التصورات الخيالية، وإلى السعي للوصول إلى الحقائق والمعرفة المحددة وقد أسفر هذا عن نوع جديد من كتابات الرحالة حول الخليج. وعلى سبيل المثال فإن جون بولوك أخذ على عاتقه مهمة كشف النقاب عن لغز وتعقد هذه المنطقة التي لا تزال مجهولة إلى حد كبير والتي غالباً ما يساء فهمها، وذلك في الصورة التي ترسمها في رحلته بعنوان "كشف النقاب عن الخليج الفارسي" (١٩٨٤).

وصدر عملان آخران عن المملكة العربية السعودية بقلمي كاتبتين أمريكيتين. وإحدى هاتين الصورتين تحمل عنوان "Everyday Life in Harem" وقد كتبتها في العام ١٩٨٣ بابس رول (Babs Rule)، التي سجلت خلال زيارتها لابنتها ولزوج ابنتها السعودي ملاحظاتها وسجلت مشاعرها في سلسلة من الرسائل التي وجهتها إلى ابنتها الأخرى في بلادها. أما الكتاب الآخر وهو بعنوان "The Saudi - Inside the Desert Kingdom" فقد تم تأليفه عقب ذلك بأربع سنوات (١٩٨٧) بقلم ساندرا ماكي (Sandra Mackey)، التي صحبت زوجها، وهو طبيب في مستشفى الملك فيصل التخصصي في الرياض، عاصمة السعودية. وتقدم بابس رول ملاحظات ومعلومات تقوم على أساس إقامتها في جدة وزيارة بصحبة أعضاء العائلة المضيفة، بينما تتمتع ماكي بخلفية علمية في دراسات العلوم السياسية، وهي تمزج ملاحظاتها بمركب يجمع خلاصة معلومات منشورة والعديد من الدراسات عن المملكة الغربية السعودية والعرب عموماً.

وفي العام ١٩٨٧ أصدر ديفيدلام (David Lamb) كذلك صورة عن رحلاته بعنوان "العرب: رحلة وراء السراب". وهو صحافي أقام في القاهرة سنوات عديدة، ووصف سفره المتكرر إلى منطقة الخليج بأنه "كثير من متعة" وهو يحاول أن يلخص الكثير من جوانب العالم العربي بصفة عامة في غمار مواجهته للتوغلات المعاصرة في شؤونه وهو يقرر صراحة الهدف من كتابه الذي يعقد فيه فصلاً مطولاً عن الخليج بعنوان "ألق الصحراء" ويقول :

«العرب (يقصد الكتاب الذي يحمل هذا العنوان) لا يراد به أن يكون تأريخاً موجزاً ولا تحليلاً سياسياً. وإنما هو كتاب قوامه الصور والمشاهد والأصوات والحالات المزاجية لشعب، بمن في ذلك ملوكه وعامته – مونتاج آمل أن يقدم صورة واضحة للعالم العربي اليوم، وينحي جانباً بعضاً من الصور النمطية، التي أفضت إلى كل هذا القدر من المفاهيم العديدة عن أبنائه وديانته وثروته العظيمة» (١٦).

وانبنى على ذلك أن المزيد من قراء كتب الرحالة الغربيين عن الخليج قد أدركوا أن العديد من الكتاب يميلون إلى تكريس الجهد للبحث والتعلم والمقارنة والتأمل. وقد كتبت بابس رول (Babs Rule) تقول :

«عشت في الولايات المتحدة حياة حافلة بالمشاغل ! وأعتقد أنني كنت أصفها بأنها "حياة منتجة". أتذكرين ؟ كنت أنهض في الساعة السادسة صباح كل يوم، لأستحم، وارتدي ثيابي، استعداداً للانطلاق إلى العمل، ثم أمضي إلى المكتب... إيقاع محموم لا ينتهي أبداً. وقد تطلّب الانتقال من تلك الحياة إلى جو الحريم المتراخي قليلاً من التأقلم، لكن يتعين عليّ أن أقول إنني اعتدت بنشوة مطلقة أن تقوم الأخريات بخدمتي، ولم ألق بنظرة واحدة إلى الوراء على أخلاقيات العمل العتيقة في نيو انجلاند. وقد وجدت أنني أتذوق أحداث كل يوم جديد بتقدير جديد، ولسوف أعاني شكلاً آخر من أشكال الصدمة الحضارية، عندما أعاود دخول العالم الواقعي»(١٧).

ولابد أن الإعلام الجماهيري وأنظمة المعلومات الحديثة والمتطورة قد أيقظت الكتاب الرحالة على الحقيقة القائلة بأنهم لم يعودوا المصدر الوحيد

المعلومات، فيما يتعلق بثقافة الخليج العربية، على نحو ما كان عليه الحال حتى وقت قريب جداً.

وعلى سبيل المثال فقد تم إنتاج وتمويل عدد من الأفلام الوثائقية من قبل شركات تجارية غربية مختلفة ومؤسسات تعليمية. وبين هذه المنتجات السمعية - البصرية يبرز عمل فرانكلاين تروت (Franklin Trout) الذي أنتج حديثاً، حيث تجولت تروت في المنطقة والتقت بالمسؤولين وبعامة الناس، وصورت العديد من جوانب الأنشطة اليومية التي يقوم بها الناس، وتتسم تعليقاتها بأنها مضيئه لجوانب موضوعها وحيدة الإعداد في الوقت نفسه. وفي عملها بعنوان «مسلسل مملكة النفط» (١٩٨٣) تلقي تروت نظرة تاريخية على اكتشاف النفط والمبالغ الهائلة من الدولارات النفطية التي نقلت دول الخليج إلى العالم الحديث، وتمزج ثلاثيتها المقدمة على أشرطة الڤيديو الماضي بالحاضر، وتتأمل كذلك آفاق المستقبل.

وفي منتصف الثمانينيات وأواخرها، مضى الرحالة الغربيون يعربون عن اهتمامات مختلفة، واكتسبت كتاباتهم المزيد من السمات الجديدة. وعلى الرغم من أن السفر إلى دول الخليج العربية ليس مجالاً مفتوحاً لكل من يرغب فيه، والكثير من عمليات التدقيق تتم قبل اعطاء تأشيرات الدخول، إلا أن دول الخليج تسهل الدخول والانتقال لعدد محدود من الرحالة، الذين أقبلوا إلى المنطقة لتغطية الأحداث الجارية أو للكتابة عن الحياة العربية في الخليج. ويبدو أن بعض الكتاب الغربيين الذين ارتحلوا في شبه الجزيرة العربية ومنطقة الخليج يمرون عبر عملية تعليمية، غالباً ما يعاشيها، بصورة أكبر، الباحثون الإثنوجرافيون، تفضي بهم إلى تقدير لما يلاحظ يكتب عنه. وعلى سبيل المثال فإن بابس رول (Babs Rule) كتبت رسالة إلى ابنتها في الولايات المتحدة مؤرخة في ١٤ يوليو ١٩٨١ تتحدث فيها عن كيف أنها تتمنى لو كان بمقدور ابنتها أن تكون معها «لتري، وتسمعي، وتعايشي الأمر كله، لتنغمسي في هذه الثقافة العربية، ولتقابلي هؤلاء الناس المذهلين»(١٨). وفي رسالتها الأخيرة من المملكة العربية السعودية، والمؤرخة في ١٠ أكتوبر ١٩٨١ تكتب ما كان يمكن لباحث متخصص في الاثنوجرافيا أن يكتبه، حيث تقول :

«لقد شاهدت وتعلمت الكثير خلال إقامتي، وتملكتني عاطفة حقيقية حيال هؤلاء الناس. ومع تزايد تفهمي لطرقهم ومعتقداتهم تزايد كذلك تسامحي معهم. ولم أعد أرغب في تغييرهم، ولا في حبهم في نسخ كربونية من نفسي ومن أصدقائي، وكما قالوا مرات عديدة، فإن لهم طرقهم، وهذه الطرق يتعين تقبلها وتقديرها لذاتها» (١٩).

إيضاح ثقافة الخليج العربية

تشير التغيرات التي حدثت في نوعية وأهداف كتابات الرحالة الحديثة عن الخليج إلى أن الرحالة الغربيين قد أصبحوا أكثر حرصاً على أن يكشفوا النقاب وأن يتفهموا ثقافة الخليج العربية ، التي غالباً ما ظهرت للغربيين غامضة، ومعقدة، كالصحراء العربية ذاتها. وكما سبقت الإشارة، فإنه بسبب أهمية منطقة الخليج في الحياة الاقتصادية والسياسية العالمية، منذ الأزمة النفطية في السبعينيات والمرحلة التي أعقبتها، والتي تميزت بالتنمية المستندة للدولارات النفطية في المنطقة والاستثمارات في الخارج، قام العديد من الرحالة بالاضطلاع بمهمة تقديم أبناء الخليج وجوانب من ثقافتهم. ولست أزعم أن الرحالة الغربيين منذ أوائل السبعينيات قد أصبحوا «اثنوجرافيين يدرسون ثقافة الخليج». غير أنهم نجحوا في أن يلقوا الضوء أمام القراء الغربيين على بعض المفاهيم الرئيسية التي من شأنها أن تساعدهم في فهم ثقافة الخليج العربية على نحو أفضل، واستيعاب المعاني الثقافية الكامنة وراء ما يقوله عرب الخليج وما يفعلونه.

وقد أصبح الرحالة الغربيون المحدثون تدريجياً، شأنهم في ذلك شأن الإثنوجرافيين، مطلعين على الثقافة المضيفة لهم، وتبنوا موقفاً أكثر تسامحاً منها، ساعدهم على أن يتفهموا بشكل أفضل، وربما أن يقدروا، ما كان قد بدا لهم أصلاً غير مقبول أخلاقياً، ومثيراً للحيرة ثقافياً. وعلى سبيل المثال، فإن بابس رول (Babs Rule)، بعد أن عاشت وسط الحريم، وألمت بالثقافة المضيفة من خلال المواجهة الشخصية والمعلومات المباشرة تكتب في رسالتها

الأخيرة من السعودية لابنتها قائلة: «أياً كان الأمر فليس بإمكانك البدء في معرفة أو فهم عربي دون أن تعرفي القرآن، وإدراك ما هو الذي يحكم حياته السياسية وكذلك الشخصية والعملية»(٢٠). ومن المملكة العربية السعودية تقدم ساندرا ماكي كذلك ملاحظة بالغة العمق فيما يتعلق بالمعنى الثقافي والايضاح الرمزي لصلاة المسلم، حيث تقرر أن:

«المسلم لاينظر إلى الصلاة باعتبارها ابتهالاً يلتمس به العطايا من الله، كما أنها ليست تواصلاً معه، وإنما هي بالأحرى طقس يمثل إدراكاً بقدرات الله، بينما صلاة الجماعة، أياً كان مكان أدائها، تؤكد إن المؤمنين إخوة، والصلاة هي احتفال بوحدة قبيلة هائلة، يجمعها معا الخضوع لله، والطاعة بأداء صلاة تؤكد أن المؤمنين سواسية» (٢١).

وهناك رحالة أخرى، هي موللي إزارد(Molly Izzard)، تؤكد كذلك الفكرة القائلة بأن الإسلام دين وطريقة حياة، وتشير لقرائها الغربيين إلى أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، سعي من أجل تحويل أمته من حياة عضوية خالصة، بعيدة عن التأمل كانوا يستمتعون بها، بكل ماديتها وافتقارها للنشاط الروحي، إلى وحدانية مفعمة بالصبر وبالثقة بحياة مستقبلية تلخص في الخضوع لمشيئة الله(٢٢).

وفضلاً عن ذلك فإن جون بولوك (John Bulloch) يؤكد أهمية الإسلام في ثقافة الخليج العربية، في ملاحظته: «إن الدين هو الذي يسيطر على خط الأفق في المدن المختلفة، حيث أن منارات المساجد وقبابها هي على الدوام أبرز المعالم التي تقع عليها العين، حتى وسط كتل المباني الشاهقة في المدن الحديثة».

وهو يبلغ قراءه بأمر الفرق والمؤثرات المختلفة التي ظهرت على امتداد تاريخ الإسلام وتركت أثرها على ثقافة الخليج: «بالنسبة للنظرة العابرة، فإن المساجد العديدة تبدو متماثلة، ولكن هناك فوارق مميزة بين مساجد الفرق المختلفة، وفي العديد من مدن الخليج فإن تأثير الهند وباكستان وبنجلاديش يمكن رؤيته في فن العمارة، حيث الخطوط المتقشفة للمساجد الوهابية تختفي وتتوارى في ظل مباني الشيعة الأكثر رونقاً. مع الاتجاه نحو جنوب الخليج، ثم

تبرز المساجد الإباضية التي لا تخطئها العين والتي تتميز بنمط من المنارات لا يُرى إلا في الخليج الأدنى وعمان (٢٣).

وإلى جانب الإسلام، يقدم التنظيم القبلي والتقاليد البدوية باعتبارها أموراً بالغة الأهمية لفهم ثقافة الخليج. ويلاحظ جوناثان رابان (Raban Jonathan) على نحو مثير للاهتمام في كتابه «شبه الجزيرة العربية – رحلة عبر المتاهة» كذلك أن :

«لقد طورت كل تقاليد البدو كوسيلة لتنظيم مجتمع مؤلف من رحالة ومهاجرين. وقد أعدت القبائل البدوية في شبه الجزيرة العربية نفسها، أكثر من أي شعب آخر في العالم، لحياة تقضي بصورة متواصلة في الترحال. وفي تحقيق تماسك العائلة والتعامل في يسر وبشكل سلمي مع الغرباء. وكان عرفهم الاجتماعي، بلغته الطقوسية وشكلياته المفصلة، أداة طورت إلى أبعد الحدود للتفاوض حول المرور عبر أراضي أناس آخرين. وقد قصد بهيكلهم العائلي بأدواره وانقساماته الصلبة أن يصمد أمام ضغط الحركة المستمرة وما يترتب عليها من خطر الانفصام. بمعنى آخر فإن البدو كانوا أفضل استعداداً لعالم السيارات وناطحات السحاب. والسفر بالطائرات النفاثة من أي شخص في أوروبا والولايات المتحدة»(٢٤).

ومن القضايا التي حظيت باهتمام كبير في كتابات الرحالة الضعف المتوقع للهوية والتضامن القبليين، مع عملية التحول في دول الخليج من تنظيم قبلي إلى مجتمع دولة. غير أنه من المثير للاهتمام أن نلاحظ أن بعض الرحالة كان بمقدورهم، فيما هم يشيرون إلى التغير الحادث في البنى والنفوذ القبلي في دول الخليج العربية التي قامت حديثاً، أن يقدموا معلومات لها مغزاها حول تواصل الثقافة البدوية. وربما يمكن العثور على إحدى الملاحظات المهمة والغنية بالمعاني في هذا الصدد في الصورة التي ترسمها ساندرا ماكي (Sandra Macket), حيث تلاحظ أن :

«البدو على الرغم من أنهم يسافرون بالطائرة الآن، إلا أنهم ما زال لهم موقف بدوي فيما يتعلق بكم وأنواع الأمتعة التي يصحبونها معهم، وعندما

يستقل بدوي طائرة فإنه يصحب معه حقائب متخمة وصندوقاً من الورق المقوى وفراشه مطوياً، ويمضي هذا كله إلى قسم الأمتعة بمخازن الطائرة بينما يحمل معه إلى مقصورة الركاب، كأمتعة خفيفة، حقيبة قماشية متخمة بالطعام وموقد طهيه النقال (٢٥).

وهي تشير كذالك إلى أن البدو في السعودية ليسوا خمسة في المائة من السكان فقط، كما يظهر تعداد أخير، فمن وجهة نظرها يعتبر هذا الرقم مضللاً، لأن البدوي لم يعد من الممكن تحديده من خلال حياة الرعي .

«إن قوة العقلية البدوية هي التي تعد أمراً مهماً بالنسبة لتصنيف السعودي كبدوي أو كعربي مدني، وليس أسلوب حياته. ووفقاً لهذا المعيار فإن البدو يشكلون جانباً يعتد به من السكان السعوديين» وهيمنة التقاليد البدوية أمر قائم في مجتمع الخليج العربي بأسره، على الرغم من التغيرات الكبيرة التي طرأت على أسلوب حياته.

ولم تؤكد كتابات الرحالة الحديثة على الإسلام والبنية القبلية كعنصرين أساسيين من عناصر ثقافة الخليج العربية فقط، وإنما أبرزت كذلك أهمية العائلة العربية بالنسبة للفرد. وفي غمار تأمل بابس رول لثقافتها في هذا السياق، ساورها الشعور بالحب والمسؤولية بين أعضاء العائلة المضيفة. وهي تكتب قائلة : «لقد خسرت العائلات المتناثرة في أمريكا الكثير للغاية، وهؤلاء الناس (وهي تشير هنا إلى أعضاء العائلة المضيفة لها) يعرفون أنه أياً كان ما يحدث لهم، فإن بمقدورهم دائماً أن يتوقعوا المساندة من العائلة. إنه تضامن بالغ العمق في صموده مستمد من تعاليم القرآن.» وتشارك ساندرا ماكي رول في رأيها، مشيرة إلى أنها قد وجدت «السعوديين يهتمون أشد الاهتمام بحماية العائلة». وكذلك أن «العائلة لا تتخلى عن أحد أعضائها لدى احتياجه لها أبداً» (٢٦).

وقد كفل نظام العائلة الكبيرة العدد، تقليدياً، رعاية من تمس حاجتهم إلى الرعاية، والمرضى، والمعوقين، وكبار السن، فالعائلة تعنى بالمطلقات والأرامل وأطفالهن اليتامى ومن إلى ذلك. ويشكل القريب الذي تربطه صلة الدم بباقي

العائلة عاراً شخصياً يلحق بهم إذا ما تركوه يعاني ضائقة مادية. وخلافاً للوضع في الغرب، فإن محاباة الأقارب تعد فضيلة، ومن شأن أي سعودي يرفض إسناد وظيفة لأحد أقاربه أن يلحق به عار لا سبيل إلى احتماله (٢٧).

وإلى جوار الإسلام والقبيلة والعائلة، فإن التفهم الكامل للغة العربية هو أمر أساسي لفهم من يعيشون في منطقة الخليج، أوفي أي جزء من العالم العربي. وفي هذا الصدد يلاحظ ديفيد لام (David Lamb) أنه إذا استثنينا الفرنسي فإنه ما من أحد يعلق أهمية على لغته أكثر من العربي، فاللغة العربية بالنسبة له هي أكثر من وسيلة للحوار، إنها وسيلة للعبادة، وتوشك أن تكون قوة ميتافيزيقية تقرب الإنسان إلى ربه، وهي لغة الملائكة، لغة الفردوس. ومن شأن حماية نقاء اللغة العربية أن يجعل كلمة الله نقية لا تشوبها شائبة إلى الأبد (٢٨).

واللغة العربية مرتبطة ومدعومة بالدين (الإسلام) والتنظيم الاجتماعي والتقاليد (القبيلة والعائلة) فتلك كلها أجزاء في كل متكامل، وإدراكها ضروري لإدراك كلي لفاعليات الحشد والمرئيّ الظاهر للعيان والنمطي لثقافة الخليج العربية. ويبدو أن يوسف الشيراوي وزير التنمية في البحرين يوجز خلاصة الأمر في مقابلة أجراها معه ديفيد لام (David lamb)، عند ما يقول : "إننا بدو، ومسلمون، وعرب" (٢٩).

حول التغير والمستقبل

تلقي كتابات الرحالة الى الخليج في السبعينيات والثمانينيات ضوءاً قوياً على قضيتين أساسيتين : التغير والمستقبل، وقد دخل الرحالة الغربيون إزاء المد الهائل والإيقاع السريع للتغير الذي حدث في فترة قصيرة نسبياً من الزمن، بل وفقاً للصور التي قدمها بعض هؤلاء الرحالة، بين عشية وضحاها. وقد لاحظت هيلجا جراهام في كتابها "آلة الزمن العربية" في العام ١٩٧٨ أن المجتمع الخليجي استطاع أن يستخدم العائدات النفطية لكي يحدث في غضون سنوات قلائل تغيرات اقتضى حدوثها في الغرب عدة قرون. وقد تأثر ديفيد لام (David lamb) بالتغيرات

التي شهدتها دولة خليجية، هي سلطنة عمان، والنجاح في إضفاء طابع إسلامي وعربي على التحديث المستلهم من الغرب، فكتب يقول :

«شعرت في بعض الأحيان، خلال وجودي في العالم العربي، بأنني في كبسولة عابرة للزمن، ومع ذلك فإنني لم أضطر للنظر بعيداً قط للعثور على قوى التغيير التي تحدث أثرها. فالنفط قد حطم الأعمدة التي يقوم عليها كل ما هو خامل وساكن، وقد وجدت عند الحافة الغربية لشبه الجزيرة العربية بلاداً يثير التحول الذي شهدته الخيال، فهناك في ركن منسي من أركان العالم قاد سلطان شاب شعبه بعيدا عن ظلام العصور، ومضى به إلى عتبة القرن الحادي والعشرين، ولم تستغرق هذه الرحلة إلا ثانية في عقارب ساعة التاريخ، ومع ذلك ففي هذه اللمحة مضت عمان لتتحدى المفهوم الذي يقول أن التحديث المستند إلى النفط لا يتماشى مع القيم العربية التقليدية» (٣٠).

ولم تهتم كتابات الرحالة بمسألة التغير وحدها، وإنما استكشفت كذلك نتائجها المتباينة بالنسبة للمجتمعات الخليجية، وكذلك بالنسبة للمجموعات العمرية والجنسية في إطار تلك المجتمعات. وكنتيجة لذلك فإن كتابات الرحالة اليوم أصبحت غنية بالملاحظات والمعلومات حول التطورات الجديدة، مثل افتتاح مصارف يقتصر القائمون على إدارتها والمتعاملون معها على النساء وحدهن. ويناقش جون بولوك (John Bulloch) في فصل عقده بعنوان "التاجرات والمغامرات" وضع النساء في عالم الأعمال، حيث أنه خلافًا لما يعتقده الكثيرون فإن العربيات لديهن ثروة طائلة. وقد منحت الهدايا التي تقدم للنساء، مثل الدور والأرض والبضائع وكذلك المهور التي يقدمها لهن الأزواج – كل ذلك منحهن نفوذًا ومكانة رفيعة. وفي الماضي لم يكن هذا مفيدًا إلا بشكل غير مباشر، حيث لم تكن لهن سيطرة مباشرة على أملاكهن، إلا أن وضعهن قد تغير اليوم".

وفي كثير من دول الخليج، هناك نساء على قدر طائل من الثراء، على الرغم من أنهن مازلن غير متعلمات، ويفتقرن إلى المعرفة بطرق الأعمال أو نشاط المصارف الغربية. ذلك الوضع بدوره آخذ في التغير مع زيادة فرص

التعليم المتاحة، وكذلك مع توافر الخدمات تثقيفية واستشارية، ووجدت النساء ساحة انطلاق جديدة لنشاطهن الاجتماعي تتسم بأنها تتوافق مع عالمهن ولكنها منفصلة عن الساحة التي ينشط فيها الرجال. وتظهر الآن مناشط أعمال أخرى من هذا النوع في الكويت، التي تعد الأكثر انفتاحًا من بين كل دول الخليج بالنسبة للنساء العاملات. وعلى سبيل المثال فقد قامت شركة بريطانية هناك بافتتاح مصنع تقوم النساء على كل شيء فيه، وينتج المقابس الكهربائية ومفاتيح تحويل التيار الكهربي وأدوات التوصيل الكهربائية.

وبينما يقوم الرحالة بوصف التغيرات في البيئة العضوية وفي شتى جوانب الحياة، فإنهم يفندون الافتراض القائل بأن عملية إضفاء الطابع الغربي تقضي على الثقافة العربية. وتلاحظ موللي إزارد (Molly Izzard) أنه :

"على الرغم من الأعاجيب التكنولوجية والمساعدات الحديثة فإن المجتمع الخليجي الحديث يبقي، فيما يبدو، على الكثير من سلوكياته القديمة، فالناس لا يزالون يتحدثون اللغة العربية، ويتناولون طعامهم التقليدي، ويتزوجون من بنات أعمامهم، وهي كلها أنماط سلوك يحدثنا علماء الاجتماع بأنها آخر ما يتغير في أي ثقافة. وهنا وهناك يثير شاب ضيق العائلة برفضه الزواج من ابنة عم له، بل والأسوأ من ذلك أنه قد يتزوج من أجنبية. ومن شأن الثلاجة أو البراد العملاق في المتجر أن يضيف إلى قائمة الطعام وجبات جديدة، وفي غير موسمها المألوف. والكلمات المتداولة تتغير والتعليم يسهل على نحو متزايد استخدام لغة أخرى ولكن العادات القديمة تظل إجمالاً قائمة. فالشباب يشكلون ارتباطاتهم الأولى في إطار جماعة من نظرائهم، ويعيشون في مجتمع ذكوري إلى أن يتزوجوا، وغالباً ما يحبون زوجاتهم، ويواصلون العيش في حياة مفعمة بالرضى الكامل كمواطنين مسؤولين وأرباب عائلات. ويتم استيراد الرياضات ووسائل الترفية الحديثة، كما تشاهد العائلة بكاملها التلفزيون، ولكن تتواصل في الوقت نفسه الحياة القديمة وقوامها صيد السمك والقنص بالصقور ونصب الشراك للأسماك والتريض على ظهر الجياد والقيام بنزهات حول النيران الموقدة باستخدام

جريد النخيل في هواء الصحراء البارد أو تحت سنا القمر الفضي على الكثبان الرملية وشواطئ بحرهاديء. وبالنسبة للجيل الطالع فإن مشقة الماضي الرهيب قد انتهت وكذلك رحلات الغوص على اللؤلؤ والرحلات بالسفن الشراعية انطلاقاً مع الرياح الموسمية والبقاء على مشارف الجوع. ويرى كبارهم أحياناً في هذه النشأة التي تحظى بالحماية خطراً قوامه نشأة جيل مدلل. يفتقر إلى المسؤولية. على غرار المجتمع الغربي (٣١).

وتلفت كتابات الرحالة نظر القارئ الغربي إلى قضية مهمة، تقتضي تحقيقاً إثنوجرافيا معمقاً وتحليلاً منهاجياً، وهذه القضية هي مشكلة قوم كانوا بشكل أو بآخر، قبل أن تغمرهم الثروات النفطية، راضين بالحياة على نحو بسيط ودونما تذمر، متمسكين بمعتقداتهم الدينية الأساسية ولكنهم الآن وفي غمار محاولتهم للانتفاع بثروتهم المفاجئة يضطرون في الوقت نفسه إلى التكيف مع التغير بينما يتشبثون بطرق حياتهم القديمة التي تحظى بالتوقير. ومنذ وقت لم يكن بعيداً، أي في الخمسينيات، أدرك الرحالة البريطاني تسيجر أن النفط من المحتم أن يجلب معه التغير في شبه الجزيرة العربية ومنطقة الخليج، وساوره الشعور بالأسى حيال النتائج المحتملة لذلك. فالبدو الذين عاش معهم وأحب حياتهم البطولية والبسيطة، أحس بأنهم مع قدوم النفط لن يكون بمقدورهم أن يتوقعوا إلا «الانحطاط». وبالنسبة له فإن: «الرجال يعيشون (في الصحراء) لأنها العالم الذي ولدوا فيه، والحياة التي يعيشونها هي الحياة التي عاشها أسلافهم من قبلهم وهم يتقبلون الصعاب وألوان الشظف، ذلك أنهم لا يعرفون لهم طريقة حياة أخرى (١٩٥٩). أما الآن فلديهم طريقة حياة أخرى، والسؤال الآن هو: كيف يتواءمون معها ؟ ».

ووفقاً لما يقوله جون دانيلز (John Daniels) فإنه: «ربما كان الأمر جلياً من خلال فن أبناء هذه الأرض وموسيقاهم ورقصهم وألوان الترفيه التقليدية لديهم فإن روحهم تتم المحافظة عليها وتستوعب ضمن الجوهر، إن جاز التعبير، والثروة والمعايير الحديثة جنباً إلى جنب ضمن نمطه الخاص»(٣٢). ويتصور رحالة آخر، هو جون بولوك (John Bulloch)، إمكانية

«مزج كل ما هو جيد من الثقافة الغربية والعربية، كما أنه يمكن أيضاً أن يجمع أسوأ ما فيهما»(٣٣). ويلاحظ ديڤيد لام (David Lamb) في حديثه عن تجربة سلطنة عمان أن: «السلطان، الذي حظي بنعمة أن يحكم عدداً غير كبير من السكان في نطاق قابل للتعامل الوفق معه، قد نجح حيث أخفق الآخرون، وذلك باضفاء طابع إسلامي وعربي على عملية تحديث بلاده المستلهمة من النموذج الغربي، حيث تلتقي ثقافتان لكنهما لا تتصادمان»(٣٤). وقد تأمل العديد من الرحالة المستقبل في ضوء عدد من السيناريوهات السياسية والاقتصادية جامعين خلاصات الكثير من الأعمال المنشورة. غير أن ساندرا ماكي تتصور مستقبل المملكة العربية السعودية باعتباره سيتحدد لا من خلال الصراع بين القوى الكبرى، وإنما بين الإسلام والغرب. ويحلل آخرون منطقة الخليج بأسرها من خلال المعايير ذاتها. فالثقافة (أكثر من السياسه) هي التي تشكل الحياة الخليجية اليوم وستشكلها غداً.

ملاحظات ختامية

اعتقد سير روبرت هاي (Rupert Hay)، الذي عمل على امتداد ثماني سنوات كمعتمد سياسي بريطاني مقيم في الخليج، من الأمور المرغوبة فيها أن يسجل وصفاً للمناطق التي لا يعرف عنها الكثير. وهو يقرر في مقدمة كتابه بعنوان «The Persian Gulf State» (١٩٥٩) إنه قد بعث بمخطوط الكتاب إلى عدد من الناشرين في انجلترا، دون أن يجد صدى إلا القول بأن جمهور القراء يريدون مذكرات شخصية وطرائف حول الشيوخ وليس معلومات. وبعد ثلاثين عاماً يبدو أن رغبة جمهور القراء قد تعرضت للتغير، فهم يسعون الآن إلى المعرفة والمعلومات فيما يتعلق بأبناء الخليج وثقافته وليس فقط القصص الطريفة والنميمة حول الصلات وضروب الإسراف اللاعقلاني والحياة المترفة لبعض الأفراد الخليجيون في بلادهم وخارجها.

وقد حاولت هذه الورقة أن توضح أن العديد من الصور الحديثة التي رسمها الرحالة الغربيون قد استجابت لتلك الرغبة، وأنجزت المهمة على نحو جيد بصورة ملحوظة في تثقيف الجمهور الغربي ودفعه نحو فهم أفضل لعرب الخليج وحياتهم الراهنة وطموحاتهم المستقبلية.

ومن المهم كذلك أن نلاحظ أن الاختلاف بين الثقافتين الغربية والعربية قد لفت على الدوام نظر الرحالة الأجانب، وغالباً ما أحس الرحالة الغربيون بالحيرة والارتباك حيال المفارقة بين ثقافتهم وثقافة العرب. على سبيل المثال كتب لويل توماس (Lowell Thomas) يقول :

«إن شبه الجزيرة العربية بلاد مقلوبة رأساً على عقب، فبينما نقيس معظم سوائلنا ونزن معظم جوامدنا، نجد أن أبناءها يزنون سوائلهم ويقيسون جوامدهم، وفيما نستخدم السكاكين والشوك والمعالق، يستخدمون هم أيديهم، وحيثما نستخدم الموائد والمقاعد، فإنهم يفترشون الأرض، وعلى حين نركب سياراتنا من اليسار، فإنهم يحيطون إبلهم وجيادهم من اليمين، ونحن نقرأ من اليسار إلى اليمين، بينما هم يقرأون من اليمين الى اليسار. وساكن الصحراء يغطي رأسه صيفاً وشتاء على السواء ولا يقي قدميه عادة، وبينماننزع قبعاتنا لدى ولوج دار صديق، فإنهم ينزعون نعالهم»(١٩١٧).

واليوم، بينما يواصل الرحالة الغربي في الخليج رصد وتسجيل الخلافات بين ثقافته وبين «الآخر»، فإن موقفه قد أصبح أقل تحيزاً وأكثر تسامحاً. وفضلاً عن ذلك فإن الرحالة قد تعلم أن يستقي المعلومات ويجمعها من مصادر مختلفة من المواد المنشورة، بما في ذلك الأعمال المتخصصة القائمة على البحث المتعمق، ومن هنا فإنني أعتقد أن الصور التي رسمها الرحالة قد تدعم الأعمال المتخصصة التي أنجزها الإثنوجرافيون المحترفون، على الرغم من الفوارق الملحوظة في الهدف والأسلوب والمنهاج. وخلاصة القول إنه بينما ما تزال الحاجة قائمة للاثنوجرافيا للتحليل المنهاجي والتفسير التكاملي لمجمل المجتمع الخليجي المعاصر، فإن كتابات الرحالة التي تدور حول الثقافة تظل مفيدة كمصدر لـ"المعرفة" المقارنة بين الثقافات.

الهوامش

أ – تتكون دولة الإمارات العربية المتحدة من سبع إمارات، هي : أبوظبي، دبي، الشارقة، رأس الخيمة، عجمان، أم القيوين، والفجيرة (وكانت تعرف في السابق بالساحل المتصالح). وتعادل مساحة الإمارات مساحة ولاية مين الأمريكية.

ب – يقدر أطلس البنك الدولي، الصادر في العام ١٩٩٢، سكان دول الخليج العربية على النحو التالي : الكويت ٤٢٣٠٠٠ نسمة دولة الإمارات العربية المتحدة ١٦٢٢٠٠٠ نسمة. السعودية ١٣٦١٠٠٠٠ نسمة. أعداد السكان في معظم دول الخليج العربية هي مجرد تقديرات وقد تتباين من مصدر لآخر.

ج – لمعلومات مفصلة عن الجوانب المتعلقة بحشدالطاقات في تشكيل مجلس التعاون للدول الخليج العربية والجوانب الجغرافية – السياسية المتصلة به، أنظر المراجع التالية : محمد رياض – "الجغرافيا السياسية والسياسة في دول الخليج العربية"، "جيوجورنال" د. رايدل للنشر، المجلد١٣، العدد٣، ١٩٨٦، فصل عن مجلس التعاون لدول الخليج العربية عقده حسن الإبراهيم في كتابه بعنوان «الكويت والخليج» مركز الدراسات العربية المعاصرة، جامعة جورجتاون، ١٩٨٤.

د – يشير نظام التصالح إلى المواد المتضمنة في الاتفاقيات العديدة والتي قامت على أساسها الهدنات والتي فُرضت من قبل الانجليز.

هـ – تشبه الخصائص الجغرافية والديموجرافية لدولة الإمارات العربية بشكل عام خصائص الدول العربية الأخرى في منطقة الخليج، فأرضها شأن أراضي هذه الدول جرداء إلى حد بعيد، وتحظى بموارد نفطية مهمة، وبها عدد محدود من السكان. غير أن هناك بعض السمات التي تميز الإمارات، فعلى الرغم من صغر مساحتها، خاصة لدى مقارنتها مع المملكة العربية السعودية، إلا أنها تتمتع بأراضٍ داخلية (مناطق بعيدة عن الساحل) تفوق بكثير الكويت والبحرين وقطر، وأراضيها تعكس تنوعاً أكبر في سماتها (بيك – ١٩٨٦ – ٤).

المراجع

Abed, George

1979 Oil and Development in the Arab Oil-Exporting Countries. In: The Arab Future: Critical Issues, edited by M. Hudson, Washington, D.C., Center for Contemporary Arab Studies, Georgetown University.

Al-Abraheem, Hassan

1984 Kuwait and the Gulf, Georgetown University: Washington, D.C., Center for Contemporary Arab Studies.

Adams, Percy

1983 Travel Literature and the Evolution of the Novel. Lexington: University of Kentucky.

Blake, Gerald, et al.

1980 Geographers of the Persian Gulf. In: lie Persian Gulf States: A General Survey, edited by Alvin J. Cottrell. Baltimore: The Johns Hopkins University Press.

Blandford, Linda

1976 Oil Sheikhs: Inside the Supercharged World of Petrodollar. London: W. H. Allen.

Bulloch, John

1984 The Persian Gulf Unveiled. New York.

Daniels, John

1975 Abu Dhabi: A Portrait. London: Longman.

Dickson, H.

1956 Kuwait and Her Neighbors. London: George Allen and Unwin Ltd.

Doughty, Charles M.

1946 Travels in Arabia Deserta. New York: Random House.

Fussell, Paul

1980 Abroad: British Literary Traveling Between the Wars. New York: Oxford University Press.

Graham, Helga

1978 Arabian Time Machine: Self-Portrait of an Oil State. London: Heinemann.

Hawley, Donald

1977 Oman and its Renaissance. London: Stacy International.

Hay, Rupert

1959 The Persian Gulf States. Washington, D.C.: The Middle East Institute.

Izzard, Molly

1979 The Gulf: Arabia's Western Approaches. London: John Murray Publications.

Lamb, David

1987 The Arabs: Journey Beyond the Mirage. New York: Random House.

Lawrence, T.E.

1976 Seven Pillars of Wisdom. Harmondsworth, Middlesex: Penguin Books.

Mackery, Sandra

1987 The Saudis: Inside the Desert Kingdom. Boston: Houghton Mifflin Company.

Raban, Jonathan

1979 Arabia: A Journey Through the Labyrinth. New York: Simon and Schuster.

Ricciardi, Lorenzo

1980 The Voyage of the Mir-El-Lah. London: Collins.

Rule, Babs

1986 Everyday Life in the Harem. Starbook Edition. (Originally published in 1983, London: Blond and Briggs).

St. Albans, Suzanne

1978 Green Grows the Oil. London: Quartet Books.

Thesiger, Wilfred

1959 Arabian Sands. London: Longmans, Green.

Timkinson, Michael

1975 The United Arab Emirates. London: Michael Timkinson Publishing.

Wheeler, Valerie

1986 Traveler's Tales: Observations on the Travel Book and Ethnography. Anthropological Quarterly.

الحواشي

1 - Abed, George. "Oil and development in the Arab Oil-Exporting Countries," in The Arab Future : Critical Issues, edited by M. Hudson (Washington, D. C. : Center for Contemporary Arab Studies, Georgetown University, 1979).

2 - Hay, Rupert. The Persian Gulf States (Washington, D. C. : The Middle East Institute, 1959), 11.

3 - Blake, Gerald, et al.,. "Geogra[hers of the Persian Gulf, "in The Persian Gulf States : A General Survey, edited by Alvin J. Cottrell (Baltimore : The Johns Hopkins University Press, 1980), 108.

4 - Ibid.

5 - Hay, 15.

6 - Al Abraheem, Hassan. Kuwait and the Gulf (Washington,

D. C. Center for Contemporary Arab Studies, 1984), 24.

7 - Raban, Jonathan. Arabia : A Journey through the Labyrinth (New Yor : Simon and Schuster, 1979), 20.

8 - Ibid., 20.

9 - Fussell, Paul. Abroad : British Literary Traveling Between the Wars (New York : Oxford University Press, 1980), 17.

10 - Ibid., 78.

11 - Mackey, Sandra. The Suadis : Inside the Desert Kingdom (Boston : Houghton Mifflin Company, 1987), 88.

12 - Ricciardi, Lorenzon. The Voyage of the Mir-El-Lah (London : Colins, 1980), 124.

13 - Raban, 36/36.

14 - Mackey, 72.

15 - Raban, 26.

16 - Lamb, David. The Arabs : Journey Beyond the Mirage (New York : Random House, 1987), 13.

17 - Rule, Babs. Everyday Life in the Harm (Originally published in 1983, reprint,

London : Blond and Briggs, 1986), 58.

18 - Ibid., 21.

19 - Ibid., 166.

20 - Ibid., 167.

21 - Mackey, 74.

22 - Izzard, Molly. The Gulf : Arabia's Western Approaches (London : John Murray Publications, 1979), 30.

23 - Bulloch, John. The Persian Gulf Unveiled (New York : [s.n.], 1984), 145.

24 - Raban, 147.

25 - Mackey, 105/106.

26 - Ibid., 110.

27 - Ibid., 111.

28 - lamb, 13.

29 - Ibid., 225.

30 - Ibid., 16.

31 - Izzard, 307.

32 - Daniels, Hohn. Abu Dhabi : A portrait (London : Longman, 1975), 87.

33 - Bulloch, 159.

34 - Lamb, 22

البحث عن النفط
(١٩١٨ - ١٩٦٠)
نظرة جديدة إلى جوانب واقع المنطقة

السيد جوليان ووكر

دبلوماسي متقاعد
انكليزي من مواليد لندن ١٩٢٩م

الوظائف :

- مساعد المعتمد البريطاني في الساحل المهادن (١٩٥٣ – ١٩٥٥).
- سكرتير ثالث ثم ثانٍ في المفوضية الإنكليزية بالبحرين (١٩٥٥ – ١٩٥٧).
- مسؤول الشؤون العربية في وزارة الخارجية بلندن (١٩٥٧ – ١٩٦٠).
- موظف بالسفارة البريطانية في أوسلو (١٩٦٠ – ١٩٦٣)، وبغداد (١٩٦٧)، والرباط (١٩٦٧ – ١٩٦٩).
- ناطق رسمي بوزارة الخارجية البريطانية (١٩٦٣ – ١٩٦٧).
- موظف في قسم شمال افريقيا في وزارة الخارجية (١٩٦٩ – ١٩٧٠).
- معتمد مقيم في دبي (١٩٧١)، ثم قنصل انكلترة فيها (١٩٧٢).
- سفير في صنعاء وجيبوتي (١٩٧٩ – ١٩٨٤)، والدوحة (١٩٨٤ – ١٩٨٧)
- قام بدور الوساطة لرسم الحدود الداخلية بين دول المصالحة، وبينها وبين سلطنة عمان.

تعد الخطوط العريضة للتغيرات التي حدثت في دول منطقة الخليج بعد الحرب العالمية الأولى خطوطًا متماثلة إلى حد بعيد على امتداد المنطقة، حيث تحولت مناطق – سيطرت عليها قبائل قوية مهاجرة، التي قدمت تأييدها لزعماء من الشيوخ البارزين أو حجبته عنهم – إلى دول نفطية مركبة ذات سيادة، وفرت حكوماتها خدمات تعكس الرفاهية لمواطنيها، الذين استقرت الغالبية العظمى منهم في مساكن دائمة. ولكن كانت هناك تنويعات في التفاصيل اعتمدت على الظروف المحلية، ومنها على سبيل المثال وجود زعيم واحد بارز (الملك عبدالعزين) أو أن تكون الدولة جزيرة (البحرين) وتأثير الغوص على اللؤلؤ. وأعتزم التركيز على التحول الذي وقع فيما بين ١٩١٦ و ١٩٧١ على الساحل المتصالح، وذلك لسببين معًا، هما أن هذه الندوة تعقد في دبي، وأن معرفتي بها أفضل من معرفتي بغيرها، وقد وقعت التغيرات هنا في وقت لاحق لحدوثها في شمالي الخليج، وكانت في الكثير من جوانبها أكثر تعقيدًا.

في عام ١٩١٨ كان من الممكن تقسيم سكان الساحل وأرض الظاهرة إلى ثلاثة تجمعات أساسية، وإن كانت متداخلة، هي: بدو الصحراء، وسكان قرى الصيد والواحات، ومواطنو المدن الساحلية. وقد سيطر البدو، الذين كانوا يتمسكون باستقلالهم تمسكًا شديدًا – والذين لا يقبلون بسيادة أحد عليهم غير الله – على صحراء أرض الظاهرة. وقام المناصير والعوامر وبني قتب والبوشامس والدروع بصفة أساسية برعي الإبل، بينما قام الطنيج والخواطر والزعاب والعلي برعي الماعز والإبل. كانت هناك تجمعات سكنية ذات طابع زراعي بصفة خالصة، بعضها في أودية القور وحتا والحلو والباطنة الشمالية، أنتجت التبغ للمدن الساحلية وللتصدير إلى الكويت والبحرين. وكان سكان المدن، التي شكلت ملاذات آمنة منذ عهد بعيد للجماعات العربية المتفرقة الخارجة على التسلسل الهرمي القبلي المجتذبة للأجانب في القرن التاسع عشر، مثل تجار الهولة والفرس والبلوش والهنود، الذين قام البريطانيون بحمايتهم – كان هؤلاء السكان أقل اتسامًا بالطابع القبلي بصورته الصارمة والحضرية. ولكنهم عادة كان لهم جناح قبلي سائد، غالبًا ما

ارتبط بالشيخ الحاكم. وتهتم الأسر الأكثر أهمية من هذا الجناح بالغوص على اللؤلؤ والتجارة باستخدام السفن التقليدية. وبفضل الأهمية الاقتصادية لهذه المدن وأسواقها حققت قدرًا معينًا من التميز والبروز على أرض الظاهرة، وربما قام حكامها بمد حمايتهم إلى التجمعات السكانية الداخلية، وسعوا للحصول على دعم البدو. وكان لبعض هؤلاء الحكام، بوصفهم شيوخًا لقبائل، مثل شيوخ أبوظبي وعجمان وأم القيوين، مصدر بديل للسلطة على بدو أرض الظاهرة. وقد اعتمدت سلطة الحكام بشكل عام على ثروتهم (أم القيوين) وشخصياتهم، وطول عهود حكمهم. ولم تكن هذه السلطة بالضرورة في المدن شاملة تمامًا، حيث إن رؤساء الأسر الحضرية الكبرى ربما حظوا كذلك بمرتبة الشيوخ، وربما كانوا أكثر ثراء من الحكام، فسيطروا من خلال أنشطتهم في الغوص على اللؤلؤ والتجارة على أتباع من الحضر وأنصار من البدو يناهزون أولئك الذين يسيطر عليهم الحكام. وحدت من سلطة الحكام الانقلابات المتوالية، التي كان يدبرها أقاربهم، الذين غالبًا ما حظوا بتأييد عائلات الحضر ذات النفوذ. كما حدّت من هذه السلطة كذلك حرية الحركة التي تمتع بها سكان الساحل، وغالبًا ما كان أفراد وجماعات صغيرة، أو في بعض الأحيان قبائل بكاملها، أو بطون قبيلة ينقلون دورهم من منطقة إلى أخرى دون فقدان دخلهم من الأنشطة البدوية أو البحرية. وقد اتفق الحكام عام ١٨٧٩ على سبل التعامل مع المدنيين المعسرين، الذين يفرون لتجنب الوفاء بالتزاماتهم، وقد كان القصد من هذا الاتفاق ضمان ألا يسبب مثل هؤلاء المهاجرين المتاعب بين المشيخات المتجاورة، في غمار أي محاولات يقومون بها لتجنب الوفاء بالتزاماتهم.

وكان هذا أمرًا مهمًا، حيث إن الغوص على اللؤلؤ، الذي اعتمد عليه الساحل بشكل كامل تقريبًا في رخائه، كان يدار على أساس المديونية. وفي بداية القرن العشرين أورد الدليل البريطاني الرسمي المتعلق بالخليج، الذي ألفه لوريمر Lorime، أن ١٢١٥ سفينة تحمل على متنها ٢٢٠٤٥ رجلاً قد انطلقت من الساحل المتصالح إلى موسم الغوص الرئيسي، الذي عرف باسم الغوص الكبير، والذي كان يستمر من يونيو حتى نهاية سبتمبر في أكثر مواعيده تبكيرًا. فعدد العاملين في مهنة الغوص تمثل نسبة كبيرة من عدد السكان إلى حد أن معظم التجمعات السكانية الساحلية كانت تجرد كلية تقريبًا من

سكانها من الذكور خلال الصيف. ودرج سكان الجو من المناصير وبني ياس على ترك محصول مزارع نخيلهم من التمر لتجنيه النساء. وشق بعض أبناء قبائل الظواهر والنعيم والبوشامس طريقهم بصعوبة من البريمي إلى الساحل للانضمام إلى سفن الغوص. وكان الشحوح يهجرون جبالهم للمشاركة في موسم الغوص. إضافة إلى ذلك كانت تأتي إلى مواسم الغوص مجاميع كبيرة من الرجال من منطقة الباطنة.

واعتمد تمويل الغوص على المديونية، إذ كان قباطنة سفن الغوص يقترضون من التجار العرب والهنود الأثرياء، ويقومون هم أنفسهم بدور الدائنين لبحارة سفنهم، الذين يلتزمون، بحكم ديونهم، بالعودة إلى السفن ذاتها موسمًا بعد آخر. وبينما كان الغوص على اللؤلؤ الدعامة الأساسية لاقتصاد الساحل، فإنه كان مقامرة كبرى، حيث كانت أسعار المحاصيل عرضة للتذبذب بشكل كبير. وقد كان لحكام الساحل دخل من الغوص، فمثلاً كان حاكم أبوظبي يستلم حوالي ٦٢٠٠٠ دولار ماريا تريزا سنوياً على صورة ضرائب من العاملين بالغوص على اللؤلؤ والاتجار فيه، بينما جمع حكام الشارقة ودبي وأم القيوين حوالي ٢٠٠٠٠ روبية سنويًا.

وكانت التجارة والنقل البحري بالسفن التقليدية تأتي في المرتبة الثانية بعد الغوص على اللؤلؤ، باعتبارها المصدر الرئيسي الآخر لاقتصاد موانئ الساحل المتصالح. وقد ساهمت السفن التقليدية في تجارة إعادة التصدير، إذ كانت تنقل السلع المجلوبة بالسفن التجارية الكبيرة من دبي إلى موانئ أخرى على الشاطئين العربي والفارسي للخليج، كما قامت برحلات بحرية لمسافات طويلة إلى رأس الخليج والهند وافريقيا. حيث موسم الاتجار هذا يقع ما بين شهري أكتوبر ويونيو. تجارة المسافات الطويلة هذه مكنت بحارة سفن الغوص من العثور على عمل بين مواسم الغوص، إذا رغبوا في ذلك. بجانب هذين المصدرين الرئيسيين لاقتصاد المنطقة، كان هناك صيد السمك وبعض الزراعة المحدودة.

في أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات أُصيبت صناعة اللؤلؤ بكساد كبير. وذلك نتيجة لعاملين أساسيين، أولاً ظهور اللؤلؤ الصناعي الياباني

الرخيص الثمن، وثانيًا التغير الاجتماعي الذي أصاب الأذواق والأزياء الغربية، حيث أصبحت الفراء والسيارات مرغوبة بشكل أكبر من الحلي والمجوهرات. هذا التغير في الأذواق ودخول اللؤلؤ الصناعي كمنافس للؤلؤ الطبيعي صاحبه أيضًا انخفاض في محاصيل اللؤلؤ الطبيعي في السنوات الأخيرة من عقد العشرينيات. وأصابت كارثة الغوص هذه فيما بين عامي ١٩٢٩ و ١٩٣١ الكثير من التجار بحيث أصبحوا غير قادرين على تأمين الدعم المالي لسفنهم. وازدادت الأمور سوءً بسبب الكساد العالمي إذ أصاب الأسعار، مما أدى إلى إفلاس العديد من التجار. وكان الضيق الاقتصادي الذي أطبق على الساحل حادًا، وبدا تعرض السكان الأكثر فقرًا للتضور جوعًا أمرًا وشيكًا، وشعروا بالضيق حتى الحكام، وعلى الرغم من أن المواسم وحصيلتها قد تحسنت بعد عام ١٩٣١ إلا أن الأسعار لم تعد إلى ما كانت عليه، وانكمش أسطول الغوص على اللؤلؤ إلى جزء محدود من حجمه السابق.

أدت عمليات إشهار إفلاس التجار واقتراب الفقراء من التضور جوعًا إلى تدهور الأمن على الساحل. وانهيار في الداخل، مما أدى إلى ظهور التنافس والصراع على الموارد الضئيلة المتبقية، واشتد التماسك القبلي في مواجهة افتقار أفراد القبائل للأمن خارج إطار القبيلة. وفي الوقت نفسه تراجعت سلطة حكام الساحل المتصالح على القبائل.

وقد كانت معاناة هؤلاء الحكام من تقلص الغوص قليلة مقارنة بالعديد من تجارهم ورعاياهم. وعلى الرغم من أن الضرائب المفروضة على الغوص قد انكمشت، إلا أن الحكام كانت لديهم مصادر دخل أخرى. خاصة تلك التي جاءت نتيجة للاتفاقيات التي بدأوا في توقيعها حول التسهيلات الجوية للحكومة البريطانية ومنح امتيازات التنقيب عن النفط وغيره من المعادن للشركات الأجنبية. وحاول التجار، الذين أصبح الكثير منهم الآن أفقر من الحكام، استغلال مكانتهم الاجتماعية، للمطالبة بنصيب في إدارة الدولة ودخلها. وفي معظم المدن احتوى الشيوخ جهودهم، حيث أفلحوا في تحقيق المصالحة مع أقاربهم الأدنين أو السيطرة عليهم. ولكن في دبي التي أديرت

شؤونها من قبل البوفلاسة بوصفها زمرة موحدة بالقدر ذاته الذي أديرت به من قبل الحاكم، أعلنت «حركة إصلاحية» يقودها أبناء عمومة الحاكم قامت سلطتها في المدينة في عام ١٩٣٨، وسرعان ما أصبحت مجردة من الشعبية، وقام الشيخ سعيد، الذي شجعته زوجته وأبناؤه، بطرد الحركة من ديره، وأدت محاولات قادتها لاستعادة المقاليد إلى نشوب حرب قصيرة بين دبي والشارقة في عام ١٩٤٠.

ودعمت سياسات البريطانيين كذلك وضع الحكام، فقد أصر ممثلوهم على التعامل مع الحكام وليس مع الآخرين، وثبطوا على نحو متزايد المحاولات الانقلابية، ولم يرحبوا بالاغتيال بوصفه وسيلة للاستيلاء على مقاليد الأمور. وفي الوقت نفسه تذبذب ميزان القوى بين الدول المختلفة. واستغرق الأمر في أبوظبي حتى ما بعد الحرب العالمية الثانية لتتجاوز الصعوبات، التي اعترضت طريق حكامها في العشرينات، وازدهرت دبي في تجارتها، وأصبحت بحلول عام ١٩٥٠ مدينة كوزموبوليتانية تضم ٣٥٠٠٠نسمة. أما الشارقة فقد ابتليت بمحنة تغرين خورها والافتقار إلى السيطرة على وجهائها. وراحت أم القيوين تتراجع ببطء، بعد أن حرمت من الثروة التي جنتها من الغوص. وأصبحت القرى الساحلية (الخان، الحيرة، الحمرية، جزيرة زعاب، الرمس) التي أضعفتها خسائرها في المهنة ذاتها فرائس أكثر سهولة للبدو، ومالت إلى أن تغدو أكثر خضوعًا لحكامها، الذين تدين لهم بالولاء، خاصة وأن البريطانيين ترددوا في قبول مطالبها بالاستقلال. غير أنه على ساحل الشميلية حيث إضعفت سلطة سادة سابقين من القواسم نتيجة إصرار البريطانيين على مراقبة الهدنة البحرية والصعوبة التي واجهوها في نقل القوات برًا عبر صحراء يسيطر عليها البدو وجبال يقطنها الشرقيون. وفي عام ١٩٣٦ اعترف البريطانيون أول مرة باستقلال كلباء، عندما احتاجوا إلى أرض لنزول الطائرات عليها. وفي عام١٩٥٢ قبلوا استقلال فجيرة الشرقيين، لكي يوقعوا اتفاقاً على امتيازات نفطية. ومن ناحية أخرى فإن حاكمي أبوظبي وأم القيوين واصلا الاحتفاظ بسيطرتهما على تجمعاتهما السكانية الداخلية في البريمي وفلج المعلا، بل

أن شيخ عجمان النعيمي مدّ نطاق سلطته في المنامة ومصفوت، وأفلحت دبي في الاحتفاظ بسيطرتها على حجرين (حتا).

خلال الحرب العالمية الثانية طرأت تغيرات على موقف البريطانيين على الساحل، أسفرت بالفعل عن كبح جماح قوة القبائل، فقبل انهيار الغوص على اللؤلؤ كان الدور البريطاني على الساحل تتم ممارسته إلى حد كبير من خلال الوكيل السياسي المقيم في الشارقة والزيارات غير المنتظمة التي يقوم بها الضابط البحري الرئيسي في الخليج الفارسي، وتم تركيز هذا الدور على ضمان السلام في البحر، ومنع الاتجار في السلاح والرقيق، وحماية التجار الهنود البريطانيين في موانئ الساحل. ولم يكن وكيل المقيم السياسي يتدخل عادة في الشؤون الداخلية إلا عندما يعتقد أن المتاعب على الساحل تهدد إحدى هذه المصالح البريطانية. وإذا ما اقتضى الأمر فإنه يستعين بالبحرية الملكية. وفي مناسبات نادرة تلجأ هذه الأخيرة إلى القصف البحري لإذعان الحاكم للمطالب البريطانية. وبخلاف ذلك كان الوكيل المقيم السياسي يمتنع عن التدخل في القتال بين الجماعات السكانية المحلية، إذا ما اعتقد أن الصراع لن يؤثر على السلم في البحر أو على الديون المستحقة للتجار الهنود البريطانيين.

ثمة عامل آخر زاد من تدخل بريطانيا في المنطقة ألا وهو اعتماد طريق جوي بين انجلترا والهند عبر الخليج في نهاية العشرينات. في الوقت الذي بدأت فيه السعودية وفارس تضعان السلطة البريطانية في المنطقة موضع التساؤل.

في البداية اعتقدت بريطانيا أنه سيكون من الصعب للغاية اعتماد طريق لهبوط طائرات شركة الخطوط الجوية الأمبراطورية في قاعدة أرضية، ولكنهم اعتقدوا أنه يمكن تدريجيًا اعتماد هذا الطريق من خلال قيام سلاح الجو الملكي باستخدام طائرة «وابيتي» البحرية. وكانت هناك صعوبات كبيرة حول إرساء الجزء المتعلق بالساحل المتصالح من هذا الطريق، حيث انتاب الشيوخ الشك في أن التدخل الغربي قد يتهدد حريتهم، واعتبر البريطانيون الناس «عصاة ومتخلفين» وتفاقمت هذه الصعوبات لأن سلاح الجو الملكي اختار خور رأس الخمية كنقطة هبوط للطائرات. وقد قاوم الشيخ سلطان بن

سالم – بقوة وأثار العديد من الاعتراضات. وعقب ذلك، وفي عام ١٩٣٢، أصبح من الجلي أن الحكومة الفارسية لن تكون على استعداد لتجديد اتفاقها الخاص بطريق لشركة الخطوط الجوية الإمبراطورية على امتداد الشاطئ الشمالي للخليج. واضطر البريطانيون إلى إجراء ترتيبات فورية من أجل طريق جديد على امتداد الشاطئ الجنوبي، مع اعتماد أرض هبوط مطلة على الساحل المتصالح. وقد تردد الحكام بشدة في الموافقة، ولكن حاكم الشارقة الذي كان في أمس الحاجة إلى الدعم المالي، تفاوض حول اتفاق على منطقة لهبوط الطائرات هناك. ولي يصل المفاوضون البريطانيون إلى هذا الاتفاق اضطروا إلى أن يؤكدوا له أنهم سيحترمون استقلاله وحريته الكاملة، ولن يحرموه من الأرض، ولن يتدخلوا في شؤونه الداخلية، أو في شؤون غواصيه وخدمه، ولن يكون هناك أي ممثل بريطاني رسمي في منطقة الهبوط، وسيدعمونه إذا ما هدده أي من شيوخ الساحل نتيجة للاتفاق.

وقد تأثر الكولونيل ديكسون Colonel Dickson الذي كتب تقارير عن التفاوض حول الاتفاق بالخوف والتشكك، اللذين أظهرهما بوضوح حكام الساحل المتصالح تجاه الحكومة البريطانية، واللذين تجاوزا خوفهم من شعبهم. ووصف ديكسون عرب الساحل بأنهم أفظاظ متشككون معادون لانفتاح بلادهم على العالم. غير أنه على الصعيد العملي لم يؤد تطبيق اتفاق الشارقة عام ١٩٣٢ بخصوص التسهيلات الجوية إلى صعوبات تذكر، واعتاد سكان الساحل تدريجيًا على وصول الطائرات. وفي عام ١٩٣٦ اعترف البريطانيون، الذين احتاجوا إلى مدرج للهبوط الطارئ على الساحل الشرقي، باستقلال كلباء، حيث إنه كان من الجلي أن سلطة حاكم الشارقة لم يكن معترفًا بها هناك. وبعد ذلك بعام، وعقب وفاة الشيخ سعيد، شيخ كلباء انغمسوا في عملية تعيين نائب للحاكم هناك (الشيخ خالد بن أحمد) لضمان استمرار السلم في المنطقة.

وفي عام ١٩٣٧ بدأت الطائرات المائية التابعة لشركة الخطوط الجوية الإمبراطورية في الوصول إلى دبي. وقام الضابط السياسي البريطاني بترتيبات خاصة في عام ١٩٤٠ لدى اندلاع القتال بين الشارقة ودبي لنقل

الركاب من الطائرات البحرية التي ترسو في خور دبي، مرورًا بخطوط المواجهة إلى الاستراحة الموجودة في الشارقة. وفي عام ١٩٤٢ وصل سلاح الطيران الملكي بقوة إلى الشارقة، الأمر الذي منح الحاكم المزيد من الدخل والمكانة الرفيعة. وتدريجيًا أصبح الطيران البريطاني الحربي والمدني وتدخل البريطانيين لضمان استمراره مقبولاً على الساحل.

وإذا كانت الحاجة إلى طريق جوي إلى الهند هي التي جعلت البريطانيين يهتمون أول مرة بمدن الساحل، فقد كان الاهتمام باحتمال العثور على النفط في المنطقة هو الذي قدر له أن يفتح أرض الظاهرة على العالم، رغم مقاومة السكان المحليين للتغلغل الخارجي.

ففي عام ١٩٣٢ اكتشف النفط في البحرين بواسطة شركة أمريكية (ستاندر اويل أوف كاليفورنيا). في حين أخفق البريطانيون في الحصول على امتياز للتنقيب عن النفط في المملكة العربية السعودية.

أما منطقة الإمارات فقد بدأ تحرك شركات النفط فيها منذ عام ١٩٣٥ والتي بدأها ميجور فرانك هولمز Major Frank Holmes المفاوضات نيابة عن شركة تابعة لشركة نفط العراق، هي شركة امتيازات النفط المحدودة. أول اتصال قام به كان مع الشيخ سعيد حاكم دبي، الذي اختاره الحكام ليكون صاحب الخطوة الأولى وتم توقيع اتفاق الامتياز الأول في عام ١٩٣٧. ويحلول الوقت الذي وقع فيه الشيخ شخبوط حاكم أبوظبي اتفاقه في عام ١٩٣٩ كان معظم الحكام قد توصلوا إلى التفاهم مع شركة النفط. وخلافًا لمعظم الاتفاقات التي كانت قد وقعت حتى ذلك الحين بين الحكام والبريطانيين، فإن اتفاقات امتيازات النفط هذه قد مست مسًا وثيقًا الشؤون الداخلية للمشيخات. فقد نصت على أنه من الضروري للبريطانيين وشركة النفط معرفة مدى سيطرة الحاكم على مختلف القبائل في أرض الظاهرة، والتعرف على الحدود بين المشيخات. ومنحت إمكانية اكتشاف النفط في الصحراء الجرداء قيمة محتملة لم يسبق أن كانت لها من قبل قط. ولم يكن من قبيل المصادفة أن أول محاولة للاتفاق على الحدود على الساحل بين أبوظبي ودبي قد حدثت في عام ١٩٣٧.

وقد كان من الطبيعي أن يهتم البريطانيون بتحديد مثل هذه الحدود. ففي صيف عام ١٩٣٧ قام الوكيل السياسي المقيم بجمع المطالب الإقليمية من حكام الساحل كافة، باستثناء الشيخ سلطان بن صقر حاكم الشارقة، الذي كانت له حقوق شرعية شاسعة ومطالبات واسعة النطاق، إلا أنه رفض إيضاح مطالبه. ومن جديد بحث البريطانيون مسألة ما إذا كانوا سيعترفون بالحمرية، التابعة للشارقة، باعتبارها مستقلة عنها، ولكنهم كانوا يمقتون إضافة المزيد إلى مسؤولياتهم. ولما كانوا يدركون أنه لا يمكن أن تكون هناك حدود لعدد الشيوخ الساعين إلى أن يعترف بهم، بمن في ذلك الشيوخ الذين ينتمون إلى الداخل القبلي. إذا كان الأمر متعلقًا بأموال النفط، فقد أوصوا بأن الشركة ينبغي أن تحاول الوصول إلى المناطق المنشودة، أو أن تضغط من أجل ذلك، من خلال مختلف الشيوخ الذين تم الاعتراف بهم، والذين قد يتعين عليهم القيام بدفع أموال للتجمعات السكنية التابعة لهم ولشيوخ القبائل، في مقابل السماح للشركة بالوصول إلى المناطق المنشودة.

في الوقت نفسه قرر المقيم السياسي أن الحكومة البريطانية ينبغي أن تساعد الشركة بكل السبل الممكنة. وبعث بالسيد هاوز Howes المعتمد السياسي المساعد بالبحرين لمساعدة مسؤولي الشركة على التنقيب في المناطق الداخلية (البعيدة عن الساحل). غير أنه في أواخر عام ١٩٣٨ كتب هاوز يقول في تقرير له : إن الشركة قد وجدت أن شيوخ أرض الظاهرة من المستحيل التعامل معهم. وأعرب عن اعتقاده بأن مسؤولي الحكومة البريطانية كانوا في ذلك الوقت يحظون بالقبول في الساحل. حيث إنهم سمحوا، بقدر الإمكان، للحكام بإدارة شؤونهم وتعاملوا معهم بإنصاف فيما يتعلق بالشؤون النفطية والجوية، وحالوا دون احتواء جيرانهم الأقوى منهم لهم. ولكن موقف قبائل أرض الظاهرة ظل في آن واحد متشككًا في الحكام ومعاديًا للأجانب. وفي يناير ١٩٣٩ كتب المقيم السياسي السير ترينشارد فاول Trenchard Fowle يقول في تقرير له : إن موقف القبائل المحلية يوجز في كلمات استخدمها كبار رجال هذه القبائل في حديثهم مع هاوز في العام السابق: «لا نريد نفطكم، لا نريد نقودكم، ولا تعجبنا سياراتكم».

اندلاع الحرب العالمية الثانية كثف من الوجود البريطاني في المنطقة. في عام ١٩٣٩ أصبح جليًا أنه لم يعد بمقدور الوكيل السياسي المقيم أن يتعامل وحده مع كل المسئوليات على الساحل، لذا وافق المقيم السياسي على تعيين هاوز في الشارقة خلال فترات الشتاء حيث الجو مقبول. ومع اندلاع الحرب أصبح هاوز ومن أعقبوه على منصبه في الشارقة مسؤولين جنبًا إلى جنب مع الوجهاء المحليين على توزيع المؤن الغذائية على سكان الساحل ومنطقة الظاهرة. وكان هناك فائض من هذه الإمدادات والمؤن الغذائية استفاد منها التجار في دبي خاصة، حيث قاموا بتصدير جزء منها إلى مناطق أخرى في الخليج، كانت أقل حظًا ونصيبًا من هذه المؤن. وقد ساعد على ذلك بعض تجار دبي على الانتعاش والخروج من الكساد الناجم عن انهيار تجارة اللؤلؤ. وكنتيجة لذلك بدأ السكان المحليون يدركون أن البريطانيين لا يهتمون بالمصالح البريطانية وحدها، وإنما هم معنيون بمصلحة هؤلاء السكان أيضاً. وفضلاً عن ذلك فإن البريطانيين، حرصوا أيضًا على حماية المحاصيل الزراعية في الساحل والمناطق المحيطة به من كارثة الجراد، حيث أنشأوا منظمة مكافحة الجراد الصحراوي. وعندما قام رجال هذه المنظمة بتنفيذ حملات المكافحة في المناطق الداخلية رحب البدو بهم، إذ كان الجراد كارثة عليهم، تمامًا كما هو كارثة على المزارعين. وفي عام ١٩٤٣ قام الشيخ محمد علي بن هويدن زعيم بني قتب، الذي عارض أصلاً توغل شركة النفط ومنظمة مكافحة الجراد الصحراوي في أراضيه بمسالمة البريطانيين وزار ممثلهم في الشارقة.

مع وصول بعض سلاح الطيران الملكي البريطاني إلى الشارقة عام ١٩٤٢ أتاح بعض فرص للعمل ، سواء بالنسبة لأتباع الحاكم أم للبدو المحليين من أبناء قبيلته. وحتى قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية سعت السلطات البريطانية لخدمة مواطني الساحل، وذلك من خلال تنظيم حملات للتطعيم في المدن للتصدي لانتشار الأوبئة هناك، كما وأنشأت مستوصفاً في دبي في عام ١٩٣٩. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، وعلى وجه التحديد في

عام ١٩٤٩ حل محل المستوصف مستشفى المكتوم، تحت إشراف طبيب بريطاني، هو ديزموند ماكولي Desmond McCaully .

الخدمات الإنسانية التي قدمتها الحكومة البريطانية لسكان الساحل أثناء الحرب العالمية الثانية تركت أثرًا حسنًا وتقبل أكبر للوجود البريطاني. كما انعكس ذلك على مواقف السكان من شركة النفط حيث وجد مسؤولوها أن موقف القبائل منهم ليس على سابق عهده من العداء، كما كان الحال عليه قبل عشر سنوات. غير أنهم ظلوا يواجهون العديد من المشكلات، وبين الحين والآخر كتعرض جيولوجيوهم لإطلاق النار.

في عام ١٩٤٨ ارتأت الخارجية البريطانية الاعتراف بكل من الحمرية والفجيرة إمارتين مستقلتين (وكانت المسؤولية عن الساحل قد انتقلت من حكومة الهند إلى وزارة الخارجية لدى الانسحاب البريطاني من شبه القارة الهندية) ولكنها لم تصل إلى نتيجة حاسمة. وحتى في الإمارات التي اعترفت بها الحكومة البريطانية واجهت شركة النفط صعوبات، حيث لم تكن هناك حدود مكرسة. حيث أثارت توقعات الحصول على ثروة من النفط آمال الحكام، وشجعت المنازعات الإقليمية بينهم. وقد ظهر ذلك واضحًا في النزاع الذي حدث بين أبوظبي ودبي عام ١٩٤٥. واستمر حتى عام ١٩٤٩ عندما تدخل المقيم البريطاني للفصل في النزاع وذلك بوضع حدود فاصلة بين الإمارتين. غير أن الخط الذي تم التوصل إليه، والذي يمر باتجاه الجنوب الشرقي من رأس حصيان إلى طوى العشوش، لم تقبله دبي إلا بتردد. أما الشيخ شخبوط فلم يقبل هو الآخر بهذا التقسيم، وساءت بسبب ذلك علاقاته مع البريطانيين. ومما زاد من مشاكل الحدود تعقيدًا توسيع السعوديين في عام ١٩٤٩ من نطاق مطالبهم في مساحات شاسعة من الصحراء، التي رأى البريطانيون على الدوام أنها جزء من أبوظبي.

استمرار الوضع على ما هو عليه بالنسبة للحدود وبالنسبة لعدم الاستقرار الأمني شكّل معضلة للبريطانيين، الذين حاولوا التدخل مرارًا لفرض السلام كما حدث في فترة النزاع بين دبي وأبوظبي، حيث قامت السلطات

البريطانية بالعديد من المحاولات لوقف القتال، حتى عندما لم يتعلق الأمر بالمصالح البريطانية، وفرضت عقوبات اقتصادية على الطرفين كليهما في أوقات مختلفة، في غمار جهودها للقيام بذلك. ولجأت إلى العقوبات الاقتصادية مجددًا ضد حاكم الشارقة، عندما تشككت عام ١٩٤٨ في قيامه بمساعدة الشيخ سلطان بن سالم، الحاكم السابق لرأس الخيمة، بعد قيام هذا الأخير بسحب مسدس على المعتمد السياسي البريطاني المبعوث من البحرين في مدينته. ولكن العقوبات الاقتصادية كانت سلاحًا غير حاسم يؤثر على المذنب والبريء كليهما، ولم يكن بمقدورها ضمان الأمن في منطقة الظاهرة.

وقد قرر البريطانيون في عام ١٩٤٨ تكثيف جهودهم للدعوة للإدارة الجيّدة والتنمية الاقتصادية والتقدم الاجتماعي على الساحل. واستشرفوا أنه قد يكون من الضروري إنشاء قوة للقضاء على تجارة الرقيق والحفاظ على السلم بين المشيخات. وفي عام ١٩٥١ ظهرت هذه القوة، التي عرفت باسم الليفي عمان المتصالحة. فبريطانيا، بينما كانت قوة إمبراطوريتها تتراجع، اضطلعت في نهاية المطاف بدور إقليمي لبث الأمن والاستقرار في المنطقة ككل.

في أغسطس ١٩٥٢ وصلت مفرزة سعودية تحت قيادة تركي بن عطيشان إلى قرية حماسة في واحة البريمي مما دعا البريطانيون والليفي (الذين كانوا سموا بعد كشافة عمان المتصالحة) على التركيز على التصدي للجهود السعودية للسيطرة على الداخل. في أكتوبر ١٩٥٥ تم جلاء السعوديين عن المنطقة. وامتدت سلطة قوات ساحل عُمان على جميع الأراضي واستطاعت أن تحفظ الأمن، كما دعمت أبوظبي سيطرتها على البدو، الذين يجوبون أرجاء منطقة الظاهرة، وكان السلطان قد بذل الكثير من الجهد لتقوية قبضته على داخل عمان وعلى القطاع التابع له من الواحة. وقام البريطانيون بعد التشاور مع السلطنة وأبوظبي بإعلان حدود، كانت بمثابة حل وسط، بين هاتين الدولتين والمملكة العربية السعودية، وبدا أنهم عقدوا العزم على فرضها فرضًا.

أكد النزاع على البريمي مخاطر ترك الخلافات الإقليمية دون تسوية، في وقت شجعت الآمال المعلقة على الاكتشافات النفطية الحكومات على توسيع

نطاق مطالبها الإقليمية. وفي الوقت نفسه، كانت شركة النفط التي أطلق عليها، في ذلك الوقت، شركة تنمية نفط الساحل المتصالح، تضغط من أجل تعيين الحدود المحلية، وبصفة خاصة فيما يتعلق بالشارقة، إذ إن اتفاق مسؤوليها مع حاكم الشارقة كان يلزمهم بالتنقيب في أراضي الشارقة في إطار زمني محدد. وكان الأمن الذي أقرته كشافة عمان المتصالحة في أرض الظاهرة لا يزال يشوبه نزاعات إقليمية محلية، مثل النزاع في مسافي بين رأس الخيمة والفجيرة، وفي وادي المَدْحَة بين الشارقة والسلطنة، مما أسفر عن وقوع اشتباكات وتوتر العلاقات بين الحكام. وأهاب البريطانيون بحكام الساحل المتصالح ترتيب تسويات للحدود فيما بينهم. ولكن الشيوخ ذهبوا إلى القول بأن السلطات البريطانية وحدها هي التي تستطيع إنجاز مثل هذه المهمة المثيرة للخلاف. وفي أوائل عام ١٩٥٤ قام المعتمد السياسي، انطلاقًا من دبي بجولة في حدود رأس الخيمة – أم القيوين الشمالية، واكتشف أن خطًا للحدود كان يعتقد، عن خطأ، أنه لا نزاع عليه سيقتضي الكثير من العمل قبل الوصول إلى تسوية بشأنه. وفي العام نفسه حصل على موافقة من حكام الإمارات الشمالية المتصالحة على القبول بتحكيمه في النزاعات على حدودهم، وبصفة خاصة في النقاط الساحلية، التي يتعين حسم أمرها قبل الاتفاق على مناطق امتيازات التنقيب عن النفط الخاصة بهم في قاع البحر. غير أن الشيخ شخبوط، الذي كان لا يزال يشعر بالمرارة حيال القرار البريطاني فيما يتعلق بحدوده مع دبي سنة ١٩٤٩ حجب موافقته. وعقب ذلك قمت بوصفي وقتذاك مساعد المعتمد السياسي بإجراء تحقيق مفصل في الإمارات المتصالحة الشمالية، وكنتيجة لذلك اقترحت اتخاذ قرارات فيما يتعلق بنقاط الخليج الساحلية والحدود الشمالية لأم القيوين – رأس الخيمة. وأنه ينبغي علينا كذلك أن نحدد مناطق معينة داخلية، بشكل عام، بوصفها تنتمي إلى هذه الإمارة أو تلك من الإمارات المتصالحة الشمالية.

ومع خروج السعوديين من واحة البريمي وترسيم الحدود بين المملكة العربية السعودية، وأبوظبي، والسلطنة، أصبح الطريق ممهدًا أمام إعلان حدود

الإمارات المتصالحة. وعقب ذلك كان من الضروري القيام بالمزيد من الدراسة والتفاوض قبل أن تتم عملية تسوية الجانب الأكبر من مسألة الحدود بين الإمارات المتصالحة الشمالية. ولكن بين ربيع عام ١٩٥٦ وصيف عام ١٩٥٧ أصدر المعتمد السياسي سلسلة من قوانين التحكيم بشأن الحدود شملت جميع أراضي تلك الإمارات تقريبًا باستثناء مناطق كان من المعتقد أن السلطنة تطالب بها. وكانت النتيجة مزيجًا غريبًا من الأراضي المتداخلة، وظلت أم القيوين فقط كتلة واحدة. وفيما يتعلق بالباقي، فقد قسمت دبي ورأس الخيمة والفجيرة إلى قسمين، وقسمت عجمان إلى ثلاثة أجزاء، وقسمت الشارقة إلى أكثر من ستة أجزاء. ومن الطبيعي أن هذه الأحكام لم يتم قبولها بطيب خاطر خاصة الأحكام المتعلقة برأس الخيمة والفجيرة في الجبال، والشارقة والفجيرة في البساتين المتاخمة لساحل الشميلية الشمالي، والشارقة ودبي، وبصفة خاصة منطقة الممزر. ولكن الحدود التي رسمها المعتمد السياسي، والتي حاولت أن تعكس الموقف على الأرض قبلت، بصورة عامة، على الرغم من بعض التذمر، وهي تشكل الأساس للحدود الحالية بين الإمارات الشمالية في دولة الإمارات العربية المتحدة.

وحتى عندما تم ترسيم هذه الحدود، بقي الغموض يكتنف الحدود بين الساحل المتصالح وسلطنة عُمان. غير أنه بين عامي ١٩٥٨ و ١٩٦٠ وبمساعدة البريطانيين تفاوض سلطان عُمان وحكام الساحل باستثناء القواسم، على اتفاقات لتحديد معظم الحدود بينهم. وفي وقت لاحق أجريت مفاوضات بين حاكمي الشارقة ورأس الخيمة من ناحية والسلطان من ناحية أخرى، أسفرت عن اتفاق شامل للحدود بينهم. وهكذا فإن الحدود الإقليمية لكل من الإمارات المتصالحة ولشمالي السلطنة قد تم رسمها. وقد جعل هذا من المتعذر على قبائل منطقة الظاهرة الحفاظ على دعاواها بالاستقلال عن الحكام والسلطان. واستطاع الجيولوجيون التابعون لشركة النفط استكشاف الصحراء، التي لم يعد ينظر إليها على أنها مراع للقبائل الحرة في تغيير ولائها من حاكم إلى آخر، وإنما نظر إليها على انها أراض خاضعة، اسميًا على الأقل، لحاكم أو آخر من حكام الإمارات المحلية.

وقد ساعدت شركات النفط العاملة في الخليج في تحويل المجتمع بطرق أخرى. إلى جانب التشجيع على تسوية مسألة الحدود بين حكام الساحل، أوجدت هذه الشركات فرصاً للعمل في الكويت والمملكة العربية السعودية وقطر والبحرين تم على إثرها هجرة الكثير من سكان الساحل والعمانيين على حد سواء، أولاً إلى مدن الساحل للحصول على وثائق سفر، ثم إلى تلك الدول والمملكة العربية السعودية. وللدلالة على حجم الهجرة يمكننا النظر إلى عدد وثائق السفر التي أصدرها مقر مكتب المعتمد البريطاني لهؤلاء العمال، فقد وصلت إلى ما يقارب ٢٠٠٠٠ (عشرين ألف) سنويًا. كان لهذه الهجرة أثر اقتصادي إيجابي الا أنها أثرت سلبيًا على التماسك الأسري وكذلك على الهيكل والولاء القبلي.

وبينما أصبحت التحويلات التي يرسلها أو يجلبها أبناء القبائل العاملون في حقول النفط مهمة بصورة متزايدة بالنسبة لأسرهم، فإن الاقتصاد التقليدي لأرض الظاهرة أصبح في تراجع. وتزايد في الإمارات المتصالحة النقل بالسيارات، الذي دعمه بيع السيارات القديمة التابعة لسلاح الطيران الملكي البريطاني وسيارات كشافة عمان المتصالحة، وراح يقوض عمليات النقل بالجمال. وحل البراقين محل الحطب الفحم الذي ينتجه البدو كوقود رئيسي يباع في المدن، وفضلاً عن ذلك فإن الرواج المتزايد للسجائر الغربية، شكلت منافسة كبيرة للتبغ المحلي المجلوب من الأودية الواقعة وسط الجبال.

أما الحكام فقد استمرت ثروتهم في تزايد بفضل عائدات الجمارك والأموال المتحصلة من العقارات والامتيازات النفطية. كما تحسّن وضع التجار الذين صمدوا في المدن، وبصفة خاصة في دبي. فقد قام عمال النفط لدى عودتهم من العمل في الخارج بالتسوق لعائلاتهم من أسواق المدن الساحلية. ازدهرت تجارة إعادة التصدير، التي كانت تتحاشى دفع التعرفة او الرسوم الجمركية العالية التي تفرضها حكومة الإمبراطورية الإيرانية على السلع المنقولة بحرًا إلى الساحل الفارسي الجنوبي. كذلك كان الحال بالنسبة للقيود التي فرضتها الحكومة الهندية على استيراد الذهب إلى شبه القارة

الهندية، حيث كانت تتم عمليات نقل الذهب من بعض الموانئ الخليجية إلى الهند بواسطة السفن التقليدية السريعة. تهربًا من الرقابة المفروضة عليها

وبشكل عام يمكن القول بأنه مع حلول عام ١٩٦٠، في نهاية الفترة التي نقوم باستعراضها هنا، كان الضعف والتفكك قد حل بشكله القبلي لمجتمع الإمارات، كما تعرض اقتصاد البدو والقرويين التقليدي للانهيار، في حين ازدهرت صناعة صيد السمك والزراعة، وخاصة الخضروات. أما منطقة الظاهرة فقد اعتمد اقتصادها بشكل أساسي على التحويلات التي يرسلها أبناء القبائل العاملون في حقول النفط، أو الكشافة، أو العاملون بمعية الحكام. أما صناعة اللؤلؤ فقد اختفت بشكل نهائي . وساد سلام نسبي منطقة الظاهرة، التي قسمت إلى أراض تابعة للدول المختلفة.

أما الحكام فقد حظوا بدخل متواصل من العائدات الجمركية واتفاقات الامتيازات النفطية، وكان وضعهم آمنًا بشكل عام. وثبط الإنجليز الانقلابات السياسية كلية، وهي التي أضعفت في الماضي قبضة الحكام على السلطة، طالما كان هؤلاء الحكام متعاونين ويعملون بما فيه مصلحة شعوبهم. ومضت التجارة في الانتعاش، وازدهرت أحوال التجار، وراحت دول شمال الخليج الأكثر ثراءً، جنبًا إلى جنب مع البريطانيين تنفق المال على تنمية الساحل، على التعليم، والصحة، والزراعة، وقامت دبي بتعميق خورها وتطهيره من الرمال، وراحت تتوسع بسرعة كبيرة.

غير أنه، كما سبق أن أشرت في بداية هذه الورقة، جرت عمليات التنمية على الساحل في وقت لاحق لنظيراتها في دول شمال الخليج، وكانت أكثر تعقيدًا، وكنتيجة لذلك فإنني أعتقد أنني ينبغي عليَّ أن أواصل قصة التغيير على الساحل إلى أن أصل إلى نظرة يسهل تبنيها اليوم بصورة أكبر.

تمتع الساحل فيما بين ١٩٦٠ و ١٩٧٠ بفترة قوامها الهدوء والتنمية. وفي تلك الفترة لم يسمع كشافة عمان المتصالحة رصاصة تدوي غضبًا. وفي عام ١٩٦٠ اكتشف النفط أول مرة في منطقة التنقيب البحرية في أبوظبي، وأعقبت ذلك اكتشافات برية في أبوظبي والبحرية في دبي. وأدى تردد الشيخ

شخبوط في الإنفاق إلى بطء إيقاع التنمية في كل من أبوظبي والساحل. ولكن عددًا متزايدًا من الأجانب وصلوا للعمل في صناعة النفط، والمشاركة في التجارة، وأخيرًا للعمل لدى الحكام. وحل الشيخ زايد محل الشيخ شخبوط في أبوظبي، وحل الشيخ خالد محل الشيخ صقر في الشارقة، في منتصف الستينات.

ولم يعد سكان الساحل وأبناء قبائل الداخل بحاجة إلى السفر بالسفن التقليدية إلى دول النفط الغنية في شمالي الخليج للحصول على عمل، وكان كل ما عليهم هو شق طريقهم إلى الحقول النفطية الساحلية. وبوصفهم مواطنين في مشيخة نفطية غنية أو حتى السكان المحليين وليسوا أجانب مهاجرين كان بمقدورهم توقع الحصول على الأعمال المناسبة المتوافرة إما في حقول النفط أو مجندين في الشرطة المسلحة أو قوات الأمن التابعة للحكام. وقد توافقت كل هذه الأعمال الأخيرة مع مفاهيم البدو عن الشرف والعرف، حتى وإن برهن الانضباط الذي يقتضيه الانخراط في صفوف جيش على أنه مصدر للضيق. ومع تدفق الثروة على الساحل بدأ طابع المدن في التغير، وقام الحكام برصف الشوارع وتوفير الماء والكهرباء والسكن المجاني والرعاية الصحية المجانية والمدارس المجانية. وعلى الرغم من أنهم قاموا، وكذلك قام البريطانيون، بالانفاق على مشاريع زراعية في الواحات، ووضعوا مضخات على آبار مياه البدو، إلا أن التقابل بين حياة أرض الظاهرة الصحراوية الخشنة نسبيًا والوجود الأكثر دعة في المدن قد تزايد. وعندما أقبل ابن القبيلة إلى المدينة ساعيًا وراء العمل اضطر إلى تعديل ازدرائه لأولئك الذين لم يكن بمقدورهم البقاء على قيد الحياة في الرمال. وأصبح عدم معرفته بالكثير من الأمور التي رآها في المدن جليًا أمامه، ومع اكتسابه للمعرفة بالأعاجيب الجديدة، تراجع توقيره لكبار رجال القبائل الجالسين في خيامهم ومآويهم المتواضعة، وسط الرمال النائية والقاحلة.

ولم يقتصر الأمر على أبناء القبائل وحدهم، وإنما اجتذبت أسرهم كذلك إلى حياة المدن الأكثر يسرًا. وإذا كان عائلهم يحصل على دخل مالي طيب من شركة نفطية أو حاكم، فإن الحاجة قد قلت إلى قيامهم بأنفسهم برعي الماشية في الصحراء، أو جني التمر في الواحات، حتى وإن كانت العاطفة لاتزال

تربطهم بآبائهم في الصحراء وأجمات نخيلهم هناك. وبدأت أسر بكاملها في الانتقال من القرى والمناطق القبلية الصحراوية، إما إلى دور جديدة شيدها الحاكم على أطراف المدن الآخذة في الاتساع، أو في تجمعات سكنية على امتداد الطرق التي تشقها السيارات في الداخل. وربما تركت هذه الأسر رعي قطعانها ورعاية بساتينها إلى أحد أبناء العمومة الذي لم يشاركهم الانتقال، وربما زاروها مرات عديدة في كل عام وتدريجياً، ومع تواصل تدفق الثروة فإنه حتى ابن العم هذا قد ينتقل إلى المدن والتجمعات السكنية، ويتم تشغيل مهاجر باكستاني أو بلوشي فقير في رعاية المحاصيل أو القطعان، وأصبحت صلات العائلات بقبائلهم ومواطنهم الأصلية أو دورهم أكثر نأياً، ومع زيادة ممتلكاتهم تناقصت قدرتهم على الحركة. ويبدأ أبناؤهم في الذهاب إلى المدارس الجديدة، وتضع مقتضيات الفترات الدراسية المزيد من الضوابط على قدرة العائلة على الحركة والانتقال.

غير أنه بسبب كون التعليم في الساحل تطور تطورًا جديدًا نسبيًا، فإن قلة من أبناء القبائل والجيل الأكبر سنًا – الذي لم يتجاوز أبناؤه القادرون على القراءة والكتابة ٥٪ – كان بوسع أفرادها العمل في المكاتب في وظائف إدارية في شركة النفط أو كمسؤولين حكوميين. وشغل مستشارون وإداريون أجانب، من العالم العربي بصفة أساسية (مع قلة من أوربا) هذه المناصب، لتنفيذ قرارات الحكام، الذين أثروا حديثًا. وربما كان هؤلاء الحكام لايزالون يستشيرون مجالسهم العائلية وكبار أبناء القبائل والتجار في عاصمتهم، حول القرارات المتعلقة بالدولة، ولكن تطبيق هذه القرارات غالبًا ما يترك لمن هم من خارج هذه الدوائر، وحتى عندما بدأ السكان المحليون المتعلمون حديثًا في شغل المناصب الرسمية، فإن بعضًا منهم كانوا يعتبرون تعييناتهم في هذه المناصب أمرًا يضفي عليهم مكانة بأكثر مما يكلفهم بواجبات. ومع ازدياد تعقد العمل الحكومي واقتضائه للمزيد من الجهد والوقت أصبح الحكام أنفسهم يتاح لهم وقت أقل للجلوس في مجالسهم واستقبال كل أولئك الذين ينتمون إلى قبائلهم، ولديهم مخاوف والتماسات وشكاوى يتقدمون بها. وبدلاً من ذلك فإن المواطن الذي لديه التماس يتقدم به قد يستقبله عربي من

موظفي الخدمة المدنية، والتماسه، الذي لم يعد يهمس به في أذن الشيخ، الذي يناقش القضية فورًا، ويأمر بـ «بروه» لمعالجة المشكلة، يسجل في استمارة رسمية، ويرفع إلى مسؤول أكبر من الموظف. وأصبحت الحكومة أبعد منالاً، وأقل اتسامًا بالطابع الشخصي، ومندرجة في إطار المؤسسات.

وفي الوقت نفسه تزايد التعاون بين حكام إمارات الساحل بصورة مطّردة. وكان آخر صدام كبير بين هذه الإمارات هو الحرب التي نشبت بين أبوظبي ودبي في الأربعينات. وبعد انتهائها بثلاث سنوات قامت الأسرتان الحاكمتان في أبوظبي ودبي، وكلاهما من قبيلة بني ياس بحسم خلافاتهما وفقًا للعرف المحلي. تمت المصالحة إلى جوار سرير الشيخ زايد في مستشفى المكتوم.

وكان البريطانيون قد أنشأوا في عام ١٩٥٢ مجلس الإمارات المتصالحة، الذي عقد اجتماعاته مرة كل ستة أشهر للحكام السبعة جميعًا، تحت رئاسة المعتمد السياسي البريطاني. وقد ناقش المجلس ووصل إلى اتفاق فيما يتعلق بالمسائل موضع المصلحة المشتركة، مثل حركة المرور والطرق ووثائق وجوازات السفر وتسوية المنازعات الحدودية، وفي المقام الأول التنمية. واعتبارًا من عام ١٩٥٤ قدم البريطانيون المال لإنجاز المشروعات التعليمية والزراعية والصحية وغيرها من المشروعات الإنمائية التي أقرها المجلس. وفي وقت لاحق تم إنشاء مكتب تنمية الدول المتصالحة لإنفاق هذه الأموال. وفي عام ١٩٦٦ وبعد تولي الشيخ زايد مقاليد السلطة في أبوظبي قدم الأموال كذلك لإنجاز التحسينات التي يقرها مكتب التنمية. وسرعان ما انتقلت رئاسة المجلس من المعتمد السياسي البريطاني إلى الحكام الذين تناوبوها مداورة. والآن وبعد أن ساد الأمن المناطق الداخلية وتمت تسوية المنازعات الإقليمية بين الدول غدت روح التعاون وممارسته جلية بين الحكام بصورة متزايدة.

وفي عامي ١٩٦٨ و ١٩٦٩ وبعد أن أعلنت حكومة العمال البريطانية عزمها على سحب قواتها من الخليج وإنهاء اتفاقيات الحماية المتوقعة هناك في نهاية ١٩٧١، استهل الشيخ زايد حاكم أبوظبي والشيخ راشد حاكم دبي

سلسلة من الاجتماعات بين حكام الساحل المتصالح السبعة جنبًا إلى جنب مع حاكمي قطر والبحرين، وذلك للنظر في إنشاء اتحاد يضم إماراتهم كافة، ويضمن الأمن والاستقرار في المنطقة بعد الانسحاب البريطاني. وعلى الرغم من احراز التقدم الكبير والاتفاق بشكل عام على مسودة دستور لاتحاد الإمارات العربية المقترح، فقد كانت هناك مشكلات عديدة منها التنافس بين البحرين وقطر على رئاسة الاتحاد المقترح. وفي نهاية ١٩٦٩ بدا أن قوة الدفع نحو إنشاء مثل هذا الاتحاد الذي يضم تسع إمارات قد تبددت. وكان الحكام، وخاصة حكام الساحل، مازالوا يعلقون الآمال على أن حكومة بريطانية محافظة ستحل محل الحكومة العمالية، وستلغي قرار سابقتها بسحب القوات البريطانية من الخليج بحلول نهاية عام ١٩٧١.

غير أنه في أوائل عام ١٩٧١ أكدت حكومة بريطانية محافظة جديدة القرار القاضي بأن القوات البريطانية سيتم سحبها في نهاية ذلك العام. وكانت البحرين وقطر قد شرعتا بالفعل في اتخاذ بعض الإجراءات التمهيدية المفضية نحو إعلان استقلالهما كدولتين منفصلتين عضوتين في الأمم المتحدة. وبدا أنه من المحتمل أن يكون بمقدور أبوظبي وكذلك دبي إقامة دولتين مستقلتين مشابهتين. ولكن لم يكن هناك احتمال لتمكن المشيخات الأصغر والمتداخلة في شمالي الإمارات من أن تصبح أعضاء مصغرة ومستقلة في الأمم المتحدة، فقد كان دخان المنازعات الإقليمية بينها ما يزال يتصاعد، وبصفة خاصة حول ساحل الشميلية بين الفجيرة والشارقة. وبدا محتملاً أنه إذا ما قدر لهذه الخلافات أن تندلع، متحولة إلى قتال في غياب إطار كابح كالذي قدمه البريطانيون وكشافة الساحل المتصالح في الخمسينات والستينات، فإن كل دولة مشاركة في القتال سوف تطلب الدعم من أصدقائها، حيث كانت للفجيرة صلات بسلطنة عمان، وللشارقة ورأس الخيمة صلات بالمملكة العربية السعودية. وكان الشيخ راشد حاكم دبي مرتبطًا بآل ثاني حكام قطر وعلى صلة ودية مع إيران. ولم تكن قد تمت بعد تسوية حدود أبوظبي مع المملكة العربية السعودية، وكانت لأبوظبي صلات مع البحرين. وهكذا فإنه ما لم يكن هناك

إطار من القوة بحيث يضمن الاستقرار بين المشيخات الشمالية، فإن اندلاع القتال من جديد بينها كان يمكن أن يمتد ليشمل دولاً أخرى في الخليج.

ومن حسن الطالع أن روح التعاون التي كانت قد نمت على الساحل، وبصفة خاصة التفاهم الذي تم إقراره بين أبوظبي ودبي، قد برهنت على أنها على مستوى التحدي الذي واجهته. وفي يوليو ١٩٧١ عقد اجتماع لمجلس الإمارات المتصالحة، للنظر في إطار للتعاون بينها بعد الانسحاب الإنجليزي. وقد أدرجت على جدول أعمال هذا الاجتماع موضوعات بالغة الحساسية، منها السيطرة على الهجرة، وتنسيق قوات الشرطة. غير أنه في وسط جلسة المجلس قرر الحكام، في إطار استشارة غير رسمية، أن يتبينوا ما إذا كان بمقدورهم أن يرتبوا إنشاء اتحاد لإمارات الساحل، وترك أبواب الانضمام إليه مفتوحة أمام قطر والبحرين إذا ما رغبتا في ذلك، على أساس الخطوط العريضة لدستور الاتحاد، والذي تم الاتفاق عليه سابقًا وبشكل عام من قِبَل الإمارات التسع. وفي شهر يوليو ذاك وافق ستة من حكام الساحل المتصالح السبعة على دستور مؤقت لدولة الإمارات العربية المتحدة، التي سيتم إنشاؤها عندما يقوم البريطانيون بإنهاء العمل باتفاقيات الحماية في نهاية عام ١٩٧١. ولأن الشيخ صقر حاكم رأس الخيمة كانت له تحفظات على الدستور، فإنه لم يكن على استعداد للموافقة عليه في يوليو ذاك، غير أنه كان على استعداد للتعاون تعاونًا كاملاً مع الاتحاد الجديد، وشهد الاحتفال الذي أقيم في دبي، والذي قام خلاله الحكام الستة الآخرون بتوقيع الدستور المؤقت للإمارات العربية المتحدة. وفي أواخر صيف وخريف عام ١٩٧١ قررت البحرين وقطر أن تصبحا دولتين مستقلتين منفصلتين، ثم في ديسمبر ١٩٧١ أعلن عن قيام دولة الإمارات العربية المتحدة، على الرغم من بعض المعارضة من شاه إيران. وأخيرًا وبعد استيلاء الشاه على جزيرتي طنب، انضمت رأس الخيمة إلى دولة الإمارات العربية المتحدة في فبراير ١٩٧٢. وأتم انخراطها في الإمارات العربية المتحدة ذلك التطور الطويل الذي من خلاله تحول ساحل ١٩١٨ إلى شكل يمكننا في يسر أن نتعرفه اليوم.

ومن الجلي أن ساحل العشرينات كان مختلفًا إلى حد كبير عن ساحل السبعينات. فقد حل محل نفوذ حكام الساحل (الذين لم يعترف البريطانيون في عام ١٩١٨ إلا بخمسة منهم فقط) والذي تذبذب في العشرينات بحسب قوة شخصيتهم وثروتهم وطول عهدهم، حل محل هذا النفوذ دول إقليمية ذات حدود ثابتة. وزادت سلطة الحكام سواء في علاقتهم بالبدو أم بسكان مدنهم، وأدمجت القرى التابعة في الإمارات السبع، وتراجع الغوص، مفسحًا المجال للصناعة النفطية. واستردت أبوظبي، التي كانت في حالة تراجع في العشرينات، مكانتها باعتبارها إمارة الريادة في الساحل في ظل حكم شيخ زايد الثاني. واستقر البدو إلى حد كبير في إطار إسكان جديد، وأصبح الجمل الذي نافسته السيارة في مجال النقل مرتبطًا بسباقات الهجن التي تقام تحت رعاية الشيوخ. وأصبح الساحل، الذي كان ذات يوم لا يسمع به أحد على الساحة الدولية، ممثلاً في الأمم المتحدة وكل العواصم الأكثر أهمية في العالم. وهو نقطة عبور للخطوط الجوية الدولية، واختفت مظاهر الفقر والحاجة وعدم الاستقرار الأمني التي كانت سائدة في العشرينات.

غير أنه على الرغم من ألوان التقدم الكبرى التي تم تحقيقها، يمكن القول بأن هناك بعض السلبيات. أولاً، العصبية الصلبة لابن القبيلة والمدينة التي تنتمي إلى الماضي، والتي هي وليدة المعاناة المعيشية، تعرضت للوهن. ثانيًا، الافتقار إلى الممتلكات، جنبًا إلى جنب مع الإقرار والتسليم بأن كل شيء هو بمشيئة الله وإرادته، وهما أمران شائعان في العشرينات، وربما ضعفا بسبب الكبرياء المادية المتأثرة بالغرب. ثالثًا وأخيرًا، العلاقة الشخصية بين الحاكم والمحكوم حجّمت نتيجة للتعقيدات المتزايدة للحكومة، وانشغال الشيوخ بالشؤون الدولية. لم تعد الحياة كما كانت عليه في الماضي، لقد انتهت حياة البساطة الماضية لتحل محلها تعقيدات المجتمع الحديث.

كلمة السيد

جمعة الماجد

رئيس مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

العلماء الأفاضل ،،

الضيوف الكرام،،

السادة الحضور،،

تحية إجلال وإكبار، تحية إعجاب وتقدير.. أبعثها إليكم بعدما عشنا خلال الأيام الثلاثة الماضية حياة علمية ظهرت فيها جهود جليلة.. هي بالحقيقة ثمرة بحوث أنفق فيها أصحابها أعمارهم في الدراسة والعلم، واضعين نصب أعينهم الوصول إلى الحقيقة العلمية المتجردة.

ولقد أتيحت لي فرصة متابعة غالب محاضرات الندوة فكنت بغاية السعادة لما لمسته من جدّ في طرح الأفكار المبتكرة والدفاع عنها بحماسة لا تقل عن طرحها. وأعتقد أنّ أفكاراً من بينها وحقائق تاريخية كانت تطرح أول مرة على الحاضرين. كما أن هناك بعضاً من المعلومات التاريخية تبين بطلانها مع أن الناس تعودوا أن يسمعوها أو ينقلوها على أنها حقيقة. وهذه إحدى ثمار مؤتمركم المهم الذي لا تتسع كلمتي السريعة هذه لسرد فوائده وتعدادها.

إن كتابات الرحالة والمبعوثين عن منطقة الخليج عبر العصور موضوع متشعب ذو أبعاد، والزمن الذي يغطيه هذا الموضوع يمتد على مساحة سبعة قرون.. ولذا فلا يمكن لندوة مثل هذه أن تحيط بأطراف الموضوع كله وتعالجه كما ينبغي.. لكننا قصدنا أن تكون ندوتكم بداية تقوم بتسليط الأضواء على الموضوع.. وهو بحاجة إلى لقاءات ومؤتمرات جادة تتيح الفرصة لحرية الكلمة والتعبير عن الفكر الحر.

آمل أن تكون لجنة التوصيات قد توصلت من خلال هذا المؤتمر وما دار فيه من أفكار ومناقشات إلى نتائج وتوصيات واقعية ملموسة يمكن تحقيقها.

ويسعدني وأنا في هذا المقام أن أتقدم بخالص شكري وعظيم تقديري إلى صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس الدولة وإلى أخيه صاحب السمو الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي وإخوانهما حكام الإمارات الكرام لإتاحتهم الفرص من أجل إقامة مثل هذه المؤتمرات على أرض وطننا الحبيب والشكر أقدمه لكم أيها السادة المحاضرون والمعقبون ورؤساء الجلسات والمشاركون.. وإلى كل من أثرى هذه الندوة ولو بكلمة أو رأي أو فكرة. كما أشكر اللجنة التحضيرية ومن ساعدها من موظفي المركز الذين سهروا على إظهار هذه الندوة بالشكل الذي رأيتموه.

والشكر الطيب كذلك إلى شركائنا في الندوة: جامعة الإمارات العربية المتحدة في العين والمجمع الثقافي في أبوظبي .. وإلى جميع من ساهم في الندوة والمعرض المصاحب لها: سعادة الشيخ حسن بن محمد بن علي آل ثاني من خلال مجموعته النفيسة القيمة من الكتب والخرائط وغيرها من المعروضات التي توجت معرضنا. . وهي تعرض لأول مرة على هذا الشكل والمضمون.. وغرفة التجارة والصناعة في دبي باحتضانها فعاليات الندوة والمعرض.. ومجلس ترويج التجارة والسياحة بدبي بدعمه ومساندته.. وشركة طيران الإمارات بما قدمت من تسهيلات ..

والشكر لكم جميعاً أيها الحضور ومرحباً بكم في دبي مدينة العلم والعمل.

كلمة الأستاذ الدكتور

مفيد شهاب

رئيس جامعة القاهرة

مما لا شك فيه أن منطقة الخليج العربي تستقطب اليوم أنظار العالم كله إليها، لا بسبب الثروة التي أفاء بها الله عليها، بل بسبب موقعها الجغرافي وأهميتها الاستراتيجية، وكذلك بسبب التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الهامة التي تشهدها أو تشارك فيها، وبسبب الدور الهام الذي صارت تلعبه في اقتصاد العالم وسياسته..

ولقد دفع هذا الزخم الكبير الباحثين والكتاب إلى أن يوجهوا اهتمامهم إلى تلك المنطقة، وأن يدونوا عنها الكثير في كتاباتهم، فالعوامل المشار إليها قد جعلتها موضع اهتمام الرحالة الأجانب والعرب ومنطقة جذب لكل من يريد منهم أن يتعرف الدور الهام الذي لعبته هذه المنطقة في التاريخ القديم وما زالت تلعبه في التاريخ الحديث. وهؤلاء بلا ريب يتوافدون الآن ليلمسوا ويعاينوا النهضة العظيمة التي صنعتها سواعد أبناء هذه المنطقة، بعد أن تعلموا كيف يستفيدون من خيراتها، وكيف يسخرون هذه الخيرات لمصلحتهم ولخير شعوب الأمة العربية جمعاء.

ومن يتتبع تاريخ منطقة الخليج العربي منذ القدم يجد أن الاهتمام بها من جانب الأجانب قد بدأ في عصر الإسكندر الأكبر الذي كلّف الفينيقيين بكشف شواطئها والملاحة فيها، ثم تلاه في هذا السلوقيون والبطالمة، ومن بعدهم الرومان الذين اهتموا بتجارة الشرق عبر البحر الأحمر تطلعاً منهم للوصول إلى الهند وثرواتها، وهذا ما دفعهم للعمل على ازدهار موانئ المنطقة وبخاصة ميناء الأبله الذي كانت تصل إليه تجارة الهند. ومن بعد الرومان عمل الفرس على ازدهار تجارة الخليج على عهد الأسرة الساسانية، ذلك أن الفرس كانوا وسطاء للتجارة بين الصين والعرب. ولما انضوى الخليج تحت راية الإسلام ازدهرت تجارة المنطقة سواء في عهد الراشدين أم الأيوبيين أم العباسيين.

ولقد أشادت المصادر العربية الجغرافية والتاريخية – كما أشار الرحالة المسلمون وغير المسلمين – بهذا الازدهار الملاحي وهذا الرواج التجاري في منطقة الخليج خلال العصور الإسلامية والذي كان سبباً في الرخاء والانتعاش الاقتصادي في العالم الإسلامي آنذاك.

ومنذ عام ١٥٠٦ شهدت المنطقة بداية التدفق الاستعماري الأوربي ممثلاً في الغزو البرتغالي ثم الهولندي، بعدها استتب الأمر للإنجليز في منطقة الخليج وانفردوا بأمره.

ولا أريد أن أمضي في الحديث عن تاريخ المنطقة لأنني لست من المتخصصين، ولكنني أريد أن أستخلص من هذا درس التاريخ.. فالتاريخ يعلمنا أن منطقة الخليج شهدت أحداثاً جساماً، وأنها من أهم مناطق العالم العربي، بل هي له بمثابة العمود الفقري للجسد، كما يعلمنا أن اهتمام العالم بالمنطقة كان ينطوي ضمن أمور كثيرة على طمع في الاستفادة من ثرواتها والاستحواذ على خيراتها. ونحن لا ننكر أن هذا الاهتمام كان مبعثه أحياناً الرغبة في المعرفة والاطلاع على جزء هام من العالم العربي، خاصة حين ازدادت أهمية المنطقة بعد الكشوف البترولية. إن الاهتمام بالتاريخ وضرورة العودة للتراث أمر هام ينبغي ألا نغفله، بل ننصح بالاهتمام به ومداومة العكوف على دراسته وبحثه، فتلك جذورنا التي تمدنا بأسباب الحياة في الحاضر، والتي نرتكز عليها في مواجهة التحديات الخارجية، والتي نتشرف بالانتماء لها حينما تدلهم بنا المخاطر وتحدق بنا الخطوب.. ولكن دراسة التاريخ ودرس التراث لا ينبغي أن يحرمنا وليس له أن يبعدنا عن التطلع لحضارات الشعوب حولنا ولا أن يمنعنا من التفاعل مع عصرنا ومعايشة معطيات الحضارة التي نحيا في كنفها..

فالمعاصرة بلا جدال هي الجناح المكمل لدراسة التراث والعكوف عليه، ونحن نريد أن تكون شعوبنا قادرة على صنع الحاضر والمشاركة في تشكيل حضارة القرن الحادي والعشرين، ونحن مؤهلون لذلك الدور حينما نعي ثقل تاريخنا الذي نستند إليه، وحينما ندرك مدى أهميتنا الاستراتيجية إقليمياً وعالمياً.

وما أحوجنا نحن العرب في حاضرنا أن نعرف تاريخ المنطقة التي

تمثل شرياناً مهماً ومكاناً عزيزاً في وطننا العربي، وأن نعيد كتابة تاريخها من منطلق قومي ومن خلال رؤية عربية عادلة صادقة ومحايدة، إذ لا يجمل بنا مهما أحسنا الظن بكتابات الرحالة والزائرين وبما دونه المحللون السياسيون الغربيون أن نترك تاريخنا ليكتبه الآخرون ولدينا العلماء المتخصصون، فهناك شبهة وهناك شك في أن معظم من كتبوا عن منطقة الخليج قد كتبوا من منطلق أعين لا ترى إلا المصالح ومن منطلق اهتمام دوافعه الهيمنة والسيطرة..

وسواء كنا ندوّن التاريخ أو ندرس التراث فلا بد لنا من معايشة العصر والاستجابة لضرورات الواقع، ولا بد لنا من ربط ماضينا بحاضرنا، وأن نستفيد من دروس الماضي في صنع الحاضر. ولا بد لنا من أن نستلهم القيم الأصيلة والغايات النبيلة التي يميزنا بها الماضي العريق، حتى نصل ما قطعه الاستعمار وحتى نربط ما تفكك بفعل القهر والاحتلال. ولا يعقل أن نكون نحن العرب الذين كتب أجدادهم بأفعالهم تاريخاً مجيداً يتألق بأحرف من نور غير قادرين على كتابة تاريخنا المشرف، سواء في الماضي التليد أم في الحاضر المشرق.. ولا ريب أننا قادرون على أن نطاول بقاماتنا قامات الأسلاف العظماء.

وفقكم الله ورعاكم وسدد على طريق الخير والسعادة خطاكم،،،

ندوة
كتابات الرحالة والمبعوثين
عن منطقة الخليج العربي عبر العصور

تحت رعاية صاحب السمو الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، وفي غرفة التجارة والصناعة بدبي أقام مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بالتعاون مع جامعة الإمارات العربية المتحدة والمجمع الثقافي، وبمساهمة كل من مكتبة التراث العربي والإسلامي للشيخ حسن بن محمد بن علي آل ثاني في الدوحة وغرفة التجارة والصناعة بدبي ومجلس ترويج التجارة والسياحة وشركة طيران الإمارات.. أقام ندوة «كتابات الرحالة والمبعوثين عن منطقة الخليج العربي عبر العصور، عرض، نقد، تحليل» ضمن الفترة الواقعة في العشرين والحادي والعشرين والثاني والعشرين من شهر ذي القعدة لعام ١٤١٦هـ، الموافق للثامن والتاسع والعاشر من شهر أبريل/ نيسان من عام ١٩٩٦م حضرها لفيف من العلماء والباحثين العرب والأجانب المتخصصين بموضوع الندوة التي عقد على هامشها معرض ضمّ كتبًا وخرائط ومتعلقات تتصل بالرحالة الذين ألموا بالجزيرة العربية والخليج.

افتتح فعاليات الندوة والمعرض سمو الشيخ حشر بن مكتوم آل مكتوم ممثل راعي الحفل والمعرض بحضور جمهور من الشخصيات الدبلوماسية والعلماء والمفكرين والمشاركين وممثلي عدد من المنظمات التربوية والثقافية والبحثية إضافة إلى ممثلي الجهات المساهمة وكذلك المهتمين بشؤون الثقافة.

وكانت البحوث المقدمة إلى الندوة من السادة الآتية أسماؤهم وهم :

الدكتور دينيزيوس إيكيوس

الدكتور حمد بن صراي

الدكتور عبدالهادي التازي

الأستاذة ماريا فارينا

الدكتور أنطونيو فارينا

الدكتور عصام سخنيني

الدكتور محمد رزوق

الدكتور كالفن ألن

الدكتور ب. ج. سلوت

الدكتور فؤاد شعبان

الدكتورة فراوكة هيرد بيي

الدكتورة فاطمة الصايغ

الدكتور حسام مهدي

الدكتور ديل. ف. إيكلمان

الدكتور حسين محمد فهيم

المستر جوليان ووكر

وقد عقب على المحاضرين كل من السادة:

الدكتور عبدالله الغنيم

الدكتور حسن النابودة

الدكتور عصام الرواس

الدكتور علي أبا حسين

الدكتور روبرت لاندن

الدكتور أدموند غريب

الدكتور عبدالمالك التميمي

الأستاذ نجدت فتحي صفوت

الدكتور أحمد طربين

هذا وقد انبثقت عن الندوة لجنة لتقويم أعمالها وتقديم التوصيات والمقترحات اللازمة، تألفت من كل من السادة الدكتور أدموند غريب، الدكتور ديل. ف. إيكلمان، الدكتور عبدالمالك التميمي، الدكتو عبيد بن بطي، الدكتورفؤاد شعبان، الدكتور نزار أباظة.

اجتمعت اللجنة وتداولت ما جرى في الندوة وناقشت أعمالها فتوصلت إلى التوصيات التالية:

(١) العمل على نشر جميع أعمال الندوة من بعد مراجعتها من قبل أصحابها في ضوء الملاحظات التي أبديت والمناقشات التي جرت. وكذلك نشر دليل تعريفي بما ضمّه معرض مقتنيات الرحالة وأعمالهم، وكتاب عن التطور التاريخي والفني لرسم الخرائط المتعلقة بالمنطقة.

(٢) تقترح اللجنة على مركز جمعة الماجد تنظيم ندوات دورية تتناول موضوعات مختلفة مع التركيز على المسائل التي تهم منطقة الخليج.

(٣) تحث اللجنة القطاع الخاص في الخليج على القيام بعقد ملتقيات ثقافية تعالج موضوعات حيوية، تفيد البحث العلمي في المنطقة.

(٤) تعدّ هذه الندوة نموذجًا مثاليًا للتعاون الثقافي الناجح بين المؤسسات الثقافية الخاصة وغيرها. ولذا فاللجنة تناشد جميع الهيئات المماثلة أن تسعى متعاونة للتنسيق فيما بينها بشأن عقد ندوات على غرارها.

(٥) توصي اللجنة بالعمل على صنع قاعدة معلومات عن أدب الرحلات وعن أعمال الرحالة الذين زاروا الجزيرة والخليج ونشرها في كتاب توثيقي.

وأخيرًا تشكر اللجنة كلاً من مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث وجامعة الإمارات العربية المتحدة والمجمع الثقافي على عقد هذه الندوة وجمع هذا الحشد من العلماء والباحثين من الجنسيات المختلفة الذين قدموا بحوثهم القيّمة، كما تشكر السادة المنظمين على حسن الإعداد والتنظيم المثالي والقيام المتميز على شؤون الضيافة وتقديم التسهيلات والاختيار الموفق لمكان الندوة والإقامة.

والله الموفق،،،

دبي في ٢٢ ذي القعدة ١٤١٦هـ

١٠ أبريل/نيسان ١٩٩٦م

فهرس المحتويات

هذا الكتاب

قصد الرحالة والجغرافيون والمستكشفون عرباً وأجانب هذه المنطقة منذ زمن الإغريق والرومان، ثم جاء بعد ذلك الجغرافيون المسلمون وتبعهم الجغرافيون والرحالة الأوروبيون، وقد تعددت أغراض هؤلاء الرحالة وأهدافهم، فكانت دينية أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية، وكانت أحياناً بدافع الفضول إلى اكتشاف أسرار الشرق الرومانسي.

ولهذا جاء هذا الكتاب ليلقي الضوء على الرحالة والمبعوثين الذين زاروا المنطقة منذ العصور الإسلامية الأولى إلى مرحلة السيطرة البرتغالية، ومرحلة التنافس الأوروبي، ومرحلة الانفراد البريطاني، ومرحلة البحث عن النفط، وهو لا يكتفي بإلقاء الضوء بل يقف على القيمة العلمية لكتابات الرحالة والمبعوثين بوصفها مصدراً لدراسة تاريخ المنطقة، وليقدم رؤية نقدية شاملة لها تبرز ما فيها من إيجابيات وسلبيات، وبيان أثرها لدى القارىء العربي والأوروبي.

الكتاب يعدّ جديداً في توجهه، يساهم في إغناء المكتبة التاريخية العربية..

إن مساءلتنا لتاريخ هذه المنطقة لا تنتهي، ولا نكف ندق على صفحاته، نوقظها، نسبر غورها، ونخرج إلى النور ما كان غائباً منها، ولأن تاريخ هذه المنطقة مليء بالشواهد والأدلة فإن مساءلتنا للتاريخ تتكاثر، وأجوبته لنا تتكاثر، ويكاد حوارنا يتصل، ويكاد التاريخ بما عرف عنه من رحابة صدر أن يتفرغ لنا، ويبسط صحائفه أمامنا كل يوم.

إن عملنا ليس استنطاق التاريخ بما كان فقط، بل هو إضاءة للحاضر، وفائدة للمستقبل، وهو انطلاقة تكتشف لتغني البحث، ولتيسر للباحثين والدارسين مواصلة الشوط..



مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث - دبي
بالتعاون مع
جامعة الإمارات العربية المتحدة
المجمع الثقافي - ابو ظبي